كتابات في النقد

د. عبد اللطيف عبد الحليم
"أبو همام"



مقدمة

الانفصـــام النقدى سمــة الكتابات هذه الأيام ، ويمكن أن نسـحب هذه المقولة على جوانب النشاط الإنسانى نظرًا وعملاً فى حياتنا الآن ، وذلك ديدن الناس فى الحقب الخابيــة ، التى تبدى فيهــا الألسنة غير ما تنطـوى عليه الضمائر ، فـتتسع مســافة الخلف بين الظاهر والباطن ، الخـوف يعقد الألسنـة ، والنظر إلى المصالح الدوانى ، أو مايمكن أن يكون مصلحة يشل الذوق والكلمات ، ولذا لاتكاد ترى إلا أنضاء مهازيل وإن كانوا من ذوى الشارات والطيلسان !!

الســوق النقديــة - إذا انطبق عليـها هذا النعت - نافـقــة مظهــرا ، كتــابة فى الدوريات وفى المجلدات ، لكنها تفتقر إلى «الرصيــد» الصادق الذى يمنحها كفلها من القبول والتــأثير ؛ لأن القارئ الطبن يعرف - بداءة - من مــجرد اسم الكاتب مــاذا وراء هذه الكتابات ، غلبت عــليهــا شقــشقــة اللفظ ، ومــهارة التــصنيع أو التصنع، على حــساب الجوهر المكنون وراء كل كتــابة ، من هذا السنخ الذائع بيننا الآن.

لقد غدوت أرى الأعمدة أو المقالات الأسبوعــية فى أغلبها ، فأمر على عنوانها مبتسماً ، وربما أقهــر النفس - أحياناً - أن تقرأ ، فلا أكاد أجاوز الأسطر الأولى، لاعنًا الكتابة والمكتــوب عنه ، حيث أدرك - فى التو - ربما من العنوان - عــريضة الدعوى ، وأتعــاب المحاماة ، والتــعويض المنتظر !! وهل ينتـظر من أمة تريد أن تنهض من مجاثمها بمثل هذا النظر النقدى الأعشى ، أو «الأحول» إن شئت .

وبعض هذه الكتابات تتزيا بغير زيها ، وإذا رمت أن تعيدها إلى أصحابها سهل عليك هذا ، ولايبقى إلا البجاحة والادعاء ، وهــل بهما تقوم ناهضة فى النفوس والأذواق .

أقرأ مبتســماً بعض الكتابات ، ولكنها ابتسامة مُرَّة مـثل بسمة الشابى الذى كان يستل بهــا من الشوك ذابلات الورود ، وهى كتــابات طافحة بكل الآفــات اللغوية

والفكرية ، وربما هان هذا - وإن كان لايهون - غير أن الذى لايهون - بحال - تلك المدابرة بين الإفضاء والكتمان ، «فاصدع بما تؤمر» إن الهوة ناشبة فى النفوس، قبل أن تكون بادية فى شباة الأقلام .

وإذا رغبت أن تقف على هذه الهوة - ترتعد فيها الظنون - فقف - غير مأمور- على كم هائل من تلك الكتابات عن أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وأصبحت فى طوايا الإهمال المستحق ، أو عن أسماء تستحق بعض ما يقال - فيما يسمى بالنقد التطبيقى - وغيِّر الأسماء كلعبة الكراسى الموسيقية فلا تعدم الصواب ؛ لأن تلك الكتابات مثل «الأميبا» الخلية الواحدة ، وكله عند العرب نقد أو «صابون» يتزلج حيث شاء .

النقد التطبيقى - ومنه أغلب هذا الكتاب - محاولة للتفسير والتقييم ، مع مراعاة الخلاف بين النقاد فى مسألة التقييم وإصدار الأحكام ، ونحن مع الحكم بعد تقديم «حيثياته» ، وإن بدا مشيج من المجاملة فهى مجاملة محسوبة ، تتوقع التقدم ، وتنظر إلى المستقبل ، ولا تريغ ما يريغه أقلام أخرى ، تحدوها الشبهة ، وانتظام المغانم ، وقد حاولنا فى هذه الكتابات عن الكتب وأصحابها أن نقوم بواجب تمليه أمانة الضمير وتحنث الحق ، ولم نتخل عن ذوق الشاعر - وهو الوجه الأول عندنا - حين ينبغى أن يتقدم ، خاصة فيما يتصل بنقد الشعر أو مايدخل فى بابته ، أو كان لسان الشاعر عونًا لقلم الناقد ، والمبدع أولى بالتقديم فى كل حال؛ لأن الحياة شحيحة بمثل هذا الجنس البشرى ، الذى هو من الناس وليس منهم فى آن .

وقد طال التطواف فى هذه الكتابات ، ولكن يربط بينها «النقد» أو «الرؤية النقدية» إن شئت ، وربما شحبت الحيثيات أحيانًا ، حيث لاتسمح الصحيفة السيارة بمثل هذا البسط ، غير أن الإيماءة أحيانًا تكون دالَّة ، وغانية عن طرح كثير، وربما تتسع بعض هذه الكتابات فتصبح كتبا ، وإن كانت - بحالتها تيك - فيها بذرة الشجرة تحمل الأغصان والأوراق والثمار والأزهار بقدر يسير من التخيل.

وثمة شهادة واجبة ، هى أن ما كتب كان بروح واحدة لاتجنح إلى الإغماض - وهو ديدن كتابات كثيرة فى أيامنا الرديئة - ولا إلى التعالم بالمصطلحات ، لأن توخى القارئ كان وراء القصد ، بل ربما تخفف الأسلوب واللغة - بعض الشىء- وأشهد أننى كنت أجد عنتًا فى مثل ذلك التخفف - لكنه لم يكن تخفف الكلام الغسيل ، فما له سبيل إلى نفسى بحال ، وحسبه أن يوائم بين الفكرة وثوبها - وهل الثوب إلاّ الفكرة - إنه فصل متعسف ، درج عليه أهل الصنعة ، وكان ديدنى- فى كل ما أكتب ـ ديدن المتنبى قديمًا مع حبيباته ظباء فلاة ما عرفن مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب ، وإن كنت أحب - حضريًا - اهتمام الجمال الذى يذهلك عنه به ، ويقدم إليك صورة جميلة مع قليل من الاعتذار ، فقد أعجل الوقت الجميلات عن إتمام الزينة ، وهكذا كانت الصحيفة السيارة تقتضى بعض العجلة ، ولكنها لم تعدم التريث ، ويبقى بعدها متسع لقليل من الاعتذار ، لكنه اعتذار غير مقصر عن بلوغ الشوط ، وينبئ فى الوقت ذاته بجمال الفطرة ، وبساطة الصدق ، وحلاوة الزينة غير المجتلبة .

وقد درج كُتَّابنا - منذ أمد - أن يجمعوا مقالاتهم فى كتب ، تيسر القراءة والفائدة ، وتقدم للقارئ ما يعسر عليه جمعه من المظان المتناثرة ، ونحن لانهتم كما كنا نهتم قديما - بالدوريات ، تعبث بها الأرضة الحشرية والبشرية ، وكان بعضهم يتحدث - مزهواً - بأنه كان يقطع المقالات من الدوريات القديمة دون أن يكلف نفسه قراءتها ونقلها قبل أيام التصوير ، فإذا جمعنا هذه الكتابات فإنما نحاول منجاتها من أيدى الأرضة ، وأن نقدم لحضرات القراء - فى زمن لاهث ردىء - مثل هذه الكتابات - وقد ضاع كثير منها - التى تؤرخ - بالمعنى العام - لحركة الأدب والنقد فى أيامنا ، ولعلها تسهم فى تحريك راكد آسن ، قد طال إصره وإن بدت فى الأفق القريب بشارات أو نذارات - لاندرى - تجرف هذا الركود ، فنخرج من ذلك الكهف الذى نحسبنا فيه أيقاظًا ونحن رقود .

أبو همّام

ديوان ابن الرومى

ديوان نادر فى تاريخ الشعر العربى ، تأخر نشره عن تاريخ نشر لدات الشاعر ورصفائه وهو قليل الرصفاء فى الشعر العربى ، وربما كان هذا من الغبن الذى لحق بالشاعر - حيّا وراحلاً - وربما كان هذا الغبن لم يلحق بالشاعر وحده ، بل لحق بتاريخ الشعر العربى ذاته ، حيث نشر فى زمن الطباعة دواوين الخفاف من متأخرى الشعراء والنظامين ، وأغفل مثل ديوان ابن الرومى . .

ونشر هذا الديوان وذيوعه كان حقيقًا أن يغير كثيرًا من مفاهيم نقدية شاعت بين الناس ، واتخذت سمت التقاليد المرعية ، غير أن هذا النشر أيضاً متعلق بتذوق الناس للكلام وتفتيشهم له ، وهو أمر لم يتحقق الا لدي قلة نادرة أيضًا تصبر على القراءة والنظر ، وتنفر من الرضوخ لسلطان الذوق الشائع ، ومن ثمّ رزق شاعر كالبحترى مثلا الذيوع والتأثير ، ولاتثريب على الناس ولا على قريع ابن الرومى (البحترى) ومعاصره ، لكن فاء الناس إلى البحترى - الذى لم يخرج عن عمود الشعر - مغفلين صنوه ، أو صوتا آخر به تقابل الصورة أو تكتمل ، دون الاتكاء على صوت واحد أو جملة أصوات متقاربة ، مهما بلغت هذه الأصوات .

وربما كانت بدوات ابن الرومى ، وسهواته الجبارة التى شاعت عنه ، وراء شيء من إجفال النظر إليه ، وإيثار السلامة عن خوض غابة غير مأمونة ، وتلك هى بدوات النحس والتشاؤم ، فخيلت لكل من يهتم بالشاعر أنه ملاق شيئًا من العواقب والنذر ، وقد ظل الشاعر حياته كلها تحت وطأة هذه القالة ، مُحلاً عليه فى موارده رهين كسر بيته ،ورويت فى ذلك شائعات تواترت عنه ، ونشط خياله أو وهمه الوثاب أو ذهنه المضطرب فصور له أن الأمر حقيقة واقعة ، واستغل الخبثاء - وهم آفة كل العصور - أعصاب هذا الرجل المسكين ، يتلعبون بها ما شاء لهم التلَعُّب ، فضاقت عليه الدنيا ، أو ازدادت ضيقا ، حيث لم تتسع ولم تتراحب أمام عينيه يوما ، وصدق العصر الحاضر هذه القالة أيضا . . فما يكاد

أحد يقترب من الشـاعر أو يفكر فى مصاقبته ، إلا وتلعـبت به حوادث المصادفات فآمن الناس أو كادوا ، وإذا الفراش الذى يغشى النار أو الهارب منها سواء . اهتم بديوانه جعفـر والى باشا وكيل نظارة الحقـانية فأقيل ، ونشر طائفـة من شعره فى مجلدين الشيخ محمد شريف سليم بك ، عميد مدرسة دار العلوم - ربما كان أول نشر عربى لديوان الشاعـر ، مشفوع بالشرح والتقويـم - فلحق به أذى لم أحققه بعد . . والعهدة فى هذه الرواية على الأستاذ العقاد سماعا - وأصدر كامل كيلانى مختارته فى ثلاثـة مجلدات ، بتصدير العقاد سنة ١٩٢٤ ، وحـسبها الناس ديوان ابن الرومى ، فلحقـته خسـارة شديدة ، ويقال أيضا أن مـدير المطبعة «سـيد بك» مـات ، وتجاسـر المازنى على التوفـر على ديوانه المخطوط بدار الكتب المصـرية ، وكتـب عنه مقـالات مسـهبـة فى «حصـاد الهشـيم» سنة ١٩٢٤ - وهي من أدق المقالات ، التى كتـبت عن الشاعر وشعـره - فهيضت ساقـه ، لسبب لاتهاض له السيقان ، وظل الرجل أظلع بيِّن الظلع حتى رحل فى ١٩٤٩ .

وكتب عنه العقاد كتابه الجليل «ابن الرومى . حـياته من شعره» وهو أهم كتاب كتب عن الشاعر على الاطلاق ، مع نفورنا من «أفعل التفضيل» فى كل ما نصدر من آراء نقدية . . لكننا نراهـا فى محلها الصحـيح ، فسجن العـقاد تسعة أشـهر بتهـمة العيب فى الذات الملكيـة ، وتوفر على قراءته ونخْله الأسـتاذ على الجندى الشاعر ، عميـد دار العلوم ، فبقى فى درجته الوظيفية ثمانية عـشر حولا كريتا ، حيث رقى زملاؤه !! وتمتد هذه القتامة إلى عباس خضر حين تحدث عن مختارات كيلانى ، مكتفيا بها عن ديوان ابن الرومى ، بعد أن نفض عن مخطوطته الغبار - كما قال - شامتا فيه : يستاهل !!

لأن شعره لايروق له ، ونحن نزعم بل نكاد نوقن أن عبـاس خضر لم يقرأه ، وربما لم يره مكتفـيًا بالشـائعات التى تنطلى حتى عـلى المثقفـين من أمثال عـباس خضر، أو أن ذوقه قـد مرد على الشعر الذى لا يحوج متلقـيه إلى بصر وزكانة ، وما هكذا يكون شعر ابن الرومى ، فَقَرَفه بما يستحق .

وهذه المصـادفات التـى اقتـرنت بابن الرومى حـديثا ، لم تـكن إلا من قبـيل الأفاكيه ، التى تبعث على الابتسـام فى أغلب الأحيان ، غير أن ابن الرومى شأن

كل مصادفة تقع للناس فى الدنيا ، ولم تكن بمثنيـة رجالا لم يقفوا عندها ، وكان اهتمامهم من قبيل الاهتمامات «المباركة» لم يتعلق بها نحس أو تشاؤم .

اهتم به العـقـاد والمازنى وعلى شـوقى (ت ١٩٥٩) فى سنة ١٩١٢ ، وأقـبلوا على قراءة مخطوطتـه فى دار الكتب ، متلوِّمين لدى نونية الشاعـر التى يمدح بها أبا الصقر :

أجنت لك الوجـد أغـصان وكثبـان فيهـن نوعان : تفـاح ورمـان

وهى من فرائد شعره ، فعارضها كل منهم بقصيدة من وزنها ورويها ، وذاعت القـصائد ذيوعًـا كبـيرًا - درّست لطلابى الـقصـائد الأربع سنوات مطولة ، ولم يحدث إلا الفـأل الحسن - وشاء محـمد مصطفى الماحى أن يلحق بالمعـارضين ، فنظم قصـيدة على غرارها ، ولعل هذا حـدث حين كانوا يعملون مـعًا فى ديوان الأوقاف ولم يعارضهـا شكرى حيث كان فى إنجلترا ، وغدا كتـاب العقاد عن ابن الرومى من أمهات المصادر عن الشاعر وشـعره وكذلك مقالات المازنى ، وإن كان أغفلها حـسين نصار حين نشر ديوان الشـاعر محققـا ، وتلاحقت الدراسات عن صاحـبنا ، فأخرج (روفـون جست) كتـابه : ابن الرومى حياته وشـعره ، و«ابن الرومى» لمحمد عبدالغنى حسن ، و«ابن الرومى فى الصورة والوجود» لعلى شلق، و«ابن الرومى شاعر الغربة النفسية» لفوزى عطوى ، و«ابن الرومى» لأحمد خالد، إلى جانب فصول مسـهبة أو غير مسهبة فى كتب تعـرض للعصر العباسى ، وهى دراسات تتفاوت جودة وتوسطًا ، ورداءة ، وبعضها يكتفى بنقل الدراسات السابقة عليه سـاطيا دون أن يشير أو يضـيف شيئًا ذا قـيمة ، وآخر هذه البـحوث رسالة جامعية لهناء عابدين بآداب سوهاج «ابن الرومى بين ناقديه فى القديم والحديث»، وعرضت للشاعر فى تقص نقدى جيد .

ظل الديوان حبـيس المخطوطات وآخر عـهدى به ١٩٧٢ حين كـنت أقارن بين الشـاعر والمازنى عكفت عليـه ، فى دار الكتب المصـرية بباب الخلق - نضـر الله أيامـها - ولم أر عنتـا فى القراءة والنـقل اليدوى ، لأنهـا نسخـة شديدة الروعـة والدقة، حتى قيض الله للديوان رجـلا مسرف الشجاعة حسـين نصار ، فى صبره

ودماثة طبعه ، فأخرج الديوان مع طائفة من تلاميذه فى ستة مجلدات ، وقد تعقبت نشرته بالتصحيح اللغوى والعروضى فى دوريات متعددة حتى جمعتها فى كتابى «أدب ونقد» ١٩٨٨ ، وأشهد أن الرجل تلقى ملاحظاتى بصدر متراحب ، وحنو شديد ، شاكراً ومحييًا ، ثم صدرت الطبعة الثانية من الديوان فصنعت اللجنة بملاحظاتى صنيعا لم أرضه ، حيث صححت ، وحين تركت التصحيح - يبدو عدم اقتناعها بما قلت - كررت خطأ الطبعة الأولى ، ونبهت على ذلك فى جريدة الأهرام وأرجعته إلى «سهوات ، ابن الرومى الجبارة ، أو ملاحقة «النحس المبارك» ، وحملته على محمل الفكاهة معرفا بأن حسين نصار لم يراجع الطبعة الثانية ، وإلا كان يشير أو يأمر بالاشارة إلى كاتب هذه السطور !!

وثمة نشرة للديوان صدرت بعد نشرة حسين نصار بحوالى عقدين من الزمان اضطلع بها عبد الأمير على مهنا ، ونشرتها دار ومكتبة الهلال فى بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١ ، وأشهد أننى لم أرها ، وإن كانت الباحثة السوهاجية اعتمدت عليها أحيانا .

وجاءت اعتماداتها فى غير موضعها كما أشرت إلى ذلك حين ناقشتها ، كما أشهد أننى رجل غير حسن الظن بطبعات بيروت فى نشرات التراث ، حيث تغلب التجارة الأمانه العلمية والدقة ، ورفض قديما (اميليو غرثيه غومث) نشرات لبنان واعتمادها فى البحوث الجامعية ، ومعه حق كثير ، لاتعصبًا إقليميًا ، بل إحقاقًا لما نراه ونعتقده .

ولعل من جملة الأسباب التى عاقت نشر ديوان ابن الرومى ، والنسيئة فى إصداره ضخامة الديوان بصورة شديدة لافتة للنظر ، وكان القدماء والمحدثون يرسلون هذا الحكم دون إحصاء ، فراق لى أن أقوم بشىء يسير من ذلك مقارنا بينه وبين شعراء عصره بصفة عامة :

١ - ابن الرومى : ٢٠٣٩ قصيدة عدد الأبيات ٣٠٥٣٠ .

٢ - مهيار الديلمى: ٣٨٧ قصيدة ،عدد الأبيات ٢٢٥١٥ .

٣ - البحترى : ٩٣٣ قصيدة ، عدد الأبيات ١٥٨٥٥ .

٤ - الشريف الرضى ٦٨٥ قصيدة ، عدد الأبيات ١٦١٩٩ .

٥ - أبو العلاء المعرى ١٧٠٢ قصيدة ، عدد الأبيات ١٣٥٩٥ .

٦ - أبو نواس ١٠٠٠ قصيدة ، عدد الأبيات ٧٥٣٧ .

٧ - أبو تمام ٤٨٤ قصيدة ، عدد الأبيات ٧٢٥٦ .

٨ - المتنبى ٢٨٦ قصيدة ، عدد الأبيات ٥٣٥٧ .

وبين يدى قائمة مطولة بأبى العتاهية وأبى فراس ، وبشار بن برد ، والعباس بن الأحنف وغيرهم ، وكلها تؤكد حقيقة لا حجاج فيها ، وهى أن أطولهم قامة هو شاعرنا ، يليه مهيار وقصائده مطولة جدا ، وبها ثقل فى إطالتها وربما كان للدم الفارسى دور فى هذه الإطالة لأن شعراء الفرس تطول قصائدهم طولاً غريبًا ، وإن كانت الثقافة العربية غالبة ، وشعرها أغلب ؛ لأن طول النفس يكاد يكون خصيصة شخصية قبل أن يكون خصيصة لغوية ، أما أبو العلاء فتغلب عليه المقطعات خاصة فى اللزوميات ، وينبغى أن نذكر هنا لزوميات ابن الرومى ، فى مطولاته خاصة الدالية ، التى التزم فيها الفتحة قبل حرف الروى :

أبين ضلوعى جمرة تتوقد ... على ما مضى أم حسرة تتجدد

وبلغت ٢٨٢ بيتًا، وهو طول غير معهود فى لزوم ما لا يلزم ، يدل على ثقابة جنانه ، وسعة صدره فيما تضيق به الأنفاس ، كما ينبغى أن نؤكد أيضًا أن الطول ليس المحك فى تفضيل شاعر على شاعر ، لكن إذا أضيف إلى الإطالة الإجادة ، فقد شأى الشاعر من تقدمه ، وأعيا من يأتى بعده ، وهكذا نرى شعر صاحبنا حين يطيل وحين يقصر ، وما أسهل الشعر عليه ، كما قال القدماء ويقوله المحدثون حيث استوت بديهته وفكره ، ولم نر هذا الاستواء لدى غيره إلا عند أحمد مخيمر من المحدثين ، لايكاد كلاهما يلقى بباله إلى الكلام ، حتى تهطع إليهما أجياد الكلام النافرة ؛ فإذا هى مأنوسة سهلة القياد ، وعبارة «استواء البديهة والفكر» ، قالها ابن الرومى حين تعجب الناس من سرعة نظمه قصيدته البائية :

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب ... وأين ينجو منى الهارب

وبلغت ١٠٧ أبيات ، نظمهـا فى ساعتها ، وليس فيهـا حرف مصلح ، ولعله يصف بهذه العـبارة التى نطق بها عفـوا شعره كله ، وكل شعـر جيد لا تبيـن فيه أمارات المشـقة . . وقطرات العـرق وغبار الرحلة ، التى تبـدو أحيـانا فى صورة مـعاظلات ، ولايعنى ذلك أن الشـاعر لا يـعانى ، بل إنه يدخل الحـومة شـاكى السلاح ، متخذا لأمته ، فارسًا عريق الفروسية .

وديوان ابن الرومى دخل فى نسـيج الذاكرة الشـعرية للأمـة ، رغم الغبن الذى لقيه ، والشـعراء كالناس عمومًا وكـالأشياء بعضها مـجدود وبعضها غيـر مجدود بالنسبـة للضوء أو العتمـة ، لكن لانظن أن شاعرنا قـديمًا وحديثًا - خـاصة فى الحديث - يشكو عدم ذكـره ، ربما يشكو فى حياته السغب والمخمصـة ، وأصابته حرفة الأدب فى الصـميم ، وأوغل الحرمان فى أعصابه ، فـأسرف فى الملاذ حين تتاح له وجنى عليـه عقابيل لم تفلت منها عـافية الشاعـر عصبيًـاوجسديًا ، دخل الديوان فى ذاكرة الأمة ، فلا يخلو سفر من أسفار الأدب والتاريخ واللغة من ذكر الشاعر حتى ولو كان ذكر الإقذاع والنكير ، وعاب عليه المتحنثون شعره الهجائى، وإن كانوا طربوا له فى خلواتهم - نعتقد ذلك - واقفين عند تصويره الحى المبدع، ولقطاته الفنية التى تفضح المصورة الأمينة ، لأنه يضـيـف إلى التصوير مشاعره وما هكذا تصلح المصورة ، وهجـائيات ابن الرومى نمط وحدها فى هذا البـاب ، وما أظنها - على إفـحاشها - زادت عدد الـفاحشين واحدًا ، وحـسنًا أن صدر ديوان الشاعر بتحقـيق حسين نصار ، وفيه تلك الأمانة والشجـاعة التى تحلى بها المحقق الجليل ، ولـم يخل بتلك الأمانة مسـتجيبًا إلى تلك الأصوات التافـهة من المنافقين المضللين الضالين !! .

عرف المشارقة ديوانه فى حياة الشـاعر ، وعرفه أهل المغرب والأندلس ، ولقب الأندلسيون أبا عبدالله الرصـافى بابن الرومى ، كما هو شأنهم فى التلقب بألقاب المشارقة ، رجـالا ونساء ، وإن كنت أرى البون الهائل بين الرصـافى وبين شاعرنا إلا إذا كان وجه الشبه وصف الطبيعة ، وهو وجه مـفارقة لا وجه مشابهة ، شتان بين الوصـفين ، لكننا حـين نرفض الموازنة ، نتخـذ منها شاهدًا علـى ما نؤم من ذيوع الشاعـر المشرقى لدى أهل الأندلس . و«ذخيرة» ابن بسـام الشنترينى وتوفى

٥٤٢هـ تمتلئ صفحاتها باحتذاء الأندلسيين لابن الرومى ، فى صوره ودقته ، واستدراكاته، وشتان أيضا بين الأصل والتقليد ، ويدل هذا أيضًا على شدة استقصاء ابن بسام وقوة حافظته ، وإن كان ألف كتابه «والنفس غير جميع» ومع ذلك بانت ذاكرته التى لاتكاد تخرم شيئًا ، لأن تقيّل السلخ والأخذ والإغارة والنهب - كلها ألقاب للسرقات الأدبية قديما - إنما تنثال بها الذاكرة وقت القراءة والتأليف ، دون مراجعة للأصول غالبًا .

على مدى ثمانية أجزاء يطل طيف ابن الرومى فى الذخيرة ، ويطل قبلها فى تلافيف الذاكرة الشعرية للشعراء الذين تعقبهم ابن بسام ، ولعل ديوان ابن الرومى رحل إلى الأندلس فى حياة الشاعر نفسه ، وإن كنا لم نذكر من اضطلع بحمله إليها . . لكن دوران الرحلة الدائب بين بغداد والحواضر المشرقية بعد سكون بازى الخلاف بين الأمويين فى الأندلس وبغداد العباسية يؤكد الحقيقة الأدبية ، التى عززها الاستقراء والشواهد الشعرية ، وإن غمض علينا ناقلو الدواوين ، ولكنا هنا نذكر المتنبى إذ حمل ديوانه زكريا بن الأشج الجزائرى الأصل إلى الأندلس ، ومارس تأثيرا هائلا ، بيد أن هناك تأثيرًا روميّا ، فى الشرق وفى الأندلس على السواء ، ويتعلق بهجاء شاعرنا للورد وتفضيله للنرجس ، ألفت كتب ونظمت قصائد معارضة ، وشاتمة لابن الرومى ، أقلها أنه «جُعَلى» يموت هذا الجنس الحشرى من الورد ، وكان مبلغ ما قاله ابن الرومى محتجا :

أين الخدود من العيون نفاسة	ورئاسة لولا القياس الفاسد

ومتتبع هذه المعركة الشعرية مدرك بلا ريب مدى تقصى ابن الرومى للمعنى ، واحتجاجاته الشعرية القصية عن برودة الذهن «حسن البيان يرى الظلماء كالنور» كما يقول هو نفسه .

ظل ماء الشعر عند ابن الرومى يسرى فى أعراق الذاكرة الشعرية جهرة أحيانا ، ومستترًا فى أحيان كثيرة ، لدرجة أن رجلا كشوقى لم يتلبث لديه كثيرًا ، واعترف بذلك للعقاد حين صفا الأمر بينهما قليلا ، وأقلعت السماء عن غيمها داعيًا إياه لحفلة شاى ، سأل شوقى العقاد عن سر إعجابه بابن الرومى - وكان النقاد

يتندرون بإعجاب العقاد فى مجال الغض من الشاعرين - فأجابه العقاد مفصلاً الحديث ، فما كان من شوقى إلا أن قال : سوف أعيد قراءته لكنه كان بأخرة من عمره ، فلم يتح له أن يعيد .

قيض الله للشاعر العباسى أن يكشف أسداف الخمول الجائر عنه ، رجل فى مطلع حياته الأدبية هو العقاد ، وأن يكتشف خير ما فيه - وفيه خير كثير - فقرأ ديوانه على مكث هو والمازنى خاصة ، وهداهما الشاعر إلى نفسهما وإلى مفهوم مخالف للشعر غير المفهوم السائد ؛ ولذا نعتقد أن ابن الرومى حيث التقيا به ، إنما التقيا بصديق قديم على بعد الشقة ، وقرت لديهما عقيدة شعرية أن ابن الرومى قرين لشعراء أوربيين يقرآن لهم ، دون ذوبان فى أحد ، ودون أنى يكسف الأوربى ما هو قار لديهما فى التراث الصحيح ، وتلك هى الفائدة المرتجاة من التأثير والتأثر، كما نعتقد أن مفهوم الديوانيين للشعر امتداد لمفهوم قديم فى التراث العربى مع نفحة شخصية؛ذلك المفهوم الذى تسعد فيه الفكرة الشعرية الوجدان الصحيح ليطيرا بجناحين من الخيال ، وكان ابن الرومى مع قرنائه الكبار : المتنبى، والشريف ، وأبوتمام والمعرى و إخوان هذا الطراز ، هم السلف الصالح فى التراث الشعرى العربى ، وإذا خلا ديوان العرب من تلك الأسماء . . فماذا يبقى؟

عارضه العقاد والمازنى ، وعلى شوقى ، وسرى فى شعر شكرى تشاؤمًا وانقباضًا؛ حيث تنشد نحيزته هذا اللون من الشعور والكلام واستأثر بالعقاد كثيراً فى استدراكاته ، وإخراج ما يتوهم أنه داخل فى المراد، واللفتات الذهنية البارعة، وفى السخرية ، وفى علو نبرة التشاؤم - خاصة فى بواكير العقاد - وفى مطاوعة الكلام ، على حين كثرت قراءاته فى الآداب الأجنبية ، فالتقى الوافد والأصيل فى نفس تهضم وتستوعب ، ولو لم يكن العقاد - شأنه شأن كل شاعر أصيل - على نسقه النفسى ومطارح فكره لما كان لديه قابلية لأن يتأثر بكائن من كان ، ولو كان ابن الرومى شاعره الأثير .

كذلك كان الشأن مع صديقه المازنى ، تشاؤمًا ، وحزنًا ممضًا ، وسخرية حتى من نفسه ومن وجهه كما صنع صنوه البغدادى قديماً :

شغفت بالخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلاَّ لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ، ولا يشهد يوما مساجد الجُمع

وتعلو النبرة لدى المازنى فيهجو نفسه شكلاً وموضوعًا، ويرثى نفسه فى سخرية مريرة كاشفًا ما تواضع عليه الناس من زيف ونفاق .

انظر إلى وجهى الشتيم اللعين .

وجاءت قراءة المازنى للشريف الرضى معجباً به وبصاحبه القديم ، والشريف أجزل شعراء العربية ، فأعدته الجزالة ، ونعده أجزل جماعة الديوان ، دون أن نستثنى أحدا ، وإن كان بعضهم يناهزه كعبد الرحمن صدقى ، وعلى شوقى ، وأحمد مخيمر من شعراء ما بعد الديوان ، وامتزج الشريف وابن الرومى فى دم مازنى لاينصل لونه ، مع أمشاج متباينة من الشعراء الأوربيين ؛ مما جلب عليه تهمة الإغارة والسرقة ، ونفخ فيها التيار المحافظ ، وأرَّثها جماعة أبوللو ، ولا نزال نعتقد أن ديوان ابن الرومى فى حاجة إلى قراءة دقيقة ، وتذوق رفيع ؛ حيث امتد تأثيره خارج نطاق الديوانيين ، وكان محمود شاكر (أبو فهر) من قرائه الأصدقاء ، تشهد قراءة شعره بهذه الصداقة التى لاتخفى ، كما نعتقد أنه فى حاجة إلى مختارات ، وإذا جاز الاقتراح ، فأرجو أن تنهض دار الهلال بطبع مختارات الشاعر ، وأرجو ألا تخشى من بدوات الشاعر المتشائمة ، وسهواته فى النحس ، ولعلها حين تذيع بين الناس تكفكف غرب هذه «السمعة» غير الحسنة ، وعلى كاتب هذه السطور «التعويض» المناسب حيث أخذت عهدًا وميثاقا غليظا من الشاعر فى مرات كثيرة ، - آخرها أننى أتداوى بقراءة شعره - أن يكون مأمون البادرة ، فإذا أفلحت فإننى أرجع ذلك إلى «بركات» ابن الرومى . وما ذلك بعزيز .

في الخامسة أو نحوها كان مجلس عـزاء يضم جمهرة من قراء القرآن الكريم ، يتذاكرون الفائـدة المالية التى تدرها عليهم المصائب ، فإذا بأحدهم يـنشد «مصائب قوم عند قوم فوائد» بضم الـدال فحفرت فى نفس الصبى ، يومئذ ، كـما استمع فى هاته السن إلي بعض العوام ينشد متمثلا :

إذا أنت أكــــرمت الـكريم مـلكتــــه

وإن أنت أكــــرمــت اللئــــــيم تمردا

ينطق الكلمة الأخيرة «تنمردا» وإن فى بداية الشطر الثانى «وإذا» مع كسر الوزن»

ثم أتيح له فيما بعــد أن يقرأ هذا الكلام فى ديوان المتنبى ، فأدرك إلى أى مدى كان الرجل مجدودا سائرا على ألسنة الناس وقد «أصبح الدهر منشدا» كما قال فى قصيـدة أخرى ، وذكرته هذه السيـرورة بما ذكره الرواة - باختصــار - عن شانىء للمتنبى أقسم ألا يقيم فى بلد يذكر فيه الشـاعر أو شعره ، فارتحل لطيته ، وكلما حل ببلد سأل أهله هل يعرفون الـشاعر فيجيبونه بالإيجـاب ، فيرحل حتى وصل إلى محلة سأل أهلها عن الشاعر فلم يذكـره أحد ، فحمد الله وألب بالمكان حتى كان يوم الجمعة فصعد الخطيب المنبر وبعد حمد الله والثناء عليه ، قال :

أسـاميـا لـم تـــزده معـرفــة وإنـمـــا لــــذة ذكـرنـاهـــا

وهو بيت ذائع من قـصيدة ذائعــة للمتنبى ، فـإذا بالشانىء يعـود إلى بلده من جديد قائلاً : هذا الرجل كالقدر لايقاوم !!

هذه السيرورة فسرها المازنى فى دراسته المســهبة عنه فى «حصاد الهشيم» «بقوة» الشاعــر، ورجعــها العقــاد إلى «الحســد» مظهر كل فـضيلة ، وكان المتـنبى شديد الشعور بهذه الخلة ، حتى سمى ابنه «محسدا» وحتى إن الأيام يحسد بعضها بعضا «وحتى يكون اليوم لليوم سيدا» .

والحق أن أبا الطيب رزق من القوة كفلا عظيمًا ، ورزق من حسد الحاسدين كفلين من العذاب الذى تلذه النفس القوية ؛ لأن غير المحسود كائن لا يستأهل الحياة حيث إنه عاطل من المواهب التى يُحسد الناس من أجلها ، خامل من معانى الرجولة أو الإنسانية ، خلو من الأخلاق العليا التى تثير الغيظ ، وتشعل النار فى العرفج ، وقد أحسن ابن رشيق حين وصفه «ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس» ، وهى كلمة نافذة تصدق على جبابرة المواهب وأفذاذ العقول .

وقد أحس المتنبى بهذا المعنى فقال :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وما كان الرجل إلا نافذ النظر إلى ما وراء سجف الغيب ، فلم يصف زمنه فحسب ، وإنما امتد حتى يومنا هذا ، دون أن يغالط أو يغالى فى تعبير شعرى كعادته وعادة نظرائه حين يفخرون .

جاء المتنبى إلى الدنيا فى مستهل القرن الرابع ، وكان أوان النضج والقطاف فى كل ما زرعته الحضارة العربية الإسلامية ثقافة وسياسة ومذاهب ونحلاً ، وطوائف وشيعاً ، وقد اعتورها ما يعتور الحضارات وأهلها من شيوع المطامع والشغب ، والدسائس والمؤمرات ، وكانت الكوفة خاصة مباءة الشاغبين ، فالتقطت باصرته وبصيرته صورة هذه الحياة وعاشها ، واكتوى بنارها ، ونضجت فى شعره حكمة منخولة بحكم نحيزته المتأملة ، وكأنه لم يلتقط الصورة حسب بل خلقها ، ولذا لاينظر إلى هذه الحكم كأنها خلاصة دراسة وتأمل ، وإفادة من قراءاته ، ربما تفيده الدراسة والقراءة ، ولكنها لا تخلق منه الشاعر الحكيم لولا أنه مهيأ لها سليقة ، وكأيِّن من شعراءحكماء قرأوا ما قرأ ، ولم يكن لحكمهم مثل ما رزقته حكمة المتنبى ، حيث تعمل البداهة وفحولة الشاعرعملهما فى كل ما خطته يراعته .

المتنبى رجل مأزوم ، وكل الشعراء عادة أصحاب أزمات ، لكنها هينات لينات فى طبائع الشعراء الذين يخف محمل الدنيا عليهم ، بيد أن صاحبنا ورث هذه الأزمات ، واكتسبها ، فغدت أزمته الفذة ، كانت جدته قد أسرَّت إليه بحقيقة نسبه العلوى . واحتمل الرجل هذا السر . تعلى به مراحله فى أمة تقيم للأنساب

كل وزن ، وتحيفته وضاعة هو براء منهـا . وكشف هذا السر أو وقع عليه الاستاذ محمود شاكـر فى كتابه الرائد عنه، كما تحمل الشاعر نبـزه بالنبوة وأفسح لها من كلامه ما يرشح هذا المغمز لـواصب ، ودافع عنه أبو العلاء لغويا بأنها من «النبوة» أى الارتفاع ومرض الأستاذ العقـاد فى الرواية وإن كان يرى أن الذى غمزه بها إنما هو من جبابرة الشياطين ، فى دراساته عن المتنبى فى مطالعات فى الكتب والحياة، وهى دراسات غير مسبوقة خاصة فى مقارناته بين المتنبى وفلسفة القوة لدى نيتشه، والبـقاء للأقـوى لدى داروين، واطلع عليهـا دون إميليـو غرثيـه غومـث عمـيد المستشرقين الإسـبان فى دراسته الجيدة والبليغة عن الشاعـر ، الذى نعته بأنه شاعر العـرب الأكبـر وإن كان لم يشـر إلى إفادته ، وقـد ترجم هذه الدراسة فى أمـانة وبلاغة د. الطاهر مكى .

وهذه النبوة التى قـرف بها المتنبى لعلهـا نسيت وأسدل السـتار على بواعثـها ، ونحن لانؤمن بهـا ولا نعتـقد أن الشـاعر ارتضـاها ، رغم الحكايات التى تشـاكه الأسـاطير وتنسـب إليه بعض المعـجـزات ، فهـذا من الملح الذى يشـوب النوادر والحكايات ، ولم يكن الشاعر ممن تجـوز عليه الغفلة أو استغفال الآخـرين فيصدق فى نفسه هذه المثلبة ، وثمة شاعر حاول أن يعلل هذه التهمة فقال عنه :

هـو فـى شعـره نبـى ولكـن ظهـرت معجـزاتـه فـى المعانـى

صحيح أن شاعرنا بعيد المطامح ، شديد الاعـتداد بذاته ، لكننا نحسب للتعبير الشعرى حسابـه فلا نأخذه كحقائق الرياضيات . ولذا فكل تعـبيراته فى هذا المقام تحسب للمـبالغة الشعـرية حسابها ، دون أن تفـتئت على حق الشاعر فى كـبريائه الباذخة ، التى ترى أنها فوق كل محل يرتقى ، وكل عظيم يتقى ، ويجوز الفخر فى الشعر حين لايجاز فى النثر كما يؤكد القدامى .

فى شاعرنا كـثير من طموحات دون كـيخوتى دى لامنشا ، وكثـير من أحزان هاملت الأزلية ، لكن يغلب تعقله سذاجات فارس لامنشا ، وتغلب إرادته أحزان هاملت وتردداته ، إنه نسيج وحـده - حين قيلت هذه العبـارة أول مرة - قبل أن تلوكها ألسنة الابتذال .

كان المتنبى مجدودا ، ذائع الصيت ، تزدلف إليه تيجان الأمراء فى زمنه ، وينشدهم الشاعر مدائحه جالساً مثلهم ، أو يجلسه الأمير مكانه . ولكن ذلك لم يُرض مطامحه ، فخيل إليه أنه خلق للملك والسياسة واصطنع إليها الذرائع غير المزرية بالطبع ، ولم يكن الرجل إلا واهماً لأنه من رجال النظر والفن ، ولو كان الزمن أسعده بهذه الولايات لخسرت الإنسانية - لا العربية حسب - فقد مسح الزمان بذيوله على كثير من الأسماء ، وبقى مذخوراً مصوناً كل ما خطه قلم المتنبى ، وما هذا بالشىء الهين أو اليسير .

لقد غدا شعره فى سمع الدهر ووجدانه ، وحل فيه أرفع محل حتى فى حياة صاحبه ، وحتى تغيب العربية من الدنيا ولن تغيب إلا بغياب الحياة ، جمع المتنبى ديوانه فى حياته ، وأرخ لكثير من قصائده ، وأرخ أبو فهر للديوان كاملاً . وقامت حوله معارك فى حياته وخاصة مع النحاة والشانئين عليه ، واصطفى الشاعر صديقه ابن جنى بشرح ديوانه وغوامضه ، وكان يحيل سائليه عليه ، وكان ابن جنى - وهو ممتع بإحدى عينيه - كفاء هذه الرسالة فشرحه لم يقف عند اللغة والنحو ، بل كان يطبيه أن يجرب نظر الأديب البلاغى ، وإن كان بعض معاصريه يقرفه بأنه تبلد حماره حين يمد عينيه خارج اللغة والنحو ، وما نظنها إلا المعاصرة!! .

وقد تعددت شروح الديوان قديماً وحديثًا ، كما تعددت الدراسات عنه وعن الشاعر لدرجة يمكن أن نطلق عليها اللفظ المعاصر فى الجامعات الأوروبية «كرسى شعر المتنبى» وليس من هدف هذه الكلمة أن تحصر هذه الدراسات أو الشروح ، وحسبها أن تشير إلى بعض منها ، واعتمادنا فى ذلك على تحقيق د. عبد المجيد دياب لمعجز أحمد ، وبعض هذه الكتب مع المتنبى ، وبعضها شديد التشنيع عليه، وطرف منها يلتزم «الوساطة» وكما هو حال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى، الذى صبغت مهنته قاضيا طريقة حكمة فألف الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وقد سبق أن ذكرنا ابن جنى . وله شرحان ، وللمعرى شرحان ، والواحدى ،وابن فورجة ، والتبريزى ، والسمعانى ، والأعلم الشنتمرى . والإفليلى ، والأنبارى ، وابن وكيع ، والعكبرى ، والدانى ، والخوارزمى ،

والعروضى ، والربعى ، وابن القطاع الصقلى وابن سيدة والحاتمى ، والجزرى ، والعميدى وغيرهم ، كما شرحه حديثًا البستانى ، والبرقوقى ، وإن كان الأخير أفاد من شروح قديمة تنخل منها ما تنخل ، وذاع هذا الشرح وطبع مرات متعددات .

ولا تكاد تخلو دراسة عن شعراء العربية من اسم المتنبى أو الاستشهاد بشعره ، وربما كان الكتاب الإمام ، كتاب شاكر عن الشاعر ، فهماً واستيعاباً ، وتذوقاً للشعر ، أما كتاب طه حسين عنه «مع المتنبى» فليس أفضل كتب طه حسين ، وفيه نظر كثير من فهم الدكتور للشعر وصاحبه ، وربما كان الرجل ينظر إلى كتاب (بلاشير) ، وهو مثل غيره من المستشرقين يباشرون العربية وخاصة شعرها بلسان أعجمى ، ونفوس أشد عجمة أحياناً، حيث لايبلغ غور الشعر العربى إلا أصحاب اللسان والأفذاذ منهم خاصة ، وقد اعترف غومث الإسبانى بشجاعة بهذه الحقيقة رغم نفاذه فى فهم المتنبى ، فقال إن المتنبى خلق عالما ربما يعسر علينا نحن الأوروبيين النفاذ إليه،وهى كلمة حق بريئة لأن المتنبى محير فى ذرع القلة أن تغوص معه ، وإن كانت له الآيات البينات فى حكمه السائرة ، لكننا نأخذ منها بقدر حظنا من الفهم والفطنة ، كما أن المتنبى ، فيما نعتقد كان يصوغ الفكرة الشاعرة فى قالب كان ينتظر هذه الفكرة ، فهى تخرج وعليها ميسمه غير مموهة ، حيث هى موشوجة بلحمة ودمه وأعصابه ، وإن كانت فيها إثارة من كلام سابق .

ومن الدراسات المتعمقة عن المتنبى وشعره ما كتبه العقاد منجمًا ، عن فلسفة الشاعر وعن صنعته ومقارنته بالمفكرين العالميين ،سابقًا بهذه المقارنة المدرسة الأمريكية ورائدها رينيه ويلك بعقود من الزمن ، وكان الغالب على المقارنات المدرسة الفرنسية التى تحتم التأثير والتأثر ومسالكه ، وكذلك موازناته بين المتنبى وأبى تمام حيث ارتأى أن للأول عالما ، وللثانى إجادات ، وأسهم المازنى بدراسات جيدة عن المتنبى وفلسفته ، وشعره فى حصاد الهشيم ، ولعل مثل هذه الدراسات كانت تؤكد فى نظر أصحابها ومعاصيرهم ، أن التجديد الذين يدعون إليه له سند ركين من التراث الذى يمثل سلامة الشعر وسلامة الطبع ، ويرون أيضًا أنهم يكتشفون مناطق غير مأهولة فى النظر النقدى ، كما هو الحال فى دراساتهم لابن

الرومى وأبى العلاء ، والمتنبى وغيرهم ، وليس من هدف هذه الكلمة استقصاء الدراسات عن المتنبى. فهى تحتاج إلى ببليوجرافيا يحرز بها صاحبها درجة جامعية.

ولديوان المتنبى بابة رحبة فى الأندلس ، لا تقل عن اهتمام المشارقة به ، وربما كانوا هنالك وراء البحر يريدون أن يقولوا بلسان الحال أو المقال إن شئت - نحن وإن شطت بنا الديار فإن لنا رحمًا ماسة بالمشرق ، وربما فقنا المشارقة فيه ، ولعل إقامة المتنبى فى مصر مهدت له أن يلتقى بطلبة العلم وشيوخه من أهل الأندلس ؛ حيث كان للمتنبى ما يمكن تسميته «صالون» ، وكانت الرحلة دائبة فقد تلمذ له وسمع منه أبو بكر الطائى ، وإبراهيم المغربى ، وزكريا بن الأشج وهو الذى حمل معه ديوان المتنبى إلى الأندلس ، وأثر هذا الرجل فى تلاميذه النابهين مثل منذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى ، وكلاهما علم فى بابه ، وقد شرح ابن الأشج ديوان المتنبى . وإن كان لم يصلنا شرحه ، لكنه - بلا ريب - تناثر فى مؤلفات الأندلسيين فيما بعد ، وقد رأينا أكثر من واحد يلقب بالمتنبى من شعراء الأندلسيين، وربما كان ابن دراج القسطلى أهم شاعر تأثر بالمتنبى فى معارضات الأندلس له وهى كثيرة - من أشهرها الرائية «باد هواك صبرت أم لم تصبر» وقد عارضها شوقى حديثاً فى قصيدته عن الأزهر ، وشتان بين الشعراء الثلاثة فى كل شىء ، فالمتنبى لا يلحق شأوه ولا غباره ، وماذاك إلا للنفحة ، أو الفحولة البادية فى كلام صاحبنا شاعر الكوفة العظيم ،وفى كتاب «أدب ونقد» لكاتب هذه السطور موازنة بين المتنبى وابن دراج .

لاينبغى أن تؤخذ الدواوين القديمة والمعاصرة بموضوعات القصائد أو بالأحرى بعناوينها ، لأن قصيدة المدح أو الرثاء أو ما يسمى بشعر المناسبات ، إنما هى من صميم الشعر الصادق وخاصة من مثل المتنبى ، فضلاً عن أن فى تضاعيف القصيدة تصويراً لصاحبها وتدسساً خفياً لمكامن هذه الشخصية ، وهكذا كان شعر المتنبى . . إنه إهابه وتجاليده ، ومعارف وجدانه .

وصياغة المتنبى صياغة نادرة ، وصفه الناس بأنه هَجَّام على المعانى ، وهذا صحيح ، لكنه لا يهجم ، إلا وقد غدا شاكى السلاح لمنازلة عنيفة ، تؤدى

فرائض الفكرة وفرائض الفن ، وكان له من متانة طبعه ما يبنى بها جواسق وحصونًا ، لا يتسلل إليها وهى إلا كما يتسلل إلى أى كائن تجرى عليه أعراض النقصان الذى هو خصيصة بشرية ، لكن سلمت له جواسقه وحصونه مهيبة جليلة، حيث كان شعره أقرب إلى الجلال منه إلى الجمال ، وإن كان لم يتحيف حق الجمال ، لأنه الجمال العاطل الحالى بالقوة والصدق ، حيث كان كلام بعض نظرائه يعرف «مضغ الكلام وصبغ الحواجيب» .

ويشى ديوان المتنبى بله يصرح بدمامة الأمارات الموكوسة التى شهدها وغدا شاهد صدق عليها . وشد الرجل حيازيم راحلته باحثاً عن أمير ماجد فى زمن أفلت فيه شمس المجادة ، وحفل بكل عبد فى مسلاخ حر ، وارتأى فى سيف الدولة قريناً له فى مجادنه وفى فروسيته ، وفى ذياده لعلوج الروم ، يصرخ فيه الدم العربى ، وكان حزن الشاعر جليلاً بقدر أحزان أمته ، وهوان أمرائها ، وكأنه يشاطرنا حزننا من وراء الغيب !!

لزوميات المعرى

هذا ديوان رائد فى تاريخ الشعر العربى ، وتمتد ريادته حتى العصر الحديث ، الذى شهد ثلاثة دواوين ، كان أولها «لزوميات مخيمر» للشاعر العبقرى أحمد مخيمر ، ونصَّ على أنه على درب أبى العلاء ، وثانيها للشاعر عبد العزيز السعدنى ، وهو بقال من مدينة الزقازيق ، ثالثها «لزوميات أبو همام» لكاتب هذه السطور ، وتابع هذا النمط فى دواوينه الأخرى .

وحين نقول ريادة أبى العلاء لا نعنى أنه غير مسبوق ، فقد شرع له الطريق جمهرة من الشعراء مثل ابن أخت تأبط شرا فى «لاميته» المشهورة ، وكُثير عزة فى «ثائيته» ، وابن الرومى الذى ركب منه ضروباً من القول ، لكن هؤلاء لم يجعلوه ديدنهم فى كلامهم ، ولم يتخذوه مطية فى كل ما كتبوا ، بل كانوا يركبونه لماما ، ولم يفردوا له الدواوين ، غير أن شيخ المعرة ركبه قاصداً على حروف المعجم ، فى مجلدات ديوانه المهور بهذا الاسم ، ويعنى أنه يلزم نفسه ما لا يلزمها من عدم الاكتفاء بحرف روى واحد ، من باب السعة والاقتدار ، وكان محصوله فى اللغة يسعده فى هذا ، واللغات الأجنبية تعرف هذا النمط ، وتسميه «القافية الغنية» 'La Rima Rica' ، كما يعرف النثر العربى مثل هذا الضرب . ومنه «المقامات اللزومية» للسرقطى الأندلسى ، وكأن المعرى وقرناءه - وليسوا فى قامته، وقليل ماهم - يرون غير اللزوميات ما يمكن أن يسمى «الشعر الحر» بمعنى آخر غير المعهود الآن ، وقد ركبه أبو العلاء أيضاً فى ديوانه الأول «سقط الزند» .

وفى حدود ما أعلم ، كان المعرى أول شاعر فى العربية يطلق على مجموعاته الشعرية أسماءً محددة ، على غير ما هو متواتر قبله ، مثل ديوان فلان من الناس، وما بعده أيضًا حتى عرف العصر الحديث التسميات ، وكان المعرى رائدًا حتى فى هذه المسألة الشكلية ، وربما كانت غير شكلية فى حالته ، فسقط الزند أول كلامه فى المنظوم ، واللزوميات جاء مصلِّيا بعد ذلك .

ولقد ارتبط المعرى بالتاريخ الأدبى لهذه الأمة وعسير على التخيل أن يسقط من ذاكرة الأيام من حسب الأيام وحاسبها ذلك الحساب العسير وهَبه سقط ، فماذا يبقى فى هذا التاريخ الأدبى ، إلا النفر القليل من سابقيه : ابن الرومى ، أبو تمام، أبوالطيب ، الشريف الرضى وإخوان هذا الطراز ، لعل الخريطة الشعرية كانت ستتطلع إليه ليسد الثلم الذى يحدثه غيابه ، ولعله أيضاً - وهو الفارك للحياة التى يسميها «أم دفر» لنتانتها - قد سخرت منه الحياة كما سخر منها طوال أيامه ، فأرخت له فى حبال العمر ، ليخنق السادسة والثمانين وكان يتمنى أن تنجذم هذه الآصرة له ولغيره :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وهو الرجل الذى همدت فيه نوازع اللحم والدم أو على الأقل كانت موزوعة لامدفوعة ؛ نظراً لبنيانه الوهنان ، وحرمانه من لذائذ الطعام والشراب ، اقتداراً منه ، وزهادة ، قد أحدقت به السجون الثلاثة كآبة وعجزاً :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث

غير أن وجدانه المتوفز ، وعقله الجبار كانا يفسحان له أن يشرف على الوجود والعدم من علٍ، وأن يراقب الأشياء مراقبة الندس اللبيب ، وكانت إحاطته بالعلوم والمعارف فى زمنه حرية أن يتنفس من خلالها كل نَفَس وكل نَأْمة .

وجدت السليقة العربية فى أبى العلاء نموذجها الذى يمثلها أوفى تمثيل ، فهو ينتمى إلى الأرومة العربية نسباً وداراً ، وثقافة ، وعاش عصرا مفعمًا بجلائل الأحداث ، ونالت قريته «المعرة» طرفاً من هذه الحوادث ، وتدخل فيها الشاعر متشفعا فحقن الأحداث قبل أن تتفاقم ، ومع ذلك ظل نادما أن خرج من محبسه،وقرية المعرة غدت ذائعة الصيت ، بفضل شاعرها ، وكأين من مدائن كبرى تغبطها وتحسدها هذا الشرف الرفيع .

تحدث الناس قديمًا وحديثًا عن ثقافة أبى العلاء وتراحبها ، كما تحدثوا عن عقيدته ، بعضهم يرفعه إلى مصاف الملائكة المقربين ، وآخرون يهوون به إلى

مدارك المردة والشياطين ، غير أن الرجل كان مثل الناس من ماء وطين ، لكنهم اصطلحوا على ثقافته وشاعريته ، وزهادته ، وحسبه هذا .

كانت «اللزوميات» فتحًا مبينًا فى الشعر العربى لا بتشكيلاتها الموسيقية فحسب، وإن كانت واردة ، ولكن بما تثيره وبما تحتويه ، واستن الرجل فيها لنفسه مهيعًا خاصّا ، طرقه بعضهم قبله وبعده لكنه المتفرد «وماقصبات السبق إلا لمعبد»، ونعتقد - والمعرى من الشعراء الأصدقاء الذين نعود إليهم دائمًا - أن اللزوميات هى الشعر الحقيقى للمعرى ، أو وجهه الأول حين تزدحم الوجوه . وأن «سقط الزند» يمثل ملامح أولية أو «قرزمة» المعرى مع نضجها ، نقول ذلك وفى وعينا ما قاله النقاد عنها إنها نتيجة اللعب والعبث ، أو هى فكر لا تسرى فيه أعراق الشاعرية كما ألفها الناس ؛ لأن الفكر فى رأينا دائمًا وجه أساس فى بناء الشعر ، ولم يكن المعرى بعيدًا عن هذا الرأى ، حين نعت لزومياته بأنه توخى فيها صدق الكلمة ، ونزهها عن الكذب والميط ، ولا يعنى ذلك صدق الواقع وجفافه وبرودته لأن الخيال صدق أيضًا ، ولم يكن المعرى على كل حال من رجال الخيال الجامح المتوثب ، وإن كانت له في اللزوميات لقطات من غريب الخيال ، حين تصور مثلاً أنَّ التراب الإنسانى تتبدل به الاحوال ، ويتغرب بعد بلا الأجساد ؛ حيث يقول:

ويحمل من دارٍ لأخرى ومادرى   ثواها له بعد البلى يتغرب

ومثلٌ يجزئ عن أمثلة ؛ لأن مثل هذه الغرائب تساوره كثيرًا فى كل اللزوميات.

تحدث المؤرخون عن حجم اللزوميات وعدد الكراسات التي كتبت فيها ، وأجملها أستاذنا الدكتور حسين نصار فى صدر تحقيقه لها ، والمحك أنها كثيرة ، والاختلاف فى عدد الكراسات لايعتد به ، حيث لاندرى حجم كل كراسة ولا ما حوت ولكننا ندرى أنها حظيت باهتمام الناس قديمًا وحديثًا روايةً ودرايةً ، حيث شرحها البعض أو أجزاء منها ، كما جعلها الباحثون موضوعًا لرسائلهم الجامعية ، وآخرهم رسالة تحت إشراف كاتب هذه السطور للباحث المجتهد محمود الطويل عن «اللزوميات : دراسة أسلوبية» بعد أن درس فى الماچستير شعر الشريف الرضى: دراسة أسلوبية.

وعسير أن يعدد المرء الدراسات التى قامت حول المعرى ، لكننا لا نغفل دراسات طه حسين ، والعقاد خاصة فى كتابه «رجعة أبى العلاء» ،وتصورها خيرى شلبى رواية ثانية للعقاد بعد «سارة» . ولكن العقاد احتذى فيها المعري فى رسالة الغفران ، وهما «رجعة أبى العلاء» نمط فريد فى الدرس الأدبى والنفسى المعاصر ، وبين يدى دراسات كثيرة بمناهج متعددة لدراسة المعرى وشعره ، ومنها أيضاً عدد خاص من مجلة «الهلال» يونيو ١٩٣٨ ، اختص بجوانب متعددة من أبى العلاء ، وكتبها أفذاذ ذلك الزمن الجميل .

ولدى أيضًا طبعات متعددة من «اللزوميات» ، أقدمها وأهمها طبعة حجرية منقولة عن مخطوطة كتبها عبد الواحد بن عبد الرفيع أواسط صفر ٦٣٩هـ وحضر لمقابلتها محمد بن عبد الجبار بن محمد المالكى ، لخزانة الأمير أبو زكريا المقدسى، والطبعة الحجرية تمت فى الهند ١٣٠٣ هـ فى المطبعة الحسينية ، وعليها هوامش وتعليقات شديدة الفائدة منقولة من المخطوطة ، ثم طبعت فى مطبعة الجمالية بمصر ١٩١٥م - ١٣٣٣هـ ، توفر على تصحيحها وتفسير غريبها أمين عبد العزيز ، وفى سنة ١٩٢٤ طبعها أمين عبد العزيز الخانجى بتقديم كامل كيلانى ، فى جزءين من مجلد واحد ، وثمة طبعات أخرى ، آخرها كما ذكرنا آنفًا ١٩٩٢ بإشراف دكتور حسين نصار ومجموعة من تلاميذه ، وأفاد من الطبعات السابقة ، وبخاصة الطبعة الحجرية .

والملاحظ عمومًا على تلك الطبعات خاصة فى الشروح التفسير اللغوى القليل جدّا ، وربما يأتى الشرح للكلمات المعروفة ، وتترك الكلمات التى فى حاجة إلى شروح ، ولا تسلم تلك الطبعات أيضًا من بلاءات المراجعة المطبعية التى هى ديدن القائمين على الطبع الآن إلا من رحم ربك وهم قليل ، كما تتفشى أخطاء العروض وتسميات البحور بغير أسمائها الصحيحة ، ولعل مركز تحقيق التراث ورئيسه عالم جليل (د. حسين نصار) يتدارك هذا الفائت ، وفى نسختنا تصويبات فى اللغة والعروض ، نقدمها حسبةً لوجه صديقنا أبى العلاء ، وصديقنا حسين نصار .

للزوميات سحر خاص يقع فى شباكه الناس من أهل الشعر والأدب ، وربما

يقبل عليه من كان فى الشرخ من الشباب ، حيث يشعل فى نفوسهم - وهى مشتعلة - الغضب والقنوط ؛ لأن الرجل - رغم بعده عن شرة الشباب إبّان نظمها- كان عارم السخرية ، عاتى القنوط ، فيعوذ به الشباب الذين لا تعطيهم الحياة بقدر طماحهم وآمالهم فيستديرون الدنيا وهم أشد تعلقًا بها وإقبالاً عليها ، حيث الظمأ أشد ، وهكذا يظل أبو العلاء يسخر منا ومن ذاته ومن قوله الذى نردده معه :

أف لما نحن فيه من عنت	فكلنا فى تحيل ودلس!!
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما	مرقش والمسيب بن علس؟

أو من قوله :

أعللت علة «قال» وهى قديمة	أعيا الأطبة كلهم إبراؤها

ولعله كان ينعى «القول» وهو عليل أجوف ، حين لا يجدى القول شيئًا بجانب «العمل» ، كما نعى شيخه المتنبى : «قد أفسد «القول» حتى أحمد الصمم» ، لكننا مضطرون إلى «القول» ولو عليلا وإلا :

مل المقام فكم أعاشر أمة	أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها	وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
ووجدت دنيانا تشابه طامثًا	لا تستقيم لناكح أقراؤها
هويت ولم تسعف وراح غنيها	تعبًا وفاز براحة فقراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حبها	وتقرأت لتنالها قراؤها
وإذا زجرت النفس عن شغف بها	فكأن زجر غويها إغراؤها

ولعلنا نرضى أبا العلاء بعض رضى بهذا «القول» عنه ، أو لا نرضيه فالأمر لديه سواء ، لأنه أخذ علينا متوجهنا حيث صوته يهتف من وراء القرون :

إن مدحونى ساءنى مدحهم	وخلت أنى فى الثرى سخت

الحماسة البصرية

هذا كتاب غبين !

ومؤلفه أشد منه غبنًا ، وأعدى ذلك الغبن محققه !!

والكتب كالناس بعضها مـجدود ، وبعضها غير مجدود ، يتقـدم بعضها وحقه التأخر لو أقسطت الموازين ، ويتأخر منها كثيرًا من يستحق التقديم والصدارة .

لم يرزق كـتاب «الحـمـاسة البـصريـة» كِفْله الواجب من الـعناية كمـا رزقت «حمـاسات»أخر ، وحـقها ذلك الرزق الذى تيـسر لها على يد جـلة من العلماء والمحققـين قديمًا وحديثًا ، كـحماسة أبى تمام ، والحـماسة الصغرى ، وحـماسة البحتـرى ، وحماسة ابن الشـجرى وبقية هذه القـائمة من الحماسـات وما هو من طرازها أو قريب منها مـثل كتب المختارات الشعرية ، حتـى فى العصر الحديث ، حين نشرت «الحمـاسة البصرية» قبل هذه النشرة كانت شيـئًا رديئًا لا يجوز الاتكاء عليه أو الثقة به .

أما الغبن الذى لحق بمؤلفها ، فشىء غريب ، وقَـدْك أن المحقق أجهد نفسه فى التنقير عنه ، فلم يظفر بكبيـر طائل ، إلا ما يكون من طراز التقريظات ، والجمل المدحية التـى لاتفيد غناء ، ولعل اسمه هـو الذى نجا من غيلة النسيـان ، فهو أبو الحـسن على بن أبى الفرج الـبصـرى ، ويعجب المحـقق كـيف أهمله أصحـاب التراجم، ولـم يكن الرجل نكرة ، وإن كان قد عثر على اثنى عشر تقريظاً ألحقها - مـشكوراً - بآخر الكتـاب ، وهى كـما قلت جـمل مـتشـابهـة تكرر نظائرها فى ترجـمات أخرى ، وحـسبك أن ترى مـصداق ذلك فـيمـا يقوله ابن العـديم عن البصرى :

«الشيخ الأجل الكبير الفاضل العالم الكامل ، جامع أشتات الفضائل . . لسان الأدب ، وحجة العرب ، الراقى فى مدارج العلوم إلى أعلى الرتب . . .» والمؤرخ صديق ومعاصر للبصرى ، ومع ذلك لم يذكره فى تاريخ حلب ، وهما «بلديّان»،

لا أود أن أقول : إن المعاصرة حجاب ، ونَفَس المؤرخ على الأديب ، غير أنى أضيف إلى عجب المحقق - إبراءً للذمة - أن تاريخًا أو جزءًا من ذلك التاريخ لم يصل إلينا ، وفيه ترجمة للبصرى ، وإذا طبقنا مقاييس العصر الحاضر فربما لا نجد ذكرًا فى كتب النقاد لبعض الشعراء الذين ليسوا من سِنْخ هؤلاء النقاد ، فابتلعوا ألسنتهم ، وربما يرد على الخاطر هنا الدكتور محمد مندور الذى أرخ للشعر المصرى بعد شوقى ، وأغفل شعراء لهم وزنهم لاختلاف الاتجاه ، مثل أحمد مخيمر مثلاً . فهل نقيس الحاضر على الماضى ، ونرى لدى ابن العديم شيئًا من ذلك ؟ لكننا لانسير فى هذا التساؤل إلى النهاية ، لأن مؤرخ حلب قرظ «بلديه»، وإن كان لم يؤرخ له ، مع أنه أرَّخ لرجال أقل شأناً منه - كما يقول المحقق - وأغفله كذلك ابن خلكان وهو معاصره ، ولم يستدركه ابن شاكر فى «فوات الوفيات» وتجاهله الصفدى فى «الوافى بالوفيات» !!

حتى تاريخ وفاة البصرى لم يتم تحديدها بدقة ، مع أن الأمة العربية تهتم بتاريخ «الوفيات» أشد من اهتمامها بتاريخ الميلاد ، لأن الذى يكون من غمار الناس ويشتهر تعرف وفاته أكثر مما يعرف ميلاده ، حتى محقق الكتاب أصلح تاريخ الوفاة على صدر كتابه «المتوفى بعد سنة ٦٥٨هـ» بدلاً من ٦٥٦هـ ، الممهور بها الكتاب ، فهل بعد ذلك غبن لرجل قرظه اثنا عشر عالماً من خيرة علماء الأمة!!

كان الرجل فى زمن الفتنة المبيرة ، وعاش لحظاتها الأخيرة ، من هجوم التتار الكاسح على الديار الإسلامية بغداد وبلاد الشام ، وقتل الملك الناصر فى الهجوم على حلب ، وقيل إن البصرى كان مع الملك وقتل ، مع أن هذا الرأى مرَّض فيه المحقق ، ورجح أن وفاته بعد سنة ٦٥٨ هـ .

سرى الغبن بعدواه إلى المحقق وآن أن نذكره : وهو الدكتور عادل سليمان جمال ، أستاذ الأدب العربى بجامعة أريزونا بأمريكا ، منذ أمد غير قليل ، وأسهم بقسط وافر من التحقيق ، فقد جمع شعر الأحوص الأنصارى وحققه ، كما حقق شعر حاتم الطائى ، والمنتخب فى محاسن أشعار العرب - نال هذا التحقيق جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٦ ، كما حقق كتابه الذى نحن

بصدده الآن ، وأسهم أيضًا فى جمع مقالات شيخ العربيـة محمود محمد شاكر ، ونشر مجموعة كبيرة من أشعار أبو فـهر ، مشفوعة بتقديم ضاف وتحليل نقدى ، إلى جـانب مـقالاتـه المتنوعـة فى الشعـر واللغـة والنقـد والمخطوطات بالعـربيـة والإنجليزية.

ورجل هذه جهوده كان محله الصدارة ، وإن كان يعـرفه حاقّ المعرفة المشتغلون بالأدب والنقـد والتحـقيق ، ولكن ربما لبـعده عن الوطن السنين ذوات الـعدد ، وزيارته له غبـا ، حجب عن جـمهرة النـاس فضلاً وعلمـاً ، والرجل أيضاً غـير مقتـحم للزحام ، وموارد الإعلام ، قـانع ومقتنع بمتعـته التى يعرفهـا من ذاقها ، حيث يكشف عن مادة شاردة ، أو آبدة قصية فى اللغة ، أو يكتشف شاعراً طمس الزمن اسمه ، هذه المتعة لا يملك أحد حجبها عنه ، ولا الإدلال بها عليه ، وهو عاكف على هذه المخطوطات منذ كان طالباً بالمرحلة الثـانوية ، واكتشف مخطوطة ذلك الكتاب ، وتلمذ لأعلام العصر : فؤاد سيد ، وعبد السلام هارون ، والسيد صقر ، وأبو الفـضل إبراهيم ، وحسن كامل الصيـرفى ، والشيخ الأكبر مـحمود شاكـر - الذى عاشـره أربعين حـولاً كريتًا، وصـاحب رفيـقه العلامـة محـمود الطناحى.

غير أن ثمة غبنا من وجه آخـر ، ربما لا يكون للمحقق سبب ظاهر فيه ، وهو أن المحقق استجـابة لرغبة «أبو الفضل إبراهيم» تقدم بكتابـه إلى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشـئون الإسـلامية سنة ١٩٧٠ ، ومـضت ثمانى سنـوات حتى خـرج الجزء الأول مليـئاً بالأخطاء ، وبرئ مـنه المحقق ، بعـد مشكلات ذكـرها لامجـال للإفاضـة فيـها ، ثم كـان وجه آخـر لحق بالكتاب وبالمحـقق ، وهو أنه صدرت نشـرة له فى الهند بتحـقيق مخـتار الدين أحمـد ، وفيه من الغـرائب ما لايخطر على بال، وحسبك أن حذف المحقق نصف الكتاب ، مكتفيا من المقطوعة ببيتها الأول ، وغابت المراجعة والتحقيق والضبط والتخريج ، والتراجم للشعراء ، ولا أظن أننى أتحف القـارىء بشىء من هذا إلا بأن أرجـو منه أن يراجع مـقدمـة عادل سليمان ، وهو لم يأت إلا بنماذج صارخة من ذلك التحقيق الهندى البديع.

وكان يمكن للمحقق أن يهاجسه خاطر التقاعس عن النشر لولا أنه ارتأى - إلى

جانب التحقيق الغريب - أن الكتاب يمكن أن يحقق أكثر من مرة ، خاصة مع اكتشاف نسخ جديدة أو رؤية جديدة ، وهذا ما كان من عادل سليمان ، الذى نشط لنشرته ونحن معه فيما ارتأى ، وكأيِّن من كتاب تعاوره كثير من المحققين ، لكن نشرة واحدة تأتى تنسى سوابقها كما صنع أبو فهر فى «طبقات فحول الشعراء» .

وقف عادل سليمان على نسخ كثيرة من المخطوطة ما بين خطية ومصورة ، بلغت ثلاث عشرة ، عرف أكثرها ، واعتمد ثلاثًا هى : نسخة راغب باشا ، وكانت فى حياة المؤلف ، وهى العمدة ، ونسخة عاشر أفندى ونسخة نور عثمانية، وللمحقق كلام جيد عن هذه النسخ وغيرها ، لا يجزئ عنه كلامنا .

وعادل سليمان خلق ليكون محققاً ، فالمخطوطات عشقه أخلص لها فأخلصت له ، وأفضت إليه بمكنون أسرارها ولديه قدرة فذة على قراءة خطوطها ، واقتراحات القراءة ، يجيل بصره فى النص فيدرك زبدته ، ويعرف غثه من سمينه، وقد سلخ من عمره سنوات ، لا يكل ولا يفتر عن جهد ، وصبر ، وربما يفتى بعضنا عفو الخاطر ، لكنه - وهو المحقق - يبحث فى المظان ، عارفًا بواطنها المضنونة بها على غير أهلها ، ومنهم عادل سليمان ، ومحمود الطناحى - نور الله ضريحه - .

أفاد البصرى من مختارات سابقة ، أو من حماسات سالفة أقربها إليه حماسة «أبو تمام» - لا أحب إعراب الكنى ، إنما أبقيها على حالة واحدة - وكسرها على أربعة عشر بابًا هى الحماسة - المديح - الرثاء - الأدب - النسيب - الأضياف - الهجاء - مذمة النساء - الصفات والنعوت - السير والنعاس - الملح والمجون - ما جاء فى أكاذيبهم وخرافاتهم - ملح الترقيص - الزهد والإنابة .

ولعل هذه هى أبواب الشعر وأغراض القول ، وإن كانت بعض الدلالات تختلف ، فالأدب - مثلاً - يعنى التخلق بمكارم الأخلاق ، ولعل المؤلف أيضًا لم يخرج عن الإطار العام الذى تختم به الكتب عادة وهو الزهد والإنابة ، أو ما كان يسميه الشعراء والوشاحون الأندلسيون : المُمَحِّصات ، والمكفرات ، لكننا نلمح إلى أى مدى كان العالم المسلم - والصالح منهم - لا يتورع عن ذكر الملح والمجون

والترقيص ، وفى الأخير شعر لن تسمح به الأعراف التى تواضع عليها من يخونوها فى وحدتهم ، وحسبك أن ترقص امرأة «هنها» بكلام راقص ، لن يزيد من عدد الطالحين واحدًا ، أو امرأة ترقص ولدها متمنية أن تراه يقعد مقعد الرجل من المرأة بكلام صريح ، تلك أيام قد خلت حين كان بنيان الأمة قويًا غير وهنان لا تؤثر فيه مثل هذه الأفاكيه ، يفتح صدره وعقله للرياح فلا تعصف به ، بل يقابلها ببسمة وحسبها هذا .

والبصرى - وإن تقيل حماسه أبو تمام - خرج عنه مستقلاً ومستنًا طريقه ، إذ أضاف ثلاثة أبواب ، هى : الأكاذيب والخرافات وملح الترقيص والزهد والإنابة ، وتوسع فى الملح ضامّا إليها المجون ، كما أنه يطيل أحيانًا فى مختاراته ويذكر مقطعات بينها صلة ما ، مثل : تشابه المعنى ، وتداخل الشعر أو لأدنى ملابسة، وإن كان يخرج عن الباب .

والمختارات - عامة شعرية ونثرية - أحدث صيحة الآن ، وتقذف المكتبات العربية والعالمية بأعداد وفيرة منها ، وهى طريقة قديمة عرفها العرب بكل أنواعها، تدل على ذوق المختار ، وذوق العصر ، والقارئ الذى تتوجه إليه ، وحفلت المكتبة العربية - حتى فى العصر الحديث - بنماذج جيدة منها ، وإن كان بعضها يختار من الشعر الإنسانى كله منتخبات ، وربما كان صنيع العقاد فى «عرائس وشياطين» دليلاً على ما نؤم .

وحماسة البصرى تكاد تبلغ ضعف حماسة أبو تمام واعتمد المؤلف على دواوين ومجاميع شعرية ، بعضها حفظته الأيام ، وبعضها سقط من ذاكرتها ، ولولا البصرى ما وقفنا عليها ، وتبلغ القصائد والمقطعات فى هذه النشرة تسعاً وسبعمئة وألف قصيدة ومقطعة .

والمحقق يقف على هنوات للمؤلف يفردها بالذكر سواء أكان ذلك فى المنهج ، أم فى نسبة الشعر ، وروايته ، ناخلاً الآراء المبثوثة ، فى تجرد وحيدة دون أن يصيبه ما يصيب المحققين والمؤلفين عادة من الانحياز لموضوع درسهم ، وكان هذا ديدنه - ولايزال - منذ طراءة السن ، وشرة الشباب التى تدفع إلى الحماسة ، ولكنها كانت حماسة موزوعة فى كل حال .

أضاف عادل سليمان زيادات نسخة «عاشر أفندى» ، وزيادات نسخة «نور عثمانية» فضلا عن التقاريظ ، لكن الشىء الضخم - والعمل كله ضخم (وصل إلى ٢٢٨٦ صفحة من القطع الكبير) - الذى عاناه المحقق هو تلك الفهارس الجامعة التى تنوء بها العصبة من الرجال ، فى زمن لم يكن يعرف الآلات الحاسبة والدقائق التكنولوجية- بلغت ستة عشر فهرساً ، نذكر منها فهرس الأشعار ، والشواهد ، والشعراء والأعلام : الأفراد والأمم والقبائل ، والخيل ، واللغة وهو أضخم هذه الفهارس وأنفسها شأنًا ، وفيه من الغريب والغرائب ما يجب الوقوف عنده ، وفهارس النحو وضرائر الشعر وفيها كلام جيد ، وقد صحح كثيراً من الأوهام اللغوية ومن نسبة الأبيات ومن صوابها ورواياتها المتعددة ، ومن هذه التصويبات نسبة الأبيات المشهور نسبها إلى عوف بن محلم الشيبانى وفيها ! .

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمانْ

حيث عزاها إلى سميه «عوف بن محلم السعدى» ، وهو عباسى بينما قرينه جاهلى ، وقبل هذه الفهارس ثمة شرح للقصيدة أو المقطعة ، مقترن بها فى الهامش مع ترجمة للشاعر وتخريج لأبياته .وناقش عادل سليمان الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عز الدين إسماعيل مناقشة موضوعية ، رائدها البحث عن الحقيقة ، حين هوّن الأول من قيمة الحماسة البصرية ، وأنها من جملة الحماسات الكثيرة ، ورد المحقق هذه النظرة بأن البصرية أضافت واحداً وخمسين شاعراً وست شواعر إلى ما نعرفه من الشعراء القدامى وحسبها هذا ، ورد على تهوين عز الدين إسماعيل من مؤلف الحماسة البصرية ، فى اختياره أبياتًا مفردة ، مع أنها قليلة جدا - كما أحصى المحقق - بلغت ثلاثة مواطن فلا ينبغى اتخاذها ظاهرة ، مع أن المثال الذى ذكره عز الدين مقترن ببيت آخر فى نسخة «راغب باشا» ، وثمة ملاحظة أخرى لعز الدين حول بعض الأبيات المختارة مرتئيًا غثاثتها، ورد عليه المحقق مفصلاً القول فى الغرض الذى تساق فيه الأبيات من الهزل والمجون ، ويقتضيان مهيعًا من القول غير جادّ الأغراض ورصينها، فضلاً عن أننا نرى أن ذوقنا لا يجب أن نسحبه على ذوق الأعصار الخوالى ، فربما يكون ما نستهجنه ممدّحًا لدى القدماء ، دون أن يعنى ذلك عدم نقد ذوقهم فنحن نملك من

الحرية ما يملكـون، ولنا أن نرى فى الشعر غير مـا يرون ، ولكن المثل الذى سيق هنا مستهجنًا ، يجب وضـعه فى إطاره الماجن العابث الذى يشـد لحية المتـحنثين الذين يجبرون الشاعر المجهـول على تعلم القراءة والمواريث ، ولعله كان أميّا ، أو عالماً بـالقراءة والكتـابة يتعـابث بلحى الحمـقى ، كمـا يقول المتنبى فى «قـافيّـته» الذائعة.

ومادة الكتاب مشرقية ، بل هى فى جملتها جاهلية وإسلامية ، وأموية نادراً ، وعباسـية من ندرة الندرة ، بل إنه بعد النسخـة الأولى حذف من تاليها كـثيراً من أشعار المتأخرين ، وأتى بها المحقق فى الزيادات ، ولسنا ندرى سر هذا الاختيار ، مع أنه متـأخر زمناً عن «أبو تمام» مثـلاً (٢٣١ هـ) والتالين له ، فإذا كـان لهؤلاء مندوحة فى وقوف اختـياراتهم عند أمد محدد فما مندوحـة البصرى ، إلا إذا كان يرى الفضل للمتقدم ، أو استن طريقة الاستشهاد الأدبى مثل عصر الاستشهاد عند النحاة ، وكـان يمكن أن تكون اختـياراته إضافـة متمـيزة عن سابقـيه ؛ لأنه من المتأخـرين حيث خنق منتصف القـرن السابع ، وقبله قـرون عديدة تتراحب فيـها الاختيارات ، التى لم تذكر المحدثين إلا لتشابه معـانيهم بمعانى المتقدمين أو صلتها بها ، ويزيد العـجب أكثر أن يتـجاهل الأندلس تمامًـا ، إلا من ذكره يوسف بن هارون الرمادى ، وأسقطه فى نسـخة تالية ، لقد أخذ المشارقـة على ابن عبد ربه مادته المشرقية - فى أغلبها - وقـالوا : بضاعتنا ردت إلينا ، فما باله يسقط أقاليم متعددة تسمى المغرب الإسلامى وفيه الأندلس والبرتغال - حالياً - وفيه شعراء من عصر بنى أميـة ، ومن بعده ، أجادوا وظفروا باستحسـان المشارقة حتى إن المتنبى يقول لصاحبه : أنشدنى لمليح الأندلس يعنى : ابن عبد ربه .

أما الرمادى ويلقب «بأبو جنيش» ترجمة للكلمة الإسبانية El Ceniciento نسبة إلى Ceniza وهى الرماد ، فـقد كـان شيوخ الأدب فى وقـته يقولـون عنه : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة يعنون : امـرؤ القيس والمتنبى ويوسف الرمادى ، وقد توفى ٤٠٣ هـ ، وكان بيـنه وبين المتنبى تغاير وتعليـقات من كليهـما على شـعر الآخر ، ليست فى صـالح شعرهما على كل حال ، ويرى أنخل جونثـالث بالنثيا أن الرمادى لـيس نسبةً إلى بـلد يسمى رمـادة ، وإنما هو الصورة العـربية لكنيـته

بالإسبانية الدارجة أبو جنيش ، مثل هذا الشـاعر كان على المؤلف الشرقى أن يعتد به وأن يدرجة هو وقـرناءه الكبار فى مصنـفه ، وربما كان الرجل يصنع مـا صنعه بعض الأندلسـيين من ذكـر أدبائهم على سنة المشارقـة ، كمـا فعل ابن بسـام فى الذخيرة مثـلاً ، وواحدة بأختها أو أشد منها ، وإن كـان الشنتريني (ابن بسام) لم يغفل المشارقة حيث تحدث عن الإغارة أو السلخ للمعانى الشعرية ، ومصنفه حافل بذكر أمـثال ابن الرومى والنواسى ، وحبيب بن أوس وإخـوان هذا الطراز ، وقد جوزى البصرى بشىء مما فعل من التجاهل ، فتجاهله حتى من عاصره ومن تلاه، هل نشعـر بشىء من الشماتة فـيه ؟ ربما ، لكنها شمـاتة بيضاء تذكـر له فضله ، وتوقره ، وتحترم منهجه وإن خالفته .

ومختارات البصرى - كغيرها - بابة كبـيرة لدراسة ما أسماه القدامى «السرقات الأدبية» بتفريعاتها المتعددة ، أو ما يسمى حديثًا «التناص» وإن كان صديقى محمود الطناحى - رحمـة الله عليه - ينكرها مـستثقـلاً ، لأن ورود المعانى المتشـابهة - خاصة فى الحماسة البصرية - متعاقبة ومنصوصا عليها تفتح مجالاً للدرس النقدى عن أصالة الشاعر ، وتطور المعـانى الشعرية ، وصياغتها ، والأخـذ الخفى لشاعر من شاعر سـالف ، وتصريف الكلام ، وحسن التأنى أو سـوئه ، وقد وقفنا أثناء القراءة على كلام حسن للمؤلف والمحقق ، وربما كان رثاء أبو تمام لمحمد بن حميد الطوسى فى «رائيته» المشهور وسلخه بعض المعانى ، بل الأبيات الكوامل من شاعر غير معروف هو «أبو مُكْنِف» من هذه البابة وقد فطن دعبل الخزاعى إلى ذلك وإن كذب الناس دعبلاً ، والقَضية لهـا نظائر فى الحماسة ، وتحتاج إلى تقصٍ رحب ، ربما يصلح مجـالاً لدراسة جامعـية ؛ شريطة أن يكون البـاحث من الحفظة لا من أشباه الباحثين هذه الأيام .

هل برئ هذا السـفر الضـخم مما يمكن أن تخـتلف حـوله وجهـات النظر؟ لا نعتقد، وإن كـان هذا الاختلاف يسيراً ، يقف فحـسب لدى الجزئيات ، وربما كان الوقوف عندها من التحنث والتنطس الذى لا يريغه إلا أمثال عادل سليمان ، حيث يأخذ نفسه بكثـير من الحرج العلمى المحمود ، وبسعـة الصدر التى ترى الاختلاف فطرة إنسانية ، بأصل الخلقة قـبل الاتفاق ، ولماذا ندور ونداور حول الاختلاف ،

وعادل سليمان نفسه فى خاتمة مقدمته المسهبة ، قال : «يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشريها بذكر ما يراه فيها من أخطاء ؛ لتتخلص من شوائب التحريف والتصحيف الذى منيت به وتخرج للناس صحيحة كاملة» ، وهو يحتذى فى ذلك شيوخ المحققين فى عصرنا، الذين لا تأخذهم زعارة خلق ، ولا عزة بالإثم ، كبعض خفاف المحققين من الجامعيين ، وأشباههم . ولكننى معتقد أن فى بعض ما أذكره يمكن عزوه إلى أخطاء الطباعة ، وهى مما عمت بها البلوى. ورد ص ٥٣٠ بيت حاتم الطائى «الخالطون» وحقها النصب بالياء ، وإن كان للرفع وجه ، على تأويل نحوى ، لا نلجأ إليه إلا لضرورة ، وفى ص ٥٣٥ فى الحاشية بيت هو :

قد رضيناه فمت بدائك غيظا لا تميتنّ غيرك الأدواء .

وصوابه حذف الهاء فى «رضيناه» أو بقاؤها مع حذف الفاء بعدها .

- ورد بيت الأعشى الهمدانى :

أيها القلب المطيع الهوى أنى اعتراك الطرب النازح

وهو من السريع ، صوابه «يا» للنداء ، وإلا كان صورة من المديد ، والقصيدة كلهامن السريع .

- ورد بيت خريم بن أوس ص ٥٨٩ ، وهو مع الأبيات للعباس بن المطلب كما استظهر المحقق ، وشرحها محمود الطناحى فى مقالة له بالهلال :

أنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاقت بنورك الأُفُق .

وهو من المنسرح ، صوابه «وأنت» وربما صح على نية الواو ، غير أنى لا أسيغ حذفها ، ولو كان لها تأويل عروضى كالخرم .

- أبيات تنسب لآدم ص ٦١٠ وهو منها براء ، وحسبها الإقواء الذى فيها ، وهى «حائية» مضمومة الروى ، فيها «وقل بشاشة الوجه المليح» وحقها الكسر على الصفة ، ورأى لها أبو سعيد السيرافى وجهًا هو نصب بشاشة وحذف التنوين ، وهى حجة نحوية عروضية داحضة وإن كان المحقق استظهرها ، وأنا مع المعرى فى

روايته «وغودر فى الثرى الوجه المليح» وهى وجهة شاعر لا نحوى ، ومعروف أن المعرى من شيوخ اللغة والنحو والعروض فرأيه أولى وأشعر ، وإن كانت الأبيات كاذبة النسبة لآدم .

- ورد شعر لصالح بن عبد القدوس ص ٨٧٣ .

رأيت صغير الأمر تنمى شؤونه فيكبر حتى لا يحد ويعظم

وورد شبيه له فيما بعد «فكيف كبرت ولم تكبرى» . والفعل على وزن فهو بكسر العين وفتحها فى المضارع من استعلاء السن ، أما أن يعظم فهو من باب «عَظُم» ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الصف ٣] .

- ص (١٠٠٢) ورد بيت قيس بن الخطيم :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ... ماذا عليهم لو أنهم وقفوا.

ذكره المحقق بتسهيل همزة «أنهم» كأنه ارتأى أن الوزن يستوجبها ، مع أن الوزن يصح بتحقيق الهمزة ، وعليه فالروايتان صحيحتان من المنسرح.

- ص (١٠١١) ورد بيت مضرس بن قرط المزنى :

فمت كمدا أو عش وحيدا فإنما ... أراك تكلفنى ما لا أراك تطيق

وصوا به حذف «أراك» الأولى وهو من الطويل .

- ورد ص (١٠١٥) بيت سوادة بن كلاب القشيرى :

لو سألت للناس يوماً بوجهها ... سحاب الثريا لاستهلت مواطره

ولعل من الصواب زيادة «واو» أو «فاء» فى أول البيت ، بدلا من اللواذ بالخرم وهو زحاف نستهجنه وإن كان واردًا . ونرى أيضا قلقاً فى «للناس» بحرف الجر ، وربما كانت نسخة «ع» أضبط ، حين قالت الرواية «سألت ظمياء» .

- ورد (ص ١٦١٤) بيت يقول :

ترفع الصوت أحيانًا وتخفضه ... كما يطن ذباب الروضة الهزج

لعل الصواب «ترفع» بتضعيف الفاء ، أو بزيادة «فاء» أوله وهو من البسيط، ويراعى فك التضعيف فى الفعل «تمشط» فى ص ١٦٤٢ ، وفى الأبيات كلام جيد يحرج إخواننا المتوقرين ، ولكنه صادق وبرئ .

- ص (١٦٧٠) تحذف الفاء من البيت الثالث وهو من المنسرح ، كما تحذف «الواو» من البيت الأول ص ١٦٧٣ ، وهو من المنسرح كذلك ، وتضاف «واو» فى البيت الثانى ص (١٧٥٣) ليستقيم الوزن وهو من الطويل .

وثمة أوهام قلائل يصح عزوها إلى الطبع والتصحيح ، أو قراءة الفكر والذاكرة لا قراءة العين الباصرة وكلها مما كتب على المرء من النسيان والسهو والغلط ، وما نجا منه أحد ، وحبذا لو نشر المحقق الكريم دراسته الوافية عن الكتاب فى جزء مستقل ، ليكتمل العمل درساً وتحقيقاً ، ولكنه مع أخواته السالفات بناء شامخ فى التحقيق يشهد لعادل سليمان بعلو كعبه فى الفهم والتذوق ، ونخل الكلام ، وأنه امتداد كريم لتلك الذؤابة الكريمة من شيخة المحققين الكبار شاكر وهارون ، وأنه قرين كريم لصنوه الراحل العلامة محمود الطناحى .

ولعل هذه الحماسة تذيع بين جمهرة القراء والأدباء والمتأدبين ، فتحتل مكانتها ومكانها بين أبناء العربية الأصلاء ، لا أبناء اللغو والمجانة من أدعياء الأدب والأدباء .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة
لابن بسام

المجلد الأول من القسم الثانى

تحقيق : الدكتور لطفى عبد البديع

طال انتظار الناس لاستكمال هذا الكتاب أكثر من ثلاثين عاما ، منذ أخرجت لجنة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول آنذاك - المجلد الأول من القسم الرابع عام ١٩٤٥ ؛ وكانت قد أخرجت من قبل القسم الأول فى مجلدين عام ١٩٣٩ و١٩٤٢ ؛ وقد اضطلع بتحقيق المجلد الأول من القسم الثانى الدكتور لطفى عبد البديع ؛ وهو رجل تخصص فى الدراسات الأندلسية منذ أمد طويل ؛ مما يوحى بأن الكتاب صادف أهله ، لكن الكتاب - على صورته هاته - يثير جملة صالحة من المناقشات التى قد تشعر فى النهاية بأنه يحتاج لبذل جهد آخر ؛ حتى يخرج للناس على صورة قريبة مما وضعها ابن بسام .

عوَّل المحقق - كما قال فى المقدمة - فى إخراجه على أربع نسخ : الأولى والثانية من مصورات جامعة القاهرة عن نسختين من مخطوطات دار الكتب الخديوية وعلى إحداهما تملكات بتواريخ ١١٤٢ و١٣٦٢ و١٣٣٥ . وقد رمزنا لها بالحرف «م» ؛ والأخرى ليس عليها شىء ؛ ورمزنا لها بالحرف «ح» ، والثالثة مصورة عن مخطوطة الرباط ورمزنا لها بالحرف «ط» ؛ والرابعة مخطوطة من خزانة عبد الحى الكنانى ؛ وهى من القطع الصغير وليس عليها تاريخ ورمزها «ك» .

بيد أن المحقق فاته - وهذا شىء له أهمية ضخمة - أن يرجع إلى نسخ أخرى هى أقدم بلا شك ، وإليه ثبتًا بما استطعنا الوصول إليه :

* نسخ القسم الثانى من الذخيرة - الخزانة الملكية بالرباط :

* رقم ٧٧٥٣ انتهى نسخه عام ١٠٠٢ هـ بخط أندلسى .
* رقم ٩١٣٣ انتهى نسخه يوم الخميس ٢٠ من شعبان عام ١٠٠٢هـ ؛ يقع فى ٤٧٠ صفحة .
* رقم ٧٧٨٢ - بها نقص من الأول والآخر بخط مغربى .
* رقم ٩٤٩ - بخط مغربى .

نسخ الخزانة العامة بالرباط :

* رقم ٧٣٥ ميكروفيلم - مصور عن مكتبة خاصة لعباس ابن ابراهيم .
* رقم ٦٨٧ ميكروفيلم - صورته جامعة الدول العربية .
* رقم ٩٦٦ ميكروفيلم - صورته جامعة الدول العربية عن عباس بن ابراهيم ؛ ويقع فى ٤١٥ صفحة .

والصورتان الأخيرتان على قيد رمح من إقامة المحقق بالقاهرة .

* رقم ١٣٢٤ « د » راجع فهرس المخطوطات المصورة بجامعة الدول العربية ، ويقع هذا الجزء فى ١٥٧ لوحة مسطرتها ٣٠ بخط مغربى ؛ وينتهى بترجمة ابن سارة الشنتريني (منقول عن الزاوية الحمراء ورقمه ٤ بهذه الزاوية) .
* هذا ،عدا نسختين أخريين ؛ إحداهما بالخزانة الوطنية بالرباط رقمها ٢١٨٢ ، وقد فرغ الناسخ منها فى زوال يوم الأربعاء ٢٤ من ذى القعدة عام ١٠٠٥ ؛ بخط أندلسى جميل مشكول ،وراجع بروكلمان ملحق ١ ص ٥٧٩ ؛ والأخرى نسخة المجمع العلمى العراقى ببغداد كتبها محمد حمدى ، وانتهى منها ثامن عشر من رجب ١٣٣٢هـ ؛ بخط نسخ جميل ؛ تقع فى ٥٠٦ صفحات .

هذه النسخ تتفاوت حداثة وقدامة ، ومن بديه الأمور فى التحقيق أن على من يضطلع به أن يوازن ويدقق ؛ ويرى كل نسخ الكتاب ؛ متخذا بعد ذلك من إحداها عمدة - وغالبا ما تكون أقدمها غير غافل عن استشارة الأخريات ؛ وأن يصف تلك النسخ التى رآها واعتمد عليها وصفًا دقيقًا كأن القارئ يراها ، أما ألا يزيد المحقق عما فعلته لجنة الآداب عام ١٩٣٩ ؛ بل ربما قصر عنها -

وهى لها الصدر لأن هذه النسخ لم تكن قد ظهرت بعد - فهذا مما يتسع فيه أمد الخلاف بيننا.

وليت المحقق وقف عند مقدمته التى لاتتجاوز الصفحتين ؛ مع عدم استيفاء تلك النسخ الأخرى للكتاب ، بل أنه نعى - وحقه أن ينعى على ما صنعه هو فحكمه ينسحب عليه - على من سماهم صناع تاريخ الأدب ؛ لأنهم يكتبون فيه غير معتمدين على «الذخيرة» .

هذا صحيح من وجه ؛ باطل من وجه آخر، فالذخيرة عدة هذا التاريخ ولكنها ليست عدته الوحيدة ؛ أن تتوقف الدراسة حتى نعثر على كل الكتب . وكثير منها رهن المخطوطات لم يعثر عليه ، بل إن بعضها التهمه الضياع فيما التهمه . ومن خطل الرأى أن نطالب بالصمت حتى نعثر على كل شىء ؛ فالحفائر والنقوش والمخطوطات ؛ من شأن المحدث منها أن يصحح غلطًا اقترفه الدارسون ، لأنهم لم يتمكنوا من الاطلاع عليها فى زمن سالف ؛ ومن واجبهم أن يدرسوا وأن يتوصلوا إلى نتائج أتاحتها لهم سبل البحث العلمى الميسرة لهم آنئذ ؛ ولا تثريب عليهم إلا أن يتمسكوا بما وصلوا إليه قبل حين يبين فساده بما اكتشف من وسائل جديدة ، ولهذا جعلت الطبعات المختلفة للكتب ؛ ثم إن النتائج التى يحصل عليها مؤرخ الأدب قابلة للتغير ؛ لأنها مساوقة لطبيعة العلم ذاته .

بذل المحقق - كما قال - أقصى ما فى وسعه فى التصحيح والضبط وتحرير العبارة وتجلية الغامض وشرح الغريب وإزالة الإيهام ، والتعريف بالأعلام ،كل هذا جيد حين تكون العبارة ذات مدلول ؛ أما أن تفقد الكلمات معناها ويصير الكلام من قبيل الرصف والإنشاء ، فهذا مما لايحسن السكوت عليه - كما يقول النحاة - ولئلا يكون كلامنا خاوى الدلالة ؛ إلى القارئ طرفا من الملاحظات التى استطعنا العثور عليها ؛ مرتبة حسب ورودها فى صفحات الكتاب ؛ لتتسنى المراجعة والمعاودة .

---

(١) رأيت هذه المصورات في خزانة صاحبي الباحث عبدالله جمال الدين بمدريد .

ص ٢١ قال ابن عبدون :

يا نفحة الزهر من شوال وافانى　　　　خلوص رياك فى أنفاس آذار

علق المحقق فى الهامش : شوال علم علي شهر الفطر ؛ وجاز منعه من الصرف لوجود إحدى العلتين فيه ؛ وهى العلمية.

كلام فضفاض ، لأن هذا لا يجوز فى النثر ؛ إنما مناط جوازه فى الشعر فقط وهى ضرورة مستهجنة ؛ ثم أن عروض البيت زنتها «فاعل» ؛ ولا يستقيم ذلك إلا فى حالة التصريع فقط ، وليس فى البيت تصريع . وكان على المحقق الالتفات والتعليق .

ص ٢٢ من شعر المعتضد يخاطب أباه القاضى ؛ ورد هذا البيت فى قصيدته:

ولكنك الدنيا إلى حبيبة　　　　فما عنك لى إلا إليك ذهاب

البيت اقتبسه المعتضد من المتنبى ؛ وهو فى ديوانه شرح البرقوقى جـ ١ ص ٣٢٧ وكان الواجب أن يوضع بين قوسين تميزًا له عن بقية أبيات القصيدة ، وأن يشار إليه فى الهامش منسوبا لصاحبه .

ص ٣٢ ورد بيت نسبه صاحب الذخيرة للمخزومى إبى سعيد ؛ ونقل المحقق فى الهامش اسم هذا الشاعر ولم يعرفنا به ؛ وهذا شأنه الغالب فى كل تعريفه بالأعلام ، بل إنه أحيانًا يترك غير المعرف ويعرف المعرف ؛ مثلاً يقول عن «سحبان» إنه مضرب المثل فى البلاغة ، ومثل «سحبان» معروف لدى تلاميذ المدارس الثانوية ؛ ليته فعل ذلك مع الأسماء التى جر عليها النسيان أو الغموض ذيله ، وهنا يفيد فائدة مطلوبة ، لكن مثل «سحبان» لا يكلفه شططاً بالرجوع إلى الكتب .

ص ٣٥ يقول ابن بسام : وناوله - الضمير للمعتمد ابن عباد - بعض نسائه كأس بللور مترعًا خمرًا؛ ولمع البرق فارتاعت فقال :

ريعت من البرق ، وفى كفها　　　　برق من القهوة لماع

ياليت شعرى؛ وهى شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

نسب المحقق هذين البيتين إلى بحر «الرجز» والصحيح أنهما من السريع ؛ ثم علق على كلمة «كأس» فقال : أنها مؤنثة مؤاخذا ابن بسام على عبارته الواردة بتذكيرها ، أما أن الكأس مؤنثة فهذا صحيح ؛ أما مؤاخذة ابن بسام فهى على غير وجهها ؛ لأن عبارته تحتمل الصحة ، فكلمة «متسرعا» تنصب على الحالية على وجه راجح ؛ ولها نظير فى شواهد النحو :

نجيت يا رب نوحا واستجبت له فى فلك ماخر فى اليم مشحونا

وصاحب الحال فى المثالين نكرة ، ويسوغ فى مثالنا هذا التذكير أن كلمة «كأس» مضافة إلى بللور ؛ «وهى مذكرة ؛ والمضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ، ومنه قول القرآن الكريم : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل ١٢٣]؛ ويجوز أن تجر الكلمة - وهنا احتمال خطأ الناسخ - ووجه ذلك أنه فى حالة الإضافة «كأس بللور» يجوز الإخبار أو الوصف بالتذكير والتأنيث مراعاة لأحد المتضايفين ، ومنه قول الله فى القرآن الكريم : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٥٥].

ص ٣٥ ورد هذا البيت للمعتمد :

مهاة تخيرتها خلة لقد أحسنت مقلتى افتقادا

الصواب «مقلتاى» نحواً وعروضاً ؛ فهى فاعل «أحسنت» ؛ وإن أراد المحقق «مقلتى» فى حالة الإفراد - إذ إنه لم يضبطها - فالبيت مكسور .

* فى ص ٥٠ «والذر يعذر فى القدر الذى حمل» يعلق المحقق بقوله : هذا اقتباس ، ولكنه لم يحاول أن ينسبه لصاحبه ؛ وواضح أنه شطر بيت من البسيط .

فى ص ٥٣ ورد هذا البيت :

أعين على نفسى بتزويد أنسها بلى ؛ وقولى لا شىء على حرام

كلمة «بلى» زائدة وبها يختل الوزن .

* ص ٥٤ «وكان الحصرى» بفتح الصاد المهملة ، والكلمة - كما ضبطها الدكتور زكى مبارك «الحصرى» بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة ؛ بعدها راء مهملة نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها كما ذكر ابن خلكان ؛ ويرسمها علماء الاستشراق بهذه الصورة HOSRY وتاريخ الأدب يعرف رجلين بهذا الاسم ؛ صاحبنا هذا أبو الحسن صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غده　　　أقيام الساعة موعده

والثانى أبو اسحق صاحب«زهر الآداب» (٢) .

* ص ٥٨ ورد بيت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى　　　على إخوانهم لقتلت نفسى

يعزوه المحقق لبحر الهزج ، والصواب أنه من الوافر .

* ص ٦١ ورد هذا البيت للمعتمد :

والغر لا يفهم شيئا فما　　　يفتح إلا للرضاع فما

تقفيلة البيت الأخير فيها نظر، فزنتها «معلا» وقد قبح العرضيون ذلك، فضلا عن أن الزوق الموسيقي ينبو عنها نبواً فادحا، وقد رجعنا الي نسخة الديوان المطبوعة سنة ١٩٥١ بتحقيق الاستاذين أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد فوجدنا ، البيت علي هذه الصورة :

والغير لا يفهم شيئا فما　　　يفتح إلا لرضاع فما

ونحن مع هذه الرواية ؛ إلا أننا نستنكر كلمة «الغير» الواردة فى الديوان ؛ لأنه لا وجه لها ؛ آخذين برواية الذخيرة ؛ لأن القصيدة كلها عن طفل المعتمد حين رأى أباه يوسف فى قيوده ويناسبه الوصف بالغرارة .

* ص ٦٣ ورد هذا البيت :

ماذا رمتك به الأيام يا كبدى　　　من نبلهن ؛ ولا رام سوى القدر

---

(٢) راجع ما كتبه الدكتور زكي مبارك في تقديمه لـ (زهر الآداب) جـ١ ص ب .

نعتقد أن الخطاب للكبد «رمتك» بكسر الكاف وهى مؤنتة .

ص ٧٥ «وإنما هو الفجر أو البجر» ؛ وردت فى كلام أبى حفص الهوزنى ، وكان على المحقق أن يعزوها لقائلها ، وهو أبو بكر الصديق حين حضرته الوفاة.

* ص ٧٦ ورد هذا البيت فى جملة أبيات للهوزنى أيضًا :

خبــر مــا جاءنـــا مصمئـــل   جـــل حتى دق فيـــه الأجـل

المعروف أن هذا البيت من قصيدة ذائعة الشهرة ، تنسب لتأبط شرا أو لابن أختـه ؛ وهى من النمط الصعب على حد قول أبى عبيد البكرى فى كتابه «سمط اللآلىء» ؛ وقد تحدث عنها شيخ المحققين الأستاذ محمود شاكر حديثا ضافيا فى مجلة «المجلة» القاهرية ، فكيف غاب عن المحقق حتى ما يكتب فى المجلات التى يقرؤها جمهرة الناس ، والهوزنى فى قصيدته هذه يتنر النظر إلى تلك اللامية الجيدة ؛ ولكنه لم يدرك شأوها .

وقد ضبط الدكتور عبد البديع القافية بضمة واحدة فقط ؛ ولاندرى كيف ساغت لديه النغمة ، معلقا فى الهامش بأن تخفيف المشدد فى القوافى من الضرائر الشعرية ؛ كلام غريب ؛ لأن القافية مشددة ولا حاجة بنا إلى تلك الضرورة ؛ لأن التخفيف - بلا ريب - مفسد للوزن .

* ص ٧٩ ورد البيت الآتى معزوا لبحر الخفيف ؛ وصحته بحر الرمل :

لـو بغير المـــاء حلقى شـــرق   كنت كالغصـان بالمـاء اعتصارى

* ص ٨٦ ورد هذا البيت ضمن قصيدة لأبى الوليد الباجى :

غـدأ نافرا ؛ لا أستطيع اقتناصـه   ولـو أن لى يـوم الحبيب حبائــل

حرف الروى مضموم ، ونحن لا نعرف لها مساغا نحويا مقبولا ؛ فإن الكلمة حقها النصب اسما «لأن» ؛ وفى هامش الصفحة نفسها ورد هذا البيت معه بيت يسبقه فيه سقط :

فإن الرســـول عليـــه السـلام   أحـق العــذاب على من صـوره

البيت من المتقارب ، لكنه مختل الشطر الثانى .

* ص ٨٧ ورد هذا البيت :

يا قلب كم تلهنى كاذبا أو صادقا عن الهدى جائرا

كلمة «تلهنى» بضبطها هذا خطأ به ينكسر الوزن ؛ والصواب فتح اللام بدون تشديد .

* ص ٩٣ ورد هذا البيت :

كأنما أنواره حلة من وشى صنعا السرى الرفيع

والصواب «صنعاء» بألف التأنيث الممدودة رعاية للوزن .

* ص ٩٤ ورد هذا البيت :

ما هو إلا نور برهانه وحجة اللوطى على الزانى

لابد من حذف التشديد فى كلمة «اللوطى» رعاية للوزن .

* فى ص ٩٧ ، واذكر قول الحسين :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر أستجده

علق المحقق فى الهامش بقوله «لعله الحسين بن مطير» ، كلمة «لعله» هذه كثرت كثرة شديدة فى هوامش الكتاب ؛ مما يشعر القارئ بأن المحقق اعتمد على ذاكرته وغالباً ما تخونه ؛ فالبيت من قصيدة مشهورة عارضها «البارودى» فى العصر الحديث - وهى لابن الحسين المتنبى ؛ وكلمة «ابن» لعلها سقطت من النساخ لأن صاحب الرسالة ، وهو أبو الوليد المعلم ، راعى السجعة بين كلمة «عين» قبل كلمة «الحسين» ؛ وكان يستطيع أن يقول «المتنبى» مراعاة للدكتور عبد البديع ؛ لكنه نصب له شركا ، والقصيدة فى ديوان المتنبى شرح البرقوقى جـ ٢ ص ١٣٠ .

* ص ١٠٢ ورد هذا البيت :

أيام أمرح فى الصبابة خالعا وسنى ؛ وأسحب في المجون ذيولا

الصواب «رسنى» بالراء لا بالواو .

* ص ١١١ ورد هذا البيت :

مزجت حمرة اليواقيت بالدر ... فجاء به على حسب ذاته

البيت بصورته مرتبك مختل الوزن ، لعله يستقيم بزيادة ألف «فجاءا» وهو من الخفيف .

في الصفحة نفسها جاءت ثلاثة أبيات :

كأن نور الكتان حين بدا ... وقد جلا حسنه صدا الأنفس

أكف فيروزج معاصمها ... قد سترتهن خضرة الملبس

أو لا؛ فزرق الياقوت قد وضعت ... على بساط يروق من سندس

ضبط المحقق حرف الروى بالكسر ، وهذا صحيح وزنًا حسب الدائرة العروضية ؛ أما الواقع الشعرى - حسب علمنا - فلم يرد ضرب المنسرح صحيح التفعيلة «مستفعلن» وعلى هذا نعتقد سكون السين ؛ وتكون التفعيلة مزاحفة «مستفعل».

* ص ١١٢ ورد هذا البيت :

تزيد[٣] ذوى الألباب فضلا ولم تزل ... تزيل بطبع الجود من طبع البخل

شرح المحقق «طبع» بالتحريك جمع طبع وهو السجية ، ونحن نختلف معه في هذا الفهم ؛ فالطبع بالتحريك هنا الدنس ؛ والشاعر يريد أن يقول : إن للبخل دنسا لا يزيله إلا الجود الذى تكسبه الخمر شاربها ، وقريب من هذا المعنى بيت المتنبى :

وما الحياة ؛ ونفسى بعدما علمت ... إن الحياة كما لا تشتهى طبع [٤]

* فى ص ٢٢٠ ورد هذا البيت :

بأيهما أنا فى الحب باد ... بشكر الطيف أم بشكر الرقاد

لابد من حذف الباء فى «بشكر» الثانية ليستقيم الوزن .

---

(٣) الضير للكأس .

(٤) راجع شرح البرقوقي للديوان والقاموس المحيط مادة «طبع» .

* ص ١٢٤ ورد هذا البيت :

خـــود وثـيـــــر نصفـهـــــا ونـــصـــفــهـــا مـــهـفـهـــف

نسبه المحقق إلى مجزوء الكامل ؛ وصوابه مجزوء الرجز .

فى هامش الصفحة نفسها فسر المحـقق كلمة «لفاوان» فقال إنها مثنى «لفاو» والصواب «لفاء» تقلب ألف التأنيث الممدوة واوا عند التثنية في مثل هذه الحالة.

* ص ١٣٠ ورد هذان البيتان :

نطـق العـود فعاتـــب مـن نطـق واصطحبــها مزة أو فى فاغتبــق

لا تــدعهـــا قهــوة كـرخيـــــة لم يدعهـا نوح إذ خـاف الغـرق

الشطر الثانى مـن البيت الأول لابد من حذف «فى» ليـستقـيم الوزن ، أما الشطر الثانى من البيت الـثانى فنحن نعتقد تنوين «نوح» مع تســهيل همزة «إذ» مع أن رواية المحقق صحيحة ؛ إلا أننا أميل لهذا التصحيح ، لكن صرف «نوح» أرجح من منعها من الصرف ؛ لأنه علم ثلاثى ساكن الوسط ، وقد وردت فى القرآن الكريم أكثر من مرة مصروفة .

* ص ١٣٥ ورد هذا البيت :

مــاذا على النـــاس مـن النـــاس ما أحمـق بعـــض الناس يا ناس

الشطر الثانى مـختل الوزن ربما استقام مع صـيغة التعـجب الأخرى «أحمق ببعض الناس يا ناس» ؛ لكننا نقف عند كلمة «ربما» غير متجاوزين .

فى هامش الصفحة نفسها وردت أبيات للطغرائى فى صفة النيلوفر ؛ آخرها فى هذا البيت :

أنامـل أصبـــاغ صبغـن بنيلـــه ورحتـه بيضـاء فى وسطهـا تبـر

الشطر الثانى مختل وزنًا ، يستقيم هكذا «وراحته بيضاء» ؛ أما الشطر الأول فلا يستقيم قراءة ولا معنى ؛ وقد ورد فى ديوان الطغرائى (٥) :

---

(٥) الطبعة الأولى ؛ مطبعة الجوائب - قسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

أناملُ أصباغ صبغن بنيله وراحته بيضاء فى وسطها تبر

وعليه يستقيم الفهم .

* ص ١٣٨ ورد هذان البيتان :

وابيض ذا وأسود هذا واجتمع الليل والنهار

خد جرى للنعيم فيه ما بأحشاى منه نار

الشطر الأول من البيت الأول مختل الوزن ، والشطر الثانى من البيت الثانى مختل أيضا .

* ص ١٥٢ ورد هذا البيت :

هم نقضوا ميثاق عهدك عنوة فأوثقهم فى ربقة الأسر موثق

لابد من حذف التشديد فى «موثق» ليستقيم الوزن على عيب فى القافية - فى رأى أصحاب العروض - لكنه محتمل ووارد بكثرة ؛ ولسنا معهم فى استهجانهم إياه .

* ص ١٦٨ ورد هذا البيت :

أهنيك أم هذا الأنام بأنعم جميعهم فى حليها يتبختر

الصواب «الأنام» بالنصب ، عطفا على ضمير المخاطب المنصوب .

* ص ١٧١ ورد هذا البيت :

لا تقس غرس ربنا بالذى يغرس البشر

حق حرف الروى السكون ، ولا استقامة للوزن بغيره : وهو من مجزوء الخفيف .

* ص ١٧٤ ورد هذا البيت :

بان وصف الأقاحى اللذ وصفت لم أرضه

صوابه «الذى» وفى البيت تدوير .

فى الصفحة نفسها جاء هذا البيت :

وسوسن قد حكى سوالف الغيد فضه

الشطر الأول مختل الوزن ، والبيت من جملة أبيات من بحر المجتث ؛ وتفعيلته الثانية «فاعلاتن» لا «فاعلن» كما وردت هنا .

* ص ١٨٣ ورد هذا البيتان :

سقانى كأسه ولها دبيب زادنى ولها

غزال إن رأى ولهى زها عن قصتى ولها

عزاهما المحقق إلى بحر الهزج ؛ والصواب أنهما من مجزوء الوافر .

* ص ١٩٠ ورد هذا البيت للمتنبى مادحًا على بن منصور الحاجب فى قصيدة تعرف بـ «الدينارية» .

فى رتبة حجب الورى عن نيلها وعلا ، فسموه على الحاجبا

ضبط المحقق «حجب» مبنيا لما لم يسم فاعله ؛ المعنى يحتمل ذلك ، لكن رواية الديوان «حجب» مبنيا للفاعل ؛ ونحن إليها أميل ؛ مساوقة للفعل «علا» المبنى للفاعل أيضا ؛ ولأن المعنى أجدر بالمدح مع هذه الصيغة ، فالممدوح معها صنع شيئًا إيجابيًا به يستأهل المحمدة ؛ ولأن هذه الصيغة أيضا أشكل بمنهج المتنبى من إسناد الفعل إلى الإرادة الإنسانية ، وإلا فأى فضل للممدوح حين حجب الورى - بضم الحاء - عن نيل رتبته ؛ إن هذا إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح .

فى الصفحة نفسها ورد هذا البيت :

ما كل ناضر دوحة روضا ولا كل ضياء راق حسنا كوكبا

نعتقد أن الصواب «كل ضياء» بالإضافة ليستقيم المعنى على وجهه مساوقًا لصدر البيت ، والذى أشكل على المحقق صيغة «مفتعلن» فى بحر الكامل ؛ فضبطها بتلك الطريقة الواردة فى الكتاب تخلصًا من المأزق الموسيقى ، مع العلم بأن صيغة «مفتعلن» صحيحة وواردة فى بحر الكامل ؛ لكن على قلة .

* فى ص ١٩٣ ورد هذا البيت :

تسمى اللحام ؛ وليس مشابهة وكيف يشتبه المخدوم والخدم

ترك المحقق اسم البحر على غير العادة ؛ وهو من البسيط ، ونعتقد أن الصواب «تسمى» بحذف تشديد الميم لإقامة العروض وإن كان لا يستقيم.

* ص ١٩٦ ورد هذان البيتان :

يا ثوبه الأزرق الذى قد فاق العراقى فى السناء

كأنه فيه بدر تم يشق فى زرقة السماء

نسبهما صاحب الذخيرة إلى ابن برد فى هذا المجلد ، ونسبهما إلى ابن الرومى فى القسم الأول - المجلد الثانى ص ٣٧ - والصواب أنهما لابن الرومى ؛ وقد وردا فى ديوانه الذى طبع أخيرا بتحقيق الدكتور حسين نصار فى جـ ١ ص ١٣٧ ، كان على المحقق أن يستوثق من هذه الأبيات رادًا إياها إلى قائلها .

بقيت مسألة توثيق الأبيات وتخريج الأحاديث ؛ والاقتباسات النثرية ، وهو جهد لم يبذل المحقق فيه عناء يذكر ؛ وإنما اعتمد على الذاكرة فقط ، وأسعفته كلمة «لعل» فى أغلب الأحيان ؛ تاركًا معظم الأبيات والأحاديث دون توثيق وتخريج ، ولنكتف بمثالين فقط ؛ مشيرين بعدهما إلى أرقام الصفحات دون إثقال على القارئ بذكر الشواهد .

* فى ص ١٢٥ ورد هذان البيتان :

أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون ؛ وأن تمس ظهوراً

وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة ، وهجن غيوراً

ترك المحقق نسبة هذين البيتين ؛ وهما لعمر بن أبى ربيعة ، وقد تحدث عنهما أستاذنا العقاد حديثاً طويلاً باعتبارهما نموذج الجمال عند العربى القديم ؛ فى كتابه «شاعر الغزل» .

* فى ص ١١٠ ورد هذا البيت :

أيـن الخـدود مـن العيـون نفاسـة   ورئـاسـة لولا القيـاس الفاسـد

ترك المحقق نسبـته أيضاً ، وهو لابن الرومى ؛ من قصيدة مـشهورة فى ذم الورد وتفضيل النرجس عليه ؛ وقد أثار موقف هذا الشاعر من الورد معارضات كثيرة حتى اتهم بأنه «جعلى» .

* وإلى القارئ أرقام الصفحات :

٢١ و٤٧ و٥٠ و٧٥ و٧٦ و٧٩ و٩٦ و٩٧ و١١٠ و١١٣ و١١٤ و١٢٥ و١٣٤ و١٦٦ و١٩٦ .

* هذا ما توقفنا عنده من ملاحظات تاركين ما يصح عزوه إلى الأخطاء المطبعية ، مؤكـدين اغتباطنا بصـدور هذا المجلد من الذخيرة ، منـتظرين ما بقى من هذا السفر الجليل .

«العمدة» لابن رشيق
عمدة فى تحقيق التراث

كانت المطبعة فتحًا مبينًا فى عالم الفكر والثقافة ، حيث نقلت المخطوطات من دائرتها الضيقة المحصورة ، إلى دائرة أرحب وأوسع ، وإن فقد الناس لذة المغامرة والكشف ، التى تحققها قراءة المخطوطات ، بخطوطها المتنوعة ، ما بين مشرقية ومغربية . وبشكولها المتباينة التى كان يتفنن فيها الخطاطون من ذوى الملكات والحرفة .

وكان الناس فى مصر يعودون إلى هذه المخطوطات حين الطباعة ، ولا يذكرونها ، وحسبهم أن يقدموا نصا جيدًا أمينًا ، وكانوا ذوى قدرة هائلة على الضبط والتحرى ، نحن مدينون لهم بها ، ولا نكاد نشاطرهم إياها إلا من نفر قليل هم ملح الأرض .

فى مرحلة تالية يبرز فى صدارتهم الأخوان شاكر (أحمد ومحمود) وعبد السلام هارون ، وعلى السباعى ، وعلى النجدى ، ومحمود الطناحى ، والنبوى شعلان، وكلهم على تفاوت أصحاب قامات باذخة فى عالم التحقيق ، وداخل معهم طائفة أخرى يعرفهم القراء المتخصصون .

والتحقيق فن عسير ، وإن بدا للأغرار أنه ذلول حتى فى زمن الحاسب الآلى ، والتقنية الحديثة ، لأنه فى حاجة إلى عالم خبير ، ربما تسعفه بعض الشىء هذه التقنيات ، لكنها لا تحقق ، وهيهات !! .

وثمة نفر ولجوا عالم التحقيق ، وهم ليسوا بأهله ، يحققون المتون ، ومذكرات الطلاب التى كانوا يدونونها عن الأشياخ ، وليس فيها شىء يستأهل العمل ، وبعضهم يجعل تلاميذه يقومون بالجهد . ويكتب الشيخ اسمه محققاً ، ولم يقم حتى بالمراجعة ، ويتلقى الناس هذه الأعمال بالسمعة الحسنة والواسعة التى تقترن لديهم بالأشياخ ، وما تلوا الكتاب ولاخطته أيمانهم !!

وكتاب «العمـدة» لابن رشيق القيروانى ، يمثل - فى رأينا قمـة النقد والبلاغة على أيامه ، ويناصى ما كتبه المشارقة فى هذين الفنين ، ويمكن أن نعده «عمدة» هذا العمل لدى أهل المغرب ، جـمع الكتاب آراء المشـارقة فى النقـد والتذوق ، وكان المؤلف يتدخل «بذوقه» المثقف فى النص الذى يعلق عليه ، مادحاً وقادحاً ، ومعللاً فى الأعم الأغلب ، وقد نقل «ثقافة نقـدية» نحن أهملناها كثيراً ، لحساب اتجاهات أخـرى على أهميتـها ، ولكن هذا التراث داخـل فى نسيج «ثقافـة الناقد الأدبى» ، وكان ابن رشيق «طُلَعة» طامح البصر إلى ما يستطيع التوصل إليه ، وقد التقى مع نقاد أوربيين عن طريق «توارد الخواطر» حـين تتجه إلى موضوع واحد ، ولينظر القـارئ - غير مـأمور - إلى التـقاء بندتو كروتشى مـع ابن رشيق من وراء القرون، فيمـا يتعلق بسريان العلم إلى الشعر الذى يحول الـقصيدة إلى نظم غث وبارد ، والباحث - عمـوماً - يستطيع أن يطالع بعض مشابهـات أخرى مع النقد الحديث ، وما ذاك إلا لأن العلم واحـد ، وثقافة الناقد وملكتـه فى ذرعها أن ترد عليها خواطر متـجانسة أو متقاربة حين تتجـه إلى موضوع واحد ، ومن ثم يكون التراث داخلاً فى ضميمة الثقافة النقدية الحديثة ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

كان الشيخ محمـد الخانجى قد أصدر نشرته لكتاب «العمـدة» ، ونفدت نسخها إلا قليلاً جدًا، ثم أصدر الشيخ محيى الدين عـبد الحميد نشرته ، وهذا الرجل قد اعتمد تماماً على نسخة الخانجى ، دون أن يشير ، وهذه من آفات التحقيق ، ولعل الشيخ كان فى عجلة من أمره فطبع الكتاب دون أن ينظر فـيه مكتفياً بما قيده طلابه فى الأزهر عن هذه النسـخة ، ووضع الشيخ اسـمه عليهـا ، والرجل - عندنا - متـضلع فى اللغة نحوهـا وصرفها ، وكـل ما يتعلق بهـما ، وقد حـضرنا بعض محاضراته أو دروسه من باب معرفة الشيوخ والبحث عنهم، ولم أكن من طلبته ، فكان الرجل معـجبًا فى تعلـيقاته النحـوية ، بصيرًا يعـرف الخبء وسر الكلام ، وحين طالعنا بعض تحقيقاته فى التـراث الأندلسى ، وقفنا بالوصيد ، وقلنا : لقد «دخل الأسد غيلا غير غيله» ، فـلا يكاد يستقيم له النص وخاصة الأعلام ، وكنا نجمـجم ولا نكاد نبين ، حـتى جاء محـقق كتاب العـمدة فى طبـعته الأخـيرة ، صديقنا الدكـتور النبوى شعـلان الأستاذ بجامـعة الأزهر ، وأعمل قضـية «الجرح

والتعديل» ، وكشف عن مساوئ التحقيق ، غافلاً عن العيون اليواقظ التى قادت الدكتور شعلان إلى بيان العوار والأخذ ، الذى هو نقيض الأمانة فى صنيع الشيخ- وشهد شاهد من أهلها ، وبيَّن عَوار التحقيق فى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث التى ادعى الشيخ تخريجها ، وهى من نقوله غير الأمينة من تحقيق الخانجى ، ونحن فى حاجة إلى «تحقيق التحقيق» كحاجتنا إلى «نقد النقد» .

جاء تحقيق شعلان شعلة من التوهج ، وقمة من المعرفة بالتراث العربى كله ، وغير عجيب أن يظل المحقق خمسة عشر عاماً فى عمله فى العمدة ، حيث هوامشه الهائلة فى تحقيق الأعلام والتعريف بهم ، وتخريج الشعر والنثر ، وتخريج النثر مما تنوء به همم الرجال ، وجاءت فهارسه آية من التمحيص والتدقق، وأثبت امتلاكه الشديد للعواصى من الكلام ، وتذوقه الجيد للشعر ، وتعليقاته ، وليس هذا النص بكتابه الوحيد ، بل إنه أخرج طائفة جيدة من التراث الشعرى والبلاغى ، ولعله فى كل هذا يذكرنا بصنيع فرسان التحقيق ، ويعيد لمعهده وجهاً تغشاه كثير من الادعاء والتراخى ، وينتسب إلى تلك المدرسة الشاكرية بأعلامها ، وتلاميذها محمود شاكر والطناحى ، وعادل سليمان ، وغيرهم ممن أدوا ويؤدون خدمة جليلة لهذه الأمة ، التى تتخطفها رياح التغريب بكثير من التنفج والادعاء ، وبِوَشَلٍ يسير من المعرفة والنقد القديم ، تحية لهذا الجهد الكريم الذى لا يعرفه إلا من كابده ، والذى يصل ماضياً عظيماً بحاضر نرجو أن يتصل بخيطه الذهبى ، وأن يطير الجناحان معاً ، إذا أردنا لأنفسنا أن تظل الجذوة متقدة وذاكية .

جنة الرضا لابن عاصم الغرناطى

درج الناس أن يقولوا : إن هذا كتاب يسد فراغا هائلا فى المكتبة العربية حتى صارت الكلمة من العبارات المسكوكة ، تقال فى محلها وغير محلها ، وغدا الناس لا يثقون فيها ولا فى قائلها ، إلا أننا إزاء هذا الكتاب ننزع عن الكلمة ما لحقها من تداول غير حقيقى لنقولها عذراء عن كتاب «جنة الرضا» ونحن آمنون أن القارئ سيقولها معنا ، حين يقف على أهمية كتاب فى خطورة كتابنا هذا .

والمكتبة الأندلسية عامة ، والغرناطية خاصة لاتزال فى انتظار من يكشف عنها غبار الخمول ، وإن كانت هناك جهود محمودة يبذلها العاكفون على التراث تحقيقا ونشرًا وقراءة واستيعابًا ، ولا يكفى لهذه المكتبة أن يعرف المحققون العربية معرفة وثيقة ، بل إنهم فى حاجة ماسة إلى معرفة الإسبانية ، حتى الطور القديم منها ، ومن هنا تكمن الصعوبة فى ولوج مثل هذا الحقل العسير من التراث العربى عامة، والأندلسى منه خاصة .

مؤلف هذا الكتاب من دوحة تفيأت ظلال العلم والوزارة والقضاء والفقه ، فأبوه أبو بكر بن عاصم الوزير الفقيه القاضى ، ومؤلفاته متعددة أهمها حدائق الأزاهر ، والابن يتولى مناصب متعددة فى دولة بنى نصر ، ويصيبه من سعودها ونحوسها كثير ، مما يعترى ذوى المناصب الخطيرة فى دولة ، تتأرجح فوق هاوية من الزئبق السياسى ، تحوطها سياجات من الغدر والنفاق والحقد ، تنال من يتعلق منها بطرف ، فما بالك بمن يرسمها ويخطط لها ، ونديم السلطان مثل راكب الأسد .

اتفقت المصادر المشرقية والأندلسية على نعت مؤلف هذا الكتاب أبى يحيى بن عاصم بنعوت متواترة منها ما قاله المقرى عنه «الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المفلق الناثر الحجة . إلى آخر ما قاله المقرى وغيره ، وقد توفى ابن عاصم سنة ٨٥٧ هـ ، أى قبل سقوط غرناطة بنحو أربعين سنة ،

وعاش كما عاش قبله ابن الخطيب ، وتسنم تقريبا الوظائف نفسها التى تسنمها لسان الدين قبله ، وربما أصابه ما أصاب سابقه من محن ، ولقى كلاهما المصير نفسه قتلا ، حيث ذبح ابن عاصم حين ذبح سلطانه محمد التاسع المنبوز بالأعسر .

وإذا كان كثير من الوزراء ينسون بعد عزلهم أو موتهم ، فإن الوزير ابن عاصم خلدته مآثره العلمية والأدبية ، وأصبح لقب الوزارة لا يزيدنا معرفة به . وللرجل كتابات كثيرة ، وصل إلينا بعضها ، لكن أهمها هو كتاب «جنة الرضا» ، وكأننا بالمؤلف فى عصر من أسوأ عصور الإسلام بالأندلس ، إنما أراد أن يسلى مواطنيه على طريقه «الفرج بعد الشدة» بما حدث من الأنواء العاصفة والرزايا القاصفة ، ولم يكن الرجل يحذر مواطنيه على طريقة الرضا بالتطبيع ، الذى كان يتسلل واضحا وغير واضح فى المجتمع الغرناطى ، والبلاط الغرناطى خاصة ، حيث تراوحت السياسة بين المهادنة والحرب ، وبين النصر والهزيمة ، وكانت أكثر ، حتى ضاعت غرناطة غدراً وخيانة وهزيمة أيضًا ، لم يكن الرجل كذلك بل كان يبث فى كثير من الأحيان الثقة ، وإن كانت ظلال اليأس تلقى بكثافتها .

وإذا كان الرجل يستجلب وقائع الدهر متخذًا منها مثلاً وعبرة ، فإن أهمية الكتاب تكمن فى أن المؤلف من رجال الطبقة الحاكمة ، ويرى ما لايراه عامة الناس ، ويورد حوادث تاريخية هو مشارك فى صنعها وراصد لها أيضا ، وهذا الرصد مما يزيد من قيمة الكتاب حيث صاحبه شاهد عصر وصانع أحداث ، وربما يشارك ابن حزم فى إيراد حوادث هو صاحبها أو رآها رأى عين ، وهى حوادث نادرة عن أعلام عصره ، كما أنه ينقل أشياء لم ترد إلا فى كتابه حيث ضاعت أصولها أو لم تنشر بعد ، وكثير من هذه الأشياء موظفة لغرض واحد أراده المؤلف، وهو معالجة المحن والكوارث التى تصيب الأفراد والأمم ، ويوجه خطابًا إلى أهل غرناطة له قيمة تاريخية هائلة .

وبعد أن أورد المؤلف فى مقدمته أبواب الكتاب نثراً ، نظمها شعراً فى قصيدة بلغت مائة وعشرين بيتا ، نجت فى أغلبها من جفاف المنظومات العلمية ، مما يشى بأن صاحبنا شاعر فى زمن سطت فيه عجمة التكلف والتمحل .

ومحقق الكتاب هو الدكتـور صلاح جرار ، ونشره فى الأردن ، وهو رجل له قدم راسخـة فى تحقيق نص عـسير كهـذا ، مستوفـيا شرائط التحـقيق العلمى ، وتدسس إلى طريقـة المؤلف وأسلوبه العـسيـر الذى يشبـه أسلوب ابن الخطيب ، وتحية المحقق واجبـة حين نقرأ من خلاله سفرًا جليلاً تجول تضـاعيفه ما بين تاريخ وسيرة ذاتية وأدب وفن وأخلاق فهو جنة الرضا ، يسد فراغاً هائلاً - كما قلنا آنفاً - في المكتبة الأندلسية .

أبو فــهر
ذلك النمط الصعب

أبو فهر ، محمود محمد شاكر ، أى نمط من الرجال هو !!؟

رجل تحدى الألقاب والبرامج الدراسية الرسمـية ، واعتزل الناس ، معتنزًا بفناء داره ، آبياً أن يـأخذ فيـما هم آخـذون فيـه ، بيد أنه تحدى الألقـاب - فى زمن الألقـاب وفى مصـر ذات العراقـة فى الكهانة - لتـسعى إليـه الألقـاب ، وتحدى البرامج الدراسيـة ، ليكون هو نفسه برنامجـاً ، تهفو إليه هاته البـرامج ، واعتزل الناس ، ليحج إليه الهافون ثاوين إلى فيئـه ، وليكون مأنوسا فى عزلته الاختيارية المأهولة !!

نمط من الرجال صـعب ، غيـر ميسـور تواتره ، فى زمن التوسط والتـشابه ، وليست صـعوبتـه من الضرب المدبب الشائك ، بل هـى صعوبة الجـد ومرارته ، وأخذه نفسه ولـزومها ما لايلزم ، دون تكلف وقطوب ، حيث إن مجلسـه ليتسع ويتراحب للإحماض ، دون تدنٍ ودون انفراط وهزل .

هذا النمط الفكرى والـنفسي حـقـيق أن يبـين صدقـه فى إبداعـات صـاحبـه ودراسـاته، فـلا يفلت من شـيـات هذا الزى ، الذى هو إهابه المغـزول من دمـه وعصبـه، وأن يكون عنوانًا له وعنوانًا عليه ، فلا سبيل فـيه إلى الانمياع ، ولذا لا يعتم المرء حـين يطالع ثمرات قـريحته إلا أن يمـهرها باسـمه دون تداخل ، وهى عسيّـة ألا تقلد ؛ لأن تقليدها يكون شائهـاً مرذولاً ، ولأن «عملاقـية» صاحبـها شخصًا وفكرًا تتـأبى أن يحتجنها مقلد أحول الفكر ، ضـرير القلم ، وتلك سمة أصالة ، صحيح أن الأستاذ شاكر يغرى بالاحتذاء ، بيد أن قامته صعبة ، تتقاصر دونها القامات ، فى محاولتها مضاهاته أو الاقتراب منه ، ولذا يكون من الصحيح كذلك أن يكون شاكر هو شـاكر ، وإن حاولنا أن نرى فيه أمشـاجًا من القدماء أو المحدثين كالرافـعي، ولكن هذه الأمشاج آضت فى تجاليد شـاكرية ، من آفة النظر

التوقف عندها ؛ لأن الرجل ينفق عن سعة، وسعته هى كل ما ورثه عن سلفه العظيم .

أبو فهر يحتشد تمامًا لكل ما يقرأ ويكتب ، واحتشاده من نوع خاص فى تاريخ الأدب العربى ، حيث ترفده ثقافة وسيعة حصلها بنفسه ، ونظر عميق ، يتراحب فى كل ما أثمره العقل العربى من الفقه والتفسير والحديث ، وأصول الدين ، وعلوم الرجال والتاريخ ، والأدب العربى شعره ونثره ، فى إحاطة مذهلة ، ولذا ينبغى على كل من يقترب منه أن يحتشد بعض احتشاده ، وألا يكون مئوفا بالهوى الذميم وضيق الأفق ، لكى يتدسس إلى مرامى القول ، وهى عصية ، وإلى مناحى فكرة ، وهى قصية ، ولعله بعد هاته المجاهدات الصابرة ينفذ إلى الكلام وصاحبه ، ولا يعنى ذلك أن الرجل يتعاظل أو يكلف الأشياء ضد طباعها ، بل إنه أمين لفكره وفكر أمته التى يعزى إليها ، ومن الأمانة المتوخاة أن يصدق فى التعبير عن فكره وفكر أمته ، أما الذين فى قلوبهم زيغ ، وفى عقولهم آفة ، وفى نظرهم زغل ، فالرجل ليس بسبيلهم ؛ لأنه لايتملق فكرهم ، ولايدغدغ شعورهم ، بل إن بعض هؤلاء لو أحسنوا استخدام نعمة الله عليهم ، لفاءوا إلى فكر الرجل ، ولوجدوا فيه ما يروى الصدى ، وينقع الغليل مع بذل الجهد الذى يفك مغالق ، وينسف سدودا .

ومن ارتكاس الأذواق ، ومسخ السلائق أن نريغ من الرجل ورصفائه التنزل إلى الناس ، لأننا بذلك نشجع الجهل والحطة ، وواجب المفكر أن يرفع إليه الأذواق لا أن يتسفل بها ، والمضنون به على غير أهله يجب أن يتبوأ مكانا سامقاً ، حيث يتطلع إليه من لديه أثارة من همة ، ويشرئب إليه من فى قلبه جذوة من عزيمة ، تأبى الإخلاد إلى الاستكانة والخذلان ، ومن فضائل الأستاذ شاكر الكبرى أنه أبى هذا التنزل ، وأنه نفخ فى تلك الجذوات ، فتطلعت إليه - فى اختياله ومجادته - مختالة متمجدة ، عائذة من الخذلان .

ومحمود شاكر عقاب العربية ، أخلص لها الإخلاص كله ، واستوعب ذخائرها وأعلاقها ، دون أن يشل فكره ونظره ذلك الاستيعاب ، محققًا وناقدًا ومؤرخاً ، وشاعراً ، وله فى كل ذلك إسهامات موفورة ، تشى بنظر لا يقف عن

الماضى وإن كان مجيدا ، ولـذا يخطىء الناس حين يظنون أن «شاكرًا» رجل تراثى بالمعنى الردئ للكلمة ، تحجرًاوانغلاقًـا ، بل إنه - شخصًا وفكرًا - يسبق خطوات زمنه ، دون أن يجـتث جذوره ، حـيث لا مـجال للاجـتـثاث ، ولا يحـسن أن يحدث، رجل طلعة ، وإن بدا فى مسلاخ القدامى ، ينفتح على كل التيارات التى تتمـاوج فى زمنه ، على المستـوى الشخـصى والفكرى ؛ حين يضم مـجلسه كل الاتجاهات والتـيارات المتناقـضة ، وإن كـان صبره ينـفد أمام «أطفـال الجمـاعات الإسلامية» كما ينعتهم ؛ لأن الفكر الحر شارته وعنوانه الأول . وإن بدا هذا غريباً على بعض الآذان التى تصدق ما يشيع وإن كان يشيع فيه البلى والاضطراب ، غير أن البابة الكبـرى التى نعرف منها محـمود شاكر هى بابة الأديب الشـاعر ، ولولا هذه الملكة لما كـان المحقق والناقـد والمؤرخ بهذا المسـتوى من النفاذ ، وكـأين من محققين ونقـاد ومؤرخين لا تشتعل فى نفوسهم جذوة «الفن» ، فـيخرج كلامهم غـسيـلاً ، وعـملهم أقرب وأوشج بعـمل أهل الاخـتصـاص ، أو بعـمل بعض الجامعيين الخفاف ، الذين يظنون أنفسهمم نقادًا ومحققين ، وهـم دائمًا بالوصيد ، يمكن أن يجيدوا فى بعض الأعمال القريبة من «الصنعة» ، لكن باب الطبع - ولو اشتعل بِجُذَيَّة صغيرة - يكون عسير الولوج .

ولعل كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» ونشر منجماً قبل ذلك فى مجلة «المجلة» - نضر الله أيامـها - ربما يكون شارة متـميزة لملكة محـمود شاكر الشاعـر والناقد والمحقق ، بل نزعـم - وليس الزعم مطية الكذب دائمًـا - أنه فى هذا الكتاب قدم «نظرية نقدية» فى قـراءة الشعر وتذوقـه ، وانفرد ببيـان شاف عن قضيـة «الوحدة العضـوية» وما أثير حولهـا - حديثا - من لغط وغلط ، وقـد تعرض لها شـيخنا الأكبر عباس العـقاد ، وغلا فيها غلوًا شديدًا ، وإن كان ارتأى مـعالمها جلية لدى شاعره الأثير ابن الرومى ، ونحن - مع إجلالنا للعقاد - لا نشاطره الرأى فى هذه الوحدة كمـا ارتآها ، بل ربما نراها أقرب إلى الوحدة الاحتـمالية لا الحاسمـة كما يريغها هو ، ونعـتقد أننا أقرب إلى نظرية «أبو فهر» فى هذه المسـألة ؛ حيث فرَّق بين أزمنة الحدث والتغنى والنفس ، ولكل منها زمن ، يلتقى بعد تشعيث بأخيه ، فتحدث هذه الوحدة .

«ونمط صعب ونمط مخيف» ضرب من الكلام يعسـر على غير الأستاذ شاكر ، بل إنه ليتلبسه فى «كمال الاتصال» فلا يمهر إلا باسمه ، وهو سبع مقالات مطولة استغرقت أكثر من أربعمئة صفـحة من القطع الكبير عن قصيدة واحدة نسبت خطأ لتأبط شرا ، دار الكلام فيها على كل مسـائل التحقيق والعروض واللغة ، وتذوق الشعر ونقـده ، ونقد السند والرجال ، وتمحيص الكتب والروايات وقضـية الشعر الجاهلى عامة ، وترجمة الشعر .

وربما يخال القـارئ أو يتوهم أن هذه مـباحث افتـرعها الناس ، وأفـاضوا فى القول فـيهـا ، بيد أن الخيـال أو الوهم سرعـان ما يرتد حـسيراً حـين يطالع هذه الصفحات فى مـعالجتها الصابرة الشديدة العمـق ؛ ليصل مع المؤلف إلى استظهار نسبة هذه القصيدة إلى ابن أخت تأبط شرا ، من خلال تقصٍ هائل للكتب القديمة ورواياتها ، ومـسائل الجرح والتـعديل ، وبخاصـة حين تعرض للقـفطى وروايته فجرحها ، ونكأ عند المؤلف جرحاً قديماً حين عالج غرائب القفطى فى روايته عن دير الفاروس ودرس أبى العلاء فيه ، وذكّره بـأشجار الدردار فى كمبردج ، وتقف من خلال هذه المناقـشة المستوعـبة على كلام جـيد محكم عن الفروق بين الشـعر المصنوع والمنحول ، وهى قضـية تلوّم فيها أبو فهر طويـلاً فى مواطن أُخر ؛ لأنها كانت قضية العـصر ، وقضية أمة يراد العبث بشعرها وبـتاريخها ، ومع هذا النقد التاريخى تدسس المؤلف من ثنايا القصيدة إلى اسـتظهار نسبتها إلى ابن أخت تأبط شـرا ، مما يعرف بالـنقد الداخلى ، وللـمؤلف باع هائل فى تـذوق الشعـر على طريقته هو ، وربما ينفـرد بها انفرادًا خالصًا فى تاريخنا الحديث ، إلـى جانب فئة قليلة تشاركه هذا الانفراد .

هذه القصيدة تعرف «باللامية» وأولها :

إن بـالشعـب الـذى دون سلع   لقتيـلا دمـه مـا يطـل

وقـد تلوم الأستـاذ شاكـر لدى بحـرها ، وهو المديد الأول «فـاعلاتن فـاعلن فاعلاتن» مـع ما يداخله من زحافات ، وناقش سـر تسميتـه بالنمط الصعب لدى القدماء ، ولدى عبد اللـه الطيب من المحدثين ، وارتأى المؤلف أن للوتد فعلاً فى تلك الصعوبة وأن موقـعه فى التفعيلة الأولى والثالثـة فى الوسط ، وفى الثانية فى

الطرف ، يقف وراء كثير من تلك الصعوبات ، والتى تقتضى مهيعاً من الكلام يناقض الكلام فى وزن آخر ، وربما كان كلامه فى هذه الزحافات ومكان الأوتاد ، ومناسبة البحر للغرض الشعرى من أدق ما قرأنا فى النقد الحديث . واستطرد المؤلف إلى حديث طويل فى الدوائر العروضية وهو حديث شائك ، ينبئ عن مقدرة هائلة فى الفهم والتذوق ، والتفسير والتعليل ، وارتأى نمطاً آخر من الوزن لضبط هذا البحر ، وهو «فاعلن مستفعلن فاعلا . . تن» ليكون الوتد «علن» فى الطرف ، تخلصاً من دورانه بين الطرف والوسط فى وزن الخليل ، مع «ترفيل» يلحق التفعيلة الثالثة «فاعلا . . تن» أو «فاعلن تن » .

لا ريب أنه اجتهاد ترفده دربة وشجاعة محمودة من الأستاذ شاكر أن يستدرك على القدامى - مع تجلته لهم - وقد صنع هذا الصنيع فى تفسير بعض الكلمات فى القصيدة ، المؤدى إلى فهم المعنى على غير ما فهمه القدامى ، وكان أبو فهر شديد الإحماض حين علق على أبى العلاء والمرزوقى والتبريزى ، ورأى فى كلام الأخير برودة وسخفًا ، ربما كان - كما قال متظرفًا - مستمداً من طبيعة «تبريز» المعروفة ببردها الشديد !! .

بيد أن اجتهاده فى الوزن لا ينهض بما يريد الوصول إليه ؛ لأننا نحتاج إلى تأويل فى اجتهاده ، وأولى من التأويل عدم الحاجة إليه ، ولأن «الترفيل» شىء افتراضى لا يسنده الواقع « ففاعلن + تن» هى «فاعلاتن» والوتد هنا فى الوسط ، وما قبله فى الطرف ، فنحن نفر إلى ما أرغنا الفرار منه ، ولأن ثمة بحوراً أو بالتحديد ضروبًا من البحور ، تضارب فيها موقع الوتد ، ولم تنعت بأنها نمط صعب ، وأبرز مثال على ذلك هو «مخلع البسيط» وهو فى رأينا بحر قائم بذاته ، وليس جزءًا أو صورة من البسيط ، وتفعيلاته «مستفعلن فاعلن فعولن» فالوتد فى الطرف فى التفعيلة الأولى والثانية وفى الثالثة فى أولها ، وفى الرجز فى إحدى صورة «مستفعلن مستفعلن فعولن» حين يدخله مثل هذا الزحاف ، وهو كثير قديمًا وحديثًا ، والرجز حمار الشعراء فى القديم والحديث الآن ، بل إنه صار أشد الحمير بؤسًا فى الشعر الحر ، ولأن الزحافات تغير كثيراً من موقع الوتد فى كثير من بحور الشعر لا نستطرد إليها الآن ، وهى مهمة لأنها تنفى عن الوزن ما

يمكن أن يسمى «رتوباً» لو كانت التـفاعيل تامة غير مزاحفـة ، والشعر العربى فى نماذجه العليا مدين للزحافات ، وتاريخ إجاداته ، وتاريخ زحافاته .

والأستاذ شاكر فى إلماحة جيدة ، يذكر أن التفاعيل مفردة لا تؤدى نغماً ، وقد كرر ذلك مـرتين ، مومئًـا فى إبانة إلى فساد النظام الذى يقـوم عليه الشعـر الحر «التفـعيلة» ، لأن الشعر يأتى من «نسـق خاص» تأتى عليه التفـاعيل فتؤدى نغـما يمكن وحده أن يسمى شعراً ، وما يخرج عن ذلـك فهو آبق يمكن أن يسمى شيئًا آخر غـير الشعر ، الذى يعـزى إلى أدب هذه الأمة ، ولا يعنى أن الأستاذ شـاكر يغلق باب الإبداع ؛ لأن النظم على وزن مخـترع لا يقدح فى كونه شعـراً ، كما يقول الزمخشـرى وكما تقول الفطر السوية ، بشرط أن نئول فـيه إلى نظام وقاعدة يحتملان التصـويب والتخطئة ، وإلا فإن الفساد والخلل يتفشيان ويـصبحان قاعدة ويئول غير النظام نظاماً .

وثمة إشارة أخـرى إلى ضرورة النغم والإيقاع ، ألمح إليهـا خطفًا، وهى تزلزل ما تقوم به دعوى ما يسمى «قصـيدة النثر» وهى من البداهة إلا لدى من لا يعرفون البداهة!! .

ومع أن مساوقة الوزن لمعانى الشعر لا تزال دائرة فى محيط الفرض والاحتمال، وأن كلامًا معـينًا يصب فى وزن معين ليس ضربة لازب ، فإن «أبو فـهر» استطاع أن يقيم علاقـة حميمة بين هذا النمط الصعب المخـيف وغرض الكلام القائم على التذكر ؛ مما يجعل الـقارئ يهتف بالموافقة ، بيد أن هذا مطلب قـصى لا تستطيعه إلا فذاذة الأستاذ شاكر ، وتذوقه لمسـتسر النغم السارى فى تجاليد الكلام ، وشىء كثـير من مـثل هذا سرى فى ثنيـات شرحـه للقصـيدة ، وفى وقوفـه على خبء الوحدة التى لهج بها المحدثون ، وألمح إليـها القدامى ، وارتآها وحدة ذات شعب حسب تشعـيث الأزمنة - كما أشرنا آنفا - وقـد راض المؤلف هذا البحث رياضة جيـدة ناهضة ، فوجـد سريان الوحدة - فى نوع مـنها - فى حنايا القصـيدة دون انفعال ودون تزيد .

لم يقف الأستاذ شاكر على لزوم ما لا يـلزم فى القصيدة ، ومن المؤكد أنه كان سيرى فـيها ما لانرى حين يعـالج اللزوميات ، وأنها قديـمة في الكلام العربى لا

نقف بها عند كثير عزة - فى تائيته الملتزم فيها اللام قبلها - لأن قصيدة جاهلية التزم فيها قائلها تضعيف اللام فى القافية ، لا ريب أن لهذا فعلاً فى النغم والأداء، وأنه ليس فضلة لا فى الموسيقى ولا فى المعنى ، بل يمثل إضافة إليهما ، لو أن الأستاذ شاكر أراق على هذه المسألة فيضًا أو حتى وشلاً من فكره وتذوقه لرأينا شيئًا عجبًا .

والحق أننى فاتحت الأستاذ شاكر - بَرَّد الله مضجعه - فى هذه القضية ، وكان رحمة الله عليه يهتم بما أكتب فى العروض - لا أقول ذلك بأواً وإن كان وارداً خاصة إذا كان الاهتمام من مثله - فلم أظفر منه برد كلامى ، وإنما لمحت فى عينيه نظرة العُقاب الهرم الآسية على أن شيئا مهمًا فاته ، فلم ألحف عليه فى الكلام ، وكثيراً ما كان يستقبل مناقشاتى بصدر متراحب ، وربما كان يسخر متعاطفا من حماستى .

واختتم الكتاب برد مفحم على ترجمة لترجمة جوته لهذه القصيدة إلى العربية وكانت الباعث وراء هذه المقالات كلها ، فضلاً عن نقد ليحيى حقى الذى خانقه بود ، ووده بخناق . انتقد أبو فهر هذه الترجمة وأبان عَوَارها ، وهى فى الحقيقة شيء مهلهل لا صلة له بالعربية ، وحسبنا أن الترجمة جعلت للجمال حوافر ، وأن هذه الحوافر تتحطم ، والترجمة بالنص : «ألقوه فى مناخ غليظ ، على صخر وعر ، تقف فوقه الجمال فتتحطم حوافرها» وهو كلام يدابر العربية ، ويدابر الفكر الصحيح ، ورد الأستاذ شاكر من النمط العالى المفعم سخرية وتهكمًا ، ولكن فى أدب رفيع ، لايزال يذكره قراء «المجلة» ، وغير معروف على وجه الشيوع أن شاكرًا من المتمكنين فى اللغة الإنجليزية ، ولايزال المخضرمون يذكرون له ترجمات «المختار» ، وإن كان قد صدف عن هذا النشاط منذ أمد .

هذا كلام يسير عن محمود شاكر ، الذى لم يفهمه الناس على حقيقته ، ولو عادت الأمة إلى وجهها السوى لعاذت بوجه محمود شاكر - الوجه الأصيل المجدد- حين تزدحم الوجوه .

مداخل إعجاز القرآن
للأستاذ محمود شاكر

هما مدخلان فقط فى هذا الكتاب الصادر عن مطبعة المدنى فى سنة ٢٠٠٢ - ١٤٢٣ ، والمدخل الثالث ضمه كتاب آخر بعنوان «قضية الشعر الجاهلى . فى كتاب ابن سلام» ، وصدر عن المطبعة السابقة سنة ١٩٩٧ - ١٤١٨ ، وبيَّن أن الكتاب الثانى شديد الآصرة بالكتاب الأول ، لدى مؤلفه ولدى قارئه ، ولو أنسئ للعلامة الجليل أبى فهر محمود محمد شاكر فى أجله ، لجعل الكتابين واحداً ، بيد أن الأجل قد حم ، فاجتهد من قدم الكتابين ، فى هذا الفصل ، وإن كان القران بينهما أبين من أن يدل عليه .

الكتاب الذى نحن بصدده - وإن كنا سنعرج سريعاً على الثانى - مبحث رائد فى بابه ، أزعم - وليس الزعم هنا مطية الكذب - أننى لم أر رصيفًا له فى لغة العرب قديمًا وحديثًا ؛ حيث يجد قارئه اجتهادًا فى النظر والتحليل ، والإحاطة المذهلة ما تفتقر إليه مثل هذه المباحث على تنوعها وتعددها ، ومآل ذلك أن الأستاذ «شاكر» كتب كتابه أوان استحصاد قدراته ، وتمكنه الهائل من «التذوق» الذى يكاد ينفرد به بين أهل عصره ، بما فيهم أستاذه مصطفى صادق الرافعى ، الذى يكن له إعجابًا لا نشاطره إياه .

درس الأستاذ شاكر مسألة الإعجاز هذه دراسة تاريخية ، وإن كان قد ألم ببعض وجوه الإعجاز ، دون أن يوليها الكفل الأعظم من همه لأنها - هنا - ليست القضية الرئيسة .

حدد أولاً المعنى اللغوى لكلمة آية ، لأنها وردت تاريخيّا سابقة ، مقارنًا بين آية النبى محمد صلى الله عليه وسلم وآيات الرسل من قبله ، وكيف أن هذه الآيات مقترنة بأصحابها وبمن شاهدها من الجيل المصاحب لهم دون أن تكون ملزمة ، ومن ثم ينشأ العجز وانقطاع القوة وعدم الإطاقة ، وهنا يسلّم الناس

تسليمًا لا تردد فيه أن هذه الآية دليل نبوة بشر مثلهم، ولرجل من أنفسهم، نشأ فيهم صغيرًا إلى أن كبر فادعى ما ادعى من النبوة ، لا يسلمون تسليمًا حتى ينقطع شكهم بيقين فاصل . ، أن الذى يشهدونه من صاحبهم خارج عن طوق جميعهم ثم عن طوق جميع الخلائق ، وخارج أيضًا عن طوق صاحبهم الذى نشأ بينهم إلى أن ادعى ما ادعى من النبوة . والذى آتاه هذه الآية أو هذه المعجزة هو الذى لا يعجزه شيء ، هو الخالق البارئ ، هو الله رب العالمين .

أما معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - فهى باقية خالدة ؛ لأنها لم تتعلق بحادثة طارئة كإحياء الموتى وإبراء الأكمة ، وانقلاب العصا حيّة تسعى ، بل هى منوطة بالإنسان حيث كان ، وهذا ما صرح به القرآن الكريم﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ (العنكبوت ٥٠) .

وقد جاهد وجهد الأستاذ شاكر فى تحليل المعنى اللغوى ؛ حيث هو الأساس الذى تفرعت منه المعانى الأخرى من المجاز ، وتعانقت الكلمتان «إعجاز القرآن» و«معجزات الأنبياء» لدى الكتاب المحدثين ؛ حيث يرى أبو فهر أن كليهما لفظ محدث مولد ، وبيقين قاطع لا نجدهما فى كتاب الله ولا فى حديث رسول الله ، ولا فى شيء من كلام التابعين ومن بعدهم حتى انقضى قرنان ، فإذا بنا نجدهما فجأة لدى كلام أهل القرن الثالث ، ويسيران بكثرة لدى أهل القرن الرابع وما بعده إلى يوم الناس هذا ، وارتبط بلفظ الإعجاز لفظ آخر هو «التحدى» ومر عليه من الندرة والشيوع ما مر على اللفظ الأول ، حتى ظهر على استحياء فى كتابات الجاحظ ، ولاسيما فى رسالته «حجج النبوة» فهو يجمجم به مع شدة حاجته إليه يقول : لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة ، لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها» ، ومع اقتران اللفظين التحدى والعجز فإن الجاحظ لم يقل «إعجاز القرآن» ، وكانت منه على طرف الثمام .

وقد تتبع الأستاذ شاكر تاريخ هذا اللفظ لدى شيوخ المعتزلة - ومنهم الجاحظ - وتناول كلامهم بشيء غير قليل من اللذاعة ، فهم أهل كلام وتشقيق ، ومثل هذا

النعت يخرج كثيرين منهم عن نطاق التذوق وبيان وجوه الإعجاز ، وعرض أبو فهر لكثير من آرائهم وبيَّن فسادها ، وما جرت إليه من محن ، حيث ولجوا هذه البابة من نافذة «الإلهيات والنبوات» ، وفسروا عجز الخلائق عن مجاراة القرآن بترك المعارضة أو بما يسمى «الصرفة» ، وهى لم تقنع أحدًا ، فضلاً عن شيوخ المعتزلة أهل الرأى والنظر والاستدلال ، وفرق أبو فهر بين العجز والإبلاس ، ولعل شيخنا قد وقع فى شىء غير قليل من الحيرة والخشية من ولوج هذه البابة المحفوفة بكثير من المخاطر ، كما أشار هو نفسه ، ولكنه مضى إلى غاية الشوط التاريخى ، متقصيًا ومبحرًا فى تيه طفق يتبلج قليلاً قليلاً ، حتى رأى أن الجاحظ لم يطق الاعتقاد بالصرفة ، التى مبعثها هياج الطبائع المفطورة على إلف الجدل والمغالطة وحب الظهور على الخصوم ، كما حدث مع أبى الهذيل العَلاَّف وابن أخته أبى إسحاق النظام .

ويشهد المرء أن كلام المعتزلة على فجاجته فى هذه القضية دالٌّ على أنهم جبابرة العقول والجدل ، حتى ولو كان على سبيل المغالطة التى تقتضيها الحيرة والإبلاس؛ لأنهم يخرجون أو يحاولون الخروج من المآزق بأى طريق .

كما أن مناقشة الأستاذ «شاكر» لهم تشهد بأنه قريع لهم فضلاً عن «تذوقه» القليل المثال ، وقد بين أن الجاحظ بعد فزعه من هذه اللفظة «الصرفة» حاول أن يحوم حول هذه القضية لديه ، مدللاً بكلمات قلائل على وجه من الإعجاز ، مثل قوله : (نظم القرآن ، وبديع تركيبه ، وغريب تأليفه) . . . (وطبع القرآن ، ومخارج آياته ، وحسن بيانه ، وجمع المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة) . . . (والقرآن كتابنا المنزل؛ الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع؛ الذى لا يقدر على مثله العباد) . . . (ولو تحدى أبلغ العرب بأقصر سورة منه لتبين فى نظامها ومخرجها ولفظها وطبعها أنه عاجز عنها) ، وهذه عبارة واضحة كل الوضوح تدفع القول «بالصرفة» مع أن الجاحظ لم يذكر عبارة «بلاغة القرآن» .

وأول من أطلق لفظ «إعجاز القرآن» هو أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتكلم المعتزلى ت ٣٠٦ ، فقد ألَّف كتاباً عنوانه «إعجاز القرآن» ، واستخدم معها معجزة النبى ومعجزات الأنبياء ، وفشت هذه الألفاظ بعد الواسطى فى كل

الكتابات العاقبة حتى يوم الناس هذا ، وجاء بعده كتاب الرمانى «نكت فى إعجاز القرآن» ذكر فيه وجوه الإعجاز من جهة البلاغة ، ومن العسير تتبع هذا اللفظ فى كتابات العلماء من بعده ، ولكننا نذكر «الباقلانى» شيخ السنة ولسان الأمة ، وهو صاحب ذوق أدبى رفيع ، وإن كان قد جرته المجادلة إلى أن يبين عَوار الكلام الإنسانى بجانب الكلام الإلهى ، لأن المقارنة أوالموازنة باطلة أساساً ، لأن كلام الله مباين مباينة تامة لكلام الخلائق وإن كان فى طبقة معلقة امرئ القيس ، التى أخذ الباقلانى يفتشها باحثاً عن أوجه القصور فيها ، وأكل هذا البحث كثيرًا من جهده ، وإن أبان عن بيان الباقلانى وحسن تأتيه للكلام ، والتدسس إلى فضائله ومثالبه ، وقد غاضت هذه المائية من البيان لدى القاضى عبد الجبار ؛ لأنه سلك طريق أهل الكلام . وأسلوبهم يعلوه صدأ كثير يجلب من الضرر أكثر مما يجلب من النفع ، ولاسيما فيما يتعلق بآداب اللسان وتذوق النفوس ، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجانى الفقيه الشافعى ، والمتكلم على مذهب الأشعرى ت ٤٧١ هـ ، وهو أعرف من أن يعرَّف ، كانت تشغله قضية «إعجاز القرآن» ، واستوعب كل ما قاله السالفون عليه ، ووقف مليًا لدى ألفاظ الجاحظ الموحية ، وكذلك ألفاظ الباقلانى ، وكتب كتابيه «دلائل الإعجاز» «وأسرار البلاغة» وفيهما كلام نفيس عن البلاغة والفصاحة ووجوه الإعجاز ، وكشف عن نظرية النظم ، وهو إمام وحده، ومن جاء بعده عيال عليه حتى الآن ، وقد لبسوا طيلسانه ، وتخفوا فيه ، وإن أنكروا ذلك كله أو بعضه ، لكنهم مكشوفون فى كل حال ، ويحسن أن نورد عبارة دالة للجرجانى ، حيث يقول :

«ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء فى معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة وفى بيان المغزى من هذه العبارات ، وفى تفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة فى خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبىء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج . . . ووجدت المعول على أن هنا نظمًاوترتيبًا وتأليفًا وتركيبًا ، وصياغة وتصويرًا ، ونسجًا وتحبيرًا» .

ورجع الأستاذ شاكر هذه الألفاظ الثمانية إلى ما تومىء إليه فى كلام السالفين، وما يضيفه الإمام عبد القاهر حين يطبقها ، وحين يفسرها التفسير الواضح المبين ،

ولم يكن ليتم له ذلك لولا جبلته المفطور عليها فى تذوق البيان ، وما اكتسبه من طرائق الكلام لدى فحولة الشعراء ، لكن هذا كله - كما أحس الأستاذ شاكر وكما أحسست أنا - لا يزال إشكالاً أحيل إلى إبهام . وأن الوقوف على وجوه الإعجاز القرآنى مما لا يتأتى كله بحال ، وإن بدا منه شفيف لدى الوجدان المصقول ؛ حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوى الأقدام فى العجز ، وكلها صفات قرت فى نفس عبد القاهر وشاكر ومن يشاطرهما تلك النعوت .

ثم يختم الأستاذ شاكر هذا المدخل بنفثة مصدور ، سببها ثرثرة أهل زماننا الذين لا يملكون إلا الدعاوى الفارغة ، ممن يهونون من شأن البلاغة ، وهى بابتهم إلى فهم أسرار القرآن ؛ لأنهم قتلة للبيان الذى شرف به الإنسان ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ (الأنبياء ١٠) .

وإذا كان الإمام عبد القاهر لم ينته إلى استيفاء الكلام مع قدرته عليه ، فإن فى الأستاذ شاكر قربًا منه فى هذه الخلة ، فكأين من مقالة لم يتمها مع قدرته على التمام ، وتلك جبلة لا ينتزع منها المرء نفسه إلا بشىء غير قليل من عدم إطاعة النفس .

وهذا المبحث عاجلت المنية شيخنا عن إتمامه ، لكنه قد تحدث فى المبحث الثانى عن كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبى ، تناول فيه ما يراد بهذه الأمة ، من معارك السلاح والثقافة ، ثم ناقش المؤلف آراء مالك بن نبى فى قضية «الشعر الجاهلى» ، وهى قضية القضايا فى فكر الأستاذ شاكر ، وأم مباحثه ، وخالف مالك بن نبى فى نتائجه حين قرن الشك فى الشعر الجاهلى بقضية تفسير القرآن ، مرتئيًا أنهما ليسا من بابة واحدة ، لايمسه شك مرجليوث ولا غيره ممن أخذ طريقته، وأن مدار الأمر كله على أن الشعر الجاهلى أحد الأدلة الكبرى على إعجاز القرآن ، كما ذكر الأستاذ شاكر فى كتابه «قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن سلام» ، وخلص إلى أن القرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهانًا على إعجاز القرآن .

وقد استحضر أبو فهر فى قضية الشعر الجاهلى المحنة القاصفة التى اعتورت أهل الجاهلية حين سمعوا القرآن ، وقد امتحنوا بها دون غيرهم من البشر ، وهم أهل بيان وتذوق يكادون ينفردون به عن أصحاب الألسنة ، لكنهم خرجوا من هذهالمحنة بشهادة جازمة بحسن بيانهم وتذوقهم العميق لأسرار الكلام ؛ ولذا كانوا أهلاً لأن يسمعوا القرآن ، وأن يقوم به رجل منهم ، وأن تكون معجزته باقية بقاء الناس وأن يشهد له الإنس والجن مقرين بالعجز **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** (الإسراء ٨٨) .

ومن ثم كان شعرهم الذى هو مجلى بيانهم سبيلهم إلى تذوق القرآن الكريم واعترافهم بمباينته لكلام البشر ، وخلص الأستاذ شاكر إلى حقيقة أدبية عالية ، حيث ارتأى أن الشعر الجاهلى والشعر فى صدر الإسلام كان فى الذروة من البيان والبلاغة ، وأن نزول القرآن لم يطمس هذه الإجادة الغالية فى شعر صدر الإسلام بل ظل الشعر على روعته وأسره ، وأخذه بمجامع القلوب ، وكان سبيل الناس إلى تذوق القرآن الكريم

وأخذ الأستاذ شاكر يشرح معنى «التذوق» لأنه اعتورها كلام كثير من ثرثرة القوم ، فكل من خط كلامًا يتحدث عن التذوق ، وكل من عرف حروف الهجاء فى النقد يلفظ بالتذوق ، وهو فى الحقيقة عمل مضن لا يتيسر إلا لأفذاذ من الناس فى صدارتهم أبو فهر ، ويحسن أن نورد كلمته فى هذا «وقد ابتليت أنا بمحنة الشعر الجاهلى عندما ذر قرن الفتنة أيام كنت طالبًا فى الجامعة ، ودارت بى الأيام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحة الشعر الجاهلى . لا عن طريق روايته فحسب ، بل عن طريق أخرى هى ألصق بأمر «إعجاز القرآن» ، فإنى محصت ما محصت من الشعر الجاهلى حتى وجدته يحمل هو نفسه فى نفسه أدلة صحته وثبوته ؛ إذ تبينت فيه قدرة خارقة على «البيان» وتكشف لى عن روائع كثيرة لا تحد . . . وهذا الانفراد المطلق ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم ، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته» .

والبابة إلى هذا اليـقين الشاكرى هو تذوق الكاتب نـفسه ، وقارئه محـتاج إلى قسط من هذا التذوق ؛ إذا أخذ الأمر مأخذ الجد لا الثرثرة ولا التخليط - ليكسب مثل هذا اليقين ، وما هو ببعيد . . لكنه فى حاجة إلى إنضاء الرواحل حتى بلوغ المقصد .

انفرد الأستاذ شاكر بهذا الدليل الذى اهتدى إليه بعـد معالجة عسيرة فى مجاهل الشعر الجاهلى ، وقـد نفذ منها إلى قضية الإعـجاز ، حيث هما قضيـة متشابكة الأغـصـان والفـروع ، ولم يقف عند الكـتب الكثـيـرة التى ردت على دعـاوى الانتحال، وإن أفاد منها ، لكنها فقط كانت ظهارته .

وينبغى أن نذكـر هنا - وفى غيـر هنا - أن لغة شاكـر مفـردة فى بابها ، وإن كانت فيهـا أثارة من كلام سابق ، ولكنها أثارة لا تنفى أصالة صاحـبها بل تزيدها كما تزيد المرآة النور نوراً ، ونحس حين قراءتها بشىء من الزهو غير قليل ، حيث تبلغ معه اللغـة أقصى طاقاتها روعة وبـيانًا ، وهى بهذه المثابة كفـاء لهذه المباحث الشريفة . وأشرفها «إعجاز القرآن ، وبلاغة القرآن» .

«أبو فهر: بين الدرس الأدبى والتحقيق»

أبو فهر عانى العربية تفسيراً وحديثًا وفقهًا ، وأدبًا وتاريخًا ، ولغة ، وفكرًا ، وجرد حياته كلها لها ، فأفضت إليه بمكنونها ، وزهد فيما سواها ، فأقبلت عليه، وصدف عن الجامعة فخطبت وده ، ونأى عن الشهرة ، فحظى بأفضل منها وهو التقدير ، ومعاناته هذه لاتزال ، ولذا يعسر على من يقترب من فكره أن يكتشفه ، وينفذ إلى جوهره إلا بمثل معاناة الشيخ نفسه ، أو بما يقاربها على الأقل ولهذا كنت مشفقًا على الدكتور محمود إبراهيم الرضوانى مؤلف هذا الكتاب النفيس من اقتحام هذه المجاهل المستسرة ، والأغوار البعيدة التى تسمى محمود شاكر ، بيد أن إشفاقى ما لبث أن غدا إعجاباً بذلك السفر الضخم ، الذى كابده المؤلف حرفاً حرفاً ، وعاشر الأستاذ شخصًا وآثارًا ، وكان موضوع الباحث فى رسالته للماجستير .

ومحمود شاكر رجل بعيد الرضا ، يذكرنى بابن حزم القرطبى فى مضاء فكره، وحدة لسانه كسيف الحجاج ، غير أنى أشهد أن حدته كانت فى موضعها ، ومفصلة على قد الموقف ، أى كانت موضوعية لأن الناقد أحياناً عليه أن يحمل عصا التأديب فى بعض المواطن التى لا تجدى فيها عبارات مائية يطلقون عليها «موضوعية» ملقًا وبهتانًا ، غير أن الحدة - وهى تعدى - لم تعد الباحث ولم تتسرب إلى قلمه ، مع أنه فى حدة الشباب ، وهو يغرى بها ، فتناول آراء الأستاذ، وآراء خصومه - وما أكثرهم - بكثير من الهدوء وأكاد أقول الرقة ، مناقشا إياها فى صبر وحماسة محسوبة ، ربما كانت «الماجستير» وراء شىء من هذا، لا أفتأ يساورنى العجب من الباحث - وهو من الصعيد - أن يكون بمثل هذه الوداعة المطمئنة .

تناول الباحث فى التمهيد حياة محمود شاكر فى وجازة وخطوط عامة ، ثم درس فى الفصل الأول قضية «التذوق والمنهج» وحلل مصطلح التذوق عند شاكر

ومدى عسره ، ويكاد لا ينطبق إلا على محمود شاكر ، لأنه اهتدى إليه بعد رحلة نفسية عاصفة فى بداية حياته بالجامعة ولقائه بطه حسين ، ثم عرض فى الفصل الثانى لقضية «السيرة الفنية» عند شاكر وكتابه عن المتنبى ، وفى الفصل الثالث عرض لمسائل كثيرة فى النقد الشعرى ، وفى الرابع تناول قضايا اللغة والأدب عند محمود شاكر ، وفى الفصل الأخير تحدث عن منهج أبى فهر فى تحقيق التراث ، والفصول كلها تتمتع بسلامة العرض والنظر ، ودقة التناول وأمانته ، وإن كنت اختلف مع الباحث فى بعض القضايا كموقف الأستاذ شاكر من معركة وحى الأربعين ، الذى وافقه الباحث ، وكموقفه المتشدد من الأعاجم ، ويعلم الأستاذ شاكر أننى لا أدين هؤلاء جملة ، ولا أقبلهم جملة ، وإن كنت أكره أن نكون ذيولا لهم ، وهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، فلنقف عند عملهم الصالح ، وهو جيد وكثير .

افتقدت فى هذا الكتاب القيِّم فصلاً صغيرًا عن محمود شاكر شاعرًا ، وأراه من الأهمية بمكان ، فالشاعرية هى مفتاح شخصية شاكر ، ولولا جرثومتها ما رأينا له منهجه هذا فى التذوق الذى يكاد ينفرد به ، وفى الكتاب عرض جيد وتسجيل لفكر أبى فهر النقدى والأدبى ، إلا أنه غلب على جانب النقد الذى كنت أنتظره من الباحث ، وأعتقد أن البحث فى شخصية كمحمود شاكر عسير وصعب ، وفتنة الباحث - أى باحث منصف - به شديدة ، والتفلت منها صعب ، لذا غلب- فيما أعتقد - جانب العرض والتسجيل على جانب النقد ، ومع ذلك فالجهد محمود عن محمود شاكر ، ومن محمود الرضوانى .

اعصفي يا رياح

أبو فهر محمود شاكر ، حجة ناهضة على تواصل الخيط الذهبى للشعر الأصيل فى أصلاب هذه الأمة ، وخسارة فادحة أن يعرفه الناس محققا وعالما بالعربية شعرها ونثرها وأن تتأخر هذه المعرفة به شاعرًا ، وهو مسئول عن حجب شعره ، وإن كان قد نشر قصيدته المطولة «القوس العذراء» ، ولم تصب ذيوعًا كبيراً باستثناء دراسات قليلة متخصصة ، لكن حجب شعره لم يحجب شاعريته التى تتسرب فى أعراق كلامه ، تذوقًا ونفاذآ وكتابة وطريقة حياة ، حيث كنت ألمح فى معارف وجهه ، وبدوات حياته سرائر الشاعر وقسماته النفسية ، وحسن أن تتم ملامح الصورة ، أو تكون فى طريقها إلى التمام بنشر هذه المجموعة من القصائد، جمعها وحققها ولده الدكتور فهر ، وقدم لها دارسًا ومحللاً وناقدًا الدكتور عادل سليمان المحقق والكاتب ، والأستاذ الجامعى وقد بسط مقدمته بسطا شافيًا ، حلل فيه القصائد واتجاه الشاعر ، مقارنا بينه وبين بعض قرنائه واعتذر أنه وقف فى مقدمته فحسب لدى المضمون ، واعدًا أن يستوفى الكلام عن الأداء الفنى فى دراسة مستقلة ؛ خاصة بعد أن طالت هذه المقدمة إلى ١٣٦ صفحة ، ولعلها أطول مقدمة عرفناها لديوان فى العصر الحديث ، وقد قدم عادل سليمان شرحًا لبعض المفردات الصعبة ، مجتهدًا فى الفهم ، مرتبا للقصائد تاريخيا ، كما صنع أبو فهر فى دراسته عن المتنبى ، راسما له عمود الصورة .

وبدايات القصائد كتبت سنة ١٩٢٦ ، والشاعر فى السابعة عشرة ، وهى سن لا ينضج فيها الناس مثل هذا النضج الذى نلمحه لدى الشاعر ، فى التجارب والتعبير ، حقيقة تعكس التجارب تمرداً وحيرة قلقة ، وحزنًا لاعجًا ، مما يناسب سن الفتوة أو الصبا ، لكن يوازى هذا الخط الفرح العارم بالحياة ، والكبرياء الباذخة فى الحب ، وكلا اللونين صادق فى الوشاية عن وجدان الشاعر الذى وقف الناس على عقله وفكره ، وظل وجدانه فى كثيف من الحجب ، التى غزلها الشاعر حول نفسه .

«اعصفى يارياح» عنوان الديوان وقصيدة فيه ، تصلح قصيدته أن تكون عنوانًا لكل شعر محمود شاكر حتى فى الدواوين المخطوطة التى تعد للطبع الآن ، فالعاصفة تمرد على الآسن الراكد فى كل حياتنا ، تهدم لتبنى ، ولعل القصيدة ترسم فى الوقت ذاته العاصفة المسماة محمود شاكر ، التى لم تهدأ قط حتى آخر أنفاسها ، وكان فيها العُقاب الهرم ، لكنه العقاب على كل حال ، وهذه العاصفة تقف وراء قصائده «من ديوان البغضاء» ولعل البغضاء هنا الوجه الآخر للحب والتعلق ، لأن الشاعر يدخل المعركة منشقّا على ذاته ، مستجيبا للطبيعة الإنسانية بين آدم وحواء .

فى الديوان أداء عال جدًا ، فى القصائد ذوات القافية الموحدة ، وفى التنويعات الموسيقية الأخرى والشاعر لاعب ماهر ، حاذق ، يصوغ لغته صياغة فيها أثارة من قديم فى ثوب جديد ، ربما تلمح فيه أثرًا من ابن الرومى فى بائيته عن الأسفار ، أو طنينًا من المتنبى ، أو حفيفًا من غابة الشعر الجاهلى ، أو شوقى ، لكن امتلاكه للكلام لا يهتز بهذه التأثرات ، التى تكون أحيانًا حسنة من حسنات الشاعر المقتدر خاصة إذا لم تكثر ، والكلام من الكلام كما يقول القدامى . يعجب المرء حين يستمع إلى بعض المتعجلين واصفين محمود شاكر بالتقليدية والسلفية ، دون أن يدركوا أن شعره ينقض كلامهم تماماً ، فالرجل تتجاوب فى نفسه أصداء التجديد كما رآها عند جماعة الديوان وغيرهم ، ولعل فهمه لمفهوم الشعر ونقده عند العقاد من أدق ما نعرف وقد طبقه على شعره ، أو استجاب له طبعه على الأقل لأنه هداه إلى نفسه ولأصالة الشاعر من ناحية أخرى ، وربما كانت قصيدته عن «الشجرة ناسكة الصحراء» فيها أثر من «توماس هاردى» بترجمة العقاد ، وربما يكون شاكر قد قرأها فى نصها الأصلى ، وفى الديوان شواهد على ترجمته للشعر ترجمة شعرية رائقة ، ووقع علَى (هاردى) سيد قطب ، وحمزة شحاتة ومحمود حسن إسماعيل ، والقصائد تغرى بموازنة جيدة بين هؤلاء الشعراء ، وتمتاز قصيدة شاكر بالإتقان وإحكام العبارة إلى درجة ربما لم تتيسر لأقرانه ، مع حفاظه على قسماته هو ، وقد عزف الشاعر وهو فى طراءة الصبا على أنغام الشعر العربى فى إجادة تحمد له ، كما تحمد للوزن فى الوقت ذاته .

محمود شاكر وجه الشاعر فيه وجهه الأول ، وإن تخفى، وهو من المجددين ، ولعل عاصفته تجرف وجـوهًا صفيقة يلعنها الشعر فى أفقه العـالى المبين فيهوى بها إلى أسفل سافلين ولا الضالين آمين .

قصائد محمود شاكر المخطوطة
تؤكد أصالته الشعرية

عرفته ناثراً فى مستهل الصبا الأول، قارئا مقالاته فى الرسالة، ثم عرفته شاعراً، فصدقت المعرفة حدسى الأول، حيث لم أفتقد فى نثره روح الشاعر وبلاغته، لأن كليهما من واد واحد وطبقة واحدة، وروح واحدة، وكثير من قرنائه فى مهنة الكتابة والتحقيق تغلب عليهم الصنعة، على حساب الطبع، ويظلون طول عمرهم ــ وإن استعلت السن ــ تلاميذ بالوصيد.

بيد أن محمود شاكر ــ عقاب العربية ــ كما يطيب لى نعته ــ كان الشاعر فيه يتدسس إلى كل كتاباته، وتحقيقاته فهما للنص وقراءة نافذة له،وما جارت ملكة على أختها إلا من حيث الوقت والتفرغ لأنه لو تفرغ للشعر، لكان قليل النديد نمطا وحده فى الشعر المعاصر، لكنه قال مرارا : لقد تركت الشعر لمحمود حسن إسماعيل، وما كان له أن يصنع لو أنصف نفسه، وأنصف الشعر، لأن محمود حسن إسماعيل من واد آخر غير وادى محمود شاكر، وغير وديان الشعراء الآخرين المعاصرين له، حيث تبرز أصالته وحدها دون زيف الصنعة أو التقليد وحسبه أن يكون صوت نفسه ؛ لئلا يسكت.

لكن هل سكت محمود شاكر ؟ الإجابة بالنفى، حيث كان لا يكف عن النظم، وإن طوى كثيراً منه فلم ينشره ربما كان ينشده لأصفيائه ونعتقد أن الشعر أو الفن عموما فى حاجة أن يذيعه صاحبه وأن يقتحم به المجالس ودور النشر وكان أبو فهرلايروق له مثل هذا الاقتحام حتى إنه لم يكن يتحدث عن قصيدة نظمها فى مجالسه وما أكثرها لائذا بالصمت أو بتغيير الحديث عن مجراه ونحسبه رزق الشعر ولم يرزق سياسة الشعر وكثير من خفاف الشعراء رزق هذه السياسة فتصدروا المجالس بوجوه وقاح ومات كلامهم وهم يحيون ،وشعر محمود شاكر نمط وحده حتى فى بداياته الباكرة، لأنه واقف وقوفا مذهلا على تراث أمته شعرها

ونثرها ولأنه ذو ملكة شعرية مرهفة مسنونة وأمامى الآن مجموعة ضخمة من القصائد المخطوطة تملأ ثلاثة دوادين على الأقل إضافة إلى «القوس العذراء» وهى نمط صعب مخيف فى التراث الشعرى المعاصر، وإلى ديوانه «اعصفى يا رياح» -تحت الطبع الآن- بعض هذه القصائد مؤرخ فى سنة ١٩٢٨، وتصحح المجموعة هذه مفهومنا عن شخصية محمود شاكر، حين نراه عاشقا حتى النخاع غزلا رقيق الغزل ، نافرًا ومبغضًا شديد النفرة والبغضاء، حتى إنه كان يزمع إصدار «ديوان البغضاء» وتلك القصائد الغزلة العاشقة لا نعتقد أنه كان يريد إخفاءها والتبرؤ منها إذ هو رحب الأفق عارف بالصبوة الإنسانية حين تستولى على ذى الحس المشحوذ مثله، وأشهد أنه إبان علاجه بإسبانيا نظم قصيدة غزلة فى حسناء من برشلونة ترجمت القصيدة إلى الإسبانية وطارت بها تلك الحسناء وكان بها جذلا سعيدا، مما يشهد بالطرب المركوز فى فطرته النقية الشريفة للجمال الآسر والحسن الموقع وكنت ألمح فيه هذا الطرب فى مشاهدة الرقص الفلامنكو فى اشبيلية بالذات، لأنه تنحدر من تلك الأصلاب العربية الكريمة ممن تذيبها الأعين النجل، وممن تفزع إلى الجمال فزعها إلى العلم والفقه والتفسير واللغة والأدب، لأنها كلها كتاب واحد نطالعه ونحسن مطالعته وقراءته وتذوقه.

وقصائد الغزل هذه تسلك صاحبنا مع الشعراء الغزلين الكبار، ليست غزلا نموذجيا مصنوعًا من قبيل رياضة القول أو من وادى غزل شوقى وأضرابه الذى كان يملأ الساحة بل هو غزل تجربة لا غزل ذاكرة فيه مواقف متباينة يلبس لكل حالة نفسية لبوسها فلا يشبه الصورة الموقوفة فى الشاشة المصورة بل هو صورة حية متحركة ، وهذا مما يحمد للشاعر . تبرز فى هذه المجموعة نغمة الإخوانيات لكنها غير الضيقة المحصورة حيث يتنفس فيها عبق المودة والصفاء والإحساس بجمال الصداقة ويسميها القدماء «غزل المودة» ويرونه أحيانًا أرق من «غزل الصبابة» وجهها الشاعر إلى عبد السلام هارون، وأبوالفضل إبراهيم وآخرين، إلى جانب القصائد الشاكية المتبرمة من حياتنا الآفلة ثقافيًا وسياسيًا.

لكن هناك مجموعة أخرى أطلق عليها «الحجازيات» استوحاها من إقامته الباكرة هنالك فيها وقوف على الآثار الشاخصة،وإن شئت الأطلال التى تتأشب فى ذاكرته

ووجدانه دون أن يكون مـقلدا للوقوف على الأطلال لدى القدامى حيث يـعاشرها وتعاشره، وفيها حنين أسيف واستـرجاع لذكرى وجدانية تطفر بين الكلمات ولعله استوحـى القصائد من حجـازيات الشريف الرضى ولا تثريب عليـه، لأن الحجاز لديهما مناط وحى وإلهام.

تطفر فى المجمـوعة نزعة مجددة فى التجارب والأداء إذ نظمـت القصائد واتجاه الإحياء باسط ظلاله على الساحة ومع إعجـاب الشاعر بشوقى والرفعى لكنه ليس بهمـا من جهة التجـارب وإن كانت لغته قـريبة النسيج من لغة الرافـعى، إلا أنها أجود من لغة أستاذه وأوضح، ونعتقد أن نزعة التجديد الديوانى قد أثرت فى التيار الشعرى عموما حتى لدى البعث وجمـاعة أبولو، وفى شعر شاكر أمشاج من هذا التجديـد غير أنى وقفت على تجـديد شكلى تمثل فى الموشحات واللعب بهـا لعبًا جمـيلاً، حين كـانت بعض الأشطار تأتى من كلمة واحـدة - بالطبع قبل حـركة الشعـر الحر ــ ولهـا نظائر قديـمة ونظائر فى شـعر العقـاد والمازنى وسيـد قطب وغيـرهم وهناك موشحـة على نمط «جادك الغيث إذا الغـيث همى يا زمان الوصل بالأندلس» نعتقد أن الشـاعر عارض بها قدامى الوشاحـين كابن الخطيب مثلا وإن كان شـاعرنا مـسبـوقًا بشـوقى لأن شاكـر طويل اليد بالمعـنى المحمود، وكـانت الموشحات قد طبع بعضها من سنوات طويلة فى مصر، ومحمود شاكر واقف على المخطوطات فمـا بالنا بالمطبوعات ،وقـد استلهم أبو فـهر شخصـية عبـد الرحمن الداخل، وتلبث عنده وهى حلقة غير معروفـة لدراسة استلهام الأندلس فى الشعر المعاصر.

يتبوأ أبو فـهر بهذه المجموعة وبشعـره كله مكانة باذخة شاعرًا كبـيرًا من شعراء العصـر، ولعل الباحثـين يفسـحون له حلقة مناسـبة فى تاريخ الشـعر، وهم له ذاكرون وشاكرون.

جمهرة مقالات محمود محمد شاكر

لا يزال أبو فهر محمود محمد شاكر شديد الحضور بيننا، أكثر ممن حضروا بأعاينهم، يلحون على الناس صباح مساء، ولا يكادون يذكرون، لأنهم يكتبون بأقلام لا رصيد لها من حس قويم ونظر صحيح.

وأبو فهر ـ عاريا من كل لقب ـ يساورنا ونساوره لأنه من رادة هذه الأمة، صحيح النسب إليها، لم يتلبس بسلالة مزغولة، صريح الدعوة والغيرة على قوامها، حين يتزيا غيره بأزياء ينكرها فى وحدته، إذا طاف به من صحوة الضمير طائف، لأن هذه الأمة شديدة العوز إلى من يستوى لديه السر والعلن، فلا يتدابران، وأبو فهر من هذا الضرب من الرجال الذى لا نكاد نعثر عليه الآن إلا بشىء غير يسير من العسر.

وأبو فهر رجل متعدد الملكات، تتصالح كلها فى كيانه، دون تنافر، فهو الشاعر ـ والشعر أكبر ملكاته عندنا ـ والمحقق، والمؤرخ والناقد، والمفكر، وكاتب المقال، وربما بدا للناس أنه محقق قبل كل شىء، حيث استغرق التحقيق من عمره السنوات ذوات العدد، لكنه ـ عندنا ـ شيخ المحققين، لأنه شاعر مبدع، فبان إبداعه فى كل ما خطته يراعة، وما هو بالقليل.

وقد ظهر له بعد رحيله ديوان شعر «اعصفى يا رياح» جمعه وقدم له صديقنا المحقق والناقد الدكتور عادل سليمان، وهو من حوارى الأستاذ شاكر ومن خاصته، ثم ظهر له «مداخل إعجاز القرآن» قدم لها ولده الدكتور فهر المدرس بآداب القاهرة، وللأستاذ شعر مخطوط كثير يملأ ثلاثة دواوين تمثل طرفًا قصيًا من حياته، قرأته بخطه، وفى حاجة إلى نشرة جيدة تقدم صورة الشاعر للناس.

لكن جمهرة مقالاته ـ وقد جمعها وقرأها وقدم لها العالم المحقق د. عادل سليمان ـ جهد كبير لا يقل عن تحقيق المخطوطات؛ حيث يقع على كاهل من جمعها عبء البحث عن مظانها، وتصويب القراءة، وعدم الوقوع فى أخطاء

الدوريات، وشرح ما غمض، وعمل الفهارس، وهو عمل قام به صابرًا محتسبًا عادل سليمان وفاء وذكرى، وجاءت هذه النشرة فى مجلدين بلغا ١٢٧٤ صفحة من القطع الكبير.

أول مفاجأة تقع عليها العين فى هذه المقالات أنها تبدد الصورة المعروفة لدى جمهرة غفيرة من الناس بأن الأستاذ شاكر رجل فرض على نفسه سياجًا كثيفًا من العزلة اليابسة، فلا يكاد يباشر الحياة الثقافية إلا من برجه، والرجل ـ حقيقة ـ قد اعتزل الحياة، لكنها الحياة الفارغة المليئة بالثرثرة، والطنين الأجوف، ومن ثم جاءته الحياة إلى معزله فأصبح مأنوسًا، كما صنع شيخ المعرة من قبله، مع حساب الفارق بين الرجلين، فى الصورة النفسية، حج إليهما كل قاص ودان، بعد أن ذاعت شهرتهما، وتقديرهما . تنتظم هذه الجمهرة كل ما مس أعصابه، وخامر فكره، من شئون الثقافة والفكر والفن والحياة العامة، وكل ما تموج به البلاد آنذاك، وما أكثر ما كانت تموج ، نظرًا لما كانت تحظى به الحياة الثقافية من حرية الإبداع والفكر، لقد كتب شاكر عن حياتنا السياسية فى ذلك الأوان شاكى السلاح فى مبارزة خصوم الحرية، وسياسة الاحتلال الإنجليزى، وتغلغل النفوذ الأجنبى فى حياتنا الفكرية، ترى هل كان الأستاذ شاكر يتحدث عن قضايانا العربية المعاصرة لنا الآن ؟ إن القارىء يخرج بمحصلة تقول : إن قضايانا لم تتغير كثيرًا بمرور الزمن، أو لعل من يثيرون هذه الأمور من الغربيين يغيرون أزياءهم،والجوهر واحد، والفرق كامن فى التسمية، وإلا يكن هذا صحيحًا، فلم نلوك ما كنا شغلنا به قبل قرن من الآن، وربما أكثر ؟

تحدث شاكر عن قضايا التعليم، وتفريغ الأمة من تراثها، باسم تطور التعليم، وبغيره من الأسماء وهى أشياء لا تزال تثار حتى الآن، لكن شجاعة العرض والتناول عند شاكر لا تزال تتنكر دون جهر، لدى آخرين ممن ليسوا فى قامته، أو ليسوا مؤهلين شخصيًا للشجاعة.

شىء أساسى فى القضايا التى يثيرها شاكر أنها ليست موقوتة بزمانها، وإن بدت كذلك، فالدعوة إلى الكتابة باللاتينية، والألفاظ المكشوفة فى التراث، ولشاكر فيها رأى أشجع من رأى من يدعون الحداثة ويكتبون عن الجسد ـ والفن

الفرعونى، ومباحث الاستشراق، ووزارة المعارف العمومية، والسياسة البريطانية، وغير ذلك من المباحث، ربما تقترن بأسماء أصحابها، لكن الرسالة باقية، بعيداً عن طريقة المقالات الصحيفة التى تلفظ أنفاسها بزوال مناسباتها.

وللكتابة الرمزية باب فى الجمهرة، حيث تخفى الأستاذ شاكر فى عباءة عمر بن أبى ربيعة، وأنطقه بما يريغ شاكر الإفضاء به، وليس هذا نكوصًا عن الكتابه الواضحة، أو استخذاء شجاعة، بل لأن للرمز شفوفًا وإيحاء ربما لا يبلغ التصريح مبلغه، فهو ذريعة فنية، وربما كان فى اختيار عمر بن أبى ربيعة ما يشى بأن الشاعر فى محمود شاكر يتقدم نظراءة كاتبا ومحققا، ويومىء ولو من بعيد إلى ما يعتمل فى وجدان صاحبنا من الهيام بالحسن وبمنارة الجمال، وكان شاكر الشاعر ــ كما ظهر فى قصائده المخطوطة ــ فيه هذا النزوع الذى يطرب للفتنة، وليس فيه الطبع الجاسى والحس الغليظ الذى يغلق المنافذ، ويوصد شرايين النفس إزاء الجمال، كما هو حال فئة كاذبة ضالة ومضلة، وللأستاذ شاكر رأى بائن العنف فى مثل هذه الفئات المنافقة، المتذرعة بمسوح تنكرهم، وتشف عن عوارهم وعوراتهم!!

وفى الجمهرة طائفة من المقالات عن المتنبى وقضية التذوق، وعن طه حسين وفتنة الشعر الجاهلى، وردود على مقالات تبين فيها حدة الموضوعية ــ وللموضوعية الصادقة حدة، لا موضوعية كثير من الجامعين الرخوة ــ ويتنزل شاكر أحيانا إلى بعض الصغار من الكاتبين، يرد عليهم ــ وكنت رجوته ألا يرد ــ غيرة على الحقيقة دون نظر إلى الكاتب ومكانته.

وليس فى طوق هذه الكلمة أن تحيط بما فى الكتاب وبما يثيره، وكله مثير، كشأن ما يكتبه الأستاذ شاكر حيث تخرج كلماته مخضلة بدم بهجته، وذوب فكره.

لكن ليس فى طوق الكلمة أن تغفل إيماءة إلى لغة شاكر، لأن العربية تختال مزهوة فى كلماته، دون معاظلة وعنت نجدها أحيانا فى لغة صفيه وأستاذه مصطفى صادق الرافعى، لأن لغة شاكر هى لغته المقدودة من أعصابه، وإن بانت فيها آثار

من كلام سابق، لا تنفى أصالتـه، وأشهد أن لغته مما يحببـنى فى العربية وتذكرنى بلغة الجرجانى، والتوحيدى، والعقاد والمازنى والجـارم فى كتاباتهما الباكرة نسبيًا، مع حسبـان الشيات الفارقـة بين كل كاتب منهم، وحسب شاكـر أنه طوع العربية للغة الدوريات ولقارئهـا الذى يختلف عن قارىء الكتاب والأسفار وأنـه أعاد الثقة إلى أبناء العـربية أو مكن لهذه الثـقة فى نفـوسهم، وتكاد تتـخطفها ريـاح الغربة والشتات فـيما هو حاضر ومـا هو آت، ولكن الغد مأمول بمثل هذه الجـمهرة من المقالات .

الجارم فى ضمير التاريخ
لابنه د. أحمد على الجارم

حسنًا أن يكون الجارم فى ضمير التاريخ بقلم ابنه ، وبأقلام أسرته الأدبية من غير ذوى رحمه ، وقبل ذلك كله بقلم الجارم نفسه ، والأمة تغبن نفسها أشد الغبن حين لا تدرك أقدار أفذاذها ، لأنها - والحالة هذه - أمة مقضى عليها بالبوار والخذلان ؛ لذلك تكون سعادتنا حين نطالع مثل هذا الكتاب الذى ينهض به بررة، وكم من ابن بار ، حده حسن النية ، ولا تشفع له بدخول حرم الأدب والنقد ، لكن كتاب الأستاذ الدكتور أحمد على الجارم ، حسن النية فيه ليس موجهًا إلى الوالد فحسب ، بل هو موجه إلى القيم الأدبية والإنسانية التى تمثلت فى الشاعر والروائى والعالم على الجارم ، وهذا كله مشفوع بتمام التقصى ، بحثا فى الأضابير والدوريات القديمة ، وهو عناء لمن يعرفه ، ومشفوع كذلك بمنهج علمى دقيق ، ونعتقد أن الدكتور أحمد الجارم أعدته مهنته أستاذًا بكلية الطب ، فهو يشرح ويحلل ، ويسدد مبضعه نحو الهدف المبتغى ، فيصيب ، ولا يعنى ذلك أنه يخلو من وجدان الأديب وحماسة المؤرخ ، بل كان منهجه العلمى مزيجًا جيداً من موضوعية العالم وتذوق الأديب .

والشاعر على الجارم من الراحلين الكبار الذين غبنهم زمنهم ، والزمن التالى لهم حتى الآن ، وهؤلاء ليسوا بخاسرين ، بل الخاسر هو الأمة التى يزيف وجدانها لحساب شرذمة تملك الضجيج والأبواق ، ورصيدها من الفكر والفن لا يساوى هذا الضجيج الذى تثيره ونعتقد أن حركة الشعر الحر ، والفكر الاشتراكى الذى ساد فترة فى تلك الأمة ، حجب كثيراً من فضل الراحل على الجارم ونظرائه، مثل : على الجندى ، ومحمود غنيم ، ومحمد الأسمر ، وأحمد مخيمر ، وعبد الرحمن صدقى وإخوان هذا الطراز ، وهم قمم باذخة إن غطاها دخان الدعاية الأسود فلا يفتأ بعض المخلصين أن ينفضوا هذا الدخان .

على الجارم شاعر من الطراز الأول ، ورائد كبير من رواد الرواية التاريخية ،

وعلم النفس والتربية ، وفقيه من حراس اللغة ! «وارث الأصمعى فى لغة الضاد، وفى الشعر وارث البحترى» ، كما يرثيه العقاد ، ومحقق وشارح للتراث العربى لا يمكن لكل هذه الجهود أن تمر بالأمة سدى؛لذا كانت فرحتنا غامرة لصدور هذا السفر الجليل ، الذى لا يمكن أن يغفل عنه باحث فى التاريخ الأدبى المعاصر ؛ لأنه جمع كل ما كتب حتى سنة ١٩٩٤ عن على الجارم الشاعر والأديب والعالم والمؤرخ والمترجم .

على الجارم شاعر درعمى ، وفرَّق العقاد بين شعر المحافظين وشعر مدرسة دار العلوم ، وإن التبس لدى البعض ، لأنك لا تنسى «اللغة» وأنت تقرأ شعر هذه المدرسة ، وربما استمر هذا الملمح الذى رآه العقاد ببصيرة نافذة لدى أبناء هذه المدرسة حتى الآن ، مرورا بمحمود حسن إسماعيل وعلى الجندى وغنيم ، والفيتورى والعنتيل ، وفاروق شوشة ، وآخرين .

لكن ثمة فصولاً توقفت عندها مليا ، وهى مناقشة الدكتور أحمد الجارم لبعض الكتابات التى تناولت والده ، والأبوة عند الأبناء البررة ربما تغلق منافذ الموضوعية فى النظر النقدى ، غير أن هذا المعنى لم أره فى تلك الفصول ، بل كان الحياد رائد الباحث وعدته .

لقد حاور المؤلف زكى مبارك ومحمد مندور فى كتاباتهما عن الجارم الكبير ، وأشهد أنه كان ينصف من يناقشه بعرض وجهة نظره بأمانة تامة ، ثم يأتى إلى أم القضايا فيفندها فى إخلاص موضوعى ، مبينًا مواطن الخلل فى الرؤية النقدية عند زكى مبارك ومندور ، ومن ثم يخرج القارئ فى النهاية مرتئيًا مدى التحامل ، والبواعث غير النقدية التى تحرك كلا الناقدين .

بيد أننى كنت أنتظر فصلاً يكتبه الدكتور أحمد الجارم ، ولا يستطيع غيره أن يكتبه ، وليكن عنوانه «على الجارم : صورة من قريب» يرسم فيه صورة الراحل العظيم فى داره ، وحياته الإنسانية البسيطة بعيداً عن العميد ، وعضو المجمع ، والشاعر الكبير ، وأستاذ الأدب والتربية وعلم النفس ، ونعتقد أن هذا الفصل وسام لا يقل عن الأوسمة التى تلقاها الجارم فى حياته ومازال يتلقاها من كل قارئ للعربية ، خالدًا فى ضمير هذه الأمة .

الجارم صاحب البيانين

بلاغة النظم وبلاغة النثر قلما يجتمعان فى القرائح الإنسانية ، إلا لدى الأفذاذ، وهم قليل ، وتلك بداهة أكدتها الاستقراءات ، وحسبنا أن نذكر ابن الرومى والبحترى والمتنبى وإخوان هذا الطراز الذين عرفهم تاريخ الأدب من أصحاب النظم ، ولم يعهد لهم إبداع نثرى خارجه ، بينما يعرف أصحاب اليمينين من أمثال المعرى والعقاد والمازنى والجارم ، الذين أجادوا فى الفنين معًا ، دون أن تجور ملكة على أختها إلا فى حساب الكم والزمن . والجارم بك من ذوى البيانين ، فهو الشاعر البليغ ، والناثر البليغ أيضا فى رواياته ومقالاته وحتى فى ترجماته .

وكتاب «جارميات» فى طبعته الثانية - وجاءت ضعف الأولى أو أكثر - نمط وحده فى صياغته النادرة ، وإحاطته العميقة ، فهو طائفة من بحوثه اللغوية المذهلة ، كبحثه الرائد عن الترادف والأغلاط الشائعة ، والاشتقاق ، وهى عسيرة فى مادتها ، لكن الجارم شديد الصقل لعبارته ، فجاءت بحوثه شائقة مطعمة بالشاهد الشعرى أو الآبدة الطريفة ، أو النكتة التى تصيب المحز - والجارم رجل ظريف خفيف الظل ، سريع البادرة - ويسعف المؤلف محصوله الغريب فى اللغة، ويذهل القارئ متعجبًا : متى عرف كل هذا ؛ خاصة حين يدرك أنه من ذوى اللسانين العربى والإنجليزى ، ولا تقف هذه المعرفة عند حد الإدراك فحسب، بل إنها تحسن التفسير والتعليل ، وتصل إلى تخطئة القدماء على فضلهم، ومناقشتهم ندًا لأنداد ، مع الرعاية الواجبة لهم ، سلفًا كريمًا مجتهدًا.

وليس الكتاب بحوثًا فى اللغة فقط ، بل تراحب مشتملا على بحوث رائدة وعميقة فى تاريخ الأدب قديمًا وحديثًا ، حتى إنه وقف على عصور الضعف والركاكة مفسرًا ومعللاً ، ومن بحوثه التى التفت إليها الجارم بك تاريخ الأدب الأندلسى وتطوره وأداء المستشرقين فيه ، وأعلام هذا الأدب ، وهى بحوث متقدمة

زمنًا، حيث لم تكن المدرسة المصرية الأندلسية قد ابتعثت بعد إلى إسبانيا ، وهو جهد يحمد لهذا المؤلف الكبير ، إضافة إلى ترجمته «لقصة العرب فى إسبانيا» ، وهى ترجمة كأنها نبتت فى لغة العرب بفضل بيان الجارم . وفى الكتاب آراء نقدية مبثوثة فى تضاعيفه عن الشعراء المصريين أو الأدباء عموما مثل شوقى والمنفلوطى وحافظ وحفنى ناصف والشيخ عبد المطلب وولى الدين يكن وحمزة فتح الله وآخرين ، وهى آراء تشى بحصافة نقدية تضع هؤلاء موضعهم فى تاريخ الشعر والأدب الحديث ، لكن مقالته عن الشيخ حمزة فتح الله سنة ١٩١٧ نموذج وحدها؛ لأنها مرثية نثرية من عيون المراثى فى النثر تضارع المراثى الشعرية ، حين لم يسعف الشاعر الوقت لينظم مرثيته ، فصاغها نثرا ، لا أتردد فى ضمها إلى ديوانه دون أن أجعلها «قصيدة نثر» إلا بالمعنى الكريم لهذه التسمية ، وكم وددت أن استشهد ببعض سطورها .

فى «جارميات» سلسلة طريفة عن «الشعراء الذين قتلتهم أشعارهم» ، وطائفة عن أعلام الإسلام قادة وفاتحين ، وكلها مع نظائرها آيات شواهد على أن الجارم من رادة البحث ومن كتاب المقال المعدودين ، فى اللغة والأدب تكمل صورة الجارم الشاعر والروائى والمترجم ، ولولا أن يدًا كريمة من ابنه الأديب والطبيب النابغة د. أحمد الجارم ، لما تيسر للباحثين هذا السفر النفيس الذى عانى فى التنقيب عنه فى مظانه البعيدة والمجهولة معاناة هائلة يحمدها له البر بالآباء ، كما يحمدها له الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء ، ترى كم من الأبناء صنع هذا الصنيع أو قريبًا منه مع الآباء .

ديوان الجارم في طبعته الجديدة

أن يطبع ديوان الجـارم ثلاث طبـعات فى أقل من عـشـر سنوات ، وأن يكون مجمل النــسخ منه يفوق عشرة آلاف ، فـهذا له دلالة . ودلالته القريبـة والمباشرة صالح الشعـر الصحيح ،وفى صالح حـضرات القراء ، حيث يقبلـون على الشعر دون صخب ، أو ضجة إعلامـية خاوية تبيع للناس بضاعة بغيـر ثمنها الصحيح ، خاصـة أننا نعلم علمًا ليـس بالظن أن بعض الدواوين لا تبيع مـائة نسخة وثـمنها رخيص مقارنة بديوان الجارم ، مع تمكن أصـحابها من وسائل الإعلام والإعلان ، والفيصل فى النهاية حضرات القـراء الألباء ، الذين لايخدعون ، وإذا خدعوا مرة فلن يلدغوا مرة أخرى !!

وديوان الجـارم ظل حبـيس الغبن سنوات طوالاً ، وحـين كشف الغطاء أقـبل الناس عليه ، ولعله يعيد للناس ، كما أعاد أولاً ثقـتها فى الشعر ، ويكشف شيئًا من ظلام الأزمة التى تأخذ بخـناق الناس ، وتسمى مرارا «أزمة الشعـر» ، فها هو ديوان ضخم زاد عن سـتمائة صفـحة من القطع الكبيرة ، وبه هوامـش شارحة ، ومضبوطة ضبطًا تامًا، وهو يمـلأ أكثر من خمسين ديوانا من دواوين هذه الأيام ، يطبع طباعة فاخـرة ، ويجد من إقبال القراء ما هو متوقع إذا زالت غـاشية الدعاية الرخيصة ، ووجـه الناس الشعر حين يخلون إلى أذواقهم التى نظلمـها حين نقول عنها : لقد صدئت ، وانصرفت عن الشعر ، ولم يعد الزمن زمن الشعر الآن .

أن يطبع ديوان الجـارم بك بكل هذه المواصفـات ، فإنه جدير بإعـادة النظر فى كثيـر من مسلماتنا النقدية ، التى ركن إليـها بعض النقاد ، وجدير أيضًـا بمراجعة الأذواق والآراء التى اندست فـى تاريخ الأدب - غـفلة من النـاس أو تغـافـلاً . وأجحـفت ببعض الشـعراء والأدباء ، وألقت عليهم سـحبًا ثـقالاً من الغبن الذى يطوى المحاسن ، أو يظهرها بغير وجههـا الصحيح ، فها هو ديوان يصحح بعض هذه المسلمات ، وأن الشعر ليس بعناوينه ، بل بمحتواه فى التجارب والأداء ، وأن

الأوزان الشعرية صالحة للأداء والتجارب العصرية ، وأن اللغة الجميلة المصقولة التى لا تدابر القواعد ، بل تحتويها ، وتبدع فى إطارها لاتزال تطرب الوجدان والآذان .

نعتقد أن حضرات القراء سيرون فى هذا الديوان - كما رأوا بالفعل - صفة نظم الكلام عند الجارم ، وأن هيئات التراكيب تستوى فى نفسه نغمًا وموسيقى ، قبل أى شىء آخر ، وأن المناسبات هى مناسباته هو صادق فيها ومجيد ، وأن فيها شعرًا يتراحب بين الوجدان الصادق ، والحكمة المنتزعة من تجاربه هو ، وأن اللغة لديه ليس لها صفة - عندنا - غير الاختيال حين يدل الشاعر عليها ولا تدل عليه، لأنه رصفها الرصف الحاسم ، فاختالت هذا الاختيال ، وسيرون كذلك هذا الشعور المثقف المتأمل الذى يقتنص الأوابد الخفية ، فإذا بها سلسلة طيعة .

لعل فى لغة الجارم الرائعة ما يدفع الناس إلى الغيرة على لغة الشعر ، التى انماعت الآن ، بين التهافت وبين «ضرب الرمل» وما بين الفجاجة والتبجح بالخروج عليها ادعاءً وتخاذلاً ، ورغبة مأفونة عاجزة .

هل يمكن أن نغبط الجارم على أن قيض الله له وللقراء ابنا قليل النظر فى الأبناء وفاءً وبرًا . . هو أ. د. أحمد على الجارم الأستاذ بطب القاهرة ، فهو الذى سهر على تراث والده شعرا ونثرا ، ومن حسابه الخاص ، ليبقى تراثه بين يدى التاريخ كاملاً ، إننا نغبط الجارم الكبير ، ونرجو أن يحذو حذو الابن الكريم أبناء أدبائنا ومفكرينا الكبار ، حيث لدينا قائمة طويلة بالأبناء العاقين أو المهملين الغافلين ، ولا نريد أن نذكرهم فنفسد غبطتنا بصدور ديوان على الجارم بك .

الصورة الفنية فى شعر على الجارم

كتاب جيد فى موضوعه وفى تناوله لا يقف عند مألوف الدراسات المعدة سلفا، فتجىء كأنها إعادة ولادة وحسب أصحابها ، إذا صحت نسبتها إليهم أن يقفوا على المصادر الجاهزة ينقلون منها رابطين بين الكلام بروابط لاتشى بشىء من خصوصية النظر والمراجعة . أما الكتاب الذى نحن بصدده ، فمباين لهذا الطراز عن الكتابة مؤلفه الدكتور محمد حسن عبد الله أستاذ ورئيس قسم النقد الأدبى بجامعة القاهرة رجل له بصر بتصريف الكلام ومعالجة مضايقه ، يعالج الرواية والقصة القصيرة منذ أمد بعيد وليس من النقاد «الفضوليين» المحترفين ، الذين لاتسعدهم موهبة مبدعة فيقفون بالوصيد دون نفاذ إلى الأعماق ، وقد شفع ملكته بدراسات متعمقة فى النقد الأدبى والبلاغة .

والكتاب عن شاعر كبير قليل النظير فى حياتنا الشعرية ، لحقه غبن شديد طوال ثلاثين حولا وأكثر إلى أن أزيح عنه غبار الخمول الظالم بما أصدره ابنه العالم الأديب الدكتور أحمد الجارم من تراث والده شعراً ونثراً ، صار بين أيدى الدراسين الذين من أهمهم مؤلف كتابنا هذا ، وقد اختار زاوية مهمة جدا هى «الصورة الفنية» فدرسها : روافدها وطبيعتها وأشكالها وخصائصها فى موضوعية وتجرد ، بيد أنه لم يقف بالصورة عند مفهومها التقليدى من البيان ، بل فهم الصورة فهمًا جديدًا يخول لنا أن نطلق عليها «صورة هيئات الكلام» عند الجارم وتأليفه ومفرداته ومعجمه واحتشد احتشاداً حسنًا ؛ لأن الجارم بطبعه رجل جد وصرامة يعدى قارئه ودارسه بجده وصرامته فلا يملك عنهما حولا ، ولذا جاءت الدراسة مستوعبة من مدخل إلى الصورة من التقليد إلى الأداء النفسى إلى فلسفة الصورة إلى الصورة والكلمات وصور بلا ضفاف .

والذى يبحر فى شعر الجارم يلزمه أن يقارب قامة الجارم الواقفة على ذخائر التراث الشعرى بكل عصوره ، حتى الضعيف منها ، وكانت الرحلة عسيرة خاصة

مع روافد الكلام وصوره ، وقد تمكن المؤلف أن يلم إلمامًا حسنًا بمصادر الصورة وقال كلامًا جيدًا عن التشطير والتخميس وارتأى فى ذلك الأسلوب تفرد الجارم عمن سبقه، وليس التشطير والتخميس مرفوضين جملة بالعناوين ، بل توغل نافذًا إلى جواهر الكلام ، ورأى فيهما إضافة ،ووقف عند التضمين وبراعة الجارم فيه ، حين يجعل الشطر الأول المقتبس قافية فى قصيدته منوعًا بين المصادر التراثية التى تتقاطر على لسانه ، محتفظًا بوجهه فى زحام الوجوه ، وعكف على تجاوز الصورة المحسوسة إلى الأداء النفسى الخاص فى مقدماته الغزلية والطبيعية والرثائية وغيرها، وعرض للقصيدة المادحة وقال كلامًا منصفًا ، وتناول فلسفة الصورة ودلالة الكلمات مجتمعة ومفردة وتشكيل الأبنية عند الجارم ، ولم يغفل كلامه النثرى فى رواياته عن الشعراء خاصة ، وكيف ساعفه محصوله المذهل فى ملابسه حيوات الشعراء وشعرهم .

وختم المؤلف كلامه بمختارات من الجارم كاملة ليقف قارئه على نمط من الكلام التام ، وعلى الصورة الفنية كيف استقرت على يديه ، وقد قلت فى ثنايا هذه الكلمة إن شاعرنا قليل النظير ، وأقصد بذلك أن الكلام عنده فى استواء عجيب لم أره لغيره ، وأن الصنعة الفنية عملت عملها فى ملكته المفطورة ، وأن هيئات الكلام تعطو إليه منقادة بأجيادها ، فكأنه لا يعانى فى تأليف الكلام ولعله كان شديد المعاناة لأنه كان كما يقول راثيا : «فإذا تراءى ساكنا فلأنه فى أسرع الأحوال من حركاته » .

ونقاط الاتفاق بينى وبين المؤلف الناقد أبين من أن ينص عليها ، فهى كثيرة لا يغض منها أن نختلف قليلا حول نقاط أخرى لاتمس الجوهر ، وحسبى أن أرى أن «بداوة» الجارم التى قال بها المؤلف تناصيها عندى «حضريته» أو «مصريته» ببساطة النيل وسهولته وبروحه السمحة التى ظهرت أمارتها فى شعره ، والجارم هو :

«الأديب الذى له فطنة المصرى زانت سليقة البدوى» ، وحسبنا أن ندرك أن هذا الكتاب من الكتب الجيدة عن الشاعر الكبير .

عقـــاديات

اتصال الأستاذ العقاد بذاكرة الأمة غير موقوت بيوم رحيله أو مولده ، لأنه موشوج الأواصر بجوهرها أساس نهضتها ، لاتزيده المناسبة العارضة إلا توهجا ، تتطلبه الأمة فى لحظات الانتصار أو لحظات الانكسار ، وحين تخبو الجذوة فى وجدانها عليها أن تنفخ فيها ، وأن تستبطن أعراق النار وهى دائما تسعفها لأنها نار خالدة مبدعة ، وهكذا كانت نار العقاد ولاتزال .

وعلى قبس من هذه النار كانت مدينة النور للشاعر وللكاتب الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، وهو من القلة الصابرة التى تقرأ الشعر ، تفهمه وتتذوقه ، لأنها تحترق به - وقد صدر كتابه فى السلسلة الرائعة الذائعة «مهرجان القراءة للجميع» وترعاه السيدة الفاضلة سوزان مبارك ، ويعنى هذا أن الدائرة المتلقية تراحبت لتقرأ كلاما رائعا عن العقاد الشاعر ، الذى كان مضنونًا به على غير أهله ، وتتذوق شعر رجل ضربت بينه وبينها أسداد من سوء الظن بالرجل وشعره .

وكلام حجازى يشعرك لأول وهلة بالتعاطف الموضوعى ، وأنه كان مدخرًا منذ عقود ، مصحوبًا بشىء من الندم بعد استعلاء السن ، واستحصاد الملكة ، وزوال شرة الشباب ، وإن بقى منها شىء يدل عليها ، ويشى بها مسربلة فى كثير من اللوذعية واللباقة ، وهذا شىء حسن لأن زوال حدة الشباب تمامًا غير محمود على الأقل بالنسبة للشاعر المتوفز ، وهكذا كان حجازى وأضرابه من الشعراء الصادقين.

تسلل المؤلف إلى دار العقاد - حيًا - وصحبته فى رحلته الثانية بعد رحيله ، وطالت الجلسة التى وصفها فى كتابه نتذاكر العقاد والشعر وقضايا الثقافة عامة ، وشعرت ساعتها بأن حجازى لابد أنه كاتب عن العقاد ، وقد فعل وشعرت أكثر بعد قراءة مقالاته عن الشاعر العبقرى أن المؤلف كان يضع يده من قديم على عبقرية العقاد ، وأن حوائل حالت آنذاك عن جهره برأيه ، وإن عبر عنه بطريقة

معكوسة ، فى هجائه العقاد شعرًا، وسمعت العقاد فى ندوته ساخرًا من ذلك الذى يقول عن الرجل : أنه يعيش فى عصرنا ضيفا ويشتمنا قائلا : من الذى يعيش فى عصر الآخر ؟ ولم نشعر أن العقاد موجوع ، وإن عبر تلاميذه عن وجعهم هم دون الرجوع إلى العقاد فى هذه الردود وفى نظيراتها ، كما لمسناه مرارًا، لكن الأستاذ حجازى حدثنى عن «تأشيرة العقاد» فى لجنة الشعر «تحول إلى لجنة النثر للاختصاص» ، وكانت عن قصيدة حجازى لا كما شاع ويشيع عن قصيدة عبد الصبور ، ولعل حجازى قد أشار إلى ذلك منشورًا بالأهرام - إن لم تخنى الذاكرة - وفى هذا دلالة على ارتباط حجازى بالعقاد ارتباطًا معكوسًا فى أوائل الشباب وارتباطًا طبيعيا بعد ذلك ، وما لى لاأقول : إننى واثق من إعجاب حجازى بالعقاد إعجابًا شديدًا ، وأن الرجل ولايزال من كبار مريديه - على طريقته - وأنه مثَلٌ دو أعلى بالنسبة له ضمن مُثل عليا ، وهل أدل على ذلك إلا قوله: إننى لو كتبت سيرة أديب عربى لكان العقاد صاحب هذه السيرة ، والا فتنته بصاحب السيرة شخصا وشاعرا ومفكرا وإنسانا . وإننى لألمح فى مقالات حجازى عن العقاد ما لم ألمحه فى مقالاته عن آخرين جمعهم كتابه ، بل أحس إحساسًا غريبًا بأن كتابات حجازى عن العقاد فيها تلك الروح الفروسية التى أحسستها فى كتابات العقاد عن الإمام على كرم الله وجهه ، وأن كتابات حجازى النثرية فيها من صلابة بنيانه الوثيق - خاصة مقالاته عن الشعر والشعراء - ما فى صلابة بنيان العقاد ووثاقته .

وأزعم - وليس الزعم مطية الكذب - أن مقالات حجازى عن العقاد الشاعر من المقالات القليلة ، التى تذوقت شعر الرجل ووقفت على أسراره العليا ، وإن وقفت يسيرًا عند الشكل الشعرى فى قصيدة «ترجمة شيطان» ، الذى ارتأت فيه رتابة ، ونحن نعتقد يقيناً أن الرتابة تخلقها تداعيات الشكل الحر ، وأن النظام الصارم كما وصفه حجازى يعصم القصيدة من تلك التداعيات والموسيقى «السايبة» ربما تشيل أحيانا كفة الشاعر ، لكن النظام لا تثريب عليه ، كما وقفت المقالات عند تأثرات العقاد بأمشاج من الفكر الأوروبى ، ولا جناح عليه وليت المؤلف أشار إلى هضم العقاد لهذه التيارات ، كما يهضم الأدباء الأصلاء فى كل الدنيا ،

غير أن هـذا لايشيل من كفة المقـالات المستوعبـة ترفدها ملكة شاعرة نـاقدة وافرة المحصول من المنظوم والمنثور على السواء .

من الكتابات التى يحسن عندها التلبث، ما علق به الناقـد الكبير الأستاذ رجاء النقاش على ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوى بعنوان «علقة للعقاد» .

والدكتور بدوى يكره العقاد كراهة تحريم ، كما يقول الفقهاء ، ولا يطيق سماع اسمه ، وهو حر فى وجدانـه ومشاعره ، مادامت لاتتعلق بقضايا شـخصية وأدبية تمس تاريخ الآخرين ، وكان العـقاد - كما عاشرناه - لا يضن عليـه بمثل مشاعره وإن لم تبلغ مـبلغ الكراهيـة، وكانت تعليـقـات العقـاد اللاذعـة تصله عن طريق تلاميذه فى الندوة ، وكان العقاد يراه «حالة نفسية» على حين كان يقدر رجالاً مثل الأساتذة : مـحمد غلاب ، وزكى نجيـب محمود ، وعثـمان أمين ، يقدر فـيهم الفهم والاستقامة فى النظر ، واستـواء الشخصية وكان يضم إلى بدوى على سامى النشار ، ولـم يسـتطع بدوى أن يقول فى العقـاد كلامًا وهو حى ، فاغـتنم رحيله وكتب ما كتب فى مذكراته ، ومنها حديث «العلقة» الذى علق عليه رجاء النقاش، ووقف موقف الحذر والحيطة ، وكان مبلغ قوله ، ماذا لو صنع أحد خصوم بدوى ما صنعـه بدوى مع العقاد ، وضـرب أستاذ الفلسـفة علقة ؟ وقـد رويت كلمات رجاء بالمعنى فليس النص أمامى الآن ، وكـان أولى بالأستاذ رجاء - وهو من هو حصافـة - أن يستنكر هذه الرواية جملة وتفـصيلا ، لسبب بسـيط جدا ، هو أن العقاد لا تثنيه عـلقة عما يعتقده ويبـوح به ، ولم يثنه السجن ، وهو أشد وأنكى ولو كانت وقـعت هذه الحادثة لما خفيت هذا الخـفاء ، خاصة أن العقـاد لا يعيش هملا فى قرية من قـرى النمل وحديث العلقة كان لابد أن يـذيع وأخفت منه سرا ينتشر ، وخصـومه يتربصون به فيذيعونه من قبـيل النكاية والمعايرة ، ونحن نعرف «عام الكف» الذى حدث فى مطلع القرن «وعـام كف» آخر كان منذ سنوات قلائق عرفتـه الصحف والنشرات ، وهذا عرف لأنه وقع لشـخصيات معـروفة ، وتوافه الأخبار عن الفنـانين والأدباء تتناقلها الألسنة ، وقد تناقل الناس أيضـاً حديثًا عن «علقة» للعقاد «بالبـوكس» وسمعتها من صاحبهـا المرحوم عمر الدسوقى لا يكف الرجل عن إذاعتها فى الجامعة ، وكأنها مجد شخصى له يفوق مجد العقاد، وكان

يسرد أيضًا أخباراً عن مجون العقاد ، وكلها كانت «نقيضة الصدق» كما يعبر الأستاذ محمود شاكر عن الصفة المرذولة ، وكنا نبتسم ونغالب الضحك الصاخب توقيرًا للأستاذ ، وكان يدرى أننى من مريدى العقاد ولا يراعى هذه الحرمة لياقة فقط ، لكن الرجل اعترف بغيظه من العقاد ، وأن الناس يلتفون حوله حبا وولاء، وهو أفنى عمره لم يجد مثل هذا الحب وكانت لحظة صدق رائعة تغمدت «نقيض الصدق» بالصفح الجميل ، ولم يصل إليها بدوى حتى فى تلك السن سن المراجعة، وقد وصل لكاتب هذه السطور رذاذ من كراهية العقاد ، حيث التقيت به فى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وعرف أننى أدرس العقاد الشاعر مقارنًا بشاعر إسبانى ، فازور قائلا : وهل العقاد شاعر ! فقابلته بازورار أشد ، وكان الأستاذ رجاء النقاش أولى منى بأن يصف ما قاله بدوى «بنقيض الصدق» بأخف تعبير ، ولعله لم ينس - أى رجاء - هجوم الإخوان على العقاد بإطلاق الرصاص فى مسكنه وظلت فجوة الرصاصة فى النافذة شاهدة على فراغ هذه الأدمغة الممسوخة . . ولم يتخل العقاد عن هجومه بل تابعه بإصرار وعنف شديدين ، أما كانت الرصاصة أوقع من العلقة البدوية الساذجة التى تشهد على صاحبها «بنقيض الصدق» وهل ينتظر رجاء - وهو عزيز على - «علقة» ولو فى الوهم حين وقف بالوصيد ، ولم ينف الواقعة أصلا ونفيها أقرب إليه عقلا ووجدانا وواقعا !

وللعقاد صالون فى القناة الثامنة يشهده الناس أسبوعيا يستضيف رادة من الفكر واللغة والأدب بجانب المقربين من العقاد شخصيا ، يحيون بعض أفكاره كما يرون مؤيدين ومعترضين ، وتلك آية كريمة من آيات العقاد فى الدعوة إلى حرية الرأى التى ترى أن خطأ الحرية خير من صواب التقليد والعبودية ، وحسنًا يصنع القائمون على القناة الثامنة فى هذا البرنامج حين يشفعون حديث الضيوف بكتب العقاد ومشاهد حياته وإذاعة مناظر من الحلقة اليتيمة ، التى صورت فى حياة العقاد ومقاطع من شعره ونثره ، غير أن بعض الحلقات استضافت من لم تتجاوز معرفته بتراث العقاد معرفة العوام وأشباه العوام ، فيخلط بين كتبه وكتب غيره ، ويذكر للعقاد كتبا لم نسمع عنها مطلقا . . لكن البرنامج ثقافى ممتع حتى لأواسط الناس وقد قرب برامج الثقافة والرأى من جمهرة المشاهدين ، حيث يتم إلغاؤها

حين تتعارض مع برامج جماهيرية فى قنوات أخرى ، ويقدم دليلاً واضحًا على أنَّ الجمهور تروق له الثقافة كما تروق له المتعة بل ربما تشوفه الثقافة ليربط نفسه بفئة أخرى ، تميزه ، ويبطل دعوى «الجمهور عايز كده» وليس لدينا توكيل من الجمهور يؤكد مثل هذه الدعوى الواضحة البطلان ، وربما يكون من المناسب أن يذاع الجمعة موعد ندوة العقاد بالقاهرة أو الثلاثاء موعد ندوته بأسوان إيهامًا بالحقيقة تحية لهذا البرنامج الجاد .

إن هذه العقاديات أكف تلهب أدمغة مهزولة ، يروق لها أن تتخفى وراء طيلسان العلم ، وتتقيأ كتابات لاتعرف إلا سوق النخاسة ، ومساومة المنافع الحقيرة، وهى فى الوقت نفسه دعوة حارة مخلصة ، تطارد خفافيش باسم الدين وباسم السياسة وباسم الأدب لأنها من النور جاءت وإلى النور تقود ، من العيون وإلى العيون .

مدرسة للعقاد فى الأدب المقارن

الأدب المقارن مصطلح حديث نسبيا فى أوروبا ، وأكثر حداثة فى العالم العربى، وتتوزعه مدرستان : المدرسة الفرنسية أو التاريخية ، والمدرسة الأمريكية أو النقدية وتأتى - تاريخيًا - بعد الأولى .

ولعل العقاد - عندنا - سابق على المدرسة الثانية سبقاً يحمد له ، ويقترن باسمه قبل رواد تلك المدرسة التى قلبت مقاييس هذا الفرع من الدراسة ، وإن غابت هذه الحقيقة عن الدارسين جميعًا ؛ إذ لا يكادون يذكرون عن العقاد هذا الاهتمام المبكر جدًا، وتطبيقاته فى مقالاته التى نشرها فى مطالع هذا القرن .

ترى المدرسة الأمريكية - ورائدها رينيه ويلك ١٩٠٣ - أن اقتصار الدراسة المقارنة على مسائل تأثر أدب ما بأدب غيره أو تأثيره فيه تضييق لا مسوغ له ، وأن الظروف المتشابهة فى بلدين ، وتشابه القرائح حين تتجه لمعالجة موضوع واحد يمكن أن تقوم بها دراسة مقارنة ، بصرف النظر عن الالتقاء التاريخى ، وتأثير أدب فى أدب آخر .

وقد هلل كثير من الدراسين حتى بعض الفرنسيين أنفسهم لهذا الاتجاه الجديد ، الذى بشر به ويلك فى دراسته «أزمة الأدب المقارن» ١٩٤٩ ، ورأوا فيه فتحًا جديدًا .

والحق - دون تعصب عرقى أو مدرسى - أن العقاد سبق (ويلك) بسنوات طوال فى تطبيق هذا الاتجاه ، وإن كان لم يذكر مصطلح الأدب المقارن .

فى سنة ١٩١٦ نشر العقاد مقالين - فى مجلة المقتطف سبتمبر ونوفمبر - عن أبى العلاء المعرى مقارنًا بينه وبين دارون ، وشوبنهور ، وكيف أن شيخ المعرة تحدث عن مذهب النشوء ، وتنازع البقاء حديثًا غير عابر كما تحدث عند دارون، مدللاً على ذلك بنماذج من شعر أبى العلاء وأقوال دارون ، ثم عرض العقاد

لتشاؤم الشاعر العربى والفيلسوف الألمانى شوبنهور ، مستشهداً بنماذج من كلامهما ، وانتهى العقاد إلى قوله فإذا قيل إن دارون واضع المذهب فى عالم العلم، ساغ لنا أن نقول : والمعرى واضعه فى عالم الأدب والشعر.

وارتأى العقاد أن اتفاق مزاج المعرى وشوبنهور دون اتفاق عقلهما هو وراء تشاؤمهما ، ورأفتهما بالحيوان ، ووفائهما لوالديهما .

وفى مقالة له فى كتابه «الفصول» ١٩٢٢ عن الغزل الطبيعى قارن مقارنة ذكية بين شعراء الغزل من العرب مثل عروة بن حزام ، والمجنون ، وجنادة العذرى ، وجميل وكُثير ، وبين كاتيولس الشاعر اللاتينى (ت ٥٤ ق. م) واستشهد بأقوال هؤلاء الشعراء مرتئيًا فيها تعبيرًا صادقًا عن لوعة العشق وشواظه ودخانه بعيداً عن الرقة والدماثة ، التى شاعت لدى شعراء الصنعة ، وهى «حقيقة اتفق عليهما شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة أو مشرب قوم ، أو وحدة زمن ، ولكنهما اجتمعا على عاطفة إنسانية صادقة» .

وفى مقال له بجريدة البلاغ ٧ يناير ١٩٢٤ ، يقارن بين المتنبى والفيلسوف الألمانى نيتشه فى فلسفة القوة ، ويعجب العقاد لهذا التقارب فيقول : «إن آراء شاعرنا وأراء المفكر الألمانى تتفق فى مسائل كثيرة اتفاقا توأميا لانعلم أعجب منه اتفاقا بين نابغين مفكرين ، ينتمى كل منهما إلى قوم وعصر وحضارة ولغة ، غير التى ينتمى إليها الآخر : تتفق فى مقاييس الحياة ، وقيم الأخلاق ، وصرامة العبارة ، وتفاصيل وجزئيات شتى . . . ووجهة النظر على الأقل متحدة فى كل ما نظم الشاعر ، وخط المفكر من المعانى الخاصة والعامة ، فمن قرأ المتنبى ثم قرأ نيتشه ، لابد أن تكر الذاكرة به إلى كثير من أبيات المتنبى ووقائع حياته ، كلما قلب الطرف فى صفحات نيتشه من رأى إلى رأى ومن خطرة إلى خطرة ، ولابد أن يشعر وهو ينتقل من أحدهما إلى الآخر إنه ينتقل فى جو واحد ، وبيئة واحدة» .

وقد ردد هذا الرأى المستشرق الإسبانى غرثيه غومث فى دراسته عن المتنبى وشعراء الأندلس - ترجمها دون أن يشير إلى العقاد ، ونظن أنه قرأه ، وهو فى مصر طالب بعثة ، أو بعد ذلك .

ولم يغفل العقاد اتجاه المدرسة الفرنسية - وهو مسبوق به - فى حديثه عن الديوان الشرقى للشاعر الألمانى جيتى ، وكيف أنه تأثر فيه بشعراء الشرق وبخاصة حافظ شيرازى - وديوانه مترجم للألمانية واطلع عليه جيتى - وارتأى العقاد أن ظروفا ثقافية ، فى ألمانيا ، كانت تدفع مثل الشاعر الألمانى جيتى - وله ظروفه الخاصة أيضًا - إلى أن يولّى وجهه شطر المشرق (انظر بين الكتب والناس) .

لذلك كان من العجب أن يتحدث الدارسون عن الأدب المقارن فى مصر ، وعن رواده مثل فخرى أبو السعود وأحمد ضيف ، وغنيمى هلال وآخرين ، وأن تنشر دراسات عن المدرسة الأمريكية ، والعقاد عندنا سابق لها بفترة كبيرة .

وحسبنا أن نعلم أن مقال العقاد عن المعرى وشوبنهور ودارون نشر ١٩١٦ حين كان رينيه ويلك فى الثالثة عشرة من عمره ، وتوالت دراساته - وصاحبنا الأمريكى فى دور الصبا واليفاعة ؛ مما يدل على أن الفكرة غير طارئة ، بل غائرة الجذور فى أعماقه ، والعقاد - فيما نرى - من ذلك الضرب من المفكرين والأدباء الذين يقفون على جواهر فكرهم منذ شبابهم المبكر ، وجل ما يأتى بعد ذلك إنما هو تعميق لأشياء وضعوا أيديهم عليها من قبل ، أو تطوير لها دون مساس - تقريباً - بجوهر الفكرة .

ولا يدفع هذا القول بسبق العقاد للمدرسة الأمريكية أن العقاد قارن بين شعراء وفلاسفة ، فإن هذا ما دعت إليه أيضاً المدرسة الأمريكية ، كما لا يدفع أيضاً أنه لم يذكر مصطلح الأدب المقارن ، فهذه مسألة شكلية ، وماذا فى اسم مادام المضمون معبراً عنه بمثل هذا النفاذ والدقة ، وهما صفتان يحظى منهما العقاد بأوفى نصيب ، ولعل دارسينا لا يغفلون هذه الحقيقة ، فيذكرونها ، وصاحبها فى غنى من السبق عن الثناء .

الفكر الإسبانى والعقاد

لم يعرف التاريخ الحديث أديبًا أثار الجدل والخلاف حول شخصه وإنتاجه ، مثلما فعل العقاد وهذه إحدى دلائل العبقرية التى ظفر منها العقاد بأوفى نصيب .

لقد أرسى العقاد دعائم النهضة الأدبية الحديثة وحطم أصنامًا كثيرة فى سبيل هذا الإرساء . ولم تغفر له تلك الأصنام انتهاكه لقداستها المزعومة ، عاش فى بيئة تعبد الأصنام . . أصنام الوجاهة الاجتماعية ، أصنام الألقاب العلمية . . أصنام المال والشهرة ، وهو المتواضع المنبت ، لم يحرز جاهًا ولا مالا ولا شارة اجتماعية ولا لقبًا علميّا بل استعلى فوق كل هذا .

ولو لم يصنع العقاد إلا أنه صنع لنفسه مكانته أديبًا وإنسانًا كريمًا على نفسه ، لكفاه هذا بصرف النظر عن النتاج الأدبى والفكرى ، فكيف وقد حاز كل هذا معًا . .

أحاط العقاد إحاطة غريبة بالتراث الإنسانى ، ولم يكن يقف إزاء الثقافة الغالبة موقف الذليل العاجز ، بل موقف المستوعب الناقد فى الرؤية الخاصة . . والمدهش أنه لم يصنع هذا مع الثقافة الإنجليزية التى يجيد لغتها ، ولكنه تناول إسبانيا من وجوه متعددة حين كان العالم العربى كله لايكاد يعرف شيئًا عن أدبها وفكرها ، ولعل أول كتابته عن إسبانيا كان حديثه عن ديكتاتورية بريمودى ريبيرا فى كتابه «الحكم المطلق فى القرن العشرين» ،الذى حلل فيه شخصية الرجل وسياسته والظروف التى أحاطت بتوليه مقاليد الحكم وأدان استبداده ، كما نشر فى عام ١٩٢٨ مقالاً عن الروائى «بلاسكو إيبانيث» بمناسبة وفاته،حلل أدبه وعقيدته ومنهجه فى الإصلاح ، ثم توالى اهتمامه بالأدب الإسبانى . . فأشار إلى الأندلس فى كتابه «رجعة أبى العلاء» وفى كتابه «عقائد المفكرين» فى القرن العشرين تحدث عن عقيدة الشاعر المفكر ميجيل دى أو نامونو . وبعد حصول الشاعر الإسبانى (خوان رامون خمينث) على جائزة نوبل ، أفرد له العقاد كتابًا ضخمًا ، تحدث فيه عن الأدب الإسبانى عامة وعن الشاعر خاصة ، كما قدم نماذج من أشعاره ترجمها

عن الإنجليزية ، وساعدته ملكته الشعرية على الولوج إلى دخيلة قلب هذا الشاعر الإسبانى .

وليست هذه هى المساهمة الوحيدة للعقاد فى الاهتمام بالفكر الإسبانى ، بل هناك مساهمات أخرى ليس هذا موضوع الحديث عنها .

وكان من المنطقى أن يهتم مستشرقو الإسبان بما كتبه العقاد عن أدبهم ، لكن ما حدث لم يكن منطقيًّا . . فهم يعرفون العقاد كاتبًا كبيرًا ، وقد أطلق عليه الأستاذ بدرومارتينث اسم (بطريرك الأدب العربى) . . لكن اهتمامهم بالعقاد كان سطحيًّا وغير كاف ، وقد ترجم له مارتينث ، وهو رائد الاتجاه الاستشراقى المنصف للفكر العربى الحديث قصيدة (نفثة) .

فما إذن سر هذا التجاهل والنفور ؟

سره هو العقاد ذاته . فمن عيوب العقاد أنه عظيم متفرد ، يشعر من سواه بالضآلة ، سواء كان عربيًّا أم أعجميًّا . . يضاف إلى ذلك هذه الحملة الضارية التى شنها على المستشرقين . . أضف إلى ذلك حميته ودفاعه عن الإسلام ولغة العرب، وهذا شيء لايرضاه كثير من المستشرقين بل ويقابلونه بالمناجزة الخفية ، وقد تمثلت فى الإعراض عنه وعدم التعريف بأدبه . ثم إن العقاد عسير الفهم على الأعاجم ، وثمة شيء آخر بالنسبة للإسبان هو اتجاهاتهم المحددة . . فهناك اتجاه يهتم فقط بالأدب الأندلسى ، وإذا تخطاه . . فإنما لمجاملة شخصية أو مأرب عاجل، ويرود هذا الاتجاه غرثية جومث ، وقد ترجم «الأيام» لطه حسين و«يوميات نائب فى الأرياف» لتوفيق الحكيم .

والاتجاه الثانى ويروده بدرومارتينث لايتجاوز نطاق الأدب الحديث ، ويولى اهتمامًا أكثر للشعر الحر والتيارات المستغربة فى الأدب العربى.

أما الاتجاه الثالث . . فيهتم بالعلوم فى الأندلس ويتزعمه خوان بيرنيت،ونتاجهم متعدد فى الفلك والطب والزراعة فى الأندلس الإسلامى .

هذا هو سر التجاهل والنفور من العقاد ، وللأسف ليس موقفنا فى مصر والعالم العربى عامة - وهو ابن هذا البلد - بأفضل من موقف الإسبان منه، حتى إنه ليخيل إلينا أحيانًا أن العقاد لم يمر بهذه الأمة.

عقـــدة العـــقاد (١)

تحطيم العـقاد للألقاب والبـرامج الدراسيـة وطبيعـة الفروسـية فيـه، جلبت له مواقف مناوئة ، من حملة مباخر الألقاب ، ومباخر الحسد ، وكأن العقاد يذكرهم دائماً بما هم عليه ، فهم فى محنة أو عقوبة يصدرون عنها حين تفوح فى كتاباتهم صديداً ، ومـعظم هؤلاء ما كان العقـاد يوليهم حتى نظرة السـخرية والازدراء . . نحن لانريد للعـقاد التطويب والقـداسة ، ولكن نـود أن تكون الدراسة مـتشـحة بالحياد والإنصاف .

تعرض العـقاد فى حيـاته وبعدها لطائفـة من التناولات ، ربما تغرى بالابتـسام لضآلة التناول وقائليه ، ولولا أن الجيل الناشىء نخـشى عليه لما أعرنا هؤلاء مجرد التفات .

يركن بعض الناس إلى الإشاعات وسوء القـالة ، ويركب موجة العوام ، يقول بعض المنتسـبين إلى الإخـوان: إن العقاد كـان يعقد نـدوته وقت صلاة الجمـعة، ويوشى كلامـه ببطولات صنعها مع العـقاد هى الزيف بعـينه ، ويعرف من اتصل بالعقاد أن نـدوته تنفض قبل الصلاة بوقت كاف ، ثم إن هذا سلوك شـخصى بين الإنسان وربه ، ولا يؤخـذ العقـاد إلا بفكره ، وعلاقتـه بالله وفرائضـه لا نسأله عنها، وإلا أخذنا دور الخالق !!

وأستاذ جامعى آخر يقف بتاريخ الأدب الحديث حتى مدرسة البعث والإحياء ، ويكره أن يذكر العقاد فى محاضرته ، ويوشى كلامه ببطولات زائفة حدثت له مع العقاد ، وأنه ضرب العقاد «بالبوكس» !!

وهناك فئـة من الجامـعيين ، يركنون إلى الأقـوال الشائعـة عن العقاد روجـها أساتذتهم ، لا تستنـد إلى دراسة موضوعيـة وخاصة عن العقاد الشـاعر والناقد، وهؤلاء مظلومون فى رأينا لأنهم أذابوا أنفسهم فى أسـاتذتهم إن صدقا وإن زيفا ، وربما كـان هناك مـوقف شـخصـى حدث لأسـاتذتهم مع الـعقـاد ، أو مـوقف

أيديولوجى، فتزور آراؤهم عن الحيدة والأكاديميـة ، وكأنهم يثأرون لهذا الطيلسان الجامعى الذى مـزقه العقاد بالشهادة الابتـدائية ، وهناك رجل من هؤلاء لا يلتفت إليه أحد إلا تلاميـذه الصغار رغبة أو رهبة ، يكتب ليحـقد ويحقد ليكتب ، ولا تجد لكتاباته إلا وجهًا واحدًا هو تعـرية العقاد من الأصالة، ويظل يدور بين القديم والجديد ، والجديد والقديم ولايعـبأ به أحد ، ويحاول أن يختلق معـركة غير ذات موضـوع ، وهو مجـرد نموذج لنظرائه من حـملة الألقاب التى شـاعت فى الزمن الأخير بلا مضمون ، وأنقصت من قدر اللقب الكريم !!

وقد سـمعنا بعض هؤلاء الأساتذة وهو يخطئ أخطاء فـاحشة فى قراءة الشـعر نحوًاوعروضًا، ومع ذلك وجوههم مدرعة لا تعرف للخجل حمرة !!

بعض الجامعـيين أيضًا لا يرى العقاد مـفكرًا أو مؤرخًا محتـرفًا ، وكأن المفكر والمؤرخ وغيـرهما فى حاجـة إلى الدكتوراه ليـؤخذ بفكره وتأريخه ، وقـد غدت مركبـا ذلولاً لكثير من التلامـيذ الذين حملوا هذا اللقب ، وظلوا تلامـيذ بدرجة أساتذة ، وكأن ابن رشد ، والكندى ، والطبـرى وابن الأثير وأضرابهم فى حاجة إلى الدكتوراه ، أى قول هذا !!

نزعم أن العقاد لم يُقرأ بعد قراءة صحيحة ، وبخاصة من ذوى العاهات ، لكن هناك فئة صابرة من الجامعة وخارجها قدرت العقاد ، اتفقت معه واختلفت ، لأنه لا عـاهة عندهم ، أو تخلصـوا منهـا ، ورؤوا أن التـقدير يضـاف إلى مـزاياهم الشخـصية قـبل أن يضاف إلى العقـاد ، وفى صدارة هؤلاء طه حـسين - وليت تلامـيذه تعلمـوا منه هذا الإنصـاف الذى أدرك قيـمة الـعقـاد، وكلامـه عنه ذائع معروف. ومنهم أيضًا محمد غنيمى هلال ، وعثمان أمين ، وزكى نجيب محمود، وأحـمد هيكل ، والطاهـر مكى ، ومحـمد أبو الأنوار ، ومـحـمود الربيـعى ، وإخوان هذا الطراز من الجـامعـيين ، الذين يشرفـون اللقب قبل أن يشـرفوا به ، تسـتـوى فى ذلك دراسـاتهم عن العـقـاد أو غيـر ذلك من منـاحى الفكر والفن الأخرى، ومثلهم من خـارج الجامعة - وهو مجرد تمثيل لا حـصر فى المجالين - سيد قطب وعبد الرحمن صدقى ، وعـلى أدهم ، وأحمد عبد المعطى حجازى ،

وفاروق شوشه ، وأحمد عبد الغفور عطار ، وأنيس منصور ، وسامح كُريم وبقية هذا الفريق.

ولعل المجلس الأعلى للثقافة فى احتفاله الأخير بالعقاد ، قد فك بعض العقد، التى يلفها البعض حول نفسه إزاء العقـاد ، حتى ولو تحدثوا بها ، فمجرد حديثهم شفاء لهم ، ولعل اجـتماع المتحـدثين من كل الاتجاهات فى تلك الندوة دليل حى على السماحة النفـسية والفكرية ، التى يتمتع بها الدكتور جـابر عصفور ، ودليل حى أيضـاً على أن العقـاد يسـره مناوئوه كمـا يسـره موالوه ، وأنه فـارس يثيـر الإعجاب والإنصاف ، كما يثير البغض والاختلاف .

عقـــدة العـــقاد «٢»

لاتظـلمـــوا الموتى وإن طـال المدى

إنى أخــاف عليكـم أن تلتـــقـوا

المعرى

أخفق الأستاذ حسين أحمد أمين فى أن يكتب مقالا متسقا ، متلاحم الجوانب، بل جاء كلامه مفـتعلا ، مفتقرا إلى الإحكام ، وإلى اللمسة الشخـصية المتفردة ، وهذا نص كلامـه فى آخر مقـالة عن العقـاد فى جريدة القاهرة ١٦ من سـبتمـبر ٢٠٠٣ ، منقولا عن جريدة الحـياة ، وجاءه الإخفاق - لا الفشل كـما قال هو - من أن ملكة الكتابة حتى فى مجرد الثرثرة والذكريات تفتقر إلى نظر يرى الأسباب والعلل ، ويحاول أن تسلمه باتسـاقها إلى النتائج المرجوة والمنطقـية ، كما أنه من الشائع المتواتر أن مهنة الكتابة لاتورث كالعقار ولو كان الوالد فى قامة أحمد أمين، وثمـة أسمـاء باذخة فى تاريخ الفكر والإبداع كـأنما حظيت بالغنم وحـدها ، فلم يرثهـا ذووها حتى إرث كـلالة. لانعـتقـد التطريب والقـداسـة فى شخص أحـد ولافكره، و«قابلية »الخطأ فى النحائز البشرية من الفطرة التى ذرأ الله الناس عليها، ولسنا جـميـعا مـؤهلين إلا للنزوع للكمـال لا بلوغـه ، ومن ثم عذاب الإنسـان الواصب ، وعزاؤه أيضـا ، والعقاد أحد أفـراد الإنسان الذى عاش يحارب الحـمأ المسنون ، فى الخلق الإنسانية، وأن يتطهر بهـذا الشواظ الذى يحرق الحمأ ، هكذا يكون الإنسان فى معراجه ، وتلك ضريبة ذلك المعراج .

حفل كـلام الأستاذ حسـين أحمد أمين بكـثير من الأغلاط التى لانخـالها من وادى سوء النية ، ولا نريغ سـوى الإشارة إلى بعضها ، لقد خلط الأسـتاذ عملا صالحا وآخر سيئا ، ظانا أن لقاءه بالعقاد ، وصحبة أبيه له تخول له أن يحكم وأن يحسن التفسـير ، وأن يكتب فى أشياء لاتهم القارئ ،وأية ذلك فيـما نسوقه أولاً من فكاهة أن العقاد لم يمتلك فى حياته سيارة ، ونبادله أفكوهة بنظيرتها قائلين :

إن العقـاد امتلك سيـارة ، واختلف مع سائقـه فلم يغيره بسـائق آخر ، وإنما باع السيارة دون مثنوية ، وكأنه يأبى أن يتحكم فيه أحد !!

حاول الأستاذ حسين أن يتشح بالموضوعية فأثنى على العقاد فى بعض المواطن، مفضـلا شعره على جوانب نتـاجه الآخر ، ونحن نشاطره الرأى وأكثر منه حيث درسنا شعر العقاد ، ونكاد نحفظه قبل التخـصص فيه فى رسالة الدكتوراه بجامعة مدريد مقارنا بشاعر إسبانى آخر هو ميجيل دى أونامونو(ت ١٩٣٦)، اللهم إلا إذا أراد الأستاذ الكاتب أن يشمل نثره بالحكم الجـائر الذى نعت به كلام العقاد المفتعل المفتقر إلى الإحكام وإلى اللمسة الشخصية ، وإن كنا نشك فى وجهة نظر الأستاذ حسين فى شعر العقاد حيث يحتاج هذا الشعر إلى قراءة خاصة ، وإلى صبر على معالجته والتدسس إليه ، وكلام مندور وصلاح عبدالصبور فى شعر العقاد معروف قبلهما ، ولـم يكـن النظر المحايد رائدهما فى كلامهما ، ولهـذا تفصيل ليس هذا أوانه ، وربما كان فى تلقـيب الوزن والقافية «بالقـيد» - وهما نظام وقاعـدة وليسا قيـدا - مايزجى بنا إلى الركون لدى المألوف ، وإلى اطمـئنان الاستسهـال ، وقد رضى الأستاذ حسين بالمألوف والمطمئن .

أما المديح يا أسـتاذ حـسين فهـو بابة رحبة فى تاريخ الشـعر والفنون عـامة ، والمحك الذى لايخطئ هو الصـدق شعورا ، والإجـادة تعبيـرا ، وكان فن الرسم والنحت قـائما فى أحضـان الملوك والسادة ولاعـضيهـة فى كل هذا إلا الكذب ، ومديح الأسـتاذ العقاد لفـاروق كان فى سنة ١٩٣٨ ، يوم كان الملك محـبوبا من الشعب المصرى قـبل شيوع مباذله وكان العقـاد وقتها نائبا عن الصحـراء الغربية ، ومن اللياقـة أن يستقـبل الملك كمـا يصنع الناس جميـعا فى حفـلات الاستقـبال وجاءت القصيدة - وهى فى ديوان العقاد - نصائح فى ثوب المديح وهمس فاروق لبعض مجاوريه بـهذه العبارة التى سمعناها من العـقاد فى داره : «كان أولى بهذا والده» بضمير الغائب كما لقنها فاروق ، فما كان من الشاعر إلا أن طوى القصيدة لم يكملها وحاول رجال القصر رأب الصـدع فى اليوم التالى وهبت عاصفة ألغت الحقل الذى كان مـقررا له أن يكون فى عرض البحـر ، وثمة قصيـدة أخرى حين صحب العقاد الوفد الرسمى لزيارة الملك عبـدالعزيز آل سعود ، ومن اللياقة أيضا

أن يقول الشاعر شيئا ، فقال قصيدة جمع فيها بين الملكين فى قرن ، وكان حظ الضيف منها أربى على خط الداعى ، ولذا لا تكون توبة العقاد من هجومه على فؤاد والتى ألصقها الأستاذ حسين لا محل لها إلا فى نظره هو ، فلينفرد بهذا النظر وحسبه به لمسة شخصية متفردة .!!

وإذا سقط مثل هذه الدعوى فيسقط معها أو قبلها مايترتب عليها من تأييد العقاد للثورة فى بداياتها ، قبل أن تئول إلى حكم دكتاتورى شمولى على يد عبدالناصر، لا لأن العقاد لم يجد من فاروق إقبالا بل لأنه لم يربط قيمته مطلقا بزعيم ، ولأنه يرى أنه لافضيلة مع الاستبداد ، وقد سمعنا رأى العقاد فيما بعد فى عبدالناصر ، وهو رأى ليس للنشر ، ونعتقد يقينا أن رأيه وصل إلى عبدالناصر، نظرا لوجود المندسين فى مجالس العقاد ، ولم يكن ولاؤه إلا لقيمة الحرية التى مارسها عملا لانظرا .

أما أن الإنجليز أوحوا إلى العقاد بكتابه عن هتلر ، فهو قول ظاهر البطلان ، وخاصة من رجل عرف العقاد وطبيعته التى تتأبى على الإملاء ، حتى فى أيام سعد باشا الذى فهم العقاد ، وبادله العقاد فهما بفهم وتقديرا بتقدير ، وقد أطلعنا أيام المرحوم عامر العقاد ابن أخى العقاد على طلب قصر الدوبارة أن يشترى نسخ الكتاب ويقوم بتوزيعها نظير مكافأة سخية ، فرفض العقاد ، وقد سمعنا هذه الرواية من العقاد ذاته ، ويؤازرها فهم دقيق لطبيعة الرجل الذى لم يبع قلمه فى سوق النخاسة - وهى رائجة - فى العصور الخابية ، حين باع الناس كثيرا من ضمائرهم لثمن بخس ، وأين كانت حماية المحتل للعقاد يوم ذهب إلى السودان ، هذه أسئلة ينبغى أن تثار أمام الكاتب الذى يفزع للمرددات الشعبية ، يرددها كما سمعها .

إن بعض الكاتبين - وليس منهم الأستاذ حسين - يكتبون مستهلمين الأحاسيس الضئيلة ، لأن العظمة فى حاجة إلى من يطاولها ليفهمها متعاطفا معها، لاتحيزا ، وإنما مبغاة للفقه الحصيف ، وكان العقاد بعظمته هدفا لمثل هذه الأقلام فى حياته ، وبعد رحيله ، لأنه يمثل نهضة هذه الأمة مع قليل من رفاق جيله ، ومحاولة طمسه وتشويهه ليس مقصودا بها وحده ، بل الأمة فى الصميم، ليطفو الزبد ،

أو إن شئت البجيف ، وقد تنبأ العقاد بسقـوط هتلر ، وبسقوط الشيوعية وهما فى أوج ازدهارهما ، وضرب موعـدا للثانية بستين حولا ، لم يمض كثـير منها حتى سقطت فى عـقر دارها ، وسقط هتلـر قبلها ، وهو يدوخ الأمم ، وكـان نابليون قبلها - فى نظره - مهرجا بالنسبة إلى بعض العلماء مثل «باستور» لأن عينه كانت موكلة بجوهر الإنسان قبل أى شىء آخر .

أما استعراض العضلات فى العلم ، ومرجعه فى رأى الأستاذ حسين - لقصور تعليمـه النظامى - فقـد كان العـقاد يشهـد أنه آسى لفقـد هذا النظام فى مسـتهل حيـاته، ثم صار فيـما بعد يحـمد الله عليـه ، ولو كان العقـاد قد أكمل تعليـمه النظامى ، لصـار مثل كثـيرين من أساتذة الجـامعـات الذين يظلون حياتـهم كلها تلامـيذ، يـقفـون بالوصـيد مـن بابة العلم والفكر ، ولماذا ننكر علـى العقـاد أن يستعرض عضلاته بالمعنى الحميـد للكلمة إذا كان وراءها رصيد قوى ، وهو مانراه فى كتابات العقاد ، الذى كان يقرأ كل ما يمكنه فـهمه ، لا ليتخصص فيه ، وإنما يراه ذريعة لفهم أعمـق للحياة وللإنسان ، وهكذا كان كلامه فى الـفلك ومجادلته لأستاذ الفلك فى علوم القـاهرة ، وغلبته له بالمصادر الحديثـة التى لم يطلع عليها الأستاذ ، وكان صراعه مع الدكتور كـامل حسين فى الفلسفة ، وحديثه عن الغدد فى كلامـه عن أبى نواس، ورجوعه إلى أسـتاذ أرجنتـينى فى الغدد ، كان مـثار عجب صديقنا المتخصص الدكتور تيمور خليفة التونسى ، وكيف وصل العقاد إلى هذا الكتاب وهو شديد التـخصص فى مادته ، إذا كان استعـراض العضلات بهذه المثابة فأهلا به إلا إذا كـانت العضلات من «شراميط» على حد قـول العقاد ، وقد وقف الدكتور أحمد على الجارم على كلام العقاد فى المسائل الطبية أثناء حديثه عن أبى نواس ، وابن الرومى ، وارتأى رجاحـة فكر العقاد وعمق إطلاعه وفـهمه ، هل كان الناس يا أستاذ حسين قـديما فى حاجة إلى الشهادات التى تطرح الآن فى الأسواق حتى بالتـزوير ، لأن بعض حامليها إذا لم يكونوا أهلا لهـا فهو نوع من التزوير أيضا .

أفكوهة : كنا نمتحن طلاب الليـسانس شفويا فكان بعض الـطلاب يقول : قال الدكتور المتـبنى لأنه لايتصور أن يكون المتنبى عـاريا عن هذا اللقب ، وكاتب هذه

السطور - بالمناسبة - لايقرن اسمه بهذا اللقب على الإطلاق حين يكتب لأنها أصبحت ألقاب مملكة فى غير موضعها ، إلا من رحم ربك .!!

إن الاجتراء على المستقبل عسير ، حين يرى الاستاذ حسين مثلا أن أكثر كتب العقاد سيصير إلى طى النسيان ، وهو اجتراء ليس له مايسوغه ، إلا إذا أراد الأستاذ ذلك وماهو بيده ، ولايحسن أن يكون بيده صحيح أن كل شيء إلى دثور وفناء ، يستوى فى ذلك الكتب وغيرها ، لكننا نرى أن الأمة تفزع إلى العقاد فى ساع قنوطها ، وفى مناشطها على السواء ، وليس لديه مايسنده من جاه لأسرته ولا لتلاميذه ، بل يسير فكره وحده لأنه فكر العقاد وكفى ، وقد قرأنا معظم مقالاته ، فى السياسة - وهو أمر آنىّ مرتبط بالحادثة - وفكرنا مع عامر العقاد فى جمعها لولا أن المنون اختطفت عامرا وهو فى أوج نشاطه وفتائه ، لأننا - بالفعل - رأينا فيها فكرا باقيا ، تحذف المناسبة العارضة لترى الفكر الصحيح ، والنظر غير المزغول ، والحرص والغيرة على هذه الأمة وهو قوام كل فكر باق .

وكثير من الكاتبين يموت الكلام على شباة شفاههم وأقلامهم قبل أن يصل إلى القراء لأنه لارصيد له ، وتلك آفة المناسبة الموقوتة وكذب الفكر وارتكاسته، والقضية الكبرى التى أجلناها عامدين إلى نهاية هذه الكلمة ، وهى قضية عقيدة العقاد نحن - يا أستاذ حسين - لا ننبش ضمائر الناس ،فللناس خالق يعلم السر وأخفى ، وغريب أن تشيع قالة سوء عن إلحاد العقاد ، ومايتبادر فى كلامه من بعض تهجم ، ونقول «دعوى على دعوى» إننا عاشرنا العقاد فى مجالسه أربع سنوات أو أشف قليلا ولم نسمع منه أدنى إشارة إلى مايشتم منه إلحاد أو قلة إيمان.

كتب البعض يقول طالما إنه كان يعقد ندوته أثناء صلاة الجمعة ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ، إذا كانت تنتهى الندوة قبل الصلاة بوقت كاف ، وكان مسجد عثمان بن عفان قريبا من دارة العقاد ولانقول بذلك لنرى العقاد من «الدراويش أو من المجاذيب» بل نصف مانرى ، وكان العقاد يكبر الإمام محمد عبده من المعاصرين ، والشيخ محمد شلتوت وانتقد مرة الإمام أحمد بن حنبل فى

فتنة خلق القرآن ، ورأى فيه ضيق حظيرة ومانظن أن نقده ابن حنبل يخرج به عن حظيرة الإيمان ، وربما كان العقاد أقرب إلى فكر المعتزلة دون أن يقع فى حبائلهم جملة ، لأنه يرى أن ما سماه «الوعى الكونى» هو الوسيلة العليا إلى الإيمان ، وكان هجومه على الإخوان المسلمين من أنقى صفحات فكره المجدد ذون أن يكون محسوبا على فئة غير فئة العقاد وأبى - اتساقا مع كرامة قلمه - أن يكتب مقدمة لكتاب يهاجم الإخوان بعد زوال شوكتهم ، وإنه كالفارس لاينازل إلا فارسا شاكى السلاح ، وكتب طه حسين مقدمة هذا الكتاب ، دُون أن نتهم طه حسين بشىء ، وإنما لكل وجهة هو موليها ، وكتابات العقاد الإسلامية - وقد عدد بعضها الأستاذ حسين - تشهد بعمق إيمانه ونفوره من التعطيل والإلحاد فطرة موروثة ، وفكرا مكسوبا .

إن هدم الرموز الكبرى فى الأمة إزاء قالات لا سند لها من فكر صحيح ، هدم لهذه الأمة التى تخطفها الناس من كل جانب ، ولعل الجماعات الإسلامية تتخذ من مثل هذه الشائعات سندا لها فى فهمها المريض والسقيم للإسلام ، والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مقدمة الصخور العظيمة التى تحول دون أفكار ذوى العاهات ،فماذا نكسب يا أستاذ حسين حين نردد مثل هذه الشائعات ، وحتى لو صحت وهو بعيد فإن الإنسان إنسان تعتوره لحظات الضعف والقنوط ، فيضيق صدره ، وتأخذ بأكظامه النوازل فيرتكم اللمم الذى لاتضيق عنه رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ولاتضيق عنه رحمة الإنسان على شحها ويبوستها .

أفكوهة أخرى :

كان بعض أساتذتنا فى دار العلوم يضيقون ذرعا بالعقاد لأنه مذكور وهم فى غياهب النسيان - ويستحقونه - كانوا يذكرون لنا صراعهم مع العقاد بالأيدى ، ذكر عبدالرحمن بدوى شيئا شبيها ورددنا عليه فى إبانه ويقصون طرفا مما شاهدوه من مجون العقاد ومرور النساء عرايا أمامه فى داره؟ وكان هذا الأستاذ - فيما زعم - يسكن فى مواجهته وهو قول باطل حيث لم يسكن هذا الرجل هنالك فيما تتبعناه ، واعترف الرجل فى لحظة صدق بريئة أن سبب كلامه هو أنه يدرس منذ أربعين سنة وتخرج على يديه الألوف لايذكرون أستاذيته فى حين يذكرون استاذية

العقاد لهم ، وما أمر نجية السودانية أم العـقاد ، وما إباحيته وانحلاله وتركه زوجة ترتع وتلعب خارج الدار ببعيد عن مثل هذه الشائعات .

إن النفس الإنسانيـة لا تحيا فى التطويب والقداسـة ولا نريد أن نضيفهـما على العقاد الذى كان رجلا فى عقيدته دون أن يكون كالعوام ،ونذر نفسه وفكره للذود عن العقيدة الإسلامية كأبرز مـدافع عن العربية والإسلام فى العصر الحديث ، بل ربما كان من أكابر رجال العقيدة فى كل العـصور ،وإن الإنسان وكان العقاد إنسانا عاليا حتى فى أخطائه البشرية ،ولو كنا نصـدق كل كلام يصدر عن رجل كالعقاد فى بعض اللحظات لخشينا أن نصدق مزاحه مع الأسـتاذ حسين ومع غيره ، وكان الرجل عفا إلا حين يبين له طرف السلاح كما نعتته سارة .

لم يكن العقـاد يا أستاذ حـسين «سـوسة كتب» أو مـوسوعى الثقـافة إن أردنا تهذيب العبـارة ، لأن كفله من النظر ينسب إليه وحـده ولم تكن ثقافته المتـراحبة بمانعة له من النفـحة الشخصـية ، لأن هضمه واستـيعابه لما يقرأ يجـعله فى عداد المفكرين القلائل الذين تبين ملامحهم حين تتيه الملامح والقسمات .

وشكرا للأستاذ حسين أحمـد أمين أن أفسح لنا فى القول ولأبيه من قبله الذى تربينا على فكره منذ مـيعة الصـبا ، وكنا نعرف كـلامه حين قـراءته ولو لم يكن ممهورا باسمه ، ومانريد بهذا أن ندغدغ مـشاعر الابن الكريم بحديث عن أبيه فإننا ورثناه معه ، وماذلك بقليل حين يتوارثه أبناء جيل بعد جيل .

ثلاثة كتب مختلفة .. تنصف العقاد

ثمة جامعة بين هذه الكتب الثلاثة «مختارات من شعر العقاد» و«العقاد فى سياق هجمة معاصرة» و«فلسفة التقدم عند العقاد» للأساتذة : فاروق شوشة ، محمد أبو الأنوار ، حسن الملطاوى ، هذه الجامعة هى محاولة إنصاف العقاد ، فى حيدة وموضوعية ، وإثبات جدارة العقاد بمخاطبة الأجيال القادمة ، واستمرار الاهتمام بالعقاد وحسبنا أن هذه الكتب - مع غيرها - صدرت فى عام واحد ، دون اتفاق بين حضرات المؤلفين الفضلاء ؛ مما يشى بأن العقاد لايزال مشغلة الناس، وأن لديه ما يقدمه فى مشاريعنا للنهضة فكرية ووجدانية ، ويربط بين هذه الكتب ، كذلك الكشف عن أن فهمنا للعقاد لايزال قاصرًا ، وأن أصحابها يحاولون - فى إخلاص - أن يكشفوا الغشاوة عن هذا الفهم ، وأن يردوه إلى السواء ، يلتقى هؤلاء - دون اتفاق - فى مجال الشعر وفى مجال الدرس النقدى وتاريخ الأدب وفى مجال الفكر الفلسفى بجوانبه المتعددة ، ولذا قرأت هذه الكتب الثلاثة مرة واحدة ، فكأنى أقرأ لأصوات متناسقة متناغمة فى جوقة موسيقية يومئ بأنغامها ، ويهتف بها «مايسترو» واحد هو «العقاد» .

وثمة اختلاف يسير فى بعض جوانب هذه الكتب ، ولكنه ليس الخلاف الذى يباعد الشقة ويقطع الأواصر ، بل كان الخلاف الذى هو وسيلة للتكامل بينها ، وكأنما يرد بعضها على بعض جلاءً للصورة واستكمالاً لإطارها .

يرد الدكتور محمد أبو الأنوار على هجمة رديئة ، تولاها د. يوسف عز الدين فى كتابه «التجديد فى الشعر الحديث» وفيه جرد العقاد من أية أصالة ، واتهمه بالسطو والسرقة من عبد الرحمن شكرى ، ومفكرى الغرب ، نقلاً عن شكرى ، لأنه - العقاد - لا يعرف الإنجليزية !! إلى جانب تهم أخرى ، تجرد لها أبو الأنوار فى حذق ، وموضوعية ، وهو رجل يعى تاريخ الأدب الحديث وعيًا خاصًا جدًا، ويملك من أدوات البحث والنظر ما يزيف هذه الهجمة بأدلة تاريخية

وفكرية، تملك من وسائل الإقناع الشيء الكثير ، وفى الكتاب ميزة هى نخل الصحف والدوريات القديمة نخلاً جيداً تأتى لأبوالأنوار تأتيًا فريداً، إلى جانب ملكته الدقيقة فى الفحص والدرس النقدى ، وأثبت - بدقة - أصالة العقاد ناقداً، وموضوعيته ورجولته ناقداً لا يتمرغ فى حمأ الذاتية البغيضة والحقد الطبقى ، كما ادعى الدكتور يوسف عز الدين ، عضو المجمع العلمى العراقى .

أما الدكتور حسن الملطاوى فهو باحث مخلص ومن طراز نادر هذه الأيام ، لأنه متجرد للبحث العلمى ، تستغرقه شواغله عن توافه الحياة ، ويمتلك حسًا وفكرًا عميقًا ، يخولان له أن ينفذ إلى معضلات الفكر الفلسفى عند العقاد وغيره، ودراسته كانت أطروحته للدكتوراه فى قسم الفلسفة بجامعة عين شمس ، وهى من الرسائل الجيدة والنادرة ، التى سعدنا بقراءتها فى السنوات الأخيرة ، وفيها يثبت أن للعقاد فلسفة - لبعض أساتذة الجامعة آراء سيئة فى العقاد فلسفيًا - وهذه الفلسفة تستطيع نسبتها للعقاد ، وأنت مؤمن شديد الإيمان بأنك لا تجور على مفهوم الفلسفة ، لدى مفكريها وأصحابها الأصلاء ، وطوف الملطاوى تطوافًا حسنًا بين فكر العقاد وفلسفته فى التاريخ والسياسة ، والعقيدة والأخلاق مرتئيًا نظرًا فلسفًا خاصًا ، يمكن نسبته للعقاد بجدارة وأصالة ، وأن هذه الخيوط كلها انتظمها عقد واحد ، ألف بين شتاتها ، فكونت منظومة فكرية متسقة ، كانت وراءها شخصية العقاد وفكره وهضمه الجيد للتراث الإنسانى وإضفاؤه عليه مسحة عقادية ، لا تضيع فى الزحام ، وحسب هذا من فكر أصيل ينسب لصاحبه . وللباحث مقدرة جيدة على عرض الأفكار ، وتحليلها ونقدها والتعبير عنها بوضوح، لا يتزيا بثياب الغموض وادعاء العمق المرذول ، ويثبت الباحث فى النهاية أن للعقاد فلسفة ، وأنه أصيل ، وأنه قدم مشروعًا للنهضة وأصالة للفكر العربى الإسلامى ، وأننا خاسرون حين نستدبر مثل هذا الفكر ، لأنه يجمع بين تراثنا القديم الجيد ، وبين وافدنا الجديد المستحق أن يدخل نسجنا وهويتنا .

أما «مختارات من شعر العقاد» فقد وضعه على عينه الشاعر المبدع الكبير فاروق شوشة ، وهو رجل هاضم ومستوعب للشعر العربى فى نماذجه العليا ، وحساس شديد الحساسية بتصريف الكلام الشعرى ، لأنه يحترق به ويبدعه ، ولذا تكون

مختاراته للعقاد ولغيره على مستوى قامته الباذخة ، ونحن من المؤمنين بالمختارات الشعرية، وأمتنا أقدم الأمم فى المختارات ، التى هى أحدث صيحة معاصرة الآن، ونؤمن أكثر بمختارات للعقاد الشاعر خاصة ، للأسباب التى ذكرها فاروق شوشة فى مقدمته الجيدة ، وكنا نحب أن يتوسع فى هذه المختارات ، لكن يبدو أنه يفتح شهية القارئ ، ليزوده فيما بعد بجزء آخر أكبر وأوسع ، ولعل عينه كانت على القارئ المتعجل على طريقة كتاب «الجيب» فهى عجالة ربما تدفعه إلى البحث عن شعر العقاد ، وفيه مناطق غير مأهولة تستحق التريث عندها ، لكن الرسالة التى أرادها فاروق قد وصلت إلى ذلك القارئ ، ولعلها تكون قد وصلته بالفعل حيث إن طبعة المجلس الأعلى للثقافة لا تجد منافذ يصل إليها الناس بسهولة ، فلعل الدكتور جابر عصفور يضيف إلى أياديه يدًا أخرى فى إيصاله لراغب القراءة فلا تخفى هذه الطبعة شعر العقاد مع جملة الأسباب التى ذكرها فاروق لخفاء شعره ، وأن تراجع الأخطاء المطبعية فلا تمثل عائقا آخر .

نحن نؤمن إيمان فاروق شوشة بأن العقاد الشاعر هو أفضل وجوهه ، يتقدم الناقد والمؤرخ والسياسى والمفكر ، ونؤمن بأن العقاد تميز فى تلك المناحى لأن شاعريته تدسست إليها فأراقت عليهاوهجًا ونفاذًا ، لكننا نؤمن بأن هذه الجوانب باقية للناس ، لأصالتها ودلالتها على صاحبها ، ولأن العقاد ليس موسوعة إلا بالمعنى الحميد ؛ لأنه يريق روحه على كل ما يهضمه ويتمثله ، وهذا هو العقاد الذى يبقى ، ولعل دراسة الدكتورين «أبو الأنوار» وحسن الملطاوى تثبتان ما يبقى من العقاد الناقد والمفكر ، وغير هذين كثير ، وليس رجمًا بالغيب أن نقول إن بقاء العقاد مرهون بهذه اللغة وأدبها وفكرها ومرهون أيضًا بمعدن البطولة فى الناس ، ونعتقد أن هذه أمور باقية ، إلا إذا مسخ الناس خلقًا جديدًا ، وجه الشاعر أول الوجوه ، غير أنه لا يطمس الوجوه الأخرى ، وكم للعقاد من وجوه !!

نحن نشارك الأستاذ فاروق اهتمامه وحفاوته بديوان «عابر سبيل» ، بيد أننا لا نضعه فى صدارة كلامه الشعرى ، ولعل فيه قصائد نرى فيها رداءة أليق بها كتاباته النثرية ، نقول هذا ونحن نكبر العقاد الشاعر جدًا ، ونظن أن من إكبارنا له أن نرى رداءته وأن ننبذها جانبًا ، ولعلنا نقول - ونحن شهود عيان - إن العقاد كان

يحتفى بالشـاعر منه حفاوة خـاصة جدّاً ، وقد سئل أمـامنا عن ملكاته فى جريدة الأنوار اللبنانيـة - فعد الشـاعرية أولى ملكاته ، وكـانت قصيـدته فى رثاء لطفى السيد باشـا ، قد أرانا مسودتها ، وهو فى قـمة الزهو بها ، وكذلك قـصيدته فى رثاء محمـد حسن الشجاعى ، ولم يكن يحرص عـلى وجه الكاتب - وهو وجه عظيم - حرصه على وجه الشاعر .

إننا نرى فى هذه المختارات الجـيدة ذوق الشاعر فاروق شوشـة ، ووافد عقله ، ووجهـه كذلك ولعله يتيح لنا جـزءاً آخر ، ربما ينتظره جمع آخـر من القراء الذى شاقهم منه هذا الجزء ، ونعتقد أن هذه الكتب الثلاثة قريب من قريب حين تكشف عن هذه الوجوه المتعددة والأصـيلة فى الوقت ذاته لرجل ملأ الدنيا وشغل الناس، وسيظل يشغلهم ناقدًا، ومفكـراً وشاعرًا ، لأنه فى كل ذلك أصيل ؛ ولأنه يحيى فى الأمة ما لاتحيا إلا به وهو الإبداع الأصيل ، والفكر المتجدد ، والنقد الخلاق ، وتحية لهذا الثالوث الكريم ، وتحية لمن كان باعثًا كريمًا لالتقائهم بعد ثلاث وثلاثين سنة من رحيله الباقى .

ليس دفاعا عن العقاد

الأدباء والفنانون هم ضمير أى أمة ، يحملون رسالة من أقدس الرسالات ؛ إذ يعبرون عن الإنسان الذى كرمه الله بحمل الأمانة ومسألة التعبير هى الملكة الناطقة فى الإنسان . ولا يستطيع المرء أن يتخيل أمة دون أدب وفن جميل، إنها لا تبلغ مرتبة الحيوان الأعجم ، لأن لهذا الحيوان قدرة فنية يعبر بها عن ذاته فى حالة الرضا والسخط والفرح والحزن ، بل تنحدر إلى درك الجمادات وإن كنا نشك في أن الجمادات بهذه الصفة ؛لأنها تتجاوب وتشعر ، ولأمر ما قال النبى (صلى الله عليه وسلم) عن جبل أحد : «إنه يحبنا ونحن نحبه» .

وقد أتيح لتاريخنا المصرى القريب طائفة من الأدباء والفنانين يشكلون التضاريس الوجدانية والفكرية لهذا البلد فى صدارتهم طه حسين، العقاد ، الزيات، الحكيم ،الجارم، نجيب محفوظ وإخوان هذا الطراز .

وهؤلاء لهم رسالة فى حياة أمنهم لا ينكرها إلا من على عينيه غشاوة ، وقد تميز هؤلاء الرواد جميعا بسعة أفق وفهم عميق للحياة وإدراك فطن لرسالة الفن ، التى هى فى جوهرها الحقيقى رسالة الدين والمثل العليا ، وفى وسع المرء أن يتخيل مصر دون طب ومحاسبة ووعظ وخطابة مع سمو هذه الرسالات وضرورتها فى الأمة ، ولا يتخيلها دون أدب وفن ؛ لأن الوظائف الأولى فى وسع الكثيرين أن يتعلموها ، ويجزئ فيها واحد عن واحد من أصحاب هذه المهن . . أما الأدب والفن فلا يتعلم والأديب أو الفنان لايلغى رسالة أخيه لأنهما لا يتشابهان ، ومن ثم لا تصلح نسخة مكان أخرى. . لمصلحة من إذن تشرئب بين الحين والحين دعوات خبيثة ، تشكك فى قيمة الفن والأدب ورواده . . وكنا نمر بهذه الدعوات ولا نوليها كبير اهتمام أو كنا نهتم بها أحيانًا لأن أصحابها لديهم قدر من العقل ، تصلح معه؛ لمناقشة . . ولكن اهتمامنا الآن لا يذهب هذا المذهب ، بل يتجه للشكوي من البدهيات ، التى طالما شكا منها الإمام محمد عبده ، حين كانت ترد

إليـه أسـئلة من قـبيل هـل إشعـال الكبـريت حـلال أم حـرام مما عرف بفـتـوى (الترنسـفال)، وطالما شكى منهـا العقاد حـين كانت ترد إليـه أسئلة مسـتنكرة عن موقف الإسـلام من الاحتفال بأعـياد الميلاد ؛ لأنه كان يحـتفل بعيد مـيلاده وهو الكاتب الإسلامى ، وكان يضطر للرد وضياع وقته الثمين فيما لا يجدى .

ومع ذلك يجىء الآن من يتهم العقاد بأنه فى شبـابه طلب قلمًا أحمر ليخط به على المصحف كأنه يعترض عليه ويريد تصـحيحه ، ويتهم أيضًا بأنه لم يكتب فى أخريات حياته إلا الإسلاميات .!!

إن المرء فى حـالة شديدة إلـى جلادة وجـه وبلادة إحسـاس ؛ ليـرد على هذه الأراجيف وأمثـالها والمرء محتـاج إلى كثير من الغرور ، الذى عـابه البعض على العقاد لمجابـهة مثل هذه الترهات ؛ فالكلمة لم ترد عن العـقاد ، ولا سند لها إلا صاحب الإشاعة، كما أشيع أن العقاد معـقد كاسمه . أولاً . العقاد التفت مبكرا إلى القرآن وإلى الفكر الإسلامى عموماً وأسلوبه شعراً ونثراً لمن قرأة - وماقرأه من يتهمونه - يلحظ فـيه التأثر بالنسق القرآنى وفى كتابه (سـاعات بين الكتب) مقال ضاف عن إعجـاز القرآن وفهمه لهذه القـضية ، وفى كتابه (الفصـول) وصدر عام ١٩٢٢ ، وكان منشوراً قبلها مقالات ، حـديث جيد ودقيق عن الصورة الفنية فى الآيات الكريمة :﴿**والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [التكوير١٨] و ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**﴾ [الحج ٢] . وهذا التصوير القرآنى الذى التفت إليه العقاد مبكرًا كان شديد التأثير فى تلميذه سيد قطب فى كتبه الإسلامية .

إلي أن جاءت كتب كاملة عن الإسلام وأعلام الإسلام على نسق لم يكتب من قبل ولم يجن منها العـقاد مالا كما يجنى المتـاجرون بالدين ، ولا يكاد يفهم هذه الكتب من يتصدون للكلام عن الإسلام بلغة عـامية تخاطب العوام ، ولا تؤثر فى المثقفـين إلا أثر الاستنكار والازورار ، إن كتـبًا للعقاد عن الله وإبليس والفـلسفة القرآنية والإنسـان فى القرآن الكريم وغيرها مما يجاوز الأربعين تحـتاج إلى قراء من نوع خاص ، ليس منهم العوام وأشباه العوام بالتأكيد .

ثانياً: كتب العقاد المقـالة الوصفية ونقد معارض الفنون ، وتحـدث عن اسمهان ونجيب الريحانى وسـيد درويش والشجاعى وغيـرهم ، وكتب قصيدة الغـزل كما

تشهد دواوينه الأخيرة بجانب الكتابات الإسلامية التى تنضح إيمانًا وعقيدة وفكرًا مستنيرًا وردًا على خصوم الإسلام من المبشرين وأشباههم ، ولم يتب عن شعره وغزله حتى آخر حياته ، كما لم يتب عن كلامه عن الفن والفنانين لأنه يحمل رسالة راقية لا تتعارض مع الإسلام وفكر الإسلام ، وهذا هو سر عظمة رجل كالعقاد. . لقد انشغلنا عن إسلاميات محمد عبده وجمال الدين ومصطفى عبد الرازق وشلتوت والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم من قدامى ومحدثين ، وانشغلنا بالحديث عن آداب قضاء الحاجة والدخول بالقدم اليسري أو اليمنى ! وبالمسح على الخفين- وكيفية عتق المكاتب والحديث عن الغيبيات ، ويجزىء فيها التسليم ، والإيمان المطلق عن طريق النقل إلى غير ذلك. . إن مشكلتنا أننا استبدلنا الذى هو خير بالذى هو أدنى وغدونا نشكل عصبة أو تيارًا يقتل وجدان الأمة المتمثل فى أدبها وفكرها وفنها ، ويقتل رجال هذا الأدب وهذا الفكر وهذا الفن ، دون أن ندرك أو ندرك ، والله أعلم ، أن هذا هو البوار بعينه، منحدرين إلى درك أسفل يقودنا إليه الأميون وأشباه الأميين وما هم بنا نافعين ولا فالحين .

العقاد بعد خمس وثلاثين سنة

خمس وثلاثون سنة ، ولايزال العقاد حاضراً كما كان وأكثر .

خمس وثلاثون سنة ، وخمس وعشرون رسالة جامعية عن العقاد .

خمس وثلاثون سنة ، وحاجتنا إليه تشتد الآن عما كان فى حياته .

أما كاتب هذه السطور ، فيستحضر لقاءه الأول به ، كأنه كان بالأمس ، أو صباح اليوم !!

ما أسرع الأيام فى طينا تمضى علينا ، ثم تمضى بنا .

مضت خمس وثلاثون سنة على رحيل العقاد ، تقلبت خلالها أطوار الأيام ! نكسة ١٩٦٧ ، ونحمد الله أنه لم يشهدها ، مع أنه كان يتنبأ بعواقب حكم الاستبداد ، وحكم الفرد ، مرتئيًا أنه لا فضيلة مع الاستبداد ، والحكم الشمولى.

وكانت أحاديثه فى ندوته ، سياطًا من نار على الدكتاتورية ، وغياب الديمقراطية، دون أن يخشى الزبانية الذين كانوا ينـدسون بين رواد ندوته ، وكان الناس - إلا من رحم ربك - فى غيبة من الوعى والبصيرة .

تعاقبت الأيام ما بين الهزيمة ، ونصر أكتوبر المجيد ، وطالما دعا إلى الجهاد ، وشدد النكير والهجوم على الصهيونية ، والاستعمار ، ولو عاصره لتغنى به شاعراً يحيا آمال أمته ، وقصائده عن عيد الجهاد ١٣ نوفمبر لاتزال تهز الوجدان .

وتنبأ بسقوط الشيوعية لأنها غير إنسانية ، وحققت نبوءته الأيام ، ولاتزال كتبه المرجع والسلاح غير المثلوم فى وجه المذاهب الهدامة . وحارب الدكتاتورية باسم الدين ، فأصلى الإخوان المسلمين ناراً حامية ، وقال فيما قال : إن الله عز وجل لم يدع هذا الحق الذى تدعيه الجماعة ، وذلك أنه لا يعاقب أحداً دون حساب ، وأن الفكرة بالفكرة والجريمة بالعقاب، وأن الحرية بخير ما دامت الجريمة بالعقاب، وأن الحرية بخير مادامت الجريمة مقيدة .

وحارب العقاد طغيان الألقاب ، وخواءها ، وأنها لاتصنع قيمة لمن لا قيمة له، وأثبت عملاً ، لا قولاً فقط ، أنه فوق الألقاب ، وأنه حاطمها ، وأنه فى أمة الألقاب يسبقهم سعياً بلا نعت ولا لقب ، ولم يغفر له وثن الألقاب هذه الجريمة»، فحاول تجريده من الشاعرية ومن الكتابة ، وألصق به تهمًا غريبة ، كلها بينة البطلان ، وهل يستجيز العقل أن يصدق أن العقاد غير شاعر أو شاعر عقلانى، إلى آخر هذه المقولات الظالمة وغير الواقعية ؛ لأنه ورث الإيمان فطرة ، وزادته الدراسة يقينًا ، ولأنه شاعر الوجدان الراقى ، ولأنه الناقد الذى يزن كلامه بميزان دقيق ، دون أن يعبأ بالجزاء أو بالوعيد ، فى جيش من المرشوين ، والزاحفين على أمعائهم ، ولأنه كشف جماعة من ذوى الألقاب الجامعية ، يذكرك بعضهم بأحمد بن عبد الوهاب فى رسالة الجاحظ لا هم لهم إلا أن يحقدوا ليكتبوا ، ويكتبوا ليحقدوا ولا يلتفت إليهم أحد ! .

خمس وثلاثون سنة وقضايا ساخنة تملأ الساحة وللعقاد فيها فصل الخطاب ، وأهمها قضية التجديد ، والمحك فيها الذى لا يخطئ هو أنه لا تجديد من فراغ ، وأن القواعد غير القيود ، وأن الإبداع الحق أن تلعب بين الضرورات ، وإذا كانت بعض التجديدات قد تجاوزت هذه القواعد باسم التجديد ، فقد وقعت فى مأزق الآن ، وحيث وصلت إلى طريق مسدود ، وأصبح اللاحق مقلدًا للسابق ، حين رضيت بالفوضى بدلاً من القاعدة ، ومن هنا خبت الجذوة ، وهمدت فى مخازن التاريخ ، وغدا العقاد أكثر تجديدًا من الدعاوى التجديدية ؛ لأن أصحها ماهداك إلى فطرتك فى إطار من تقاليد الفن وضروراته .

ولابد أن يلتفت الناس إلى العقاد فى إطار حركات التجديد فى الفكر الإسلامى؛ حيث هو وزان بين العقل والنقل ولكل منهما تخومهما ، وأن البدع متطرفة أو جامدة لا مكان لها فى الفكر الإسلامى النقى ، ولا فى فكر العقاد حيث يقرن بشيخه المجدد محمد عبده ، وفى الفكر اللغوى يعود الناس إلى العقاد اللغوى ، وإلى لغته الشاعرة ، آمنين من دعاوى الخذلان والعجمة ، لائذين بالأمل فى نهضتها وإن تناوشتها الأعاصير .

وسيبقى فكر العقاد السياسى ، حين تقترن السياسة بالأخلاق والأريحية والمثل العليا ، وحين تكون الحرية والديمقراطية التى دعا إليها وسجن فى سبيلها أملاً تشرئب إليه الأمة حين تحدق بها المخاطر .

خمس وثلاثون سنة ، ويطبق الصمت الرسمى فلا يحتفى به ، ويغيب عن قائمة «كتاب فى جريدة» لكننا نحيى ذكراه فتحيينا ، ونعود إليه حين لا نعود إلى كثيرين من الأحياء ، الذين أماتتهم المنفعة القريبة والفن «التفصيل» ، والعقاد دائمًا يلبى العودة إليه ؛ لأنه قرين النهضة والحرية والتنوير .

العقاد ومحنته مع هؤلاء الجامعيين

صورة أحمد بن عبد الوهاب التى رسمها الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ربما يعجز عن رسمها كبار مصورى «الكاريكاتير» ؛ حيث ينفرد الجاحظ برسم الملامح النفسية ، التى تحملها الصورة القولية أكثر مما تحملها الريشة والألوان .

وأحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعًا وتحسبه مدورًا ، وكل شأنه قائم على الادعاء ، وهو فى رأينا ليس فى زمن الجاحظ فقط ، بل إنه خالد يتخطى حدود الزمان والمكان ، نقابله فى السوق والطريق وحتى قاعات الندوات والدروس ويبدو أن خلوده وهبه كثرة ونجابة فغدا طائفة معروفة بسيماها ، وكلما تقادم به الميلاد تقادمت به هامة العجب والادعاء ، وإذا تحرك كله مثل الكثيب المهيل ، يلوك من الكلام ما يفشى به حقده وادعاءه ، ويظن ذلك مؤثلاً له مكانة بين الأساتذة والنقاد .

ويبدو أن الجاحظ ابتلى به كما ابتلى به العقاد فلا ينى أحمد بن عبد الوهاب فى عصرنا عن ملاحقة كتابات العقاد وشخصه بل وتلاميذه ، وهو محق معذور؛ لأن ذلك كله يدله على نقصه ويكشف عن عواره ومحنته ، إذ أنفق «أحمد» حياته يسود أوراقًا يظنها نقدًا وماهى ببالغة أن تلفت إليه نظر «العقاديين» ولو نظر الازدراء ، ويستخف بها غيرهم إلا ما يكون من باب المجاملة والمراءاة والبحث عن المآرب الرخيصة ، ويشدو صاحبنا طرفًا من علوم الأوائل هى قشور ، لا ينفذ إلى لبابها ويحجم ببعض كلام الأوروبيين وهو عن موارده الحقيقية بعيد فيجمع حصى يقذف به الأصلاء ، يرتد إليه قيحًا وصديدًا ، وتستعلى به السن وليس له من المريدين ما لدى العقاد ، الذى لم يكن أستاذًا فى الجامعة ، ولا صاحب جاه ينفع ويضر فتشتعل السخيمة أكثر «فيرشح موتًا» على حد قول ابن أخت تأبط شرًا!!

أحمد بن عبد الوهاب ليس رجلاً واحدًا، ولكنه نموذج لفئة من الجامعيين وغيرهم ، كان العقاد بشخصه ونتاجه عقوبة لهم تماسيهم وتصابحهم وتشخص

أمامهم العقوبة أكثر فى المريدين للعقاد إخلاصًا وفهمًا ، غير عابئين بمعاقرة المنافع الحقيرة تأسيا بالعقاد وكرام الكاتبين ، وهم يحملون رسالته دون ذوبان فيه ، وفئة أحمد ابن عبد الوهاب لا يدركون من الرسالات إلا أخسها وأدناها إيذاءً لكل قيمة شريفة .

لو لم يكتب العقاد حرفًا ، لكانت حياته الشخصية طرزارًا نادرًا من الأريحية والنبل والفداء ، فما بالك إذا قارناها بكتاباته المفصحة عن ملكة نادرة فى الملكات الإنسانية قوامها تفرد النظر مع الإحاطة المستوعبة ، وهى تمثل نهضة لهذه الأمة إذا أريد لها أن تنهض ورسالته يحملها الزمن دون مساندة من هيئة أو عصبة لأنها قامت وحدها فى حياة صاحبها دون هذه المساندة . . فلا تنطفئ برحيله كما هو الحادث مع نظرائه ، حين يرحلون فيرحل كثير من وهجهم أو يحمل هذا الوهج عصبة أو هيئة ، وغير ذلك رسالة العقاد المشتعلة ذاتيًّا ويزيدها الزمن توهجًا .

حسب أحمد بن عبد الوهاب أن يجعل العقاد ناقدًا غير أصيل أو شاعرًا من طبقة متدنية أو مفكرًا قليل الحظ من التميز أو موسوعيا (كلمة حق يراد بها باطل) يجمع معارف غير مهضومة أو إسلاميا غير صادق الاعتقاد متاجرًا بالدين . . وظن أن هذه الدعاوى تجوز ؛ فإذا بها تتهاوى ليبقى العقاد الشاعر والناقد والمفكر الأصيل دون سند ، غير نتاجه ذاته تتعدد طبعاته مشروعة وغير مشروعة، ويبقى أكثر فى وجدان الناس وعقولهم لأنه المعدن الأصيل .

وغفر الله لشيخنا الجاحظ الذى يناصيه العقاد غزارة إنتاج وسخرية ، وإن كانت سخرية صاحبنا المصرى أشد ركانة من «ألاعيب» صاحبنا البصرى ، الذى صور أحمد بن عبد الوهاب وتلعب به لنلهو به على أفواه الطرق وقاعات الدرس وصفحات الورق «الطرس» ، فيظل هزأة أمام العين وأمام النفس .

وحى الأربعين

تمر فى الثانى عشر من مارس الذكرى الأربعون لوفاة العقاد ، وله ديوان «وحى الأربعين» صدر وهو فى الأربعين ، نستلهم هذا الوحى ، حيث أثار فى حينه معارك سميت باسمه ، شارك فيها تلاميذ الرافعى - ظالمى أنفسهم وظالمى الفن - وكال لهم المريدون من أولياء العقاد الصاع صاعين ، ولعل «الأربعين» الآن لا تزال تثير معارك ، ترن أصداؤها ، ويسمع صليلها فى صفحات النفوس والأوراق ، ولايزال العقاد - بعد رحيله - يغنم معارك ، لأن فكره سرى ويسرى فى تجاليد هذه الأمة ، ما كانت لغتها العربية ودينها الإسلام .

يقترن التجديد فى الشعر والنقد باسم العقاد ، وتستمد النهضة الحديثة فى فروع المعرفة الإنسانية صلة وثيقة بصاحب «وحى الأربعين» ، يأخذ نقاد هذا الزمن ثقافتهم من العقاد ، تسرى مصطلحاته فى كلامهم ، وإن تنكروا لها ، وَهَبْ أننا نحذف صاحب الذكرى من تاريخ الشعر والنقد والفكر الإسلامى ، هل يكون لمثل هذا التاريخ اكتمال ، وهل يظل الوجه واحداً ؟ !!

إن تكريم العقاد والحفاوة به لا يعنيه الآن ، وربما كان لا يعنيه حال حياته - فقد لقى منهما الكثير - تكريم وحفاوة حيث تعرف مواطن التقدير ، وتوليه لمن هو أهل لها ، وهو فى الوقت ذاته علو عن سفساف الأمور ، وإكالة الحفاوة لمن لا يستحق غير الزراية والإهمال ، وكل ذلك جنف عن المقاييس الصحيحة وقد فشا ذلك بكثرة فى أيامنا تلك ؛ لأننا لا نكاد نجد إلا مسخًا فى السلائق ، وارتكاسًا فى الأذواق .

والعقاد - من شأنه - أن يثير هذه الأسلاخ التى تعزى إلى الآدمية ، ويطلعها على هوانها وصغارها ؛ لأن ذكره «عقوبة ومحنة» لما يعانونه من معاقرة الخذلان والشنآن ، لكنه - من جانب آخر - يثير أولى الأخلاق الرفيعة ، والهمم المشحوذة للجمال ، فتحتفى به فى سلوكها وعروجها إلى الخير ، وإن كان ما حولها يأسن

ركوداً وزرايةً ، بيد أن هذا الفريق الكريم لا يملك من وسائل الإعلان ما يملكه الفريق الأول من تسخير الأبواق ، التي يرتع فيها أحلاس الزحام ، ممن يرضى غرورهم ، ومصالحة أنفسهم التوسُّط الشائع ، ويؤذيهم فى الصميم التميز والرفعة، فيصدفون عن مخاطبة المثل العليا ؛ لأنهم لايملكون لها من ذوات أنفسهم مايتجاوز بهم هذه المفازة المضلة .

حارب العقاد فى حياته كل قيمة زائفة ، فلا يعنيه إذن من يزيفون ذكراه ؛ لأنه ينشد - ولايزال - القيم الصحيحة ، حيث هو نموذج لها ، وفكره يخاطب الإنسان بعيداً عن عشاوة التقليد ، والبهرج الزائف ، الذى تعيث فيه ديدان الحس الخادع ، والأرب المئوف ، وهو عنوان صحيح للإنسان الراقى المشغول بالخيال والجمال . لقد حارب أصنام الألقاب العلمية والوظائف الرسمية ، وأطلق عليها «رق القرن العشرين» ، وحارب الاستبداد والحكم المطلق ، ولبث فى السجن بضعة أشهر لم يستخذ ولم تخضد شوكته ، بل خرج أقوى ما كان من سجن «أكبر رأس فى الدولة يخون الدستور» ، وخرج عن الوفد أو خرج الوفد عنه - بعبارته هو - حين كان يمثل أغلبية الدكتاتورية ، وكان العقاد ثائراً ، ولكنه لم يكن وفديًا ولا غير وفدى ، وحارب الاستعمار والطغيان ، وهاجم أعداء الإسلام ممثلين فى المستشرقين ، متتبعا عوراتهم «فيما يقال عن الإسلام» وأصلى الشيوعية ناراً حامية وتنبأ بسقوطها وهى فى أوج ازدهارها - إن كان لها ازدهار - وحققت نبوءته الأيام ، وحارب هتلر والنازية وقد دوَّخ الأمم والممالك ، وقال فيما قال في مستهل كتابه عنه : «فى هذا الكتاب ما أنا بقاضٍ ولا يسرنى أن أكونه» ، وأنذره أعوان هتلر بسوء المغبة ، وسقط الطاغية ، وانتصر فكر العقاد ، فكر الحرية والاستقلال ، وحارب الجمود باسم الدين ، وأصلى الإخوان المسلمين ناراً من مارجه وحممه ، وأطلقوا عليه الرصاص فى داره - رأينا أثر الرصاصة فى نافذة البيت - وكان مبلغ قوله : الرأى بالرأى والجريمة بالعقاب ، وارتأى أن اللوحة الفنية عنوان نهضة فى الأمة لا تقل - إن لم تزد - عن وثيقة الاستقلال ، وحارب الفوضى باسم الفن ، مناصراً للشعر الموزون المقفى ، مناوئًا «للموضات» الزائفة ، ولعل الأيام تشهد الآن ثمرة هذا الجموح ، فأفلت الزمام وطاش ، وفى كلام

العقاد وطبيعة العربية ما يعصم من الزلل والالتباس .

ومع هذه الحروب التى استغرقت منه السنوات . فإنه كان يعتقد أنها تمهيد للبناء أو هى البناء ذاته ، لأنه أخـرج من الشعر عـشرة دواوين ، - وهو عندنا الشـاعر بالألف واللام ويمثل الـشعر ملكتـه الأولى - وأصدر من النقد العـشرات ، ومن الرواية والسيروالتراجم والعـبقريات ، وبحوث الفلسفة والتـاريخ والفكر ما يشهد بعـبقـريتـه ، وغدا مـوضع الدرس - إيجـابًا وسلبًـا - فى البـحوث جـامـعيـة وغيرجـامعية، وصـورته فى الدرس نديد لصورته فى عالم الجمـال ، حيث ألهم الشـعراء والمحبـين ؛ لأنه لم يعـدم الصديق والناحـر من الذين لا يزحفـون على البطون ، فى أى زمن ، ولا يعنيهم أن يزحف الناس ، ولا يهز فى معتقدهم بقيم الحق والخير والجمـال أن يزمر الزامرون لأنهم يعيشون فى اسـتغناء ، لا تبلغ نعاله أصـداءُ هؤلاء، الذين هم شهـادة عـوراء ، على أننا نحـيا فى زمن فـارغ إلاّ من الأصداء والأهواء.

حسن توفيق (أفندى) العدل
قرن يتكلم

هذا رجل غبين ، وحقه الصدارة والتقديم ، يمر على وفاته فى العام القادم قرن من الزمان ، تعاقبت أمم. وتغيرت بلدان ، وسحب النسيان بعض ذيوله عليه، إلا ما يكون من الخاصة العارفين فضل الرجل وقدره ، وما هو بالضئيل ولا الهزيل، توفى هو والبارودى فى سنة واحدة ، وكلاهما علم فى بابه ، فلعلنا فى العام القابل نحتفل بكليهما الحفل المناسب ، وبمحمد عبده الذي توفي فى سنة ١٩٠٥ .

جاء حسن توفيق العدل إلى الدنيا فى مارس ١٨٦٢ ورحل عنها فى يونيو ١٩٠٤ ، غشيه كما غشى وطنه الاحتلال الإنجليزى ، آخذًا بمخانقه ، ومن شأن هذه الأحداث أن تزلزل الركين الراسخ القوى ، ذا القلب المتوثب الطموح ، فراض صاحبنا الأحداث كما راضته .

تعلم الرجل فى الأزهر آنذاك وهو الذبالة الوحيدة - أو تكاد - التى تضىء الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر ، وحصل منه على أربع إجازات على طريقة التعليم القديمة ، ولكنه تطلع إلى إكمال تعليمه فى دار العلوم - وقد تأسست ١٨٧١ ، وكان قبلها قد شدا طرفًا من الفرنسية هو ورفيقه الشيخ محمد شريف سليم عميد دار العلوم فيما بعد ، ومحقق بعض ديوان ابن الرومى ، وقد درس أطرافًا من العلوم الكونية أو الحديثة فى مدرسة الشيخ صالح الليلية ، وربما كانت هذه هى المدرسة التى تعلم فيها شوقى وأحمد رامى فيما بعد ، ومن طريف نظمه آنذاك مدلاً بمعرفته الفرنسية :

يا أديبًا إذا لقيت أريبًا ... وظريفًا وقد علاه الوقار

قل له بالنهار «بنجور مسيو» ... وإذا الليل جن قل «بنسوار» .

تخرج حسن أفندى توفيق فى دار العلوم فرقة وحده ، سنة ١٨٨٧ ، حيث لم يكن فى تلك السنة معه زميل ، وكان لتخرجه رنة بشرى فى محيط أسرته ومعارفه، خاصة حين رشح للعمل معلمًا للغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين، بناء على طلب من حكومة ألمانيا إلى نظارة المعارف المصرية .

كان الرجل مثل قرينه القديم رفاعة رافع الطهطاوى طلعة ، تشرئب مطامحه إلى معرفة ما عند الغرب ، وكان الاحتلال الإنجليزى هنا شاحذًا للهمة أن تقف على طرائق النهضة ، وعوامل التأخر لدينا .

سافر صاحبنا إلى الإسكندرية ، واستقبله الخديو توفيق - تكريمًا للعلم - طالبًا إليه أن يبذل غاية جهده فى تحصيل المعارف - حدث شيء شبيه بهذا مع طه حسين فيما بعد - وأنعم عليه بالنيشان المجيدى ، وحين وصل إلى برلين كان قد استقبله قبلهاقنصل ألمانيا ، وزار نجلى الخديو اللذين كانا يدرسان فى فيينا ، وقضى الرجل خمس سنوات مبعوثًا يعلم العربية ، ويتعلم الألمانية حتى أتقنها ، ويعقد صلات وثيقة، مع كبار الشخصيات الألمانية فقابل الإمبراطور ، وكتب عن بسمارك كتابات ضافية ، لعلها أول كتابة عربية عن الرجل ، الذى أعجب بحسن توفيق أفندى شاكرًا له ما كتبه ، وتجول فى أنحاء أوروبا أثناء عودته ، وحين عاد عمل بدار العلوم ومفتشًا للغة العربية بنظارة المعارف .

كل هذا من الممكن أن يشاركه فيه غيره من المبتعثين ، بيد أن صاحبنا كان مختلفًا ؛ إذ أسفرت رحلته عن طائفة من المؤلفات الرائدة فى بابها ، ولذا نعده - بلا مبالغة - رائدًا من رواد التنوير فى مصر كلها .

ثمة مؤلفات جديدة أخرجها الرجل ، أو طبعت بعد وفاته ، وكل واحد منها يشهد بأن الرجل كان ذا عينين : واحدة ترى ما هنالك معجبة وناقدة ، تحلل وتناقش دون غشاوة من التقليد ، غير الحفاظ على التقاليد المرعية ، والآداب الضابطة فى أمته ، وعين أخرى تنظر - فى أسى - إلى بلده وما أصابه دون أن يخلع جلده ، بل كان الرجل وزانا بين هذا وذلك لا يميل به الميزان .

كانت قضايا التربية شاغل الناس آنذاك ، وكانت دار العلوم من المدارس التى

أخذت على عاتقـها تلك المناهج بما يتسق وطبيعة الحـياة المصرية ، ومع أن المناهج التربوية الإسلامية كانت شاغل بعض المستشرقين ، ومن قبلهم قادة الفكر العربى، وربما نذكر فى هذا الصـدد كتاب التربيـة فى الأندلس لخوليان ريبيـرا وترجمة د. الطاهر مكى - فـإن الناس قد نسـوا بعضًا من تـلك الطرائق أو تجمـدت ، حتى اتصل المصريون بأوربا بداية من الطهطاوى ، ومروراً بصاحـبنا حسن توفيق العدل الذى ألف «البـيداجـوجيـا» التى انتظمت تربيـة النفس والبـدن ، فعـرجت على الأخلاق والقيم ، والرياضة ، ومن العسير أن نختصر هذاا لمؤلف القيم ، وحسب الإشارة إليه .

غير أن ريادة حسن أفندى تحققت أكثـر فى مؤلفه «تاريخ آداب اللغة العربية» ، وكان فى الأصل مذكرات أو مجموعة محـاضرات كان يلقيها الشيخ على طلبة دار العلوم . وتوفى دون أن يطبع ، حتى طبعته نظارة المعارف على نفقتها سنة ١٩٠٦ بمطبـعة مـدرسة الفـنون والصنائع ، وهو أول مؤلـف فى هذا الفن ؛ حيث كـان الأدب يدرس بالطريقـة القديمة أمـشاجا من المنظوم والمـنثور ، كمـا هو الحال فى العقـد الفريد والكامل ، والأغـانى دون خطة واضحة ، إلـى أن جاء هذا الرجل بكتابه متأثرًا فيه بطريقة الألمان - وكان أستاذاً هنالك - فقسم الأدب إلى عصور ، وربط الأدب بالسيـاسة وقيـام الدول واندثارها ، واستـغرق الكتاب ثلاثة عـصور الجاهلى وصدر الإسلام وبنى أمية ، إضافة إلى خـمس مقدمات ، تحدث فيها عن الحياة العقلية والبيانية لأمة العـرب ، وكان هذا الكتاب قد توسع فيه صاحبه وترك منه نسخة لدى المستـشرق براون ، ولم يعثر عليها حـتى الآن ، وجاء بعده دارسو الأدب فاحتـذوا حذوه حتى من درس هذا العلم من الأجانب فى الجامـعة الأهلية المصـرية ، فضـلاً عن الذين جاءوا بعـده ، واتخـذوا سبـيله ، ومن أشهـرهم : جورجى زيدان ، والـرافعى ، وطه حسـين وشوقى ضـيف ، وأحمـد الحوفى ، وحفنى ناصف وإخوان هذا الطراز ، وربما يحسن الجـمع بين تلك الطريقة العدلية وطرائق البـحث الأخرى التى تولى النصـوص عناية أكبـر ، دون الاقتصـار على منهج واحد .

وللرجل ريادات أخرى فى أدب الرحلات ، منها : رحلة إلى ألمانيا وسويسرا ،

وحققها د. محمد حسن عبد العزيز وقدم لها بمقدمة ضافية ، أفاد فيها من كتابات الأستاذ محمدعبد الجـواد ، صاحب تقويم دار العلوم ، وصاحب البحوث اللغوية والتاريخية الجيدة ، وقد أفاد كاتب هذه السطور من كليهما ، ويحسن أن يذكر فى هذا المقام التحقيق الجيـد الذى قام به د وليد خالص لكتاب تاريخ الأدب للعدل ، مع تقدمـة جيـدة ، وقد غطى هذا الكتـاب على كل الكتابات السـابقة التقـليدية والمحاولة للتجديد ؛ وبخـاصة كتاب جمعه إدوارد فانديك وقـسطنطين فيليبدس . وكان يدرس فى الجـامعة الأمريكيـة ، وهو مجموع لا مـؤلف سنة ١٨٩٢ ، وقد اطلعنا على هذا الكتـاب ، وصاحـباه حاطبـا ليل ، واستـغرق الجانب الـتاريخى السياسى معظم الكتاب على حساب الدرس الأدبى ، ولذا يصح أن يقال إن كتاب «العدل» هـو أول مؤلف فى العـربية فى هذا الفن ، ويسـتأهل صـاحبـه التقـدمة والسبق ، وعليهما نافلة من الثناء الحسن والتقدير المستطاب .

رسائل البشرى فى أدب الرحلات بألمانيا وسويسرا

مر على هذه الرحلة قرن وعشر حجج تعاقبت أمم وتبدلت بلدان ، لكنها تظل رائدة فى بابها ، تتجاوز صروف الزمـن ، فتظل في سمع «أدب الرحلات» وذاكرة الأدب المقارن ، وتسجل لصـاحبها سبـقًا ، حين نشرت لأول مـرة ، وحين تنشر ثانية بعناية الدكتور محمد حسن عبد العزيز رئيس قسم علم اللغة بدار العلوم .

صاحب هذه الرحلة اهتضـمته ذاكرة الجيل المعاصـر ، فلا تكاد تذكره بين رواد النهضـة المصرية ، ويتردد اسمـه خافتًا فى قـاعات الدرس المتخصـصة ، وإن كان مشفوعًا بآيات التجلة والتـقدير ، مع أن الرجل حسن توفيق أفندى العدل (مارس ١٨٦٢ - مايو ١٩٠٤) كان ملء السمع والبصر فى جيله والأجيال التالية عليه إلى أن سحب النسيان بعد ذيوله عليه وعلى بعض رصفائه فى بلد «كل شىء فيه ينسى بعد حيـن» . . درس العدل فى الأزهر والتحق بدار العلوم إبان نشأتـها ، وتخرج فيـها دفعـة وحده ١٨٨٧ ، ثم ابتعث إلى ألمانيـا معلمـا للغة العربيـة فى المدرسة الشرقية ببرلين ، ومكث هناك بضع سنين يعلم ويتعلم الألمانية ، متجولاً فى أنحاء أوروبا باحثـاً وسائحاً ، وحين يعـود يدرس فى دار العلوم ، ويتولى التفـتيش فى نظارة المعارف ، ثم يرحل إلى إنجلترا سفيراً للعربيـة فى كمبردج حتى يقضى نحبه هناك، وينقل رفاته الى مصر المحروسة ، ويشـيع رسميًا من محطة باب الحديد فى جنازة مهيبة، غبطه عليها الأستاذ الإمام محمد عبده قائلاً: «يا بختك يا حسن»!!

ويعجب القارئ لهذا التـبجيل حين يودع العدل الخديو توفيق ، وحـين يستقبله قناصل الدول التى مـر بها ، وحـين يقابل بسمـارك ، ويكتب عنه بعض فـصول رحلته البـرلينية ، وحـين يزور أنجال الخديو أثناء دراسـتهم فى أوروبا ، إلى غـير ذلك من المشـاهد التى تشى بدقة الكاتب . والشـيخ حسن ذو روح طلعـة، وكأن عينيه موكلتان برصد ما تريانه من مناظر بشراً ومناهج دراسة ، ووقوفًا على أسباب النهضة ، وقلبه على مصر الوطن ، الذى يود أن يأخذ بأسباب النهضة ، ولايفوته

أن يمزج مشاهداته بروح فكهة ، لكنها الفكاهة الموزونة لا العابثة ، تلك التى تفطن لمواطن التوقير ، وكأين من مبتعثين إلى أوروبا يقضون السنوات هناك ، ثم يئوبون دون أن تتسلل إلى عقولهم ومشاعرهم أقباس مما شاهدوا وعرفوا ، وكم منهم أيضًا يعودون مفتونين بقشور النهضة دون لبابها ، فيكون ضررهم أبلغ من نفعهم .

بيد أن هذا «الدرعمى» كان مسلحًا بثقافة رصينة ، هى ثقافة هذا المعهد العريق وثقافة هذه الأمة فى أصالتها واعتدالها وتوهجها ، ثم أضاف إليها أمشاجًا مما ارتأه وارتأى حاجتنا إليه كما صنع سلفه رفاعة ، ولم يكن التخصص الدقيق مطلوبًا آنذاك ، ففتح عينه وهو لاقطة على مظاهر الثقافة والنهضة ، إذ ألف فى التربية البدنية وعلوم التربية وعلم النفس وأدب الرحلات الذى كان يرسله رسائل ، وكأنها التقارير من المكاتب الثقافية غير أنها بقلم عالم جليل لا موظف ضئيل ، كما ألف فى ميدان اقترن باسمه وهو التأريخ للأدب العربى الذي كان يدرس قبله في كتب الأدب القديمة كالآمالى والعقد الفريد والأغانى، دون خطة مرسومة أو منهجية فإذا بصاحبنا يؤرخ للأدب على طريقة العصور ، التى نعرفها الآن من جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية إلخ ، وارتبط من يومها الأدب بالتقسيم السياسى، وهو منهج جديد آنذاك ، وشهد له بهذه الريادة عجم وعرب منهم «براون» المستشرق المعروف ، ودرس فى دار العلوم يقول عن كتابى العدل : «وفن التربية وتاريخ آداب اللغة العربية هذان الفنان من آثار اليد البيضاء التى لحضرة صديقى ورفيقى الشيخ حسن توفيق أفندى ، فإنه أول من وضع فيها الكتب ، ودرسها بتلك المدرسة (دار العلوم) على نظام تام، كما شهد له أحمد أمين وأحمد هيكل وعز الدين الأمين والطاهر مكى وعبد العزيز الدسوقى وآخرون .

ويلاحظ القارئ أن عنوان هذه الرحلة جاء مسجوعًا على طريقة المؤلفين آنذاك (الطهطاوى وعلى مبارك) وهى مرحلة من نهضة النثر المتراوحة بين السجع والترسل؛ ولذا يستشهد الشيخ بنماذج شعرية وحكايات من كتب التراث ، وكأنها على طريقة المقامات العربية بيد أن هذا لايكثر حين ينطلق الشيخ على سجيته ؛ ولذا ينبغى أن يعد من رواد النهضة النثرية وفى الرحلة تسجيل دقيق لمعالم البلدان،

تسعد مؤلفها معرفته بالجغرافيا والطبيعة والبشرية والتاريخ والصورة التى يرسمها للمزارات ، يكتبها قلم صناع لا رحالة هاو أو سائح ساذج تحيط بها إحدى عينيه، وعينه الأخرى على وطنه حين ينقد ما يراه هناك .غير متسق مع الأعراف الشرقية فى بلده ، وهى صورة أفلح فيها إلى حد بعيد ، كما تفيد دارس الأدب المقارن حين يدرس صورة ألمانيا وسويسرا فى الهزيع الأخير من ليل القرن التاسع عشر .

ولعل هذه الرحلة ونظائرها من تراث حسن توفيق أفندى. ترسم لنا صورة لرجل أخلص لثقافته وأمته ، وترسم صورة فى الوقت ذاته لذلك المعهد «دار العلوم» ، الذى تتحيف دوره الآن سهام مغرضة ، ترتد إلى رماتها، تحية لذلك القلم الشريف .

وتحية لمقدم الكتاب الذى يصل حاضراً بماض ناهض ، لا يزال يسرى فى أوصال المخلصين من أبناء هذه الأمة .

ترجمات القرآن الكريم إلى الإسبانية

ترتبط قضية «الإعجاز» بالقرآن الكريم ارتباطاً توأميًا ، حيث جاء النص الإلهى متحديًا لبلاغة العرب ، - وهم أهل لسن وفصاحة - ، ودليلاً على نبوة من أُنزل عليه «محمد» صلى الله عليه وسلم» ، ومن ثم فهو مباين لبيان البشر مباينة جوهرية ، وإن كان بلغتهم ، ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء ٨٨]ويصدق هذا الإعجاز على القرآن كله ، أو على بعضه ، فالأمر سواء . وهذه معجزة خالدة باقية بعد لحاقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وإلى يوم يبعثون .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ، ولكنه بإعجازه وتحديه لغة داخل اللغة ، وجهد العلماء على كرٍّ الأعصار فى مفاتشة وجوه الإعجاز ، فجمجموا ، ولم يصلوا إلى يقين قاطع فى البحث ، وإن استشعروا «المباينة» عن كلام البشر ، «متذوقين» - كل على قدر طاقته - بعضًا من هذه الوجوه ، وحين كان بعضهم يصيبه الإبلاس والتحير ، يقول «بالصرفة» كأن الله صرفهم عن مجاراته، و«الصرفة» كلام لا يقنع أحدًا ، وإن كان قائلوه يحاولون الخروج من مآزق البحث الحائر .

والقرآن أنزل على قلب النبى بلسان عربى مبين ، وترتبط حقيقة إعجازه بهذا اللسان ، فإذا ترجم إلى لغة أخرى صار شيئًا آخر، ونسخت آية إعجازه ، لأن المترجم بشر لايطاول هذا البيان ، وإن كان من الجبابرة ، وربما كان الجاحظ على كثير من الفقاهة ، حين ذكر أن الشعر العربى عندما يترجم إلى لغة أخرى ، تنسخ آية نظمه ووزنه ، فما بالنا بكلام مباين لكلام البشر!!

وعسير أن نقف على خبيئة أول ترجمة للقرآن إلى الإسبانية أو اللاتينية ، وإن كان القرآن الكريم مثيرًا لأهل الجدل والديانات الأخرى فى إسبانيا خاصة ، نظرًا لطول العشرة ، ومحاولة منهم للوقوف على حقيقة الإسلام وكتابه ، لأغراض متعددة ، بعضها كان للمناجزة والتحدى ، وقليل منها للنظر المجرد والمعرفة .

كان بطرس الموقـر أو الجليل Pedro Venerable ، رئيس رهبان كلونى ١٠٩٤ / ١١٥٦م ، قد زار الأديرة التى تتبع رهبنتة فى إسبانيا ، وكان مـهتمًا بأمر معرفة الإسلام ، والتوصل إلى حـقيقته فشكل فى إسبـانيا جماعة من التراجـمة يعملون فريقًا واحدًا . وأتم روبرت دى كيتون R. de Kettón الإنجليزى ترجمته للقرآن عام ١١٤٣م إلى اللغة اللاتينية ، وتلبية لطلب بطرس الموقر أيضاً قام Herman di Dal-matia ، هرمان الـدلماشى بترجـمة القرآن إلى اللـغة اللاتينيـة ، ثم أمر ألفـونسو العالم Alfaonso Sabio – وكان بلاطه يتنفس هواءً عـربيًا – بترجمـة الإنجيل إلى اللغة الإسـبانية ، وبنقل القرآن إلـيها فنقلت الترجـمة اللاتينية التى ترجـمت بأمر بطرس إلى اللغة الإسبانية .

أمامى الآن ترجمات إلى الإسبانية ، منها ثنتان على غلافهما «محمد» Moho-ma بعـد كلمة القـرآن ، وكأنه اسم المؤلف ، ونـحن لا نطالب الناس أن يكونوا على ملتنا ، يعتقدون ما نعتقد ، ولو آمن المترجمان بأن القرآن وحى من الله لكانا على ملتنا ، وكتابة كلمة «القرآن» مـختلفة إملاءً ، أولاهما جاءت هكذا : El Ko-ran ، وهى الطبعة التـاسعة ، قام بهـا وبمقدمتها خـوان ب بيرجوا : Juan B. Bergua ، نشـرت فى المطبـعـة الإيبرية بمدريـد سنة ١٩٦٣ فى ٤٦٧ صـفحـة. وجاءت الثانية هكذا : El COR´AN ، كتاب الإسلام المقدس El libro Sagrado del Islám .

وربما كـانت هذه الكلمـة أدق إملاءً ، نشـرت فى مـدريد سنة ١٩٩٨ ، وفى صفـحة داخليـة كتب : Autor أى مؤلفـه محمـد ، وتقع هذه النشرة فى ٤٧٩ صفحة ، وجاءت المقدمة فى صفحتين فقط بتوقيع .V. Tariqa .

أما الترجمة الثالثـة ، فقام بها خوان بيرنيت ، وهو أستاذ اللغة العربية وآدابها فى كلية الآداب والفلسفـة فى جامعة برشلونة ، وهذا الرجل يهتم اهتـمامًا بتاريخ العلوم فى الأندلس ، وهو رأس مـدرسة قائمـة بذاتها وله تلاميـذ ولدات يحذون حذوه ، من أهمـهم : خوليو سامـسو ، ولأن بيرنيث مسـتشرق لم يمهـر نشرته بكلمة «محمد» مـؤلفًا ، بل اكتفى بكلمة القرآن ، وقدم لها بمقدمـة مسهبة عرض فيها لتاريخ النبى أو السيرة النبـوية ، وتلبث لدى القرآن وسوره ، مدنية ومكية ،

ووقف على مصادر عربية ، وأوصى أن يقف قارئ ترجمته عند نولدكه وبلاشير ، وواضح أنه اتكأ على ترجمات من لغات أخرى أهمها ترجمة بلاشير الفرنسية . ووقعت ترجمته فى ٧٢٧ صفحة .

والترجمة الرابعة قام بها خوليو كورتيس ، نشرت فى مدريد ١٩٧٩ ، شفعها بمقدمة وتعليقات ، وقعت فى ٦٠ صفحة ببنط دقيق ، تحدث فيها عن تاريخ الإسلام ، وأصول العقيدة ، والقرآن تاريخيًا ، وجاءت الترجمة فى ٨١٢ صفحة.

والترجمة الخامسة جاء عنوانها هكذا : Al Qurán ، وتحتها El Corán ، وواضح أن المترجم يقتفى تقليداً استشراقيًا أندلسيًا فى كتابة الأسماء العربية كما اعتمدتها مجلة الأندلس ، بيد أن المترجم ذكر بين يدى ترجمته : ترجمة أدبية وتعليقات بقلم ألبرو ماتشوردوم كومينس ، وهذا الرجل قد اعتنق الإسلام منذ ثلاثين حولاً أو يزيد ، وأصدر بعض كتب عن «محمد» وأركان الإسلام ، وتسمى باسم : أحمد عبد الله ، وقد راجعت معه أثناء إقامتى فى مدريد ترجمته لسور : الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء ، وكنت أجد عنتًا شديدًا فى المشاركة والمراجعة، وكان نقل جبل أهون علىَّ من ترجمة كلمة ، وأحسست - بصدق شديد - أن النص المترجم ليس بالقرآن كما أحفظه وأعرفه وأتذوقه ، وكنت أهتف بينى وبين نفسى : لا تجوز ترجمة القرآن . كما كنت أحس الإحساس ذاته عند قراءتى أية ترجمة للكتاب الكريم ، ثم عدت إلى مصر ، وأتم ألبرو ترجمته كاملة وحمل إلىَّ نسخة .

جاءت الترجمة فى ٦٠٤ صفحة من القطع الكبير ، نشرت سنة ١٩٩٥ ، وإن كان قد نشر المترجم جزءًا سنة ١٩٨٠ ، وقعت المقدمة فى ٤٢ صفحة ، رجع فيها إلى مصادر عربية ، ومصادر وسيطة إنجليزية وفرنسية .

أما الترجمة السادسة والأخيرة ، فتولتها المملكة العربية السعودية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - بالمدينة المنورة سنة ١٤١٧ هـ ، ولم يجز القائمون عليها القول بالترجمة ، بل قالوا : وترجمة معانيه إلى اللغة الإسبانية ، وقام بها فضيلة الشيخ عبد الغنى ميلار انابيو ، وراجعها : الشيخان عمر عبد الله قدورة ،

وعيسى عمر كفيدو ، وجاء عيسى عمر هكذا ، وصوابه «عامر» .

ومن مراجعة هذه الترجمات ، نؤكد أنها كانت أمام من يترجم ، يتقيّل اللاحق خطى السابق ، فى الإسبانية وفى غيرها من اللغات ؛ حيث كان اللاحق يفتح الترجمات السابقة عليه ، ويقوم بصياغة الترجمة ، حسب بضاعته من اللغة المنقول منها والمنقول إليها ، وغالبًا ما يقعون فى أخطاء متشابهة ، ولنا الآن أن نقف لدى بعض هذه الأخطاء ، دون تعقبها واحدا واحدا ، فهذا يخرج بنا عن سواء هذا المقال .

من حسنات هذه الترجمات أنها تعطى فكرة - ولو غائمة - عن القرآن الكريم للقارىء فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية ، بصرف النظر عن دقة الترجمة أو عدم دقتها، وعن التوجهات التى تحملها الأغراض غير المحايدة ، وبخاصة تلك الترجمات المشفوعة فى عناوينها بكلمة «محمد» مؤلفاً .

من الأخطاء الغريبة ترجمة كلمة «الناس» بكلمة hombres ، حتى فى الترجمة السعودية ، وتعنى هكذا : الرجال «قل أعوذ برب الرجال» صحيح أنها للتغليب للذكر على الأنثى ، وفى مقابل «الجن» ، لكن الأدق منها كلمة gente ، وقد جاءت لدى ألبرو humanos وتعنى الإنسان ، وأدق منها ما اقترحناه ، وإن كانت أقرب إلى المراد من كلمة «الرجال» ، وملحوظ أن ألبرو أو أحمد عبدالله حاول جاهدًا أن يقف على ترجمات سالفة ، أفاد منها كثيراً ، ولأنه أديب فى لغته فقد جاءت ترجمته حرة إلى حد كبير ، يحتفى بالصياغة كثيرًا وإن نأت به عن الدقة ؛ حيث تعنيه الترجمة الأدبية كما ذكر على غلاف ترجمته .

خطأ بشع جدًا ما جاء فى ترجمة خوان بيرنيت ، وهو بنصه :

"Dios no se avergüenza de poner por Parábola un mosquito o lo que está por encima de Él"

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** .. ﴾ [البقرة ٢٦]، وترجمة صاحبنا بالعربية : «إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوق الله» ؛ لأن كلمة "Él" بهذا الرسم المكبر تعود إلى الخالق عز وجل ، تعالى الله

عن ذلك علوًا كبيرًا !

والذى أوقعه فى الخطأ أن كلمة بعوضة مـذكرة فى الإسبانية ، ويمكن أن يعود الضمير عليها بلا تثريب ، لكنه كتب الحرف مكبرًا فانصرف إلى الخالق عز وجل، ولعل هذا من الجهل بالعربية ، وهو يتكئ على الترجمات الوسيطة فى هذا الموضع من الترجمة القرآنية ، وفيما يقوم به من أعمال .

ومعلوم أن كـثيرين من أهل الاسـتشراق ليس فى ذرعـهم الولوج إلى النص ، والتدسس إلى مجـاهله وتذوقه ، بل هم - غالبًا - يقفون بالوصـيد ، ويحسنون مـعرفـة الأمور التـاريخيـة إلا من رحم ربك وهم قليل ، لكنهم على كل حـال يقومون بدور جيد تساعدهم عليه وسائل البـحث العلمى الميسرة ، التى نفتقر إليها فى بلادنا ، ومعرفة واسعة بلغات مـتعددة ، لكننى أرانى شديد التحرج والتحنث من ترجمة القرآن الكريم إلى أية لغة وإن كانت هى الذريعة الوحيدة لفهم الإسلام وكتابه العزيز .

موسى بن أبى الغسان
البطل الغرناطى الأسطورة

فى لحظات التردى والأفول تتوهج بطولات فردية ، لا تأخذ فيما يأخذ فيه الناس ، ولو كانوا ملوكًا وأمراء ، ولا تستكين للمنطق الجماعى ، الذى ديدنه حساب الخسائر والمغانم ، ومن ثم يهبون للحياة معناها ، والحياة هنا «بالألف واللام» المستأهلة التعريف ، لا الحياة النكرة التى نعاها القرآن الكريم على اليهود الراضين بأى حياة ، ولو كانت حياة السائمة والهوام «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» .

كانت شمس الإسلام فى الأندلس تؤذن بأفول وشاحه. صحيح أنها فى غرناطة كانت تبرز من خلل السحاب والعتمة ، لكنها كانت آخذة فى سكرات الموت ، أحدق اليأس والخيانة الداخلية والمساومات الخارجية مع عدو يتربص بها الدوائر ، ويحاول أن يجد ثلمة يجوس خلالها حتى النخاع ، وبدا للناس منذ سقطت طليطلة ما تنبأ به الشاعر .

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

وقد تحققت هذه النبوءة مع الأيام حتى المحاولة الأخيرة فى غرناطة «آخر درة جميلة فى عقد الإسلام الأندلسى» - على حد تعبير دون إميليو غرثيه غومث ، تشظت المملكة النصرية فى أخريات سويعاتها إلى قبيل مع أبى عبدالله الصغير ، وقَبيل آخر مع عمه الزغل ، وصرح الشر بينهما فأمسى وهو عريان ، وتنهّز الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابل النهزة ، فاقتطعا أحوازاً من هذه المملكة المفردة فى الأندلس ، وفرضا الجزية على أبى عبدالله الصغير ، وصنعت دسائس القصور والخيانة صنيعها فى التعجيل بالسقوط .. صحيح أن الحرب كانت سجالاً بين الفريقين ، لكنها كانت تئول أو تتخللها معاهدات سرية بين أولى الأمر من

المسلمين على التسليم ، والخروج بمغانم كثيرة ، وكان كثير منهم يدرك أن النهاية قادمة لا ريب فيها ، فباعوا ما يملكون ، مستعدين أن يكونوا رعايا ، أو يخرجوا إلى غير عودة ، وانقطعت الإمدادات المغربية التى كانت تنجد ملوك الطوائف كالمرابطين والموحدين ، وأعقبتهم طائفة من الملوك اسمًا لا فعلاً ، فتخاذلوا عن النصرة وأنى لهم بها ، وهم يعانون جراح الموت كما كانت غرناطة تعانى ، وغاب عن ملوك بنى نصر الغرناطيين - الصفة للتوضيح فقط - ما كانوا يؤملونه من عون مصرى أو تركى ، ولدى التاريخ مكاتبات بالشعر والنثر ، تستنهض المماليك فى مصر ، والسلاطين فى تركيا ، ولم يكن الرد مشفوعًا إلا بالصبر والجلد ، والعدات الحسنة التى لم تتعدّ حدود الكلام .

ومن استقصائنا لحوادث التاريخ ، أدركنا أن الهزيمة لا تحيق ببلد إسلامى ما كانت مصر قوية .. ولو كانت مصر المملوكية على قوتها لكان التاريخ قد تغير كثيرًا ، ولكن التاريخ لا يعترف «بلَوْ» .

ومحاولة استقصاء الحرب الأخيرة فى غرناطة تخرج بنا عن سواء هذه الكلمة ، بيد أن الداخل فى «السواء» هو ما سطره التاريخ المسيحى والمسلم عن هذا البطل الغسانى ، الذى تجود بمثله اللحظات التاريخية القانطة .

تقول الروايات إنه من الأسرة المالكة ، وإن المؤرخ المسيحى «قوندى» ذكر طرفًا من حكاياته التى نقلها عن المؤرخين المسلمين ، لكنه لم يذكر كعادته مصادره الناقل منها ، وإن الكاتب أنطونيو أجابيدا كان مصدرًا أساسيًا لرواية الكاتب الأمريكى واشنطن إيرفنج «فتح غرناطة» .

تتحدث تلك الروايات عن موسى ومعارضته الشديدة للتسليم ، والمفاوضات التى أجراها أبو القاسم عبد الملك والوزير ابن كماشة فى بهو الحمراء مع أبى عبدالله وكبار رجاله كما نقول الآن لعلم موسى بما وراء السجف والأستار ، وهى معاهدة من ستة وخمسين بندًا ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وقد وصفها مؤرخ غربى بقوله : «إنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور» ، وقد رضى الناس بالدنية حاشا موسى بن أبى الغسان ، الذى أعلن رفضه مرارًا ، قائلاً فى إحدى هذه المرات : «نحن لم نفقد كل الأسلحة ، لدينا

سلاح اليأس» ، لكن الأمور حين تهوى . . فإنما تهوى إلى هوة سحيقة على حد تعبير أنطونيو جالا الكاتب القرطبى الذائع ، رأى موسى المشهد الحزين فى بهو الحمراء . . العيون دامعة ، والأضلاع جائشة ، والقلوب راجفة بلغت الحناجر ، حينئذ نطق صوت كأنه ينبثق من أعراق الأزل ، هو صوت الحق المهين الذى تلتهمه القوة الغاشمة ، قال صوت موسى :

«اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الأمة قد خبت ، حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، ولكنْ ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقامًا لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها» هذه رواية قوندى Condé ، فى ترجمة عبد الله عنان ،ولم نشأ التصرف فى لغة الترجمة ولا صياغتها إلا فى موطن واحد .

كان صوت موسى وسط هذه اللجة الكثيفة من الأحزان ، ووسط تسليم وإذعان ، يرى أن هذا هو القضاء الذى لا راد له مع أن الإنسان بتخاذله ، كما هو حال الغرناطيين الكبار ، ولا نقول : الأمة المختنقة الصوت ، كان فى ذرعه أن يتخذ الأسباب ، ربما كانت عائشة الحرة أم أبى عبدالله حين رأته ينشج ، هى التى شاركت موسى شطراً من آرائه ، التى اتخذ فيها السبيل البطولى إلى آخره ، رمقته عائشة بقولها :

ابك مثل النساء مُلكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال

والبيت الذى قالته عائشة ربما تمثلت به ، ويروى فى كتابات الناس على أنه نثر - وربما كان هذا إرهاصاً بهزيمة أخرى تساورنا الآن ، وهى لا تقل عن الهزائم العسكرية وهى «قصيدة النثر» فيما يسمونها ، وهذا البيت لايزال الإسبان حتى طلاب المدارس وأهل غرناطة خاصة يرددونه فى إسبانية عذبة ، وإن كانت حزينة المقاطع بالنسبة لنا.

لم يركن موسى إلى مـا ركن إليه الناس ، بل كان رفـضه عمليًـا ، حيث أراد الموت الشريف غادر المجلس حين رآه خشبًا مـسندة مخترقًا بهو الأسود ، دون أن يتفوه ببنت شفة ، وذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده ، وواجهته سرية مسـيحية من خمسة عشر فارسًا ، عـرفوه ، واشتجرت بينهم وبينه معركة أثخن فيهم حتى أفنى معظمهم حتى أصيب بجرح بليغ فاستل خنجره وظل يطعن به ، حتى ابتلعه ماء نهر شنيل ، وعرفه الناس بجواده المطعون .

هذا ضـرب من البطولات الفردية التى تصنع تـاريخها ، وأصـحابهـا لم ولن يكونوا من أوساط الناس ؛ فالشر فى الوسط فى مثل هذه الحالات ، والتضحيات الإنسانيـة التى من هذا النمط هى شرف للإنسـان ، وهل هناك شرف بلا تضحـية وبتضـحية عظيـمة ؛ لأن حيـاة الخنوع إصر ثقيل فـادح لا تحتملهـا تلك الأجلاد البطولية ، التى هى من الإنسان ، وكأنها ليست من الإنسان .

وقد وقف أبو همـام مليًا فى غرناطة ، وقـضى الليالى ذوات العد ، يتـحسس خطى هذا الفارس الملثم ويستاف عبيره ، لعل لنا من أصلابه ما يحيى رميم الموات فى أبناء العربية والإسلام .

الفجـــــر

موضـــوع عسير ، لتـشعب مسالكه ، يتـحدث عن أناس يعيـشون بيننا ، وهم غرباء عنا ، أو نحن غرباء عنهم ، سعداء بـهذه الغربة الموحشة ، أو هكذا يظنون أنفســهم ، أو نظنهم نحن، وربما كان بعضنا منهم دون أن ندرى هذه الواشـجة ، على الأقل حين تجتاحنا رياح الغربة القانـطة ، أو حين نلفظ ماتعارف عليه العرف الذليل ، مزدرين له إذا كان فى ذرعنا أن نقول : «لا» لهذا العرف الوبئ ، وغالبًا مانقـولها فى وحدتنا الـيابسة ، مـتمنين فى أعمـاقنا أن نسلك مسلك الغــجر فى الجهسر بها دون خشية ، وذلك مطلب عزيز !

وكتـاب «الغجر» لمؤلفـه سير أنجوس فـريزر ، ترجمه رجل شـديد التواضع ، شديد الكبـرياء فى الوقت ذاته هو الدكتـور عبادة كـحيلة ، أستـاذ التاريخ بآداب القاهرة ، وهو مؤرخ «أدّب» التاريخ ، فى مـؤلفاته ومترجماته ، فلغتـه مشرقة ، تميل إلى التصوير ، والزخـرفة التى تأتى فى موضعها جمـالاً ودقةً ، وله مؤلفات عديدة فـى التاريخ الأندلسى عـربيًا ومـسيحـيًا، كـما أن له تراجم شـخصـية ، وموضـوعات تتـناول البحـر وتاريخ الرحلات ، وإذا علم القـارئ الكريم أن هذا الرجل ينشر حـتى الآن مؤلفـاته على نفقتـه الخاصـة ، أدرك فى التو أى نمط من الرجال هذا الأسـتاذ الصابر المحـتسب ؛ لأنه لايستطـيع إلا أن يؤلف وأن ينشر ، دون أن ينتظر جزاءً ولاشكوراً إلا جزاء العلم ونشره ، مع أنه تعـتريه أحياناً نوبات من القنوط تسـاوره ، غيـر أنه يزيحهـا بإصرار ، وهو فى لغـته وبحوثـه يذكرك بالكاتب الراحل المتـرجم والمؤلف الأستـاذ على أدهم ، وكانت تسـاوره مثل هذه النوبات . . إلا أنه ظل يكتب طوال حياته .

والحديث عن المؤلف قـبل كتابه المترجـم بمثل هذه السطور ضرورة ؛ لأنه يرى فى إهدائه «إلينا حتى لانتـحول جميـعًا إلى غجر» نوعًا من الأمـل وإن كان يابسًا والكتاب عـسير فى مادته حـيث يتناول قطاعًا ضخمًـا من البشر ، يعيـشون على

هامش المجتمع ، ولهم تقاليدهم الخاصة المضنون بها على غيرهم ، وهو متشعب المسالك حين يدرس الأصول اللغوية والهجرات فى كل بلاد الدنيا تقريبًا ، ويدرس السلالة البشرية هذه بكثير من التفصيل ، تراثهم وترحيلهم وعذابهم وآمالهم التى هى آلام ، وفنونهم الموسيقية مستقصيًا هذه الأقوام عبر الحدود شرقية وغربية ، ومصادر الكتاب شديدة التنوع والثراء ؛ ولذا كانت مهمة المترجم صعبة جدًا ، ولكنه كان فى مستوى جيد ، وقد لَذَّ لى أن أتتبع الغجر فى إسبانيا ، ورؤية المؤلف لهم ، ورأيتها قريبة من الصورة التى عرفها المؤلفون الإسبان ، وإن كان لم يتناول بعض البحوث الموسيقية ، كما كتب عنها شاعر غرناطة لوركا ، فى الكانتى خوندو ، وثمة بحوث أخرى عن «القنقيين» ، وهى ذات أصل عربى ، وكتبت عنهم إلينا (بيثى) ، وعن صناعاتهم وهجراتهم المتعاقبة ، وثمة بحوث أخرى لمرثيدس غرثية أرينال وغيرها ، ولكن المؤلف ماكان فى ذرعه أن يحيط بكل هذه البحوث فى البلدان المتعدة وتبلغ حوالى العشرين ، وماكان مطلوبًا منه هذا ؛ لأنه يقدم صورة كلية عن الغجر جنسًا ، وتاريخًا وحضارةً ، ولغةً وفنونًا ، وكان التاريخ فى معظمه داميًا ، حزينًا ، وقد نشر الكتاب هذه المرة فى سلسلة المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ولم ينشره على نفقته كعادته ، ولعل هذا من حسنات الغجر ، وفألهم الحسن الذين كفلهم عبادة كحيلة وجابر عصفور فى طبعة رائعة أنيقة ، وهم يستحقون منا جميعًا هذه الكفالة ، إن رضوا أن ينضموا إلينا ، قبل أن ننضم نحن إليهم ، غرباء قانطين .

أدبنا .. مترجمًا إلى الإسبانية ..

يزهو بعض أدبائنا بأن إبداعه ترجم إلى لغات متعددة غالبًا ماتكون الأوروبية ، ولهم بعض حق فى هذا الزهو ، فليس أحب إلى الإنسان - مبدعًا - أن يرى ثمار قلمه تنطق بألسنة متباينة ، والفتنة بالولد وبالفن قديمة «هو بابنه وبشعره مفتون» على رأى الشاعر القديم .

وبيننا وبين الإسبان أصرة قديمة ، وإن كانت معرفتهم بنا حديثًا ، قد تأخرت عن نظائرهم من أبناء الأمم الأخرى . لكن هذه الأصرة - بعد زوال غاشية التعصب - ترجمت عن ذاتها فيما يتصل بالأندلس الإسلامية لغة وفكرًا وحضارة، باعتبار ذلك التراث جزءًا من تاريخهم هم ، وإن كان ذووه يتحدثون العربية ويدينون بالإسلام ، إلا أنهم إسبان فى النهاية كما يرون .

لكن الأدب العربى الحديث له موقف خاص ، فمدرسة الاستشراق الإسبانية تهتم فى المقام الأول بالأندلس ، واهتمامها بالأدب العربى الحديث يجئ على الهامش ، ومن أعلامها أسين بلاثيوس ، وبالنثيا ، وريبيرا ، وغرثيه غومث ، وجرانخا وآخرون ، وغومث خاصة - قد اهتم «بأيام» طه حسين ، ربما مجاملة لأستاذه ، وأذكر أننى - فى بداية البعثة - بحثت فى كبريات المكتبات عن ترجمته للأيام ، فلم أظفر بمن يعرفها !!

ثمة مدرسة تولى الأدب العربى الحديث اهتمامًا ملحوظًا ، وربما كان «بدور مارتينث» أطول أصحابها قامةً ، وللرجل مشاركات فى المؤتمرات الأدبية والفكرية فى بلاد العرب ، وله تلاميذ يحذون حذوه ، لكن البارزين منهم محدودون جدًا، واهتماماتهم - فى المقام الأول - وفى الغالب - تنصرف إلى النِّحلة المذهبية ، فكرية وفنية - أو إلى المجاملات ، وإسهاماتهم تتجه إلى التاريخ والتعريف ، ولا تتجه - غالبًا - إلى النقد والتذوق والتحليل؛ لأن الوقوف على الجمال الأدبى ربما لايتيسر إلا لأبناء اللغة الأم ؛ خاصة لغة كالعربية ، وجهودهم مشكورة فيما

يتصل بالجانب الأول ، وبعضهم - كأغلب الإسبان - فيهم كسل لذيذ وحب للحياة ، ورثوه عن الأندلسيين ، يعتمدون فى ترجماتهم على لغة وسيطة Segun-damano ، ويقعون فى الأخطاء التى يقع فيها المترجم الأصلى ، ووقع فى هذا كبارهم ، وبعض قصص نجيب محفوظ ترجمها الإسبانى عن الفرنسى ، حتى بعض كتب التراث القديم العربى .

وينبغى أن تكون حقيقة هذه الترجمات مفهومة ، فغالبًا مايحدث فى الإسبانية يحدث فى غيرها ، ودعك من فوز نجيب محفوظ بنوبل ، وإشاعة إسمه فى وسائل الإعلام ، فالقارئ العادى سوف تغيم فكرته بعد قليل ، لأن أدبنا محصور فى نطاق الاستشراق ، وهو ضيق جدّا ، والصبية الصغار من المستشرقين ، وطلاب قسم اللغة العربية يجربون معرفتهم باللغة التى لاتتجاوز دراستها أربع سنوات ، ترقع أحيانًا بدورات صيفية ، لكن البيئة كلها أعجمية ، ومن ثم تجئ ترجماتهم «تجارب» و «تمارين» تتكئ على المعجمات ، وتتجه إلى الشعر الحر غالبًا، ورائده التسهيل ، أو القصص القصيرة ، أو المقالات الخفيفة كمقالات جبران وأمين الريحانى وإخوان هذا الطراز ، وتطبع من هذه الترجمات أعداد محددة جدًا توزع هدايا ، ويقرؤها الصبية أنفسهم ، ويباع مابقى - إذا بيع - مرقمًا ، ولايتجاوز العدد خمسمائة نسخة ، لاتتعدى نطاق الأقبية الرطبة : أقبية الاستشراق !!

أما القارئ العادى وراغب الثقافة ، فلايكاد يقرأ شيئًا ، بخلاف الحادث عندنا، فالقارئ يعرف - مطالعًا - بلزاك ، وتشيخوف ، وراسين ، وخوان رامون ، وغيرهم من كتاب الغرب والشرق .

ولذلك نضحك فى أكمامنا ، حين نجد نفرًا بيننا ينتفخ بأن كتبه ترجمت إلى لغة كذا وكذا ، وهى فتنة بالقلم والولد ، لاتتجاوز حدود الطموح والأمل ، وكلاهما خيال ، وينبغى أن توضع فى مدارها الصحيح .

«أيام» طه حسين بالإسبانية

عبثًا أن يعثر راغب فى شراء كتاب «الأيام» لطه حسين مترجمًا إلى الإسبانية ، وربما غيره من الكتاب العرب ، لا لضآلة أقدارهم ، ولكن لأن أدبنا - عمومًا - ليس معروفًا إلا لدى فئة قليلة ، صوتها خافت هم فئة المستشرقين ، ورغم أن رجلاً كطه حسين يحظى لديهم بقبول ربما لايجده غيره سوى نجيب محفوظ أخيرًا، فإن صوته لايصل إلى أسماع القارئ العادى ، الذى يناظر القارئ العربى هنا ، ويعرف بلزاك وديكنز ، وتشيخوف وملتون وثيرفانتس وبقية هذا الفريق ؛ لأن مترجمى هؤلاء إلى العربية ليسوا كالمستشرقين وأقبيتهم الرطبة التى لايتسلل إليها الضوء إلا لواذا ، وطه حسين بالنسبة لغيره محدود لديهم ، لعدم مصادمته أذواقهم ، ولصدوره أحيانًا عن بعض هذا الذوق .

ربما يكون طه حسين معروفًا أكثر لدى الاستشراق الفرنسى ، وربما يكون هو الذى «صدره» إلى بقية الاستشراق فى البلاد الأخرى ، ومنها إسبانيا التى كان مستشرقوها حتى عهد قريب لايباشرون الأدب العربى الحديث إلا لمامًا .

يطفو إلى الذهن مباشرة غرثية غومث عميد المستشرقين الإسبان ، الذى تتملذ لطه حسين فى القاهرة إبان بعثته إليها ، وحاول التلميذ أن يرد بعض الجميل لأستاذه فترجم «الأيام» بجزئيه سنة ١٩٥٤ إلى الإسبانية ، ونشره فى مطبعة إقليمية فى بلنسية ، وصدره بمقدمة جيدة ، أبان فيها بواعثه التى حصرها فى «صداقته للمؤلف ، تلمذة له فى البداية ، وصديقًا له فيما بعد ، منذ أكثر من ربع قرن ، ولحبه للكتاب الذى يثير فيه ذكريات جميلة ، ولأهمية الكتاب للقارئ الإسبانى» ، كما أوضح قيمة «الأيام» بالنسبة لصاحبه وثيقة نفسية واجتماعية ، وبالنسبة لمصر التى تشهد نهضة حديثة ، مبديًا إعجابه بصوت طه حسين الطفل الكفيف الفلاح ، والحساس الذى صور الأزهر ، والقرية المصرية والمتمرد على التقاليد والآداب المرعية ، الذى صار وزيرًا ورائدًا مجددًا ، ومترجمًا عن الفرنسية، وأثنى على لغة طه حسين الحارة والسهلة الحاملة لعبق التراث القديم والتى تذكرك بأصداء الكلاسيكية ، تقودها نفس متوثبة شديدة المضاء ، ولكنها

لغة رجل «يملى» لايكتب ، ولذلك جاءت رسمًا بمنقاش النحات ، لغة ملموسة، مسموعة، مشمومة ، ونحن مكفوفون ، مثل المؤلف - كما يقول المترجم - عبر الأيام ، وكأن غومث يلمح إلى مقولة المازنى عن طه حسين فى «قبض الريح» وطبيعة الإملاء عنده ، وإن كان لم يشر ونظن أنه قرأها ، ويشير غومث بذلك إلى «المحلية المغرقة» فى الأيام ولعله يريد أن ينقد «الأيام» فى ذكاء شديد ، لأنه يقول : عبثًا أن نعرف «كُتاب سيدنا وساقية الإبراهيمية ، وخبز الأزهر ، وحارة الوطاويط» إلى آخر هذه الأشياء .

فى سنة ١٩٧٣ نشر المعهد المصرى بمدريد ترجمة الجزء الثالث من الأيام ، وقامت بالترجمة كارمن رويث ، وهى مجتهدة إلا أن أخطاءها صعبة ، ويدرك المرء أى فرق بين الجيلين : الأساتذة والتلاميذ ، كتبت مقدمة موجزة مشيرة إلى ترجمة ماريا نللينو لبعض الجزء الثالث إلى الإيطالية سنة ١٩٦٢ ، وترى كارمن فى الكتاب وثيقة مهمة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، ووثيقة أيضًا لمشاعر المؤلف ، وأبناء جيله ، والإسبان عمومًا فيهم كسل لذيذ وحب للحياة مثل أسلافهم الأندلسيين ، يترجمون عن ترجمات وسيطة لا لعدم المعرفة بالعربية ، بل للكسل ، ولذلك يقعون فى الأخطاء التى يقع فيها المترجم الأول ، ومع أن بدرو مارتينث - وهو أستاذ جليل - راجع الترجمة ، إلا أنه يبدو أنه نظر فيها متعجلاً ، وإلا لسلم الكتاب من أخطاء ترجمة الشعر لطه حسين ولغيره ؛ إذ جاء قوله : يقول فى تسبيحه ابن الأمة ما الأمة ، بابن الأمة ، بتشديد الميم وضم الهمزة ، مع أنها تعنى القينة ، و «الهادى» وهمت أنها نطق عامى «لهذا» والمعنى بها الرسول ، وجاء قول أبى نواس ، وما أنا بالمشغوف ضربة لازب . . » «ضربة تهوى على العاشق» إلى آخر هذه الأشياء التى لانود استقصاءها هنا . ولم يكن حظ هذا الجزء بأسعد من صاحبيه ، فهو حبيس الأقبية الرطبة ، ويقرأه تلاميذ قسم اللغة العربية هناك ، وهم فئة قليلة ، والاستشراق لاتأثير له عمومًا فى الدوائر الثقافية العامة ، وأدباؤنا الذين تنتفخ أوداجهم لأنهم ترجموا إلى لغات الأرض ، عليهم أن يتطامنوا كثيرًا ، فلا يعرفهم إلا الذى يجربون معرفتهم بالعربية ، ويحيون فترة التلمذة المحدودة ، وخير لطه حسين وأدبائنا عمومًا أن يعرفهم قارئ العربية من أبنائها .

الحكيم فى الفكر الإسبانى

حظى توفيق الحكيم بتقدير الاستشراق الإسبانى ، وإن لم يحظ بالشهرة التى يستأهلها لدى القارئ العادى مثله فى ذلك مثل أدبائنا العرب ، باستثناء نجيب محفوظ أخيرًا بعد نوبل ، لأن الاستشراق الإسبانى - مثل أى استشراق آخر - يتحرك فى دائرة محصورة ، لاتكاد تتجاوز أهله والمهتمين به إلا فى حالات نادرة، ولايعنى هذا ضآلة قيمة أدبائنا .

وتوفيق الحكيم قيمة باذخة فى أدبنا الحديث ورائد فن اقترن باسمه ، وأبدع فيه كمًا وكيفًا ولايمكن أن يغفل الإسبان رجلاً له مثل إسهام الحكيم ، ولو أتيح له أن يُقرأ على نطاق واسع أو يمثل بعض إبداعه فى المسارح الأوروبية أسوة بما نصنعه نحن مع الأدب الأوروبى ، لكان له ولأدبنا شأن آخر .

والمستشرقون الإسبان حتى عهد قريب كانوا يحصرون اهتماماتهم بترجمة الأدب الأندلسى ، فهم ورثة هذا التراث ولهم فيه نصيب مثلنا .

وقد أدرك بدرو مارتينث آسفًا أن الحكيم لايعرفه القارئ الإسبانى معرفة كافية ، وكأنه يشير إلى استحقاق الكاتب المصرى إلى دراسات معمقة أو رسائل جامعية ، وينبغى أن ندرك أن ولوج المستشرقين إلى الأدب المصرى - مع عرفانهم أهميته - عسير ، فبعضهم يفرد مؤلفات للأدب العربى فى أقاليم أخرى ؛ لأن فى وسعهم الإحاطة بهذا الأدب بخلاف الأدب فى مصر ، الذى يقتضى عكوفًا وتمويلاً ، ربما لايتحان بالقدر الكافى .

احتشد بدرو مارتينث ، وكان مديرًا للمركز الإسبانى الثقافى بمصر سنوات ، ورأس جامعة مدريد المستقلة بضع سنوات كذلك ، وله معرفة عميقة بالأدب فى مصر احتشد ومعه طائفة من تلاميذه لمشروعات كبيرة ترجمت من طه حسين ونجيب محفوظ والحكيم ويحيى حقى ولطائفة من الشعراء ، وأصبح علمًا لاتجاه فى الاستشراق الإسبانى يقصر جهوده على الأدب والفكر العربى الحديث .

ترجم «شهر زاد» للحكيم ونشرها فى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، وقدم لها بدراسة عرفت بالمؤلف وباتجاهه الفنى وارتآها «قصيدة درامية» ولايعنى أنها شعر ، بل يرى فيها روعة فى الأداء اللغوى تقارب الشعر ، وهو على حق كبير ؛ لأن حوارات الحكيم من أرقى ما قرأنا من حوارات فى الأدب العربى والأوروبى ، ولغته فيها توتر الشعر ووهجه الخلاق وكثافته الشفافة .

وثمة مقال نشر منذ بضع سنوات «لخوليو سامسو» ، وهو أستاذ بجامعة برشلونة ، ومن مدرسة تهتم بالعلوم فى الأندلس تاريخًا وحضارة ولها إسهامات واضحة خاصة لدى صاحبنا ولدى أستاذه بيرنيت مترجم القرآن الكريم ، وعنوان هذا المقال «تأثيرات إسبانية محتملة من أونامونو وخاثنتو جراو ، فى بيجماليون لتوفيق الحكيم » .

ومسألة التأثير الإسبانى فى الحكيم جديدة ، حيث يقف الباحث المقارن ، لدى التأثير الفرنسى أو الإنجليزى ولايكاد يمد بصره خارج هذين الأدبين ، وينبغى أن يكون واضحًا منذ البداية أن التأثير لايعنى النقل أو السرقة ؛ لأننا نولد وفينا كفاءاتنا الخاصة القابلة للبناء عليها .

عرض سامسو إلى آراء الباحثين من العرب فى تأثر الحكيم ببرنارد شو ، واعتمد رأى المستشرق الأرجنتينى «أوسبالدو ماتشادو» فى نفى الصلة بين الحكيم وشو ، وأن الصلة جاءت فقط من صدور الكاتبين عن الأسطورة القديمة ، وأنها غير غريبة عن الأدب العربى .

يرى سامسو أن «الحلم» المبدع للفن لدى الحكيم فى مسرحيته هذه ، أو فى أعمال أخرى سابقة له مثل «بين الحلم والحقيقة» فى عهد الشيطان ، أو فى «عصفور من الشرق» إنما هو موضوع مطروق فى الأدب الأوروبى . . وقد عاش الحكيم فى باريس من ١٩٢٥-١٩٢٧ ، وحدث خلال ذلك أن نشرت عام ١٩٢٥ ترجمة ست شخصيات تبحث عن مؤلف للويجى بيراندللو ، وفى سنة ١٩٢٦ نشرت ترجمة «الضباب» لميجيل دى أونامونو ، وعرضت قبل قدوم الحكيم باريس فى ١٤ فبراير ١٩٢٣ مسرحية «سيد بيجاليون» لخاثينتو جراو ، وهذه الأعمال تعالج الموضوع ذاته «مسألة الحلم والخلق الفنى» ويحتمل أن يكون الحكيم هذا قد

عرفها جميعًا ! وقرأ عنها .

ومسألة خلود العمل الفنى أكثر من الفنان المبدع مسألة تعرض لها هؤلاء الكتاب جميعًا على اختلاف فى التناول وطريقة العرض ، وكذلك مسألة استقلال الشخصيات الفنية عن أصحابها .

أما مسألة زيارات الشخصيات للمؤلف ، فقد تناولها أونامونو والحكيم وبيراندللو ، وأن عمل الحكيم - فى رأى سامسو - يحتوى على مجموعة موضوعات مشتركة من هؤلاء الكتاب ، وقد كانت كلها مترجمة إلى الفرنسية ، وهنا يبعد الحكيم عن شو بعدًا كبيرًا ، إضافة إلى أن الكاتب المصرى قد عالج هذه الزيارات فى أعمال أخرى مثل «القصر المسحور» ، ومع الأميرة الجدباء ، وشهرزاد مع شهريار العصر فى مجموعة «سلطان الظلام» .

وينهى الكاتب رأيه بقوله : نجد الحكيم يمزج موضوعات كلاسيكية أو مأخوذة من أعماله نفسها بموضوعات أدبية أوروبية ، ويقدم أحيانًا إشارات للحاضر السياسى ، لإخراج عمل أصيل فى أسلوب شخصى، إن الأدب الأوروبى فى نتاج الحكيم ومعظم الكتاب العرب المعاصرين يتميز بطابع الإثراء فقط ، وهو يختلف فى ذلك عن النقل ، الذى يمكن أن نكتشفه بسهولة فى الفترة السابقة فى التأثير الغربى ، ولنذكر فى ذلك مثلاً مارون نقاش» .

ولعل هذه العبارة تؤيد مانقوله من أن الأدب الإنسانى ملك للناس جميعًا ، وأن الكاتب الأصيل فى أية أمة هو من يفيد منه ، ويخرج لنا أدبًا أصيلاً ينسب إليه وحده ، وأن الحكيم بهذا المقياس المقارنى يحظى بأوفر الأنصبة من الأصالة والتفرد ، وأن قيمته أولاً أن يظل مقروءًا فى لغته الأم قبل أى لغة أخرى .

توفيق الحكيم بالإسبانية

حسنًا أن يترجم توفيق الحكيم مترجم مصرى أو مترجمة مصرية إلى اللغة الإسبانية ، حيث يعى المصرى - عادة - أسرار العربية كما لايعرفها الغرباء عنها ، الذى أخذوها اكتسابًا ، ولذا كانت حفاوتنا بهذا العمل الجيد الذى اضطلعت به الدكتورة نجوى محرز ، رئيسة قسم اللغة الإسبانية وآدابها بجامعة عين شمس ، مسهمة بذلك فى الدور الذى سبقنا به المستشرقون الإسبان فى ترجمة آدبنا إلى لغتهم ، وإن كان الاهتمام بالأدب العربى الحديث جاء متأخرًا عن اهتمامهم بالأدب الأندلسى ، الذى هم شركاء لنا فيه ، وإن كانوا يحاولون الآن تعويض مافاتهم بترجمة الأدب العربى الحديث . أول ترجمة للحكيم إلى الإسبانية . فيما نعلم - قام بها إميليو غرثيه غومث ؛ حيث قدم «يوميات نائب فى الأرياف» ولم تصب ذيوعًا رغم أهميتها فى ذاتها ، وأهمية المترجم لدى أبناء جلدته ، ثم اهتم بالحكيم تلميذ غومث ف. كورينطى اللغوى المعجمى ومترجم المعلقات إلى الإسبانية ، فترجم «عودة الروح» ، أعقبته ترجمة بدور مارتينث مونتابث - مدير جامعة مدريد الأوتونوما الأسبق - لمسرحية «شهر زاد» ، ترجمة جيدة ، مشفوعة بدراسة ، وكل هذه الترجمات محصورة أو تكاد فى دوائر الاستشراق .

ثم جاءت ترجمة نجوى محرز لأربعة أعمال للحكيم ، هى : نهر الجنون - وبين الحرب والسلام - والشيطان فى خطر . ونحو حياة أفضل ، مشفوعة بمقدمة عن الحكيم وأدبه ، وخصائصه الفنية فى صفحات قلائل .

وقد عرضت المترجمة فى أسطر قليلة لبعض الصعوبات التى واجهتها فى الترجمة واستطاعت التغلب عليها ؛ لأنها تتعلق فحسب بالضمائر اللغوية مذكرة ومؤنثة فى مسألة «الحرب والسلام» .

وترجمة المسرحيات - وإن بدت سهلة يسيرة - حيث تقوم على الحوار ذى الجمل القصيرة غالبًا - عمل غير يسير ، لأن أسلوب الحكيم خاصة من أرقى

مانعــهد فى أساليب الحــوار ، يلعب ذكاؤه وبراعته الـلغوية دورًا غير مــحدود فى المراد ، مثله مثل كبار كتــاب المسرح فى اللغات الأخرى ، وهنا مكمن الصعوبة ، حيث تقوم الإيماءات والنقاط ، وعــلامات الكتابة والترقيم بدور لايقل عن الكلام الملفوظ ، كمــا يقوم «المونولوج» أو تصوير حالة المحــاور بين الأقواس بدور شديد الخطورة ، وعلى المترجم فى تلك الحالة أن يقيد هذه الخواطر لأنها لم تجئ عبثًا ، وأن يتزيا لكل حالة إيماء أو تصريحًــا بالزى الملائم ، وكانت نجوى محرز - وهى مثقفة واعية - وذات قدرة بارعة فى الإسبــانية والفرنسية - كفاء هذه الصعوبات ، تحركت خلالها بمهــارة واقتدار فى الأغلب الأعم ، إلا فيما يعسر فــيه الإلتقاء بين اللغــتين العربــية والإسبــانية ، لكنهــا فى أحيــان قلائل كــانت تغض الطرف عن الجمل، التــى تجئ بين قوسيــن وهى تصور حالة المحــاور راضيًــا أو مؤمــئًا ، أو ساخطًا أو متعــجبًا ، وكأنها تكتفى بما تحمل عــبارته من هذه الحالات ، وقد رأينا عدم الاكــتفاء بما اكتــفت به ، معتــقدين أن أمانة النقل تقــتضى ترجمتــها ، وربما زادتها حــسنًا ، غير أن هذه حــالات معدودة جــدًا ، وثمة جمل أخــرى نرى أنها اقتــربت من الأصل ، واستغنت عن الـظلال ، وترجمة الظلال أمــر ضرورى فى الترجمة الأدبية .

المجموعة التى نقلت عنها نجوى محرز تحمل عنوان «سر المنتحرة» وهى مسرحية من أربعة فصول ، أغفلتها المترجــمة ، مكتفية بالأربع المذكورة ، وكلها من فصل واحد ، ولعلها ارتأت أن تقدم مسرحية الفصل الواحد إلى القارئ الإسبانى بعد أن عرفــه فى المسرحيــات ذوات الفصول المتــعددة أو الرواية الطويلة ، ولعلهــا تعاود ترجمة «سر المنتحرة» لتكمل المجموعة ، وتكمل الطريق فى ترجمة غير الحكيم من الأدباء المصريين .

نشرت هذه الترجمة فى مصر ، ولقــارئ اللغة الإسبانية ، فلعل دار النشر تقدم هذه الترجمة مشكورة إلى الدور الإسبانية فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية لئلا ندور مع الإسبان فى حلقات الاستشراق . . وهى حلقات محدودة هنا أو هناك .

الدراسات الأندلسية فى مصر

الدراسات الأندلسية الآن فى مصر مظلومة ، وأصحابها يحفرون فى الصخر بأظافرهم ، لعدم اكتمال أدوات البحث والنظر لدى أغلبهم الآن ؛ لأن الحقل لايزال بكرا ، وطارقوه المؤهلون له محدودون ، مع اشتداد أهميته فى تلك الظروف المتعاقبة التى نعيشها حاضراً .

أولى أدوات البحث الأندلسى أدبًا وفكرًا ، وتاريخًا ، وحضارةً أن تعرف تاريخ هذا البلد معرفة وثيقة ، وأن نفطن إلى أسرار لغتنا ، وبها كتب تراث أندلسى هائل ، وهذه المعرفة وتلك الفطنة يمكن أن تخرج باحثًا أندلسيًا تقليديًا ، يتحرك فى مجال التراث العربى ، دون أن يطمح ببصره إلى مايكتبه الإسبان عن الأندلس منصفين وغير منصفين ، فنحن فى حاجة إليه ، ولايتأتى ذلك دون معرفة اللغة الإسبانية لنطالع ثمرات قرائح مستشرقين من أمثال خوليان ربيرا ، وأنخل جونثالث بالنثيا ، وميجيل أسين بالاثيوس ، وغرثيه غومث ، وجرانخا ، وبدور مارتينث ، وكورينطى وإخوان هذا الطراز ، ولكل واحد منهم باعه فى الأندلسيات فكرًا وتاريخًا وحضارة ، قد فطن جيل سابق لقيمة الدراسات الأندلسية فاهتموا بها ، واحتشدوا بأدوات النظر لمعرفتهم بلغات أخرى ، من أمثال الدكاترة أحمد ضيف وحسين مؤنس ومحمد عبدالله عنان وغيرهم ، ثم كانت مبادرة طه حسين بإنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، وهو وزير آنذاك ، وكان يدرك أن مشروع الدرس الأندلسى لن يتم على الوجه الذى يراه إلا بتكوين جيل ، يقف على تراثه العربى الأصيل ، ويقف على اللغة الإسبانية مبعوثًا إلى بلادها ، وكان لنا جيل من الرواد الأندلسيين فى مصر أمثال الدكاترة : عبدالعزيز الأهوانى،وأحمد هيكل ، ومحمود مكى ، والطاهر مكى ، وأحمد مختار العبادى وآخرين حملوا عبء الدراسة الأندلسية فكرًا وتاريخًا وحضارةً ، وتكاد تكون إسهاماتهم على تفاوت - هى أفضل الإسهامات التى قدمت حتى الآن ،

وجاء جيل آخر لايزال يحمل العبء من أمثال الدكاترة : صلاح فضل ، وعبدالله جمال الدين ، ومحمد عيسى ، وأحمد عبدالعزيز ، ويحاول أن يقدم جهودهم تأليفًا وترجمة .

إن دراسات المستشرقين الإسبان عن الأندلس منطقة محظورة ومخيفة ، إلا لمن يقترب منها بلغتها ، أو على الأقل بلغة أخرى كالفرنسية مثلاً ، ولاتكاد تسد مسد الإسبانية ؛ فنظرية عروض الموشحات والأزجال والخرجات الرومانثية ومصادر التاريخ الموريسكى لن يقف عليه إلا من تمكن من الإسبانية ، مع احترامنا للدارسين المصريين وغيرهم ممن تخصصوا فى الأندلسيات ، ولم تتح لهم فرصة معرفة الإسبانية ، فهؤلاء يعملون بجهد لم تذلل له كل العقبات ، وبعضهم معذور حين يخلط مثلاً بين الموريسكى وبين المسلم عمومًا ، أو بين من ينتسب إلى مدينة المرية ، أو ينتسب إلى المرينيين ، ومن لايدرك الخرجات العجمية التى تختم بها الموشحات ، ومن يمزج بين الرومانثى والرومانسى . كان ثمة توازن فى المبعوثين إلى إسبانيا ، يمزج بين دارسى تاريخ الأندلس ، والأدب الأندلسى ، والأدب المقارن ، والفن الأندلسى ، واللغة الإسبانية، لكن كفة الأندلسيات مالت مؤخرًا لحساب دراسات مهمة . . لكنها يمكن أن تتم أفضل فى بلدان أخرى كالطب وله ثلاث بعثات الآن ، والزراعة ولها أربع ، والهندسة ولها ثلاث ، والفنون ولها خمس ، واللغة الإسبانية ولها ثمان ، أما الأدب الأندلسى فاقتصر على بعثة واحدة .

إن الدراسات الأخرى سوى الإسبانية يمكن أن تتجه إلى بلدان أخرى لو شاءت، لكن كيف ندرس الأندلسيات فى غير الأندلس ، صحيح أن عندنا فى الجامعات المصرية أساتذة كبارًا لكن المسألة لاتقتصر على الأستاذ فقط . بل إن معرفة اللغة الإسبانية ضرورية جدًا ، ومعايشة أحداث التاريخ الأندلسى بشرًا ، ووجوهًا ، وحضارةَ ، ومدنًا مطلوبة كذلك ، وهذا مايفيده المبعوثون : السلوك والمعرفة ، ولايمكن ترقيع البعثات بما يتم من بعث بعض الطلاب تسعة أشهر لجمع المادة ، أو أى مسمى آخر فهو نوع من العبث غير المفيد ، إذا كان ذلك ضروريًا فلا تقل المدة عن حولين كاملين لمن أراد أن يحصل شيئًا من المعرفة باللغة وأهلها .

هل تفطن وزارة المعارف ، أقصد وزارة التربية والتعليم ، إلى وظيفة البعثات إلى الأندلس ، وإلى وظيفة المعهد المصرى التى أدركها طه حسين منذ مايناهز نصف القرن، فلا يجهل دارس الأندلسيات تاريخها وفكرها وحضارتها وآدبها مايكتبه إخواننا الإسبان عن أندلسهم ، ولهم منه نصيب كنصيبنا ، ولهم نظرات لم نقف عليها بعد ، سواء اتفقنا معها أم اختلفنا .

بقيـة المتقدمين من شـيوخ الدراسات الأندلسـية فى مصر والعـالم العربى ومن ذؤابة الرعيل الأول ، الذى فـقه تراثه العربى ، ووقف على كـتابات المستشـرقين الإسبـان وغيرهم بلغـة غير العـربية ، وتَلْمَذَ لشـيوخ الاستـشراق المحتـرمين فى إسبانيـا، وعرف الحضارة الأندلسية لغـة وتاريخًا وبشراً ، واحتفظ بقـوامه الخاص غير ذائب فيما عرف وهو كثير .

وكان على هذا الرعيل أن يؤلف وأن يترجم وأن يحقق ، وكان د. الطاهر مكى - ولايزال - فى طليعة هذا الرعـيل ، فقد حقق بعض التـراث الأندلسى ، تحقيق العالم الثبت ، وألف أندلسياته فى الشعر والنقد والتاريخ والحضارة والأدب المقارن وترجم عن الإسبـانية روائع مـاكتبـه أثبات المستـشرقين والمـبدعين الإسـبان وعن الفرنسية أيضًا .

والجميع بين هذه الحـقول جمع عسيـر ، بيد أنه يسير على رجل خدم الثـقافة فخـدمتـه ، ولم تقف جهـوده لدى الأندلسـيات بل ولج عوالم أخرى فـى النقد والأدب القديم ومصادر هذا الأدب والشـعر المعاصر والقصة القـصيرة ، وهو بهذه الصـفة من أغـرز أبناء جيلـه نتاجًـا وكأين من أصـحاب نـتاج غـزير خيـر منهم المقلون. . لكن د. الطاهر مكى جمع بين الغزارة والإتقان .

وهو صاحب أسلوب متفرد ، يجمع بين الجزالة والبساطة وله تعابير يكاد ينفرد بها ولعلها أثارة من اللغة الإسبانية ؛ فـتقديم الحال على جملته من خصائص هذا الأسلوب وتسعده قـدرة فذة على نخل الكلام ، فتطفر كلماته بين السطور رشـيقة متـوثبة حتى وهو يتـرجم . . وإذا استطاع الكاتب هذه الصيـاغة فى الترجـمة ، فاستطاعته فى التأليف أوضح.

وكتاب الشـعر العربى فى إسبانيـا وصقلية لمؤلفه الألمانى فون شـاك نموذج جيد لوفاء الترجمة بالأمانة والدقة وحسن البيان ، وترجمه الأستاذ مكى عن الإسبانية، وقد نقـله إليها خـوان باليرا وهو مـن ذوى الأساليب والبـيان فى لغتـه ، وترجم قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس شعـراً إسبانيًا رائعًا ، وارتبطت القصيدة

الأندلسيـة من يومهـا بقصيـدة ذائعة لخورخي مـانريكي في رثاء أبيه ، وتستحق القصيدتان دراسة مقارنة مستوعبة،قدم شاك كتابه بتمهيد عن الشعر الجاهلي في خطوط عامة ، اعتمد عليها - فيما نرى - طائفة من المستشرقين الإسبان ، بعضهم يذكرها وبعضهم يلتزم الصمت ، وقد غدت دراسته هذه من «كلاسيكيات» الحديث عن الشعر الجاهلي .

ويرى المترجم أن شاك أبدع فيها لأن الجاهلية الألمانية قريب من قريب من الجاهلية العربية ، كما أن الفصول المتتابعة عن الثقافة الأندلسية والأغراض الشعرية - غزلاً وحماسة وخمريات ووصفًا ومديحًا وهجاءً ورثاءً - أصبحت من مراجع الدرس الأندلسي ، وهي دراسات متقدمة زمنًا ؛ إذ إن المؤلف توفي سنة ١٨٩٤ لكنه أقام زمنًا في الأندلس دارسًا ومتأملاً ، ولعل كلمته الذائعة تفسر هذا الاهتمام والتعاطف مع تلك الحضارة الآفلة : «من لم يقض أبدا أصيل يوم ربيعي في جنة العريف لايحق له أن يقول إنه رأى الكون في عظمته كاملة» .

بهذه الروح «الإنسانية» تحدث شاك عن الأندلس شعرًا وحضارةً وفنًا ؛ لأن الجزء الثالث من هذا الكتاب عن الفن العربي في إسبانيا وصقلية،قد ترجمه الدكتور مكي قبل أعوام خلت .

وهذا الكتاب محظوظ والدرس الأندلسي محظوظ كذلك ، حين أتيح لهذا الأدب والفن رجل في قامة شاك وهو شاعر في لغته وقرب الشعر الأندلسي إلى الذوق الألماني وتصرف أحيانًا تصرفًا يسيرًا ليكون أمينًا أكثر مع الشعر ، راكنًا إلى مقولته المشهورة : إن الخيانة في الترجمة تكون أحيانًا من الحرص الشديد على الأمانة ، وحين أتيح أيضًا لهذا الكتاب أن يترجمه الكاتب الروائي والسياسي والدبلوماسي خوان باليرا (ت ١٩٠٥) ، وحين قيض له أن يكون واسع التأثير في مدرسة الإستشراق الإسباني ، وفي النهاية حين يترجمه إلى العربية ناقد كبير مثل د. مكي ، فيبدع في الترجمة شأنه في ذلك شأن ترجماته الأخرى أمانة متحرجة وبلاغة عربية ، تشرق في ثوبها العربي إشراقها في ثوبها الإسباني ، وكم لذَّ لي أن أتابع الترجمة على الأصل ، وأتلبث متسائلاً : كيف تكون ترجمة هذه الفقرة، فإذا بي أجد قرة عين في الأمانة وجمال العبارة ولاغرابة ؛ فالمترجم شديد المراس، هائل التمكن من اللغتين .

الأدب الأندلسى من منظور إسبانى

الباحث العربى فى الأدب الأندلسى مستطيع بغيره ، إذا لم يطلع على ثمرات القرائح الإسبانية ، التى تتناول هذا الأدب فكرًا ولغة وتاريخًا وحضارة والمدرسة التقليدية التى تؤرخ للأدب العربى حسبها شذرات مما كتبه المؤرخون العرب القدامى عن الأندلس ؛ ولذلك تجئ دراستهم «ممتعة» بإحدى عينيها على حسب التعبير القديم للدلالة على «العوراء» .

وربما تسد الترجمات من الإسبانية بعض هذا الخلل لدى هذا الفريق من الباحثين . . لكن «الترجمان خوان» على مايقول المثل الإيطالى إلا إذا كان هذا الترجمان فى قامة أستاذ مشهود له بالأمانة ، والقدرة على حملها ، وفى ذرعه الإبانة بلغة عربية ، لاتحس فيها عرج الترجمان التى ابتلينا بها فى هذا الزمان ولايترجم لك مذيلاً ترجمته «بتصرف» كما يصنع خفاف المترجمين ، الذين ينقلون مايعرفون ويتركون مالايدرونه - وهو عسير - بتصرفهم .

والأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى ذو قامة باذخة فى الترجمة ، وحسبه أن يتصدى لتلك القمم الباذخة فى الفكر الأندلسى من المستشرقين وغيرهم ، وهم رجال فى قامة «خوليان ريبيرا» و «أورتيجا إى جازيت» و «غرسيه غومث» و«أسين بلاسيوس» و «سوليدال أو خيبرت» و «رامون مينتدث بيدال» وهم خلاصة الفكر الأندلسى تأريخًا وفكرًا ولغة وحضارة وفلسفة ، ودراساتهم هى «كلاسيكيات» الدراسات الإسبانية عن الأندلس ، ولانعنى بهذا الوصف أنها قد تجاوزها الزمن ، بل نعنى بها أصول البحث عن الأندلس فى رجال ثقاة ، يحدوهم الإنصاف فى أغلب كتاباتهم ، يكتبونها فى حدود ماتسمح به الكنيسة وإن كانوا يتحايلون أحيانًا فيخرجون عن أسرها . . لكن بقدر ، ولسنا مطالبيهم بوجهة نظر عربية خالصة ترضى غرورنا ، وتدغدغ مشاعرنا بل حسبنا النصفة التى رائدها أن هذا التاريخ الأندلسى هو جزء مضئ فى تاريخهم ، وإن كان أهله يتحدثون العربية ويدينون

بالإسلام ، وحسبك أن بعضهم جعل ابن حزم إسبانيّا خالصًا ، ولم يكن مثل هذا البحث مسموحًا به إلا بعد زوال غاشية التعصب .

وهذا الكتاب الذى ترجمه الدكتور مكى بمثل هذه الروعة من البيان العالى ، إنما هو فى مجمله بحوث عميقة فى مجال الأدب المقارن نظريًا وتطبيقيًا ومحاولة جادة وحيدة لمعرفة الوسائط ، وهو أغنية لهذه الثقافة العربية الأندلسية التى تجاوزت الحدود اللغوية لتؤثر تأثيرًا هائلاً فى الفكر الأوروبى فلسفيًا وصوفيًا ولغة وعرضًا كافيًا لبيان هذا الأثر العظيم ، وهى : الأصول العربية لفلسفة رايموندو لوليو ، وإسبانيا تنقل العلم العربى إلى الغرب ، وابن حزم قمة إسبانية ، والشعر الأندلسى وتأثيره فى الشعر الأوروبى . . إلخ .

لذا كنت أود أن يكون عنوان الكتاب «الفكر الأندلسى من منظور إسبانى دراسة فى المصادر والتأثيرات» . . لكن العنوان جاء متواضعًا عن المحتوى إلا إذا كان الأدب هو الأخذ من كل شئ بطرف . . وحسبنا هذه السطور التى تأخذ بطرف واحد من هذا الكتاب القيم تأليفًا وترجمة وتعليقًا ، وأن تكون تحية عرفان لرجل زاهد ، عاكف على العلم ، وهو من قمم المدرسة الأندلسية Gran Espanista فى العالم العربى على الإطلاق .

عن الشعر الأندلسى

هذه ترجمة ، وليست بترجمة» !! لأن الترجمة عادة فيها لون من ألوان الخيانة، كما يقول المثل الإيطالى ، خاصة إذا مارسها غير حاذق وما أكثر غير الحذاق الذين يرتكبون «خطيئة» الترجمة ، فيقرأ الناس كلامًا متدابرًا ، يلعن بعضه بعضه ، وتزداد الخطيئة حين تكون المادة المترجمة إبداعًا أدبيًا وشعريًا خاصة ؛ لأن الشعر سر كل لغة ، ويتصور كل من تخرج فى أقسام اللغات الأجنبية أنه مترجم بالضرورة ، وهو فى الأغلب - لايفطن إلى لغته الأم ولا اللغة الأخرى ، ولهؤلاء نظائر فى اللغات الأجنبية حين يترجمون من العربية ، فيقولون كلامًا مضحكًا ، يثير الشفقة ، وفى الجعبة كثير من نوادر الترجمات الزائفة ، ولانقول الرديئة فى العربية وغيرها يعرفها أهل الاختصاص .

أما هذه الترجمة التى نحن بصددها . . فقد حمل أمانتها رجل أديب فى لغته أولاً ، ومتضلع فى هذه اللغة بكل فروعها ، وواقف على تراث أمته وقوف المتمكن ، هو الدكتور محمود مكى عضو مجمع اللغة العربية ، وعضو الأكاديمية الملكية للتاريخ فى مدريد ، وهو وبعض رفاقه حملوا عبء التعريف بجهود الأدباء والمستشرقين الإسبان ترجمة وتأليفًا ، ولهم نظر ناقد فيما يترجمون ؛ إذ ليس كل مايكتب فى الإسبانية صالحًا لترجمته إلى العربية ، ويتدسس هذا النظر فى الانتقاء، وفى التعليق الحصيف على الأصل المترجم منه ؛ لأنهم يلجون هذا الباب، وهم يضارعون أصحاب النص الأصلى على حين يستخذى كثير ، ويتضاءل .

ثلاث دراسات مطولة ترجمها د. محمود مكى ، كتب أولاها إميليو غرثيه غومث، وهو عميد الاستشراق الإسبانى فى العصر الحديث ، وتتلمذ عليه أعضاء البعثة المصرية الأولى فى مدريد ، وهو شاعر فى لغته ، ويذكرنا بلغة الرافعى ومحمود شاكر فى العربية جزالةً وعمقًا ، وهنا مكمن الصعوبة ، وبحثه عن «الشعر الأندلسى : خلاصة تاريخية» وأهميته فى النظرات النقدية ، وترجمة الشعر الأندلسى إلى الإسبانية .

وأثرت هذه الترجمة فى شعراء جيل ١٩٢٧ تأثيرًا هائلاً ، بل امتدت حتى الآن فى شعراء من أمريكا اللاتينية ، وقد عـرف المترجم بالمؤلف وعرض لبحثه ، الذى رأى له أصولا عند فـون شاك (ترجـمة الدكتـور الطاهر مكى) ، والأصل الألمانى عند شـاك غدا من «كـلاسـيكيات» الدرس الأندلـسى ويسقط عليـه جـمهـرة من المستشرقـين ، يذكرونه أحيانًا ، وأحيانًا يغـفلونه ، والدراسة الثانية كتبـها داماسو ألونسو ، وكان رئيسًا للأكاديمية الملكية للغـة الإسبانية ، وهو شاعر وناقد كبير ، لايعرف العـربية ، ولكنه يتـعاطف مع الدراسـات الأندلسيـة المنقولة إلى لغـته ، ويحاول فى بحـثه أن يثبت عن طريق الترجـمة «الغونشية» صلة وثيقة بين الـشعر الأندلسى وشعـر جونجورا ، وهو من كـبار الشعراء الإسـبان ولغتـه مركبة كـأنها الزخرفة الأندلسية ، أما لغة ألونسو فتشبه لغة يحيى حقى فى العربية بسيطة سيالة ولكنها تنعقد إحكامًا .

أما الدراسة الثالثة فقد كتبتها الصديقة ماريا خيسوس بيجيرا ، رئيسة قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة مدريد ، وهى باحثة مجتهدة ، ودراستها حول الأدب المقارن وتأثيـر الصور الشعـرية العربيـة فى سوانح جومث دى لاسـرنا ، وقد تأثر بترجمات غرثيه غومث من الشعر الأندلسى ، ومارست هذه الترجمات تأثيرها فى دى لاسرنا ، وإن كان قد تجاهل الإشارة إلى المصـدر . . ولغة ماريا خيسوس لغة باحثة أكاديمـية دقيقة ؛ وقد صنع الدكتور مـحمود مكى هوامش بعد كل بحث، تنوعت بين إيجاز وإسهـاب ، أحسسنا فيهـا بجهد رجل أحاط خبـرًا بموضوعه ، وأمتعـتنا لغته المشرقـة ، بعد أن غثيـتت النفوس بترجمـات تلعنها لغتهـا ويلعنها الأصل ، تملأ السوق ، وقد أعـاد المترجم عصر الترجمـة الزاهر ، ممثلاً وممتدًا فى أعلامه ، أمـثال : العقاد وطه حسين والجـارم وعلى أدهم ومحمد عوض مـحمد والطاهر مكى ومحمـد عنانى وغيرهم ، بيد أن القارئ يعتب على المتـرجم إغفاله لبعض رفـاق الرحلة الأندلسـية مثل الدكـتور الطاهر مكى ، الذى تـرجم غومث ترجمة رائعـة منذ ثلاثين سنة ، ولسنا داخلين بين المكيين فهـما من إقليم واحد ، إلا لحق القارئ كما نشير إلى تعدد كتابة بعض الأعلام مثل «غومث» مرة وجومس مرة أخرى ، وأولى التوحد ، غير أننا نؤكـد غبطتنا بهذه الترجمة ، التى نبتت فى العربية بفضل محمود مكى .

صلاح فضل مفهوم !

فى كتابه الأخير «تكوينات نقدية» إبانة عن موقف طالما انتظرناه كثيرًا ، بعد جولات مع البنيوية والواقعية ، وشفرات النص ، والأسلوبية أتعب فيها الناقد نفسه وأتعب قراءة معه ، وفيها جميعها - على تفاوت - اهتمام بالغ بالنص ، ومحاولة لإبداع نص موازٍ ، وإهمال شديد فى الجانب المقابل لقائل النص وظروف عصره .

وكنت - شخصيًا - أشفق على صلاح فضل من هذا المزلق النقدى الذى ينكر أو يهمل بدائه معلومة من النقد بالضرورة حيث إن النص الأدبى لاينبت من فراغ، بل يخرج مخضلاً بروح صاحبه ، ولون عينيه ، وقسمات عصره كذلك ، لكن يبدو أن هذا الموقف من صلاح كان مبعثه «رد الفعل» لاتجاه آخر يسرف فى تفسير النص ، متلبسًا بقائله وزمنه ، دون وقوف كافٍ أمام قراءة النص وكلا الموقفين يبعد عن الجادة ، وإن كنت أرى أن المسرفين فى الجانب النصى قاسطين لايقولون كلامًا يحسن السكوت عليه ، وكنت دائمًا أتصور أن الجمع بين الموقفين لصالح النص .

وكان صلاح فى كتبه الأولى يحاول الجمع على استحياء ، حتى جاء كتابه الأخير ، فغالب صلاح صلاحا ، وانتصف للاهتمام بالمؤلف ورصدت مقدمته بروز النغمة الشخصية دون خوف من تهمة الانطباعية ، ولم يعد يخجل - كما قال - من دخول الذات فى حلبة الموضوع .

وكثير من النقاد - خاصة - لايلمحون هذا التحول فى ذواتهم ، ولايعترفون به إن لمحوه ، ولكن شجاعة الناقد هى التى خولت له هذا الاعتراف ، وخولت له أيضًا أن ينفر من العجمة ، جانحًا إلى «البيان» وطبق ذلك عمليًا من خلال لقطات من سيرته الذاتية ، التى رصدت بداياته النقدية ، وصراعه مع اكتشاف الكلمة فى

الكتّاب والمدرسة والأزهر ودار العلوم وجامعة مدريد ، وصاحب مجموعة كبيرة من المبدعين والنقاد ، من توفيق الحكيم مروراً بنجيب محفوظ وفتحى غانم ، وعلى الراعى ، وعبدالقادر القط ، وشكرى عياد ، ومحمود شاكر ، والمازنى ، وعز الدين إسماعيل ، ومحمود أمين العالم ، والبهجورى ، وبدرو مارتينث مونتابث ، ولوركا حتى أوكتابيوباث .

والكتاب بهذه الصورة لقطات مركزة ، يقف وراءها فكر حصيف ، وقلم صناع، يمسك بمفاتيح الشخصية فلا تنفرط منه الرؤية ، ويمتزج فيها ماهو ذاتى - أو معرفة شخصية - بما هو موضوعى . وبطبيعة الحال ، هذه الرؤية مطبوعة بطابع صاحبها دون مرور «بموت المؤلف» ، سواء أكان ناقدًا أم مبدعًا ، ويدرك القارئ الذى يعرف «أسلوب» صلاح فضل أن شخصية المؤلف الناقد تتقدم الكتاب أو تقف وراءه ، وهذا مطمح استولى عليه المؤلف حين توارث إلى حد بعيد تلك الشبكات البنيوية ، التى يقع فى شراكها الناقد والقارئ على حد سواء ، وأسلست للمؤلف لغة مفصحة ، جعلت من كتابه فائدة ومتعة .

بيد أن حديثه عن الأستاذ محمود شاكر أقف عنده بالوصيد ، ولا أجاريه حتى النهاية ؛ لأن منهج الأستاذ شاكر فى التذوق يقف وراءه تراث هائل ، وثقافة رحبة لايدرك أغوارها إلا من ذاقها ، وأن مايراه الناس حدسًا فى بعض آرائه أو فراسة دون أن يقول لك خطواته المنهجية فى النقد ، إنما هى فراسة شاكر - هى منهج فى ذاتها - ولاتدانيها فراسة ، وأن الخطوات المنهجية مستسرة فى كلامه دون أن يفصح عنها شأن الجامعيين الذين يظلون فى أغلبهم تلاميذ ، كما أرى أن شكرى عياد فاق أستاذه بكثير ، ولكنه تواضع العلماء النبلاء ، وأعتقد أن صلاح فضل فى هذا الكتاب اكتشف خير مافيه ، وهو «البيان» الذى به يعتدل النقد ، ويستقيم الميزان .

سنوات وذكريات د. أحمد هيكل

الحماسة الموزوعة عنوان صالح لشخصية أستاذنا الدكتور أحمد هيكل ، وفهم منازعه النفسية والفكرية ، فالرجل شديد الحماسة لما يعتقد ، ولما يحس ، بوصفه شاعرًا وجدانيًا ، استغرقته شواغل الشعر والنقد طوال عمره المديد - بإذن الله - بيد أن الحماسة لاتسلم من نوازع الشطط أحيانًا ، فتركب أصحابها مراكب يتريث دونها الحصفاء ، من ذوى الحماسة الموزوعة ، التى تركن إلى ضرب من المصالحة مع ملكات النفس الأخرى .

ونعتقد أن تكوين الدكتور هيكل مفطور على هذه الحماسة ، التى هى وزان بين الجموح والركانة، منذ ميعته الأولى ، وزادته تجارب الحياة ركونًا إلى هذه الخليقة النفسية والفكرية ، التى تفسر لنا كثيرًا من سلوكه ومواقفه ، وربما حسبها البعض مهادنة ، وإمساكًا بالعصا من الوسط ، وذلك وهم صراح ؛ لأن الرجل يترجم صادقًا وقع الحياة وتجاربها على صقال نفسه ، وإذا صح هذا الوهم - وهو غير صحيح - فبم نفسر كثيرًا من مواقفه الأولى ، وهو لايزال فى طراءة السن ، وغرارة الحياة ؟ حين أسرف مع صحابه فى اللهو والطرب يوم ظهرت نتيجة امتحانه فى مدرسة تحفيظ القرآن ، فطاشت يد أحدجيران المدرسة فأسالت الدم من أنفه ، فستر الأمر عن الأسرة لئلا يسبب لها مشكلة ، ومن يومها لايأخذ فيما يأخذ فيه أقرانه من اللعب والصياح .

ونظن أن هذا الحديث يفسر كثيراً من مواقف الدكتور هيكل فيما بعد ، حين برزت عوامل أخرى بحكم النضج والاستواء ، فهو شاعر - والشعر انعتاق - لكنه فى الوقت ذاته أستاذ جامعى ، ودرس فى الأزهر الذى يكسب ذويه - آنذاك - غير قليل من الركانة وربما التزمت ، وهو فى الوقت ذاته خريج جامعة مدريد ، وربما تبدو هذه العوامل والمؤثرات متضاربة بيد أن صاحبها فى قدرته أن يجعلها نسيجًا واحدًا ، تتعدد خطوطه فى انسجام واتساق .

إن الشاعر يتغزل ، لكن الشاعر الأستاذ الجامعى مقيد - إذا كان مثل الدكتور هيكل - بأثقال اللياقة ، فلاتغلبه إلى مالا يريد ، ومن ثم أغفل قصائد يتغنى فيها بذاته ولذاته ، واطلع عليها خلصاؤه ومضنون بها على غير أهلها ، ونعتقد أن معالجة الدكتور هيكل ومجاهدته لنفسه وراء كثير من اتزانه ومن حرق أعصابه أيضًا، ولم لانقول هذا ، والشعر فى جوهره احتراق ؟

إن كثيرًا من حوادث حياته فى هذا الكتاب الجليل حين تعرض على هذا المحك لاتعوزنا إلى كثير من الإعمال والتمحل ؛ لأن فهمها على طرف الثمام كما يقول المثل ، وفى الكتاب اعترافات كثيرة ، وسيرة حياة ، وهى حياة رجل مصرى عربى مسلم ، لاينتظر منه ومن أمثاله غير ماقاله فى حماسة وفى لياقة ، دون أن يغرق فى حمأة المباذل التى يولع بها الناس من هواة كشف اللثام والتعرى الفاضح أحياناً ، بدعوى الصدق والحرية ، فالذى ينتظر مثل هذه المباذل ، فليبحث له عن رجل آخر لأن صاحبنا ليس بسبيله ، ثم لماذا يكون التعرى والمباذل ضربة لازب على كل من يكتب سيرة حياته ، وسير الحياة ليست منهجًا واحدًا ، ولايمكن أن تكون كذلك ؟

إن كتاب «سنوات وذكريات : سيرة ذاتية» معرض حافل من صدق السريرة ، وعلو الأداء ، واستقامة السلوك والمقصد ، حين عرض لحياة مؤلفه منذ ولادته مرورًا بطلب العلم فى الأزهر ودار العلوم وجامعة مدريد ، وأستاذًا جامعيًا مرموقًا، وشاعرًا وناقدًا ودبلوماسيًا ووزيرًا ، فى محفل من الذكريات ، وكاتب هذه السطور صَاحبَ مؤلف هذه السيرة حوالى ثلاثين سنة فى مصر ومدريد ، وطالع هذه السيرة فى صاحبها وفى مواقفه ، قبل أن يطالعها فى هذا الكتاب ، فوجد الصورة طبق الأصل كما يقولون ، وحمد هذه السيرة وصاحبها وإن كنت - نظرًا لحماستى المدفوعة - أود فى بعض المواطن أن يهجم الأستاذ دون ذكر العواقب ، وأن تتخلف حماسته الموزوعة أحيانًا شاعرًا وناقدًا ، لكنى أعود لنفسى فأقول : ليس الدكتور هيكل سوى الدكتور هيكل ، وهذا حسبه من الأمانة ومن الصدق .

السلطان يستفتى شعبه

فارق واضح بين القصة Novela بمعناها الحديث ، وبين الحكاية Anecdota الشائعة فى التراث القديم ، وإن كانتا تتداخلان فى بعض الملامح ، حين تقترب القصة من سذاجة الحكاية ، أو تحبك الحكاية فتأخذ من ملامح القصة ، ولذا كان الدكتور الطاهر مكى مؤلف هذه المجموعة على قاعدة الصواب ، حين أضاف إلى العنوان الأصلى «وحكايات أخرى» وكتب فى مستهل مقدمته أنها حكايات .

ولاجناح على التراث القديم حين احتفى بالحكاية ، منذ طفولة البشرية ، ولاجناح علينا أيضًا حين ننعتها بالشعبية حين لانقصد بها شعبية اللغة ، عندما تكون عامية ، لأن كل أدب مقصده الشعب ، الذى يطرب للحكاية الرائقة ، والمثل الذائع ، والبيت الشعرى البليغ ، تجئ كلها ملبية حاجات الناس ، تقوم مقام المسلسلات والأفلام والقصص والمسرحيات فى وسائل الإعلام ، وجمهرة كبيرة من كتب التراث العربى ، حافلة بهذه الحكايات أو النوادر ، كما يحفل بها تراث الفرس ، والإسبان فى القرون الماضية .

والكتاب الذى نحن بصدده طائفة من هذه النوادر أو الحكايات الرائقة ، سمعها المؤلف من الشعراء «القوّالين» فى المغرب فى أثناء سياحته المتعددة به ، وألتقطها وعاشت فى ذاكرته ، فدبجها قلمه الصناع المبدع ، ويصح فى هذه الحالة أن تعزى إلى الدكتور الطاهر مكى تأليفًا ، حيث عليها ميسمه الشخصى تجربة وأداء ، برغم أنه سمعها وأظن - وبعض الظن ليس إثمًا - أن تكون هذه الحكايات من بنات فكره هو ، وقد صنع صنيعه الكاتب القرطبى أنطونيو حالا حين ألف روايته المطولة «المخطوط القرمزى» ذاكرًا أنه عثر على هذا المخطوط ، ضمن تراث آخر ملوك غرناطة حيث دون فيه مذكراته ، وهى وليجة فنية لبناء هذه الرواية ، وربما تكون هى نفسها ذريعة الدكتور مكى فى حكاياته .

والمؤلف له تاريخ قديم فى التأليف القصصى ؛ حيث كان ينشر بعضه فى

الصحف والمجلات إبان عـهد الطلب ، ويبدو أن الدراسة الأكـاديمية وارت بعض الشئ هذا الجـانب الإبداعى ، ليبـرز إبداعه فى النقـد والدراسة الأدبيـة ، وحين عاوده حنينه الآن إلى القص ، لبس قناع الشاعر «القوال» فى مقاهى المغرب بطنجة ومراكش .

وطريقة التـأليف هذه ذائعة فى التراث الإنسانـى منذ حكايات أيسوب ، وكليلة ودمنة ، وألف ليلة ، ونوادر البخلاء والمجان والحمـقى والمغفلين ، وفى الإسبانية أيضًا حكايات الكونت لوقـانور ، والأيكة الإسبانيـة للمتشور دى سانتـا كروث ، ولاتزال تطل من وراء حـجـاب فى حكايات الكاتب الأرجنتـينى خـورخى لويس بورخس ، منقولة مـعظمها من العربيـة وإن لوت لسانها ، مما يشهـد بأصالة هذا التراث العربى وعمق تغلغله فى الأدب الوسيط والحديث بأسبانيا وأمريكا اللاتينية، ولكن يجب الأخذ فى الاعـتبار أن نقل هذه الحكايات من لغـة إلى أخرى ، ومن بيئة إلى بيـئة يقتضى عادة تحـويرًا لفكرة الحكاية وتغييراً فى بعض ملامـحها ؛ مما يشى بشىء من أصـالتهـا حتى حين تـنقل ، ويقدم لنا هذا الكتـاب مادة صـالحة لرحيل الفكرة أو الحكاية من بلد إلى بلد ؛ مما يهتم به الأدب المقارن.

والحكايات كثيرة فى هذا الكتاب تستعصى على العرض أو التلخيص ، لكنها - عـمومًـا - تحكى التـجربة الإنسـانية لبـشـر أحيـاء يأكلون الطعـام ويمشـون فى الأسواق. . شخـصيات تجالد ، وتـتـوفز ، وتتذاكى ، وتتحـامق ، وتروم الخير ، ولاتستعـصى على الشر ، تحمل رسالة إنسـانية للتهذيب أو التطهـير - إن شئنا - حين نلمح فيها وجوهنا ، وهواجسنـا ، وأحلامنا بالعدل والجمال ، ومخاوفنا من الظلم والفساد . كل هذا فى ثـوب من الصياغة الجميلة الـتى تخففت بعض الشئ من جهامة الدرس . وإن لـم تتخفف من نصاعة الأسلوب ورشاقته ، لدرجة ننسى معها المقهى المغربى لنهتف : إنها مما يقدمه الطاهر مكى من رحيقه المختوم .

تاء مربوطة وغير مربوطة

عالم المرأة بكل أسراره هو العالم الأثير ، الذى تتحرك فيه الكاتبة المبدعة فاطمة يوسف العلى ، تفر منه إليه ، إذا ساورها هاجس هذا الفرار ؛ لأنه يكاد يكون وظيفة بيولوجية ، قبل أن يكون عالمًا اجتماعيًا زمانًا ومكانًا ، وإذا قلنا «عالم المرأة» فإنما نعنى العالم كله ، وهل تنفصل فيه عن الرجل الذى هو مدار هواجسها وأحلامها ؟

غير أن ذلك التخصيص لبيان دور «البطولة» النسوية إن صح التعبير ، لاعزلاً للجنسين.

وفاطمة العلى - فى رأينا - نموذج جلى للأديبة القاصَّة المبدعة والمثقفة ، أخلصت لهذا اللون الأدبى ، إخلاص الذهول والاستغراق والتبتل ، فأخلص لها هذا الفن ، ومنهجها سريرته ، فغدت - الآن - نموذجًا جيدًا لفن القصة القصيرة، لفتت إليها أنظار القراء وأنظار النقاد ، وكانت على قد المسئولية ، دارسة وباحثة مجتهدة .

والمجموعة «تاء مربوطة» التى نشرت مؤخرًا تشى بأننا أمام كاتبة مسئولة ، صاحبة قضية تؤرقها ، وتؤرق بنات جنسها ، بل تشغل كل الإنسان بما هو إنسانى منه ، بعيدًا عن الجنسية ، امرأة أو رجلاً ، تضم عشر قصص قصيرة ، تحتفى بالعالم الغامض للمرأة ، وبقضية هويتها ، ومكانها ومكانتها فى المجتمع ، وخاصة فى المجتمع الخليجى ، بخصوصيته ونسيجه المتشابك ، الذى تغلغلت فيه الكاتبة بوصفها خليجية ، وبوصفها كاتبة مبدعة ، لديها قدرة على اكتشاف العلائق وتصويرها وربما تفسيرها .

«وتاء مربوطة» هى القصة الثانية التى تحمل المجموعة عنوانها ، ولعل فى «الوصف» : مربوطة ، مايشى بشئ غير يسير فى الربط الرمزى كتابة وعلاقة إنسانية ، تتخطى حدود العلامة الإملائية ، التى ليست سوى أثر «زائد» على

الأصل : مضيف ومضيفة - كما فى الحوار - ربما كانت هذه الزيادة ملموحةً فى العالم الباطن للمرأة ولفاطمة العلى ؛ خاصة حيث تدور القصة فى عالم الأحلام أو الإغفاءة ، الموهمة بالواقع ، ولعل ذلك الحوار الذى يدور بين البطلة والمضيف، اتخذ سمت الصراع بين الرجل والمرأة المطالبة بحقوقها فى المساواة التى تخنقها هذه التاء المربوطة ، وربما كانت المضيفتان «الزوجتان» القديمة والجديدة ، وجهين لذات واحدة هى البطلة الموزعة ، بين حقها فى المساواة وحقها فى أن تكون أنثى ؛ حيث ربطت التاء المربوطة بين الزوج والزوجة ، فهى صراع بين البطلة ذات الوجهين ولايمكن أن تستغنى عنهما . ولعل التاء المربوطة هنا تفك «ربطتها» ؛ فتصنع مصالحة بين المرأة القديمة والمرأة الجديدة لتكون المرأة فحسب .

والأحلام متنفس واسع لفاطمة العلى ، تعالج من خلاله مايعجز الواقع أن يتنفسه . ولعل فى هروبها إلى مسرح الأحلام أو الأساطير فى القصة الثالثة «عندما كان الرجال حريمًا للسيدة» مايشى بهذه الملاحظة التى تكتنف معظم قصصها .

كانت مشكلات العنوسة ، والجنسية أو العرق قضايا تشغل بال الكاتبة ، كما أن مشكلات الأنوثة والجنس من قضاياها الكبار أيضًا ، ولكنها لاتتخذ عالم الجنس وسيلة إثارة ، كما تصنع الخفاف من بنات جنسها الكاتبات ، فى سوقية رخيصة وابتذال مجانى ، بل إن فاطمة العلى تعالج هذه القضية ، وفيها كل آداب اللياقة والاحتشام الأدبى قبل الأخلاقى الذى يقول كل شئ دون أن يخدش الجمال الفنى بل يزيده تأثيرًا وقبولاً ، وتلك ملاحظة احترمتها فى الكاتبة من منظور نقدى وجمالى ، ورأيت فيها نموذجًا حسنًا للكاتبة ، التى تعرف حق الفن والإبداع ، وتسعد الكاتبة قدرة حسنة على التصوير المكثف الموحى فى لغة راقية شفافة ، وإن كنت لم أفهم إلا بعسر بعض الكلمات العامية فى الخليج الدائرة فى الحوار ، ووددت أن تكون الفصحى رائدها فى السرد والحوار ، وهى قادرة بلا ريب «بتائها المربوطة» وبأخوات لها سالفات وقادمات .

جــرح الحـــب

كانت مبــدعة تحسن التصــور والتعبير ، يلمس المتلقــى صدقها ، مشــاركًا لها هواجسها وأحلامها ومخاوفها ، مــدركًا أنه تجاه كاتبة لاتزيف مشاعرها ، تسعدها لغة تنفرد بها فى إطار اللغة الأدبية المشتركة .

وإذا كانت الشهرة الإعلامية تفــيد المبدع فى تسليط الضوء على شخصه وأدبه ، وربما تخلع عليــها ما لايســتحقــه ، فإن هذه الشهــرة جنت على الأستاذة جــيلان حمزة، حــيث تركزت بؤرة الضوء على دورها الإعــلامى فى الشاشة الصــغيرة ، مخلفة وراءها إبداعــها الأدبى الذى هو جدير بالتقــديم ، وخليق بالضوء ، والفن الروائى فن «ماكر» بالمعنى المحمــود للكلمة ؛ إذ يتيح لصاحبته - قــبل صاحبه من الرجال - أن تبــوح بما لاتستطيع البــوح به فى فن أخر مــثل الشعــر ؛ ولذا كانت الرواية - خاصة - ملاذًا لجــيلان حمزة ، التى تضع هذه الأقنعة الشــفافة ، حيث تقول : «ها أنذا ، وتقول بلسان آخر : لست أنا ،وتلك آية من آيات الفن الروائى حين تبدعه طاقة خلاقة مثل جيلان حمزة .

أشعر بكثير من الأسى حين أرى تقدم غيرها ممن لايملكن إحساسها الصادق ، ولا قلمها الصناع . ولكن شيئًا من هذا الأسى تترقرق فيه بعض أنداء العزاء حيث جمــعت الهيئة العــامة للكتاب أعــمالها الكاملة فى مــجلدين كبيرين ، يحــملان رسالتها الفنية إلى جمهرة القراء .

بعد هذه الأعمال الكامل ، أخــرجت المؤلف آخر رواياتها بعنوان «جرح الحب» ولعلها صفحات من ســيرة ذاتية للمؤلفة ، لكنها سيرة روائية ماكــرة ، تعالج فيها طرفًا من حــياتها الفنية ، صــحفية مــشهورة ، مذيعــة مشهورة ، تعــانى مرارات الوحدة والإحــباط وزيف المشاعــر ، من خلال سرد روائى ، يعتــمد على ضمــير الغــائب ، وكأنه ضــمير المتــكلم ، وتعلق على الحيــاة العامــة التى هى داخلة فى نسيجها الذاتى ، فتتحدث عن ثورة يوليو ، وخيبة الحلم الثورى ، مع تعلق المؤلفة

وأبناء جيلها بالحلم المجهض ، كما تعرض لقضايا التطرف والاغتصاب الذى راحت ضحيته البطلة ، وهنا تخلع قناعًا لتضع قناعًا ماكرًا ، هو اغتصاب الحقوق الإنسانية ، وأن الإغتصاب ليس جسدًا ، بل مشاعر وهواجس.

وبطلة الرواية ضحية التردد والقلق ، فما إن تراها مقبلة على ماتود حتى تفاجئها نوبات التردد فتقبع داخل شرنقتها .

وتلخيص الرواية إجهاض لحوادثها المتلاحمة ، وشخوصها المرسومة بدقة ، حتى الشخوص الثانوية ، وملامح البطلة هى ملامح بنات وأبناء جيلها ، وإن كانت بعض ملامح السيرة الذاتية تطل هنا أو هناك خلف نقاب شفاف ، ومما يرشح لهذه الإطلالة أن البطلة فيها سمات من عمل المؤلفة ، ومن شخصيتها إلى حد ما ، ومن مقر سكنها بالمعادى وطريق عودتها وذهابها ، حتى مكان اغتصاب البطلة .

هذه الرواية الجيدة تسجل - بالمعنى الفنى - لفترة تاريخية من حياة البطلة وحياة جيلها ، ويدرك القارئ أنه أمام عمل لايتكرر كثيرًا ، وقد احتشدت المؤلفة احتشادًا حسنًا لتخيل الحوادث ، وإفراغها على شخوص محكمة الملامح ، تناصيها قدرة طيبة فى استخدام اللغة ، وتوظيفها توظيفًا ملائمًا للشخوص والأحداث وهى لغة مصورة فى إطار من التصوير الحى ، الشفاف النافر من التقعر ، ومن الإغماضات التى يولع بها صغار العقول والأذواق ، ومع أنها لغة محكمة مصورة ، يرشح فيها أحيانًا بعض التعبيرات اليومية التى تزيدها ملاحة ، وإن كان فيها قليل من الندودات النحوية ، التى ربما يقع عبؤها على ماعمت به البلوى من أخطاء الطباعة والمراجعة .

سيرة ذاتية حسنة أو رواية حسنة إن شاء القارئ ، ترسخ لصاحبتها صورة حسنة لدى القارئ ، كما رسخت لها من قبل أخواتها السابقات ، وتؤثل لها مكانة طيبة بين الروائيين والروائيات .

وقت للسعادة .. وقت للبكاء!

طائفة من الصور «القلمية» ، تتنازعها القصة القصيرة والمقالة الوصفية الاجتماعية ، يربطها خيط دقيق من السبر العميق للنفس الإنسانية فى ربيع رجائها، وزمهرير قنوطها ، يتوخى دائمًا البحث عن الخير ، أو السعادة ، وإن شابتها أمشاج من تعاسة الرجاء ، أو نشيج البكاء .

ومؤلف هذه الطائفة من الصور القلمية كاتب ذو نهج مستقيم ، وأسلوب يستصفى القيم الفنية ، فى أدق صورها ، لفظًا وتركيبًا غدا دلالة على كاتبنا الأديب الأستاذ عبدالوهاب مطاوع .

والمؤلف الكريم ذو ثقافة متراحبة تأخذ من كل شئ بطرف ، تمتد ببصرها إلى التراث وتطمح إلى الثقافة الأجنبية ، وبخاصة القصة القصيرة أو الرواية ، وقد تغدو بعض قصصه أو صوره «تناص» مع القصة أو الحكاية الواقعية ، ويعجب المرء أحيانًا كيف تسعف الكاتب الفاضل قريحته أو ذاكرته فتطاوعه فى اقتباس الشاهد ، ولايتأتى ذلك إلا بالبداهة الحاضرة التى تعيش ماتقرأ ، ثم يقر فيها هذا الرصيد المطاوع ، فيحل الشاهد محله المحتوم ، ويروق هذا الصنيع أكثر فى اقتباس الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف ، أو التراث القديم شعره ونثره جملة ، وكأن هذا الشاهد قيل فى المناسبة الحاضرة كما قيل فى المناسبة القديمة .

وقصصه التى جعل لها عنوانًا فرعيًا (قصة قصيرة) نمط من القصة المحبوكة ، حتى ليخيل لقارئها أنها حدثت واقعًا ، من شدة مطابقتها للواقع ، ولكنه الواقع الفنى ، دون وقوع فى أشراك السذاجة التى تنضح بها «الحدوتة الواقعية» أو أشراك الإغماض التى يولع بها صغراء العقول والأذواق ممن يتعاطون فن القصة ، دون أن يكونوا مؤهلين لها .

والأستاذ عبدالوهاب مطاوع رجل مستقيم الطبع ، مفطور على الخير ، وحب

الإنسانية ولذا تراه يجود فنه حين تعمل هذه الفطرة عملها ، حتى وإن صور رذائل الناس ، وصغائر النفس لأنه لايصورها إلا توقيًا ، ومتوخيًا الجمال الذى يطهر من خلال الفن الجميل ، وهو حين يحلل هذه النواقص إنما يحللها بفكر يتقصى أسرارها ونزعاتها ، كأنه يصنعها وإن كان بنجوة منها بفطرته النقية السليمة ، حتى وهو يقدم خبرته أو يلبس إهاب الناصح - والنصح عادة يثقل على المنصوح - ويخيل إليك أنه لاينصح أو يعظ ، بل يتسلل إلى وعيك ، فإذا بك تهتف قبله بما يهتف به ، ولعل خبرته العميقة بمشكلات الناس من خلال بابه بالأهرام منحته قدرة فذة على هذا الاستبطان وعلى هذه الثقة التى يمنحها من يحتاجها ، وربما كانت صوره القلمية أو ردوده على الرسائل تصلح مسبارًا جيدًا لفهم قضايا عصرنا الاجتماعية والإنسانية .

أما فصوله الأولى حين يصور طبيعة البخل وغريزة البخيل وحيله ، فإننى أستأذنه فى أن أجعلها «حاشية» عصرية لبخلاء شيخنا الجاحظ ، دون أن أفتئت على حق عبدالوهاب مطاوع أو حق الجاحظ ، ولولا أننى أعرف المؤلف وكرمه لقلت : إنه «بخيل» من شدة إتقانه تصوير البخل والبخلاء !!

وأستأذنه أيضًا فى أن أجعل العنوان «وقت للسعادة ، وقت للحزن» لأن من البكاء مايكون باعثه السعادة ، ونحن نقول : دموع الفرح ، وكنت أتمنى أن ترسم الآيات القرآنية بالرسم العثمانى كما فى المصحف ، لكنى أستأذنه فى أن أعلن أن سعادتى بالكتاب وصاحبه فاقت أوقاتها أوقات الحزن أو البكاء إلا إذا كان بكاء الغبطة والرجاء .

كابوس الإرهاب وسقوط الأقنعة

الكتب بما تثيره ، وبما تحتويه ، كتاب «كابوس الإرهاب وسقوط الأقنة» للأستاذ إبراهيم نافع . . يثير جملة من القضايا الحيوية ، ويحتوى على جمهرة من المسائل، مشفوعة بعرض دقيق ، وبصيرة نافذة ، تستقرئ الماضى ، وتنفذ من خلاله هو والحاضر المعاش إلى المستقبل ، ولعل فى عنوان الكتاب مايشى بموقف المؤلف : فالإرهاب كابوس ثقيل ، لا مساومة فى هذه التسمية ، كما أن سقوط الأقنعة دلالة واضحة على أن هذا الكابوس قد أسفر لذى عينين ، فلا عذر إذن للإرهاب وأصحابه ولا العاطفين عليه .

والأستاذ إبراهيم نافع ، رجل بحكم موقعه قريب من مركز الأحداث ، ومشارك فيها بفكره ورأيه ، ويبدو هذا جليًا فى استقرائه للأحداث المعاصرة ، وإحصاءاته التى تقطع دابر الريب ، وقد يكون المرء قريبًا من هذا المركز ، لكن فكره لايسعفه أن يرى الأحداث ويمحصها ، ويبين غثها من سمينها ، أو أن فكره مبتلى بآفة الهوى ، والتعصب الذميم لفكرة مسبقة يلج بها إلى موضوعه ، لكن الأستاذ نافع ينجو من كل هذه الآفات ، التى تفسد الرؤية وتؤولها إلى ماتهوى ، بل كان يستند إلى فكر محايد ، براء من النظرة الضيقة ، وقد وضح هذا فى كل سطور الكتاب .

فى الكتاب فاتحة تاريخية عن الإرهاب قديمًا ، ووقفة لدى بعض الغلاة من الخوارج ، وموقف الدولة منهم . . وكنت أود أن يتسع هذا الحديث ليشمل تاريخ الجماعات الإسلامية المعاصرة ، والتى مارست الإرهاب بدءًا من غلاة الإخوان المسلمين ، واغتيالهم لبعض أفراد الأمة وكيف أن هذا الفكر المنحرف الذى تحول إلى رصاص ، له جذور عند غلاة هذه الجماعة . . فلاريب أن هذا الحديث له فائدة لبيان الفكر المشبوه ، المصحوب بالعمل المشبوه أيضًا ، والذى لايراد منه وجه الإسلام ولا المسلمين ، بل تشويه هذا الدين ومعتنقيه ، وإن كان الأستاذ نافع قد أشار إلى مثل هذا فى إشارات ، وضحت ارتباط هذه الحركات بأعداء الإسلام

والمسلمين ، وبمركز التبشير والمخابرات ، حتى يخيل لقارئ الكتاب أنهناك علاقة غريبة تجمع كل هذا التنافر الشكلى ؛ إذ كيف يجتمع أعداء الإسلام مع هذه الحركات المسلمة ؟

والجواب يسير إذا نظرنا نظرة واقعية ، فهذه الحركات لاتفعل شيئًا منذ أمد بعيد، إلا أن تقدم هذه الرؤوس اليانعة إلى السيف أو السجن ، وربما لاتكون هذه الرؤوس على علم واضح بما يراد منها ،، ولعل أصابع الشيعة المغالية وراء شيء كثير من هذا . . ربما تثبته البيانات فيما بعد ، وهذا التصور قائم على استقراء الأحداث ، التى تعيشها هذه الحركات شكوك واهم .

كتاب «كابوس الإرهاب» ضربة قاضية لهذه الحركات وأصحابها ، وبيان شاف لهذا الوجه الشائه الكريه ، وتعرية لمن يمالئون هذه الحركات حتى بالصمت . . وكاتب هذه السطور يدرك جيدًا ، أبعاد هذه الممالأة ، بل والتدليل أحيانًا ، لهذا «الإسلام البدوى» على رأى الشيخ الغزالى، الذى يراد فرضه على مصر ، والذى يري حرمة دراسة القصيدة الغزلية ، ويرى شعر سيد قطب ذنبًا تاب منه صاحبه ، ويرى أيضًا أن مبيت كتاب «المرأة فى القرآن الكريم» للعقاد فى دار قارئه إثم عظيم!

هذا هو الفكر ، الذى يراد له أن يمحو الفكر الإسلامى المستنير ، وهو الفكر الخرف المظلم الذى يلبس مسوح الإسلام ، ولايرى إلا عذاب القبر ، وتقصير الثياب ، وإطالة اللحى ، وحديث الحيض والنفاس . . غافلاً عن وجه الإسلام الحضارى العظيم !

وللأستاذ نافع نظرات ناقدة فى سياق الحديث . . مثل وقوفه عند إرهاب الفكر السريالى ، والدادى ، وليته توقف عندنا . . لدى الإرهاب الذى نحاربه بوجوه ممسوخة ، وأقلام أصحابها فى مستوى الريب ، مدعين التنوير ، ويملأون الساحة ضجيجًا بفن هابط ، سواء بالكلمة المكتوبة أو المسموعة أو المرئية ومثل هؤلاء يرتدون الإرهاب .

الأستاذ نافع يعرض المشكلة ويقدم لها الحلول المناسبة ، ولايترك قارئه فى حيرة، فيعرض مثلاً مشاكل الأمن مشفوعة ببيان الحل المناسب لرجاله ، واستخدام

الأجهزة الحديثة وتطويرها ، كما يعرض لجذور الإرهاب باحثًا عن الحل الأمثل لهذا الشباب ثقافيًا ودينيًا واقتصاديًا وتعليميًا .

وقوة العارضة ، ومقارعة الحجة بأنصع منها . . آية بارزة فى هذا الكتاب ، لاسيما فى الفصل العاشر «مع من نتحاور ؟» والذى يناقش فيه الأستاذ حسن دوح، والمرحوم جلال كشك . .

والمؤلف هنا على حق كثير ، فالحوار أداته الكلمة والدليل ، أما إشهار السيف لا يجدى حجة ولامناقشة .

والكتاب فى مجمله حوار هادئ متعقل ، حين يرفض الحوار مع الجماعات الإسلامية ، التى ركبت هذا المركب الوعر فلتتحمل نتائجه ، وحسب القارئ الذى يرى هذه الفتنة غير المسلمة التى تحارب الناس وأرزاقهم ، وتقتل الأبرياء ، وتثير الفتنة الطائفية ، وتستحل ماحرم الله ، ولم تعمل مثل الخوارج القدامى ، حين قابلوا واصل ابن عطاء وبينهم عداوة ، فاضطر أن يقول لهم وهم لايعرفونه هو وجماعته أنهم مشركون ، ليطبقوا قوله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه» وقد أجاروهم وأسمعوهم كلام الله، وأبلغوهم مأمنهم .

وفى الكتاب فقه حصيف لدور مصر ، وكيف أنها مستهدفة حتى من شقيقاتها، وحسب القارئ أن يعلم أن كثيراً من كوارث الأمة العربية والإسلامية تحملتها مصر حين تكون قوية ، ولم تسقط الأندلس - مثلاً - إلا حين كانت مصر تعانى العجز والتخلف ، فإذا كانت دعوة الأستاذ نافع لمساندة الشقيقات لمصر فإنما هى دعوة لمساندة هذه البلاد نفسها ، كما قال المؤلف مستقرئًا التاريخ بدقة .

هذا الكتاب جملة من الكتب فى غلاف واحد ، فى حاجة إلى دراسة مستقصية، تناقش وتحلل ، حتى وإن اختلفت . وقد قلت فى صدر هذا المقال إنه يثير جملة من القضايا ، فوق مايحتويه ، ومن ثم فإن قيمته الجيدة نرجو ألا يغض منها تلك الهنات الهينات من الأخطاء المطبعية ، ولعلها ترجع إلى ماتعم به البلوى التى تصاب بها الكتب الجيدة فى كل زمان ومكان .

[فى الأدب واللغة] للدكتور أحمد هيكل

عجالة متأنية ، يبدو لقارئها من وجازتها أنها حصاد السرعة ، إلا أنها عند التروى تبدو حصاد سنوات طوال فى معالجة الأدب واللغة ، ومكافحة القضايا الناشبة حولهما ، يتشح ذلك كله بثوب تعبيرى مقدود على قدها ، وفى الظهارة غيرة موزونة لايشب لافحها فيكون نارًا ، ولايخبو ضارمها فيئول رمادًا ، وحسب مؤلفها نور يتخلل كلماته فيضئ ويهدى .

يحتفل الدكتور أحمد هيكل بكل مايكتبه : كتبًا مبسوطة أو مقالات مقتضبة ، لأنه يعالج همومه الثقافية بنفس واحدة ، بل ربما يحتشد للكلام الموجز أكثر مما يحتشد للكلام المبسوط ، والروح السارية واحدة فى المجالين ، وهى روح شديدة الحساسية للكلمة .

«فى الأدب واللغة» حصاد سنوات النضج والاستواء ، تحدث فى القسم الأول فى أحد عشر مبحثًا عن الأدب والتجربة ، والأدب والمتلقى ، وقضايا التجديد والموقف من التراث ، وثورة يوليو والأدب ، وجامعة القاهرة ونهضة الأدب ، وماذا بقى من كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين ، وكلها مباحث تعكس همًا واضحًا بمشكلات نقدية ، لاتزال تثار حتى الآن ، والمؤلف مائل إلى التجديد ونحن معه ؛ إذ هو التجديد الموزون الذى يفيد من التراث ، ولايسد منافذ التجديد والعصر ، وله رؤيته الدقيقة فى مسائل الغموض والألغاز التى شاعت الآن ، وكان مبلغ قوله : إذا كان الأديب يكتب لنفسه ولايعبأ بالمتلقى ، فلماذا ينشر مايكتبه على الناس .. خير له أن يريح نفسه ويريح الآخرين أو كما قال ، وهى وجهة نظر حرية بالتقدير ، وفيها من المجابهة شيء كثير ، لكن صياغة الأستاذ لاتجد فيها التجاور ، الذى يقفز من أقلام كثيرة تشاركه هذا الرأى .

وللدكتور هيكل رأى حسن فى قضية الأصالة والمعاصرة ، لعله يسمح لى بأن أقول للقارئ ، لا له ؛ إن الأصيل معاصر بالضرورة لأنه بعيد عن التقليد وتشويه

المسخ ، ولذلك أرى أن «العطف» لا لزوم له بين «الأصالة والمعاصرة» إلا إذا أردنا الفرق الزمنى ، لاالفرق الاصطلاحى ، وأعتقد أنه يقصد هذا غير بعيد عنه .

أما حديثه فى اللغة فيعكس وعيًا حصيفًا وحـزنًا عميقًا نشاركه فيهما ، يتحدث عن ضعف المسـتوى اللغـوى ، والملكة اللغوية ، والمناهج فى المراحل التـعليمـية المختلفة وسلبيات المعلمين ، واللغة ومقومـات الشخصية القومية ، ويحس القارئ بالمقارنة الآسية والموسفة بين حـال اللغة الآن ، وحالها فى الماضى القريب ، وبين رجالهـا الآن ، ورجالهـا من جيل المؤلف وأسـاتذته ، وصالح المقـارنة فى صف الجيل السالف .

يطالب المؤلف الكبير بالعودة إلى الطريقة القديمة فى تعليم الأبجدية لا الطريقة الكلية ، التى نعانى منها الآن ، والتى خرجت أجيالاً لايحسنون نطقًا ولانحوًا ولا أدبًا ، وأن سنوات التعليم المدرسى فى اللغة القـومية لاتخرج طالبًا يحسن التـعبير عن نفسه بهذه اللغة ، وقد زادت البلوى بالهبوط الذى حدث للمعلمين ولانحسب الأستاذ الكبير ضد تحديث وسـائل التعليم ، لكن الحال معها لايسر ، والمؤلف مع طريقة تعليم العربية من خـلال النصوص الجيدة واستخراج قواعـدها نحوًا وصرفًا وبلاغة ، هذا هو الأساس الأول الذى لانقحم معـه دراسة الأصوات وفقه اللغة ، واللغات الشرقية ، وخلافات الأساتذة مـادام الطالب لايعرف نطق لغته ولا التعبير صحيحًا ، كـما عرج الأستاذ على أقسام اللغة العـربية المتخمة بأشياء لهـا أهميتها وحدها لكنها لاتخدم قـضية العربية ، وربما نقف عند كليات التربيـة بصفة خاصة التى تخرج متخصصين فى العربية درسـوا قشورًا فيها ، وأتخموا بمناهج التربية ، والمناهج ضرورية ، لكن لابد من وجود بضاعة أولاً قبل حسن عرضها .

وربما نتساءل مـع الأستاذ الكبير الذى يـرى تقديم العصر الحديـث عن العصور القديمـة فى الأدب ، مرتئيًا نوعًـا من تحبيب الطلاب فى نماذج سهلة من الـعصر الحديث ، وهو طيب . . لكنه ربما يفوت على الدارس مسـألة الترتيب والتأثير فى اللاحق الذى تحققه الدراسة الحالية ، وهى مسألة هامشية بجانب القضايا الكبرى ، التى عالجها الكتاب الذى يمثل خلاصة نقية وبصيرة لأستاذ كبير أنفق عمره المبارك - ولايزال - فى خدمة الأدب واللغة إبداعًا ونقدًا ودرسًـا وتحقيقًا وتعليمًا ، ولعل

صيحته المخلصة المثقفة لاتذهب سدى فى وقت ، نحس فيه بأن لغتنا تتهددها أعاصير الضياع من كل جانب ، ومن جانبنا نحن أولاً ، ونحن نهيب بالمؤسسات أن تنقذ هويتنا (لغتنا)، وتحية لأستاذ من جيل نادر ، وهب حياته لخدمة لغته فأثابته بالحمد الشاكر .

موازنات حول كتاب
[محمد رسول الحرية]

نمط من التأليف ذاع منذ ثلاثينيات هذا القرن ، يحتكم فيه ذووه إلى التراث ، متكئين عليه ، دون أن يستغرقهم هذا التراث ، إلا بقدر مايصب فى اتجاههم المحدث ، أو بمعنى آخر أنهم يفسرون هذا التراث وفق وجهة نظرهم الجديدة ، دون أن يفسروه على تفسير موحد ، بل حسبهم أن هذا التراث يتيح لهم - لثرائه وتعقده - هذه النظرة التى ينظرون .

وقد غشى الناس - وربما لايزالون - غاشية تشبه الصدمة ، فباتوا أحد رجلين فى الأعم الأغلب : رجل حصر نفسه فى الموروث لايتعداه ، أو حصره ذلك الموروث ، فآض ينظر بعين أسلافه ، وآخر اتسعت حدقته فلاينظر إلا إلى الوافد دهشة وعجزاً واستخذاء ، وبات ماضيه لايمثل له شيئاً .

بيد أن هذه الغشاوة ماعتمت حتى انقشعت ، فرأينا ذلك الفريق الثانى - فى مجمله - يثوب إلى جذوره ، بعد زوال حماسة الشباب واندفاعه ، إلا أنه يزيل عن تلك الجذور ما ران عليها من صدأ السنين ، وغبار الجمود والتقليد ، لتغدو شيئًا يدخل فى نسيج الحياة المعاصرة ، وذلك جزء جليل من المهمة التى قام بها هذا الفريق ، وأصبح وافدهم المحدث فى خدمة موروثهم الأصيل ، دون خشية الاتهام بالتخلف والرجعية .

لقد كانت معركة القديم والجديد تثير كثيراً من الجدل ، وتغشى البصائر والأذواق بظلال كثيفة من الحيرة ، فغدت دعوة الفرعونية ، ودعوة الجديد الرافض القديم أيّا كان ، وغدا الشك فى هوية الأمة ، هم كل داع إلى هذا الجديد ، حتى ولو كان فاسداً وانزوى الجامدون من ذوى الموروث يصمون آذانهم عن أية دعوة ، حسبانًا منهم أن وراءها بلايا ضخمة تهدد كيان الأمة ولغتها ودينها ، وكل فريق يغالى بما لديه ، ولايكاد يرى كوة من الضوء تزيل غاشية الظلام هذه ، إلى أن فاء

جمهرة من مثقفى هذه الفترة - وكانوا يولون وجوههم صوب الغرب أولاً - إلى ظلال اليقين ، وبرد الحقيقة .

كانت دعوتهم صاخبة تكاد تهدم كل شئ فى طريقها ؛ لأنهم صادقون مع أنفسهم ، ولأن غزارة الشباب تقودهم إلى هذا الطرف الآخر ، حتى رأوا أن الجديد الوافد لايستقيم إلا على أساس من الماضى الحى والصالح للحاضر .

فى تلك الآونة ، اتجه الدكتور محمد حسين هيكل إلى الكتابات الإسلامية ، يكشف فيها جوهر هذه الأمة ، يعيد الصياغة والتركيب فى مؤلفاته «حياة محمد - الصديق أبوبكر» إلى آخر هذه الدراسات المحدثة التى كتبها إبان النضج والاستواء ، وجاء معه العقاد ليكشف عن عظمة الإسلام ، وعظمة رجاله العباقرة «محمد ، أبو بكر ، على ، عثمان ، خالد» إلى آخر هذا الطراز ، ومضى طه حسين يتفنن فى إبداء صورة رائعة للشيخين ، ومرآة الإسلام ، والوعد الحق ، ونظر توفيق الحكيم إلى أهل الكهف ، ومحمد فى إطاره الذى عرف به ، وهو المسرح أو الحوار .

ثم خلف من بعدهم خلف ، وجدوا الطريق ذلولاً والعقول مهيئة لتقبل مايقولون ، من أبرزهم الراحل عبدالرحمن الشرقاوى ، الذى رأى فى «محمد» رسولاً ومبشرًا بالحرية ، وكل واحد ومنهجه الذى يتفق وأمياله الفكرية ، ومنازعه الأدبية .

وقد راقنى أن أعقد طرفًا يسيرًا من الموازنة بين هيكل والعقاد ، والشرقاوى فى مؤلف واحد هو «محمد» القاسم المشترك فى عناوين كتبهم .

السيرة النبوية - بلاريب - هى الأساس الذى تورك عليه كل كاتب منهم ، فهى قابعة خلف المنظر ، وإن كانت تتقدم أحيانًا وبنسب متفاوتة ، ونعتقد أن هذه السيرة بادية بوضوح فى كتاب هيكل «حياة محمد» ؛ فالرجل يحاول أن يرسم صورة لمن يؤرخ له ، وهو باعتباره محاميًا ومن رجال القضاء نضحت هذه الصفة تمامًا ، فوضع مصادره أو حيثيات القضية بين يدى الكتاب ، مشتملة على قائمة وافية من المراجع العربية والأجنبية ، وكأنه يدل على القارئ بما يملك ، وله الحق

كل الحق . . وهذه المصادر استطاع الكاتب أن يفيد منها مايصلح به موضوعه ، وحاول خلال ذلك كله أن يدحض كثيرًا من المفتريات ، التى أشاعتها الكتابة المغرضة ، غير أنه دخل معركته أو «قضيته» وهو ضامن فيها الفلج والنصر ، حيث إنه محام معرق فى صناعته ، وهو لايتوارى خلف النصوص الوثائق ، بل يتقدمها ، ولم يتوارى وله الحجة البالغة ؟ ثم إنه عارف مدى الوهى فى أسلحة خصومه ، فيطعن فى مغمز ، ويقول لقارئه : هنا حياة رجل عظيم ، بشر ، إلا أنه يوحى إليه ، ولايظنن ظان أنه يتوجه بكتابه إلى القارئ المنصف من أى دين ، أو من لادين له . . صحيح أنه ولج إلى القضية من منطلق إيمانه بالنبى محمد ، بدليل طرز عنوان كتابه بالآيات الكريمة «إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ، وسلموا تسليمًا» ، لكن صحيح مثله أنه يعتقد أنه موجه إلى من بغى الحق لوجه الحق ، كما استطاع الدكتور هيكل أن يرسم هذه الصورة العظيمة ، مدافعًا عنها بحكمة الإنسان العارف ، وببصيرة المؤمن الخاشع، وبلوذعية المحامي النبيل الشريف ، ومن ثم تنجح رسالته فى تقديم «حياة محمد» بشرًا ، يوحى إليه ، يقول فى مقدمته : ولذلك فكرت فى هذا وأطلت التفكير - «فى حال العالم مسلمًا ومسيحيًا» - وهدانى تفكيرى آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الإسلامية ، وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الجاحدين من المسلمين من الناحية الأخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده ص١٧ .

تلك الطريقة العلمية هى التى يتوخى منها المؤمن فحسبه أن يزيد يقينًا إلى يقين، وأن يدرك أن الإيمان ينهض على فكر سديد ، وأن الفكر القويم يهدى إلى الإيمان ، حتى ولو بالحق وحده .

أما العقاد . . فقد حاول أيضًا أن يرسم صورة لإنسان عبقرى عظيم . ولايتوهمن متوهم أنه يريد أن يسلخ عن محمد صفة الرسالة أو النبوة ، بل يريغ قبل كل شيء أن يهدى قارئه إلى عبقرية عظيمة ، لاتتأتى إلا لمن بلغ عليا مراتب الأنبياء ، ونعتقد أن العقاد منذ بداياته الباكرة كان ثائرًا متزنًا فى مناحى فكره وإبداعه ، ربما يغلظ القول ، لكن الجوهر الحقيقى كامن لديه ، حين تنفض هذه

الغلظة ، ولم يكن من المارقين فكريًا حتى مع جموح الشباب وشرته ، يشرح العقاد منهجه فى «عبقرية محمد» عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التى حفلت بها «المكتبة المحمدية» حتى الآن .. وليس الكتاب شرحًا للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعًا عنه أو مجادلة لخصومه .. إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار ، الذى يدين به كل إنسان ولايدين به المسلم وكفى ، محمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس ، عظيم لأنه على خلق عظيم» .

ومحاولة العقاد بيان هذه العظمة اللازمة فى هذا العصر ، إنما ليدين شيوع الحقوق العامة وإغراء صغار الناس بإنكار الحقوق الخاصة والفردية ، وكأنه يلمح إلى سوء فهم الاشتراكية أو الشيوعية ، التى تنسخ مثل هاته الحقوق الخاصة والفردية ، وكأنه يلمح إلى سوء فهم الاشتراكية أو الشيوعية التى تمسخ مثل هاته الحقوق للعظماء ، ويرى أن عبقرية محمد قيمة فى النفس ، قبل أن تبرزها الأعمال ثم يقول : فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية وميزان العمل وميزان العقيدة.. فهو نبى عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم ص٨-١٠ .

ويمضى العقاد يحامى عن محمد ، وأصحابه من بعده بالمنهج العلمى الأخلاقى الذى لايفسر العلم لمصلحة الأخلاق ، بل يكونان متوازيين عنده لرسم الصورة العظيمة ، وتقديم محمد بهذه الصفة - يخول له مكانًا لدى القارئ غير المسلم قبل المسلم ، خاصة إذا أدركنا منطق العقاد الصارم ، وهذا المنطق هو السمة الغالبة فى هذا الكتاب ، ولكنه المنطق الذى لايلغى الضمير والإحساس ، بل يسوغ وجودهما ، وإن كانا يضعانه فى خدمة الإقناع ، وقد شن العقاد كل أسلحته فى الجدل فى الرد على خصوم محمد الإنسان قبل النبى ، وقد أشار إلى ذلك فى مقدمته حيث دافع عن السيف وعن الزوجات المتعددة فى حدود العقل لا من جهة النقل ، ونعتقد أن القارئ المنصف غير المسلم لايسعه إلا أن يهتف مع كاتبه : حقًا أن محمدًا عبقرى ، وإن كنا لانؤمن إيمان المسلمين .

وكتاب «محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشرقاوى ، حاول صاحبه أن يسلك قريبًا من الطريق العقادى ، فقد ركز منذ السطر الأول على أنه «لايقدم كتابًا

جديدًا فى السيرة ، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة والحديثة . . ولكنى أردت أن أصور قصة إنسان ، اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال ، ودفعت سلالات من الأحياء فى طريق التقدم ، واكتشف آفاقًا من طبيعة الحياة والناس» ص٧ ، ثم يقول : «لسنا فى حاجة إلى كتاب جديد عن الدين يقرأه المسلمون وحدهم . . ولكننا فى حاجة إلى مئات من الكتب عن التطور ، الذى يمثله الإسلام . . كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين ، تصور العناصر الإيجابية فى تراثنا ، وتصور ماهو إنسانى فى حياة صاحب الرسالة . . إننا بحق فى حاجة إلى مئات من الكتب يقرأها الناس كافة الذين يؤمنون بنبوة محمد والذين لايؤمنون» ص٩ .

ثم يحدد دوره أكثر أو منهجه إن شئنا : أحرام علىَّ أن أكتب لغير المسلمين عما فى حياة محمد من روعة وبطولة وإنسانية وخطر ؟ . . . فقدمت هذا الكتاب الذى اخترت له الشكل القصصى لاشكل البحث ص١١ .

حاول الشرقاوى كما قلنا أن يقترب من طريق العقاد ، وهو بالطبع بعيد عن طريق هيكل المؤرخ والمحامى ؛ لأن طريق العقاد أقرب إلى الشرقاوى الأديب والمبدع فكلاهما شاعر وقصصى على بعد مابينهما فى طريقة الفكر والإبداع ، وقد اقترب الشرقاوى من الشكل القصصى ونقول اقترب ؛ لأن كتابه ليس قصة بالمعنى الاصطلاحى ، وإن كان فيه أمشاج من القصص ، هدف العقاد والشرقاوى قريب من قريب فى التوجه إلى القارئ المنصف غير المسلم . . تلك غاية نبيلة ، نعتقد أن العقاد أصابها أكثر من الشرقاوى نظرًا للفكر الصارم ، والمنطق اللازب الذى تسلح به العقاد ، ونعتقد أيضًا أن القارئ غير المسلم فى ذرعه أن يلبس قميص الكتاف مع منطق العقاد ؛ لأن المنطق الإنسانى واحد ، وإن كانت العاطفية سارية فى تضاعيف هذا المنطق ، لأنه ببساطة منطق إنسانى .

أما الشرقاوى فسلك طريق العاطفة مما يصلح للشكل القصصى الذى ارتآه ، وإن كانت الفضفضة الأسلوبية سارية فى تضاعيف هذا الشكل ؛ مما يمثل حركة بطيئة فى نمو الأحداث ، لقد ولج الشرقاوى إلى هدفه بأسلوب العاطفة قبل المنطق

الذى توارى إلى حد بعيد جداً عنده ، وهذا الأسلوب حين يترجم ربما يفقد شيئًا من مائيته ورونقه فى لغة أخرى .

والشرقاوى أيضًا سار فى طريق معبد ، وإن كان يحاول أن ينفرد بشيء ما فى طريقته ، حيث استخدم الشكل القصصى ، كما استخدم الحكيم شكل الحوار ، وقد أراد الشرقاوى أن يخاطب وجدان - لاعقل - القارئ غير المسلم ، بيد أنه طرز كتابه بقوله «رسول الحرية» . . فكلمة «رسول» ربما تقف عائقًا أمام القارئ غير المؤمن بهذه الرسالة ، وربما أراد بها المؤلف مجرد المعنى اللغوى للرسالة ، لكنه يوحى بهذا المعنى الذى هرب منه المؤلف حين اتجه إلى القارئ غير المؤمن ، وفى الكتاب التزام بالمعنى الأدبى أو الأيديولوجى ؛ حيث حصر وظيفة محمد فى تحرير الرق والعبيد ، وتحرير الضعفاء ، وهى إحدى جوانب هذه العظمة ، إننا لانستطيع أن نخلى «محمدًا» من هذه الصفة «النبوة» ، ولو رغمت أنوف فهو «بشر مثلكم يوحى إلىَّ» والآية القرآنية حاسمة فى هذا ، فلزم لمن يريد أن يقف على عظمة «محمد» أن يعرفه من حيث الإنسانية والنبوة ، وإن لم يؤمن بها ، أما محاولة سلخ الصفة «يوحى إلى» فمقضى عليها بالإخفاق حتى بالنسبة للقارئ غير المؤمن . وحسبه أن يرى هذه الصورة : محمد : الرسول ، ونعتقد أن الشرقاوى محاولة منه للتجرد ومخاطبة القارئ غير المؤمن - أراد أن يركز على صفة البشرية، وهى عظيمة بالطبع - فأوهم قارئه غير المتيقن ببعض الريب والشكوك ؛ خاصة وأن محمدًا فى شبابه خالط زيد بن نفيل وأبو بكر الصديق الكاتب والعارف بالأخبار ، وهى ليست فى صالح الفكر والإنصاف.

لكن بحسب الشرقاوى أن ولج هذا الطريق القويم من إحياء التراث فى شكل عصرى وروح عصرية ، لبست ثوبًا من القصص فى أسلوب أخاذ ، عرف به المؤلف شاعرًا وناثرًا، وحسبه أيضًا هذا الاعتدال بين المحافظة والتجديد ، ولعل القارئ يحمد رحلته مع هذا الكتاب مؤمنًا أو غير مؤمن ، وأن يؤمن بعظمة هذا الإنسان العظيم (محمد رسول الله) .

حسين شفيق المصرى

هو حسين شفيق بن محمد أفندى نور المصرى . ولد بالقاهرة عام ١٢٩٩ هـ الموافق سنة ١٨٨٢م ، من أصل تركى ، كان والده يمتلك كثيرًا من الدور والأرض . منها عزبة كان يقيم فيها بقرية «عرب الغديرى» بمديرية (محافظة) القليوبية ، وقد أضاع أبوه هذه الثروة فى مظاهر العظمة التى طبع عليها الأتراك .

أما أمه السيدة «إقبال هانم» فقد عمرت طويلاً حتى رأت ابنها من أكبر كتاب وشعراء مصر ، وتوفيت عام ١٩٢٢م .

لم يتح لحسين شفيق المصرى أن يتم مرحلة التعليم الابتدائى ، التى تلقاها بمدرسة أم عباس ؛ لأنه أصيب خلالها بمرض فى عينيه ، فانقطع عن الدراسة ، وعولج بعلاج أهل الريف ، فكاد يذهب بصره ، بل لقد ذهب بصره فى صغره فعلاً ، ثم عاد إليه شيئًا فشيئًا ، وعاش الشاعر ضعيف البصر . لكنه كان قوى البنية ، بيد أن بصره ذهب قبل وفاته بعام وبعض عام .

عكف حسين - وهو صبى - على قراءة كتب الأدب والشعر ، ودرسها دراسة رغبة وشغف ، حتى أصبح حجة فى اللغة ، ومرجعًا فى الأدب ، ولقد كان أحمد شوقى يعهد إليه أن يجمع أوزان الشعر غير المطروقة . وأن ينظم له أمثلة من وزنها ليحييها شوقى فى شعره ، وربما كان وزن «المقتضب» و «المحدث» ، الذى نظم منه شوقى ، بإيحاء من حسين المصرى .

ومرت فترة اضطر بعدها إلى طلب الرزق ، فاشتغل مصححًا بمجلة طبية ، وكان كالعهد به يتجاوز مهمة التصحيح اللغوى إلى تصحيح أسلوب كتاب المجلة؛ لأن أغلب كتابها من غير المتخصصين من الأطباء .

ثم عمل مع «خليل مطران» فى جريدته «الجوائب» المصرية التى أنشأها عام ١٩٠٣م ، كما اشتغل مع «محمد بك مسعود» و «حافظ أفندى عوض» فى جريدة كانا يصدرانها معًا ، اسمها «المنبر» سنة ١٩٠٩ ، وعمل فى «الأفكار» سنة

١٩٠٥ ، و «مصر الفتاة» ١٩٠٨ و «مصر» سنة ١٨٩٨ و «الرقيب» سنة ١٩١١ اليومى مع جورج طانيوس .

وقد ظهرت فى مصر طائفة من المجلات الأسبوعيةكانت تعيش على مدح الأثرياء أو ذمهم بأسلوب ساخر ، فاشترك فى تحرير بعض هذه المجلات ، وقد أصبح كاتبًا متميزًا له أسلوبه الساخر الناقد المترع بالسخرية ، ومن هذه المجلات : «الشجاعة» ، و «الخلاعة» سنة ١٩٠٣ ، و «المسامير» سنة ١٩٠٩ ، و «السيف» سنة ١٩٣٠ .

وأخيرًا اشترك مع «حسين على» فى إصدار «السيف والناس» ١٩٣٠ ، وأخذ يبتعد بها قليلاً قليلاً عن الهجاء الشخصى حتى نقاها من هذه الأمور الشخصية ، وجعلها المجلة الأولى للفكاهة والسياسة والأدب .

وأسهم فى سنة ١٩٢١ ، ١٩٢٢ فى التأليف المسرحى ، فوضع لفرقة الريحانى كثيرًا من مسرحياتها الناجحة ، مثل : «آنست» و «أفوتك ليه ؟» و «ريا وسكينة» وغيرها .

وفى سنة ١٩٣٥ ، اشترك فى تحرير مجلة «الكشكول» ، ولقيت مقالاته «دائرة المعارف الوفدية» أكبر الإعجاب ، كما اشترك فى تحرير مجلة «كل شئ» ، وكانت مذكراته التى نشرها بعنوان «مذكرات فضولى» أحب فصول المجلة إلى القراء .

وفى سنة ١٩٢٧ تولى رئاسة تحرير مجلة «الفكاهة» ، التى أسسها آل زيدان ، حوالى أربعة عشر عامًا ، فجعل منها فتحًا جديدًا فى عالم الصحافة الفكاهية الراقية ، واستغل إمكانات دار الهلال أفضل استغلال فى ذيوع مجلته .

أما شعره . . فيتوزع بين الجد والفكاهة، أما الفكاهة - وهى أهم أبواب إبداعه - فينتظمها ما سماه «المشعلقات» على غرار «المعلقات الجاهلية» ، وهى طريقة فى نظم الكلام الضاحك على أوزان وقوافى المعلقات كمعلقة امرئ القيس وطرفة بن العبد ، وزهير والحارث بن حلزة وغيرهم من أصحاب المعلقات ، فإذا قال طرفة مثلاً فى مستهل معلقته :

لخـــولـة أطلال ببـــرقـــة ثهـــمــد

تلوح كـبـاقى الوشم فى ظاهر اليـد

يقول حسين شفيق المصرى :

لزيـنـب دكـــان بـحـــارة منجــــد

تلوح بهــا أقـفـاص عـيش مــقـدد

ويسمى هذا اللون من الشعر «الشعر الحلمنتيشى» أو «الشعر المطعم» أى الشعر الذى يجمع بين الكلمات الفصيحة والكلمات العامية ، ولم نر مصدرًا يحدد هذا المصطلح «الحلمنتيشى» ولامن أين جاء ، بل ربما كان نحتًا صنعه الشاعر ، ولايقترن هذا الشعر المطعم بوجه شبه بينه وبين الموشحات ، التى تكون «خرجتها» أى نهاية «القفل» بها عامية أو رومانيثة من عامية أهل الأندلس ؛ لأن «الخرجة» فقط هى العامية ، وبقية الموشحة كلها فصيحة ، وليس فيهما غالبًا فكاهة كما هو الحال فى كلام شفيق المصرى ، الذى توشحه الفكاهة فى كل القصيدة التى نظمها وثمة ضرب آخر من هذا الشعر ، نظمه حسين شفيق المصرى على غرار القصائد الذائعة قديمًا وحديثًا مثل قصائد ابن زيدون ومهيار الديلمى ، وشوقى وحافظ وعلى الجارم ، وله قصيدة فكهة ظريفة على غرار قصيدة الجارم بك ، ومطلعها :

مـــالى فـــتـنت بلحظك الفـــتـــاك

وسلـوت كل مـليـــــحـــــة إلاك

وقد غنتها السيدة أم كلثوم بتلحين الدكتور صبرى النجريدى ، ونشط المصرى يعارضها بقصيدته الذائعة :

وأرى الهـوى قـفصًـا وقلبى فـرخـة

إن أبصــرت ديك الجـمــال تكاكى

أنت القطـار على شـريط صـبـــابتى

وأنا بالسـبنسـة فى المســيـر وراكى

وله أيضًا مقطعات كثيرة ليست منظومة من أجل المعارضات أو المشعلقات ، بل

نظمها بداءة ، ومنها على سبيل المثال :

الحب أخـــرج مـقـلتى بصــبـاعــه
وأذاب قلـبى باللـهــيب بـتــاعـــه

ســـار الوبور إلـى بلاد أحـــبــــتى
ياليـــتنى مــتــشــعـــبط بدراعــه

وقد أسهم بنظم أزجال كثيرة ، كانت تنشرها المجلات فى ذلك الوقت .

وله شعر جاد رصين فى أغراضــه ولغته ، لكن شعره الفكه غلب عليه ، ونراه يدخل دائرة تاريخ الأدب به قبل أن يدخله بشـعره الجاد ، حيث له منافســون كبار يسبقونه ويبزونه ، ولكنهم جميعًا لايستطيعون مجاراته فى الفن الذى تفرد به .

وله نكت على البداهة عـرفت عنه ، وعرف بها ، منها أنه فى أخــريات حياته حين كف بصره ، كان يقوده صاحب له ، فلقيـه صاحب آخر ، وتعارفا فما كان من حسين المصرى إلا أن قال لهذا الصاحب : أعرفك بساحبى أى صاحبى .

أصدر الرجل أيضًا جريدة «الأيام» ، ولكنها لم تحـرز رواجًا ، ثم أقعده العجز إلى أن توفى فى ٢٦ من ذى القعـدة ١٣٦٧هـ الموافق يوم الخميس ٣ من سبتـمبر ١٩٤٨ ، بداره فى حى السيــدة زينب ، دون أن يترك مالاً ولا عقـاراً . ومؤلفاته قليلة ، منها :

«الحاج درويش وأم إسماعيل» قصة عامية مطبوعة ، و «ديوان شعر» لم يطبع ، ومؤلفاته المسرحية وهى وقتية لم تجمع فى كتاب .

ولكن قصائده وأزجـاله متناثرة فى صحف ومجلات ذلك الزمـان ، تحتاج إلى من ينهض بها فينشرها للناس .

وله مذكـرات ربما تكون غير مطبوعـة ، وكثيـر من أخباره سمـعناها من أفواه الأدباء ، مثل :

صالح جودت - والعوضى الوكيل - وعلى الجندى - وأحمد مخيمر وآخرين.

مصادر الترجمة

- ظرفاء وعظماء القرن العشرين - سيد صديق عبدالفتاح .

- الأعلام - للزركلى - المجلد الثانى - دار العلم للملايين - بيروت .

- أبو نواس الجديد . حسين شفيق المصرى : محمد صلاح الدين أبو بثينة، مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق .

[وهذا الكتاب مقدمة موجزة ، ثم طائفة من كتابات حسين شفيق المصرى ، وتشتمل على سبعة أبواب ، هى : المشعلقات - الشعر الحلمنتيشى - المقطعات على الربابة - الأزجال - الشعر الجدى - متفرقات] .

«أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر»

بين فصول هذا الكتاب جامعة سوغت أن يقرن بعضها ببعض ، وهى «مصرية» هؤلاء الأعلام ، التى نضحت فكرًا وسلوكًا يشى بهـذه «المصرية» ولاينكر عروبته وإسلامه ، بل كانت خير مزج تتوحد أشتاته وعناصره فى جوهر واحد .

ولعل الأستـاذ سامح كريم أدرك هذه الآصـرة ، حين عنون كتـابه «أعلام فى التاريخ الإسلامى فى مصر» ولم يقل «من» مصر ؛ لأن بعض هؤلاء الأعلام نبتوا فى تربة غـير مـصرية ، ولكن عطاءهـم احتـوته مصـر ، أو تأثرت به على أقل تقدير، وكان ثراها حاينًا على رفاتهم فى النهاية .

فى الكتاب كم هائل من الشخـصيات ، تتباين طبـاعهم ، وعطاءاتهم ، مابين قائد عسكرى ، وإمام زاهد ، وعالم يملأ طباق الأرض علمًا ، وناسكة تملى على الحياة سـلوكها الرفيع ، وشـهيد يضرب المثل للتـضحية والفـداء ، وقاض يرهب بعدله الحكام المتـخاذلين من صغار الحـاكمين ، بيد أن هذا الحـشد البالغ خـمسًا وسبعين شخصية يربطه خيط واحد ، هو الإيمان بالحياة المتجددة ، فكرًا جديدًا ، وموقفًا نبـيلاً ، وكأن المؤلف يقول لك : إن التاريخ فى حقيقـته يصنعه الأعلام ، الذين هم القادة للجمـاهير ، وهى وجهة نظر نجلها ونقـدرها ، حيث إن الأعلام تمثل العقل المدبر أو المحرك لهذا الطوفان البشرى الهائل .

وربما يظن أن هذا الحشد من الشـخصيات جار على التفـصيل أو العمق ، وهو ظن غيـر صحيح ، لأن التركـيز الذى اتسمت به الفـصول ، يغنى عن كثـير من الحشد والإطناب ، حيث وضع المؤلف يده علـى جوهر الفكرة ، التى يقصدها ، فيـغنى الإجمال هنا عن الإسهـاب مادام فى يد القارئ زبدة الموضـوع ، ومحض الفكرة ، وليس هذا نأيًا عـن التفـاصيل ، بل ربمـا كان الإجـمال أشق ، حـيث يقتضى تكثيفًا ، ووقتًا لايقتضيه الإسهاب ، وإن بدا هذا غريبًا لأول وهلة ، ولعل هذا التركيز اكتسـبه الأستاذ سامح كريم من مهنته صحفـيًا ، حيث المساحة المركزة

التي تقص الحواشى والأطراف ، وهى مفيدة بكل حال .

والمؤلف - وهو دارس للفلسفة والتصوف - يرى أنه لاشقاق بينهما ، وأن التصوف وإن بدا هروبًا من الحياة ظاهرًا . . إلا أنه يدرك فتنة الحياة ، فيعلو عليها زهادة ، وفى هذا درس جيد لبطلان الشعوذة والدجل الذى يلبس خرقة الصوفية وهى براء منه ، ودلل المؤلف بأمثلة عليا رجالاً ونساءً ، كانوا المثل الأعلى فى التصوف والزهادة ، وكانوا فى الوقت ذاته رسل هداية وحماسة لأمتهم ، وكأن التصوف فى حقيقته نوع من الكمون المؤقت لمواجهة الحياة باستعلاء وشمم ؛ ولمواجهة المواقف المستخذية فى العصور الخابية والمتردية فى التاريخ ، ونوع كذلك من استنفار الطاقات الإنسانية ، ولعل المؤلف احتكم إلى العقل ، الذى يربط بين كل هذه الشخصيات الضخمة التى تناولها ، ليؤكد أن التصوف غير مناف للعقل، ولا للفكر السليم .

وفى الكتاب شخصيات يسمع القراء عنها ، ولايعرفون من تاريخها إلا شذرات، بيد أن المولف تمكن أن يكشف كثيرًا عن هذه الشخصيات ، ومراجعه فى هذا الصدد حقيقة بكل تقدير ؛ حيث استطاع أن يلتقط منها مايكفى لرسم صورة محكمة ومضيئة .

وإذا كان هناك جامع شخصى بين هؤلاء الأعلام فربما كان «الأريحية» لا «المنفعة» التى هى قوام بينها ، تلك «الأريحية» هى التى تقف وراء «أفكار للتجديد ومواقف للحياة» ؛ لأن الفدائية هى الباعث الأول وراءها ، والمؤلف الفاضل بنسب عريق من تلك الصفة ، ولا أريد أن أقصم ظهره - فهو أكرم علىَّ - بل إن معرفتى به الوثيقة ، تجعلنى فى حل من إطلاق هذه الصفة عليه .

وفى الكتاب مناقشات دقيقة للنساك والنحاة ، والمؤرخين والقادة ، والشهداء ، تدل على عارضة قوية ، ومنهج قويم، وتشى أيضًا بإعجاب وحب لايطمسان الموضوعية المتوخاة ، كما يشى هذا الاختيار برسالة موجهة للأمة ؛ حيث يرفع المؤلف أمامها هذه الصور الباذخة ، التى تجدد أعراقها ، وتسرى فى أوصالها دماء التجديد والتنوير .

قبل أن تنطفئ النار

مجموعة قصصية للأستاذ إبراهيم سعفان ، سبقتها مجموعة «القناع» ، وطائفة أخرى من البحوث النقدية واللغوية ، وكلها تخول لصاحبها مكانة متميزة فى عالم الكلمة ، صدقًا فى التجارب وإخلاصًا فى التعبير عنها ، والمؤلف فيما يبدو من ذلك النفر الذين لايعبأون بكمية الكتابة ، بل بكيفية الكتابة ، ولذا كان نتاجه القصصى قليلاً أو على الأقل المنشور منه ، فربما يكون فى خزانته نتاج لم ير النور بعد ، لكن المجموعة التى بين أيدينا تقفنا على نمط جيد من الكتابة القصصية .

تسع وعشرون قصة قصيرة فى صفحات قلائل ، تؤكد - فى رأينا - أن مفهوم القصة يتأبى أن يكون فى قفص واحد ، أو طريقة واحدة فى الخطة والمنهج ، وفى هذا درس جيد لطائفة من النقاد المدرسين ، الذين لايرون إلا بعين واحدة ، فإذا جاءت تقنية القصة خارج تلك العين ومساحة رؤيتها ضاقت «الرحمة» النقدية ، فأخرجتها من جنة القصة ، وغاب عن تلك العين أن النقد تابع للإبداع ، وأنه لابد له من العين الأخرى .

تحكم هذه المجموعة مايمكن تسميته «باللقطة» المصورة التى تسير الحدث - إن وجد - وتكتفى بالصورة أحيانًا كثيرة ، حين تنطق الصورة وحدها بكل شيء ، كما تحكمها أيضًا «شعرية» التعبير ، التى تجعلها قريبة من القصيدة فى كثافتها وتوترها الخلاق ، وأحيانًا تأتى هذه الشعرية فى العبارات الموزونة عروضيا ، دون وعى أو قصد من المؤلف ، ودون أن يلحقها قول أو طريقة كتابة بما يسمى الآن «قصيدة النثر» وكلام المؤلف فى الذروة فى هذا الإطار ، لكنه عارف حدود قوله ، وأنه لايخرج عن دائرة النثر .

تسرى فى المجموعة كذلك روح صدقية ، تشير وتلمح وتخلق لدى الملتقى إحساسًا - عاناه المؤلف - بالرؤيا الصوفية التى تذكرك بمواجيد الكبار من المتصوفة، فجاء كلامه برقيًا فى سطور قلائل ، إلا أنه انفجارى يومض ومضة

البرق ويشتعل ، وتمثل هذا فى لقطاته «لقاء - بعد الأوان - السوق» وفيه نفس من البسطامى الذى حرقه الشوق ، غير أن هذا الوجد الصوفى لايدع المؤلف بعيداً عن قرارة الحياة ومجالدتها التى تتمثل فى لقطات جيدة عن «الغثيان - وصاح الديك - الخروج - نبض الجذور - ابتسامة ميت شهد موته» إلى آخر هذه المشاهد الاجتماعية والإنسانية ، ففى نبض الجذور - مثلاً - يعالج قضية التشبه بالغرب فى القشور ، واندفاع الشباب إلى تلك الهاوية ، ولايصحو إلا حين يمس أحد عِرض أخته هنا تنبض الجذور ، وتتمسك بأصالتها ، وفى «ابتسامة ميت شهد موته» تتعدد بؤر التأويل ، حتى يسقط جريحًا ينزف ، ويتشاغل المارة بالسبب الجارح أو القاتل هل هو السائق ، ومدى اللامبالاة التى تأخذ فى التيه وتلطخ أقدامها بدمه ، تاركة إياه ينزف، تلك رؤية يمكن أن تكون واقعًا فى المدن الكبرى، كما يمكن أن تكون مأساة الجرح العربى والإسلامى النازف فى أماكن كثيرة ، والمتفرجون يتركون الجرح ، يلوكون الكلام والتصريحات والخشية من المسئولية ، وربما تتعد التأويلات لترى أشياء أخرى فى هذه القصة وفى غيرها ، وفى صاح الديك تعالج التمرد المكتوم ، والغلظة والاستبداد فى تصرفات عمدة القرية ، وكلها تقف بيقظة من المؤلف بمشكلات أمته وبالعالم الإنسانى كله فى لقطات مركزة ، توحى دون أن تصرح ، وتجرح دون أن تقتل الأمل فى النفوس المتطلعة إليه وتتمثل كذلك فى المجموعة قدرة على استلهام التراث العربى القديم والإتكاء عليه ، وتفجيره بطاقات خصبة من الإيحاء والتأويل . . ففى ذبابة يرصد المؤلف معلقًا الأنفاس حول مصير ذبابة تحاصر الكاتب فلايجد عنها حولاً سوى أن يحبسها فى محبرته بعد معاناة شديدة ، وتذكرنا محاولات المؤلف بما حكاه الجاحظ عن عبدالله بن سوار قاضى البصرة .

ولغة الأستاذ إبراهيم سعفان لغة رجل يقصد إلى القول ، فعبارته لاتزيّد فيها ولافضول ، بل إنه يحذف حروف العطف قاصداً إلى الأداء المسرع والإيجاز المحكم ، لأن المؤلف يحترم قارئه فيقدم إليه شيئًا راقيًا يقرأه القاصى والدانى ؛ لأنه الباقى ، حيث تخنق العامية نفسها بقيود الزمان والمكان .

شعراء عمانيون

أن تضاف إلى المكتبة العمانية دراسة جادة تؤرخ لشعراء عمان جهد كريم ؛ خاصة أن تلك الدراسة تفرغ لها شاعر عمانى ذو صوت مسموع فى عالم الشعر ، ومارس الكتابة التاريخية والنقدية بذهن متفتح ، وقلم صناع .

وقد خشيت على الشاعر وهو يسير فى غابة غبياء لم يمهدها كثرة الطراق ، فسلك الطريق عارفًا بواعثه وغاياته ، مستحصد المقدرة ، مكتمل الأدوات . التأريخ للأدب العمانى عسير ، فالصور فيه غير واضحة ، ومن ثم أشفقت على سعيد الصقلاوى وهو يجتاز هذه العوائق ، مذللاً إيها ، يرفده ذوق دؤوب ، ومنهج ميسر فى التناول ، ربما نختلف حوله . . لكنه يؤدى الغرض المراد له .

ثمة طريقة تقليدية لهذا التأريخ ، ربما كان خير ممثل لها الشيخ الخصيبى فى كتابه «شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء شعراء عمان» ، ولم يدع مؤلفه شيئًا غير مايشى به عنوان كتابه ، فهو سجل لأسماء الشعراء فى منظومة كمنظومات العلوم ، مع تعريف موجز بالشاعر ونماذج يسيرة منه ، لاتؤدى إلا إلى معرفة مخدجة بصاحبها ، ولعل كتاب «الشعر العمانى» للدكتور على عبدالخالق ، وهو رسالة ماجستير فيما أظن ، هو محاولة غير عمانية للتأريخ لهذا الشعر . . إلا أن الكتاب وقد اتسع مجال الدرس تاريخيًا - لم يأت منهجه دقيقًا ، واكتفى بأن يحطب فى حبال القدماء . متقيلاً لطريقتهم ، وربما كان من المناسب أن نشير إلى دراسات أخرى ، قدمها عبدالله الطائى العمانى مقالات صحفية وأحاديث إذاعية ، تؤدى الغرض المرسوم لها فى الصحيفة السيارة والأثير .

وتأتى دراسات القصاص المعروف يوسف الشارونى محاولة نقدية جادة للتأريخ لهذا الأدب - جزئيًا - شعرًا ونثرًا ، ثم دراسة الناقد الدكتور أحمد درويش وهى أبعد مرمى ؛ إذ هى «بانوراما» ، يرفدها منهج دقيق ، وأحكام نقدية صائبة فى مجملها ، ولكاتب هذه السطور دراسة عن «الشعر العمانى المعاصر» أثارت جدلاً

واسعًا ، تحرى فيها صاحبها الموضوعية كما ارتآها دون قطع ظهور الناس بالمجاملة، وهى خلة شائعة فى معظم الدراسات التى تكتب عن الخليج عمومًا من غير أبنائه ؛ لأن عيون الدارسين تتجه صوب الرضا والسخط ، ولم أشأ أن أقع فيما نعيته على الناس .

كتاب «شعراء عمانيون» لسعيد الصقلاوى نشر منجمًا فى صحف عمان ، وطبيعة المقال فى صحيفة سيارة أن تخاطب القارئ العادى ومتوسط الثقافة والقارئ المتخصص ؛ ولذلك حاول المؤلف أن يوازى بين كل هذه الأشياء فكان الصواب وجهته فى جل مانشره ، ويبدو أنه نشر مقالاته فى كتابه هذا ، ربما بتسلسل نشرها فى الصحيفة دون مراعاة للترتيب التاريخى .

انتظم الكتاب مقدمة عن الشعر العمانى بداياته المعروفة والظروف المؤثرة فيه ، وقد جاءت موجزة جدًا ، وودت أنها طالت واستوفت الحقب التاريخية التى ينتظرها القارئ من المؤلف ، وفى وسعه أن يفعل ذلك فى الطبعات القادمة .

ثم جاءت التراجم للشعراء الذين وقع عليهم اختيار الشاعر ، ولذلك جاء عنوان الكتاب منكرًا ، حاول أن يجمع واحداً وثلاثين شاعرًا فى نسق واحد ، من بينها أسماء ربما تغيب حتى على المتخصص ، لأن الشعر العمانى لاتزال مصادره نزرة بين يدى الناس ، ومن بين هؤلاء الشعراء أيضًا أسماء معروفة ، يتواتر الحديث بشأنها لدى جمهرة المثقفين وغيرهم ، وبعض الشعراء لم يعرفوا بالشعر بل قالوه إحماضًا على طريقة العلماء والفقهاء ، ويعجب المرء لهذه الكثرة من الشعراء العمانيين - مع اتساع المصطلح ليشمل النظامين ، وما أكثرهم فى عمان ، لأن النظم وجد لحفظ المعارف الإنسانية فى مجتمع يعتمد على السماع وتقييد المعارف على الطريقة القديمة ، لكن دخول هؤلاء الشعراء فى عالم الشعر محفوف بالمحاذير .

ولقد قرأت للمؤلف بعض الدراسات عن شعراء عمانيين آخرين غير الواردين فى مؤلفه ، ولعله راجع نفسه فلم يشأ أن يزجهم فى كتابه ، ربما لأن العمانية غير واضحة تمامًا . . إلا أنهم ينتسبون للأزد فى عمان مثلاً ، ولذلك أرى أن بعض

الشعراء ممن حواهم كتابه على أنهم من عمـان ينبغى أن يعاد النظر فيهم ؛ خاصة وأن المولد وحده ، أو قبيلة الشاعر العمانية لاتكفى لجعله عمانيًا ، إذا ولد الشاعر فى البصرة مـثلاً أو فى مصر أو فى الأندلس ، وعاش فى تلك البيـئات ونضحت فى شعره فلا يمكن - فيمـا أرى - قسره على أن يكون من بلد المولد ، وقد كان ابن حمديس الصقلى من سرقسـوسه فى صقلية ، إلا أنه أزدى من جنوب الجزيرة . . لكن الرجل كان صقليًا أندلسيًا ، ومثله كثيرون ممن ولدوا فى بغداد أو البصرة أو غيرهمـا من الأماكن ، ولم ير عمان ولم تعش فى شـعره ، والعدد الوارد من طراز أولئك الشعراء قليلون .

أحـسن المؤلف صنعـًا بالتـأريخ لشـعـراء من عـمـان ، يجـهلهم حـتى أهل الاختصاص من غـير أبناء عمان ، فإذا تجاوزنا الأسمـاء المعروفة مثل ابن دريد ، والوزير المهـلبى ، ونفطويـه ، والخليل ، وثابت قـطنة ، وكـعـب بن مـعـــدان الأشقرى، والمبرد ، لصادفتنا أسـماء ، ربما تطرق أسماع بعض الناس لأول مرة ، وهذا جهد يحمد للمؤلف .

جاء التأريخ سـجلاً حياتيًا دقيقـًا للشاعر وظروفه وموضـوعات شعره ، ورأى المؤلف فيه مستعـينًا بمصادره الدقيقة والمستوعبة مسـتخدمًا إياها فى إتقان ، إلا أن جانب التسجيل وإيراد المعلومات طغى على جانب النقد فى بعض المواطن القليلة.

لا أدرى لِمَ لَمْ يلتزم المؤلف بالتسلسل التاريخى ، وقد يكون مفيدًا جدًا لرصد حركة التطور فى هذا الشعر ، والوقوف على أسباب التطور أو الانحدار ، ويسلم القارئ من شـاعر إلى شاعـر ، ربما كان للسابق فضـل تأثير على اللاحق ، وهذا يحققه التسلسل التاريخى .

كم وددت أن تلحق بالكتاب مـختارات للشعراء فى نهـاية الكتاب أو فى نهاية كل دراسة . . صـحيح أن المؤلف أورد بعض الأبيـات معلقًا علـيها أو مـدللاً بها على قضية تاريخية أو نقدية ، لكننى كنت أطمع أن يكون كتابه دراسة ومختارات من ديوان الشعر العمانى .

كمـا لاحظت خلو الكتـاب من الشاعـرة العمانـية ، والتأريخ لـها ، هل لأن

الدجاجة إذا صاحت كالديك ذبحت ؟ لا أظن ، بدليل أن نساء سقطرى أرسلن قصيدة إلى الإمام الصلت بن مالك الخروصى على وزن قصيدة أبى تمام البائية ورويها ، وهى أبيات جيدة ، واستصراخ كما حدث فى وقعة عمورية . كنت أود أن أعرف المرأة العمانية شاعرة .

إلا أن الكتاب فى مجمله يستحق التحية ، ويستحق مؤلفه التهنئة ، لأنه قدم دراسة فيها خطوات فساح ، ويزيدها قدرًا أن كاتبها شاعر مرموق من شعراء الصف الأول فى عمان ، وربما كان فى رأيى أهم شاعر عمانى معاصر من الجيل المثقف ، الذى يجدد فى اعتدال وتوازن محمود ، ونحن فى انتظار موسوعته عن الشعر العمانى فى كل عصوره ، وهو جهد شاق وعسير إلا أن المؤلف أهل له.

عن السرقات الأدبية

من حق الأساتذة الكبار علينا التجلة والتوقير ، لكن ليس من حقهم التطويب والتقديس ، ولامن حق الآخرين المطالبة بذلك ، مادام الدرس المنصف هو خطة الباحث الذى يتوخى الحقيقة ، ولايعنيه بعد ذلك رضا أحد أو إسخاطه ، وكان هذا هو ديدن هؤلاء الأساتذة الكبار فى تناول الرجال ، ونحن للأسف لم نفهم الدرس منهم جيداً ، وربما كان خلافهم هو القاعدة قبل الاتفاق ، حيث كانوا يدركون أن ذلك الخلاف أمارة حياة ، وأن الاتفاق - إن كان - دلالة جمود ، خاصة إذا كان هذا الاتفاق يدارى أربًا قريبًا أو بعيداً ، لاصلة له بالدرس الموضوعى .

وتجلة الأساتذة تسمح بمناقشتهم ومناقضتهم فى الوقت ذاته ، وتلك المناقضة وبيان الرأى فيهم لاتعنى التهوين من دورهم الذى أدوه ، ولايزالون يؤدونه بعد رحيلهم . ومن تمام هذه التجلة ألاينسب إليهم ماليس لهم ، عرفانًا بحقهم وحق تاريخ الأدب والفكر فى الوقت ذاته ، وكان هؤلاء الأساتذة يقومون بهذا الدور ، وكان القدامى قبلهم يؤدون حق العلم عليهم ، حتى إنهم أفردوا بابًا خاصًا فى البلاغة العربية باسم «السرقات الأدبية» ، أما جيلنا فيدفن رأسه فى الرمال ، بهذه الحجة المتخاذلة وماذاك إلا من سيطرة الرأى الواحد ، والرضا بالمتاح ولو كان فى الدرك الأسفل من الإنسانية الرحبة .

حسن أن قام نقاد «المازنى» بتقصى ماله وما أخذه بحثًا عن أصالته شاعراً وقصاصًا وناقداً ومترجمًا ، وتجاوب العالم العربى المثقف بأصداء هذه الدراسات مابين بغداد وحلب والقاهرة ، وربما كان أول من فجر هذه القضية صديقه الأثير عبدالرحمن شكرى ، الذى عرف أن من حق الصداقة ألايستر ماينبغى أن يكشف، فواجه صديقه بسرقاته من الشعر الأوروبى ، وعدد نماذج هذا الأخذ ، مدركًا أن الاتجاه المجدد سوف يؤخذ كله بجريرة فرد منه ، وقامت معركة بين الصديقين

العزيزين ، استخدمت فيها أسلحة متنوعة ، كان الرد عنيفًا من المازنى - مع دماثته - الذى اتهم صديقه بالجنون وأفرد له مقالين لاذعين فى كتاب «الديوان فى الأدب والنقد» ، وظلت المعركة مشتعلة سنوات متعددة ، حاول العقاد إزاءها رأب الصدع ولم الشعث ، وأفلح مرة ، وأخفق مرات نظرًا لأطراف كثيرة متصارعة ، حاولت استغلال ماحدث فوسعت الهوة بين الأصدقاء ، واتسعت كذلك الدراسات التى تناولت هذه القضية ، نظرًا لحيوية الفكر وخصوبته ، فكتب فيها الدكتور محمد أبو الأنوار كتابًا مفردًا فى تاريخ المعارك الأدبية ، وخص هذه المسألة ببيان شاف، ربما كان أهم ماكتب فى هذا الصدد نظرًا لرجوعه إلى دوريات هذه الفترة الناهضة ، وكتب فيها الباحث الهندى محمد أشرف رسالته للدكتوراة ، وعرض للقصائد الإنجليزية موضوع الأخذ ولقصائد المازنى ، فى دراسة تحليلية جيدة ، وعرض لها أيضًا الأستاذ على أدهم ، وهو عضو مؤسس فى جماعة الديوان إن صح هذا التعبير ، وتناولتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، وإن كانت ركزت على القصة والمسرح فى إبراهيم الكاتب ، وغريزة المرأة ، وأتت بالنصوص الأوروبية ونصوص المازنى ، ولم يتعد الأمر بضع صفحات وناقشت ردود المازنى، بمعابثة الذاكرة له - وهو أمر معروف عنه ، ومرضه كذلك بالنورستانيا - وإن كانت لم تأخذ برأيه جملة ، حيث إن الوعى كان حاضرًا فى نقل الأسماء العربية بدلاً من الأسماء الأوروبية فى النص الأصلى ، وعرض كاتب هذه السطور فى كتابه «المازنى شاعرًا» لهذه القضية ، وانتهى كما انتهى النقاد السابقون إلى دراسة المسألة فى حيزها ، ولم تتجاوز الطعن فى أصالة المازنى ، وظل الرائد المجدد فى عالم النقد والمقال ، والترجمة ، والشعر ، والرواية ، وأنصف الدرس الأكاديمى المازنى بعد رحيله كما لم ينصفه قبله ، والمسألة لاتزال قيد الدرس فربما يخرج كاتب بعد ، يرى غير مارأى السابقون ، ويكتشف مالم يكتشفوه ، ومن حسن الحظ أن المازنى ووجه فى حياته بمثل هذه الاتهامات ورد عليها بنفسه ، وكسب تاريخ الأدب فصلاً جديدًا يضاف إلى فصوله ، يزيدها حيوية وحماسة ، لأن البئر الراكدة يأسن ماؤها كما يراد لها الآن .

وكان الفصل الثانى سنة ١٩٦٢ ، وكانت الحياة الأدبية والفكرية مازالت تتنسم ذلك العبق القديم من الحيوية ، فطالعنا العقاد بمقالاته فى الأخبار حين سأله أحد

القراء عن كتاب «وحدة المعرفة» للدكتور محمد كامل حسين ، فألمح فى رقة إلى أن المؤلف أولى بالإجابة ، فما كان منه إلا أن طعن فى معرفة العقاد بالفلسفة ، فإذا به يكتب مقالين لاذعين ، ينبه إلى أن هذا الكتاب «وحدة المعرفة» منقول من كتاب «المكان والزمان والربوبية» لصمويل ألكسندر المنشور سنة ١٩٣٤ ، وقد لخص العقاد مذهبه من قبل فى كتابه «الله» سنة ١٩٤٦ ، وأنكر الدكتور حسين معرفته بهذا الاسم ، وأن دائرة المعارف البريطانية خلو منه ، ولكن العقاد يؤيد بالنصوص القاطعة من الكتابين نقل الأفكار العربية من الكتاب الإنجليزى ، وينقل أيضًا ماكتبته دائرة المعارف المذكورة عنه ، فى طبعة لاحقة ، لأن طبعة الدكتور المذكورة كانت قد نشرت ، وألكسندر لازال على قيد الحياة .

ونعتقد أن الدرس الفكرى قد أفاد من هذه المعرفة ، وربما تكون دراسات أكاديمية قد قامت ولعلها تكون ، ومع ذلك مازال الدكتور كامل حسين فى صدارة كتابنا .

أما الفصل الأخير فى هذا المقال ، وليس الأخير فى رصد الآخذين أفكار غيرهم ، فهو الفصل الخاص بالدكتور محمد مندور فى كتابه «نماذج بشرية» ، وقد تناوله أستاذنا الدكتور الطاهر مكى فى كتابه القيم «الأدب المقارن» ص٢٩ وما بعدها ، وأولى بنا أن ننقل بعض ماقاله بلغته هو : «فقد سطا الناقد الكبير الدكتور محمد مندور فى كتابه «نماذج بشرية» على كتاب (النماذج العالمية فى الأدب الفرنسى والعالمى) للكاتب الفرنسى جان كالفيه ، وهو فى ثلاثة أجزاء ، اثنان منها يحتويان على نماذج من الأدب الفرنسى ، والثالث على نماذج من الأدب الإيطالى والإسبانى وغيرهما ، وطبع الكتاب فى باريس عدة مرات آخرها فيما أعلم عام ١٩٦٣-١٩٦٤ ، والنموذج الوحيد الذى أضافه الدكتور مندور لايوجد فى الكتاب الفرنسى هو (إبراهيم الكاتب) للمازنى ، أما البقية فمأخوذة كلها من المؤلف الفرنسى نماذج وموضوعات ومنهجًا ، وحتى النصوص التى يعزز بها الدكتور مندور شرحه وفكرته هى النصوص نفسها التى اختارها الأديب الفرنسى للتدليل على تحليله ، وبعيدًا عن التصور أن يجئ هذا صدفة أو عفوًا أو من قبيل توارد الخواطر ، وأدعى للشك أيضًا أن الدكتور مندور لم يشر إلى كتاب المؤلف الفرنسى ولابكلمة واحدة .

وبعيدًا عن التصور أيضًا أن يتابع الدكتـور مكى تفاصيل هذه القضية ، فيخرج عن منهج كـتابه فى أصـول الأدب المقارن وتطوره ومناهجـه ، وإن كان من غـير البعـيد أن يتلقف الفكرة أسـاتذة الأدب الفرنسى أو المقارن العـارفون بالفرنسـية ، فيخرج الموضوع رسالة صغيـرة فى تطبيقات الأدب المقارن ، لكنها المجاملات التى تحكم حيـاتنا الأدبية ، أو تطويب الأسـاتذة الكبار ، وما كـانوا يريدون لنا هذا ، ولانريده لأنفسنا .

بيـد أن مسـألة الأخذ هذه عـالجـها آخـرون غيـر الدكـتور مكى ، فـالكاتب عبـدالمطلب صالح عرض لهـا فى مقال عنوانه : «هل الدكـتور مندور هو المؤلف الحقيقى لكتاب نماذج بشرية» . فى مجلة الأقلام ، يناير ١٩٦٧ - ص٤٤ - ٥٠، وعرضت لها على استحـياء الدكتورة ، ماريا خيسوس بيـجيرا ، رئيس قسم اللغة العربية بجامـعة مدريد ، فى مقالها «دون كيخـوتى فى النقد المصرى» والمنشور فى مجلة ALMENARA مجلد ٧ - ٨ صيف ١٩٧٥ ، والتى تصدرها جامعة مدريد المستقلة ؛ حيـث أشارت إلى الانتقادات الصارخة لهذا الكـتاب ، وأنه مأخوذ عن الوسائط الفرنسـية ، وألحت على مقال «دون كيـخوتى» بصفة خاصـة وأنه مأخوذ عن الفرنسـية ، وقد ترجـمته الأستـاذة ، وعرضت للنقاد المصـريين الذين تناولوا نموذج دون كيخوتى مثل محمود أمين العالم ، ورجاء النقاش ، وحسين مؤنس ، ومندور بطبيعة الحال .

الموضوع يغرى بالتناول ، ونعجب للصمت المطبق مـن النقاد ، خاصة العارفين بالفرنسيـة ، الدكتور مندور «على العين والرأس» لكن الحقيـقة على العين والرأس قبله وقبل الناس جميعًا ، وماذا علينا من كشف المستور لئلا نكون شياطين خرسًا، وخير أن يخرج أساتذة الأدب الفرنسى عن صمتـهم وكذلك العارفون بالقضية من النقاد الذين نعرفـهم ، ونعرف أنهم عارفون ، وبعضـهم عنده الأصل الفرنسى ، تقديرًا منا للـدكتور مندور ، ونحن أعـرف بحقيـقته وقـيمتـه ، ودراسات الرجل وجهوده هو وغيره ممن سبق لايطعن فيـها أن نرد بعض البضاعة إلى أهليها ، بدلاً من أن نبطل بابًا أساسـيًا فى الأدب المقارن ، ومن أن نقـول : حقوق الطبع غـير محفوظة للمؤلف !!

نحو من النحو

تكثر هذه الأيام كما كـثر قديمًا الشكوى من النحو ، غيـر أنها فى أيامنا تحاول تسويغ العجـز ، والقعود عن طلب العلم والمعرفة ، أمـا قديمًا فكانوا يشكون من تشقيقات المسـائل النحوية والصرفية . أو مايمكن تسميه نـحو الصنعة لانحو اللغة والطبع ، وما رأينا الأجـانب يجأرون بمثل هذه الشكاة ، بل يحاولون التـعمق فى قضـايا تصريف الأفـعال وهو باب عـسير يعـرفه من وجـه ، أو فى الإعراب فى اللاتينية ، وهو صعب على أبناء الأمم الأخرى من غير العرق اللاتينى ، ولو بذل الشاكون من النحـو الوقت الذى ينفقونه فى الشكوى لغدا الطريق ذلولاً مـيسرًا ، ومن عجب أن الذين تعلموا النحو أيام الدراسة فى الكتب القديمة ، وأفادهم هذا التعلم ، وأبان عن عقولهم ، وحل عقدة لغتهم ، ينضمون إلى هؤلاء الشاكين ، ويسوغون الشكوى بمساعدة النحـو نفسه الذى هو محل الشكاية ، ولولا هذه اليد التى أسداها إليهم النحو لصدئت آلتهم فى الدفاع .

النحو علم مظلـوم ، والشاكون منه كـذلك إذا كانوا حسنى النيـة ، لأن النحو العربى منطق من المنطق ، وقواعده سهلة لاتعقيد فيها إذا أحسن القيام على تعلمه وتعليمه ، ولعلنا إذا أخـذناه من كتب الأدب ونصوصه الجيدة لأقـام بذلك الحجة له، تسبقـها مرحلة حفظ القرآن الكريم ؛ لأنه ثابت من مـشاهدة الواقع أن حفظه يقوِّم الألسنة ، فالطالب الذى يحفظ قوله تعالى؛ وكان الله غفورًا رحيمًا ، يدرك بالبداهة أن ماجـاء بعد كان يكون مرفوعًـا ، ومابعده منصوبًا ، فإذا قـرأ شعرًا أو نثرًا طبق بالبداهة هذه المعرفة فلايخطئ .

أما تعليـم النحو بأمثلة مما يـدور على ألسنة الناس مثل جـاء محمـد ، وذاكر الطالب ، فإنهـا لاتقيم له لسانًا ، ولاتزيده بيـانًا ، صحيح أنها مـيزان للكلام ، والقاعدة ، لكن المثال لاقيمة له ولايفيد نطقًا .

صحيح أننا فى إطار التـعلم للناشئة نحاول أن نتجنب التعـقيد ما أمكن ، وأن

نبتعد عن الاحتمالات والحجة النحوية الواهية التى رأى الشاعر الظريف قديمًا أن خصر صاحبته أوهى من حجة نحوى ، لكن ليس معنى ذلك أن نبعده عن هذه الاحتمالات ؛ لأنها إعانة للذهن أن ينشط ، وأن يقوى ، وتلك مرحلة تالية ، ومع ذلك فرحم الله أيامًا كان الناشئ فيها يدرس قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ، وشرح ابن عقيل ، وغيرهما دون أن تكون منه هذه الشكوى ، التى هى فى رأينا دليل على المطالبة بالحقوق قبل القيام بالواجبات ، إن الناس الآن فى أغلبهم إلا من رحم ربك ديدنهم طلب الحقوق لارعاية الواجب ومن ثم تكون الشكاة جهيرة ، ولتسويغ الكسل والعجز ، وأن العيب فى النحو وليس العيب فينا.

لايمكن فهم الأدب ونقده إلا من خلال النحو والصرف والعروض ، والناقد الذى لايتذرع بهذه الذرائع لايمكنه أن يقول لنا كلامًا مفيدًا يحسن السكوت عليه، كما يقول سادتنا النحاة ؛ حيث تأتى مرحلة جماليات النص بعد سلامته ، وأن هذه السلامة تنفخ فى أعراقه روح الجمال . وأن السلامة نفسها باب من أبواب الجمال والإحساس به .

ومن هذه البابة يقع العبء الأكبر على أساتذة النحو حين نطلب إليهم أن يقدموا لنا النحو ، من خلال نصوص جميلة ورائعة ، من تراثنا العربى العظيم شعرًا ونثرًا ، وأن ندرك معهم أن بيتًا جيدًا من الشعر نعربه لايمكن أن يتفلت من الذاكرة ، وأن القاعدة النحوية تثب وتتأطر من خلاله ولابأس أن نقف من بعيد أو من قريب على الصنعة النحوية التى أسهمت فى بناء جماليات البيت .

وقد أدرك ابن هشام المصرى قديمًا هذه الوسيلة ، وتذرع بها ، وإن كان لم يلج باب الجماليات ، لعله كان يخاطب أناسًا لم تفسد ملكتهم بعد فيدركون هذا الجمال ، وإلا فما باله يقع على كثير من الأبيات الجميلة هى الشواهد أو أبيات الاستئناس بعد زمن الشواهد ، إن لم يكن راقى الذوق ، ومن يخاطبهم له قريب من مثل ذوقه ، وقد رزق الله هذه الأبيات برجل أخلص فى جهده شارحًا وناسبًا لها إلى قائلها ، ومعربًا لها وذاكرًا المناسبة ، هو الشيخ محيى الدين عبدالحميد

الذى أسدى إلى طلاب النحو واللغة نحواً من النحو الراقى الذى يخاطب الذوق والعقل .

وربما يكون أفضل من الشواهد المفردة أن نقدم النحو من خلال أبيات مجتمعة، تقدم تجربة شعرية غنية وإنسانية ، وتقدم أيضًا تجربة نحوية غنية ولايعنى ذلك أن نضرب صفحًا عن كتب النحو بمشكلاتها ولغتها القديمة ، وطريقتها فى الاحتجاج والجدل ، فإن فى تركها ضياعًا لعلم نافع مفيد ليس لنا عربًا بل للإنسانية كلها ، وإن كثيرين من أبناء جيلى والأجيال السابقة عليه تمكنوا من العربية من هذه السبيل.

ولعل فى أبيات الشواهد هذه التى نوردها مثالاً ، مايصلح أن يكون ذريعة أن نقرأ النحو ، وأن ننحو هذا النحو من الذوق والفهم :

لاطيب للعيش مادامت منغصة　　لذاته بادكار الموت والهرم

وقولى كلما جشأت وجاشت　　مكانك تحمدى أو تستريحى

لولا اصطبار لأودى كل ذى مقة　　لما استقلت مطاياهن للظعن

أيا راكبًا إما عرضت فبلغن　　نداماى من نجران أن لاتلاقيا

شفافية الشعر

طائفة من الدراسـات المركزة ، كـتبهـا د. يوسف نوفل ، وهو رجل سلخ من عمره سنين عددا فى الإبداع والنقد ، يعرف عذاب الإبداع ، معرفته لمعاناة النقد، وهذه الدراسات - وإن تبـاعدت زمنًا - مكتوبة بروح واحدة ، حـيث وقفت لدى النص «تستشـفه» ، محاولة أن تقتنص من شـوارده مايعز اقتناصه ، متـذرعة إليه بشتى المناحى النقدية ، وإن كانت تغلِّب البداية من النص لتنتهى إليه .

وهذا المنهج على اسـتقـامتـه يغفل مناهج أخـرى ، نحن نراها أولى بأن تطل برأسها حين تضئ جوانب تعسر على «قراءة» النص وحده ، ونعنى به جانب مبدع النص ؛ لأنه منه وإليه يئـول ، ومحاولة «موته» مقضـى عليها ، لأنه نص ابداعى ذاتى أولاً وأخيرًا .

حاول د. يوسف نوفل أن يقدم منهجه فى كلمات موجزات ، أشبه بالعناوين، أو الشفرات التى تفتح المغاليق ، وتناولت من خـلاله - دون تلفيق ،كما يحترز - مجموعة من النصوص قديمة وحديثة ربما يـغرب الناقد فى معالجتها أحيانًا ، لكن الخط واضح ، خـاصـة أن يوسف نوفل ليس من تـلك الطائفـة من النقـاد الذين «يضربون الرمل» ، بل إنه يشـتط فى اختلافه مـعهم ، محاولاً أن يكـون واضحًا ماوسـعه ذلك ، وإن كـان قد ركب مـركبـهم بعض الشئ حـين يسـتخدم مـثلاً «الزمكانيـة» ، ونراها وأمثـالها مـن غرائب القـوم ، يريد أن يعربه فـيعـجمـه ، ويستشـهد المؤلف بأبيات من الشعـر القديم والحديث ، وبالشعـر الحر ، لكنه ربما يعود إلى ذاكـرته ومحفوظه القـديم ، كما حـدث فى كلام المتنبى وابن زيدون ، ويحتاج إلى مراجعة .

درس الناقد نصـوصًا لفاروق شوشة فى أكـثر من موضع ، وتبيـن فى دراسته شواهد تذوقه، ودرس رامى ، ومحمد إبراهيم أبو سنة ، وأحـمد تيمور وجمهرة أخـرى ، وربما تـتفق مع الناقـد أو تختلـف معـه ، لكنك لاتنكر إخـلاصـه فى

الدرس، وتحليله للنصوص ، واجتهاده فى تذوقهـا ، ووقوفه لدى المعجم الشعرى فى كثـير من دراساته ، وقد راق لـنا أن نقف مليًا عند دراسته لقصيدة «القـصر المهجور» لأحـمد رامى ، مطبقًا عليـها عنصرى المكان والزمان ، ومـحللاً عناصر الجمال فيها ، مستخدمًا الإحصاءات المستوعبة .

لكننا حين نحمـد للدكتور يوسف مثل هذا المنهج نخـتلف معه ، خاصة فـيما يتعلق بمفهـوم الشعر فهو مع «فعل الكتـابة» دون تحديد لجنسها ، ولا لطبيـعتها ، لاعجزًا منه ، بل إيمانًا بتداخل المفاهيم ، نفهم مثلاً القصيدة ، والقصيدة الحرة ، لكن أن يدخل فى عنوان كتـابه مايسمى غلطـاً بقصيدة النثـر ، فهنا يتسع مـجال الاختلاف دون أن نقسم البلد إلى نصفين ، فمـا ذكره عن «قصيدة النثر» بعيد عن عنوان كتابه ، ونرجو ألايخشى الناقد من اتهـامه بالتخلف ، وغير ذلك من التهم الجاهزة المرسلة ، مؤمنًا معنا أن رفضها - شعرًا - هو قمة التقدم حين نحتكم إلى قاعدة أو نظام ، ولن يغرنا مطلقًا ما استشهد به من نماذجها ، أو من نماذج غامضة تلبس أقنعة غريبة ؛ حيث ينبغى للشعر أن يكون شعراً أولاً قبل هذه الأقنعة .

وأرانى لم أنس البلاغة العـربية حين أرى فى «استشفـاف» صعوبة فى النطق ، وأنا رجل سليم جـهاز النطق ودرسـت التجـويد ، ربما أسيـغهـا داخل النص فى الكتاب لكن فى العنوان تذكرنى بقول امرئ القيس «مستشزرات» .

تحية للكتاب وصاحبه برغم هذه المداعبات ، لأنها من التحيات الزكيات .

يحيا النحو الواضح، ويحيا سيبويه ١-٢

البحث عن الحقوق قبل أداء الواجبات شأن الناس - دائمًا - فى الأزمنة الخابية الكليلة ، ولو بذلوا بعض الجهود بحثًا عن الواجب ، وصرفوا إليه شيئًا من همهم لتبدل الخلق جملة ، وما ذلك بعزيز على الهمم المشحوذة ، والنخوة السارية فى الأعصاب قبل أن تكون برامج ومقررات .

منذ ربع قرن أو أشف ، كنت حديث عهد باللغة الإسبانية ، ولم نكن نفرق كثيرًا بين الباء الخفيفة والثقيلة ، وفى الإسبانية ثلاث باءات : باء باريس ، وباء برشلونة ، وباء بلنسية ، وأخطأت مع بائع الخبز Pan ، فنطقتها مخففة ، فقال لى : ليس عندى ، وهو لايبيع غيره ، فإذا بالرجل حين أشرت إليه على بضاعته نطق الكلمة أكثر من مرة معنفًا ، وشيعنى بجملة فيها إقذاع لم أفطن إليها فى حينها ، وما كان ذاك إلا حرصًا وغيرة على اللغة من رجل ليس عضوًا فى المجمع الملكى للغة ، وإنما هو من غمار الناس !!

وإنما نسوق هذا المثل لنقول : إننا ضيعنا لغتنا حين فقدنا النخوة ، واكتفينا بالبرامج والمؤتمرات ، والشكوى الضارعة الذليلة ، كيف لا ، ؟ وكل حياتنا أصابها الفقد ، وضاعت ملامحها وماكانت اللغة إلا أحد المظاهر ، التى نشيعها بلطم الخدود وشق الجيوب ، إذا بقيت خدود وجيوب !!

أصدر الأستاذ شريف الشوباشى كتابًا ناعيًا حزينًا محزنًا ، والرجل حسن النية - أحسب - ، وحسبه أنه نسل من أسرة تسرى العربية فيها سريان الدم ، ووالده لايزال موضوع رسائل جامعية فى إبداعه ، ولو رجع شريف إلى لغة كتابه لرجع عن أحكامه ؛ لأن حججه داحضة بلغته الواضحة المشرقة ، وأن العيب ليس فى قواعد هذه اللغة وإنما فى غيبة الوعى بها ، أسلوب تعليم وتثقيف ، ولغة الكتاب مع إشراقها فيها بعض المخالفات النحوية ، التى لانظنه يقصدها نكاية فى سيبويه وشيعته، وشريف من تلك الشيعة ، ونحسب أن سيبويه يخرج لصاحبنا لسانه من

تحت أطباق الثرى ، وكأنه يقول له : كيف تدعى سقوطى ، وأنا آخذ بيدك؟!

لقد قدم سيبويه جملة واحدة ، فيها بيان قلَّ أن تجد له نظيراً فى كلام المبينين ، يقول فى أول كتابه : «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ، ومايكون ولم يقع ، وماهو كائن لاينقطع» ، فهذا كلام يراد لصاحبه أن يسقط لتحيا العربية ، وهى ليست كائنًا منفصلاً عن حياة أصحابها ، إلا إذا برئنا من النسب إليها ، لا لشئ إلا إرادة من بعضنا أن تكون مثل لغة أخرى ، ونعوذ بالله من الخذلان !! مع العلم أن اللغات الأخرى لاتعرى من القواعد ، وربما كان فى الإسبانية من تصريف الأفعال ماتنوء به الذواكر ، دون أن نريد لأصحابها أن تسقط وفيها Subjuntivo وهو من أعسر التصاريف حتى على أصحاب اللسان ، ومانغب ناغب يسقطه من اللغة ، فضلاً عن الحروف التى لاتنطق فى اللغات الأخرى ، والأمثلة عليها كثيرة ، ونحن ندرك أن ثمة مستويين: أولهما تربوى يأخذ من النحو مايأخذ الآكل من الملح يقوم به الكلام والطعام ، وثانيهما شديد الضرورة للباحثين فى اللغة ، وحذفه أو تبسيطه إخلال وخلل لبنية الكلام ، ونحن نعلم أن لغتنا فى حقيقة الأمر حال واقعة لاتعسر على القراءة ، وكلمة «التراث» إذا صدقت فى لغات أخرى تغيرت كالإنجليزية والإسبانية مثلاً فترجمت إلى لغة معاصرة ، لاتصدق على لغتنا حيث هى تيار متصل ومستمر .

فرَّق الأستاذ شريف بين الإنجليز والفرنسيين والاحتلال ملة واحدة ، وما أمر دنلوب عندنا ببعيد هو ورصفاؤه من كل أمم الأرض .

ثمة مستويات أيضًا فى العربية كما فى اللغات الأخرى ، فبعض الكتاب كلامهم غسيل عار من جودة الأداء ، وفى العربية والإسبانية نماذج من هؤلاء ، وبعضهم يحفل كلامه بالإتقان والجمال - لانقصد هنا الزخارف البديعية ، وإن كان بعضها حين يحل محله يكون جميلاً فى العربية والإسبانية - وهناك الشعر قدس الأقداس فى كل اللغات ، ولانقصد أيضًا الكلمات العوصاء الغريبة ، بل إن للكلام الساذج البرئ جمالاً حين يصادف موقعه ، وكبار الكتاب الإسبان - ولانقول العرب فقط - يختال كلامهم فى نسق عال ؛ لأنه ببساطة فن جميل .

هناك بعض الملاحظات المتفرقة فى هذا الكتاب ؛ أولها ترك الإعراب لأن الكلام مفهوم ، ونحن ندرى أن مثل هذا الترك يلبس الكلام بعضه ببعض ، وربما تكون كلمة تضبط خطأ تهوى بقائلها هويًا شديدًا ، لأن الإعراب - لغة واصطلاحًا - إبانة ، تخرج المرء عن العجمة التى لاتليق به ، ونحن لانريد الإفهام فقط مع الفن بل نريد التأثير كذلك ، ولايتأتى هذا إلا بالجمال ،ومراعاة القاعدة جمال يخرج عن حد الفوضى التى هى قبح فى كل شئ .

ثانية الملاحظات - مع محاولة الإيجاز - تتعلق باجتهادات الأستاذ شريف ، وهى مردودة عليه ، أو على حماسته ، ذكر بيت المتنبى :

وكلمة فى طريق خفت أعربها فيهتدى لى فلم أقدر على اللحن .

واستشهد بكلام لأبى فهر ، وهو فى غير موضعه ، والشعر لايؤخذ بالظاهر فقط ، فالإعراب هنا هو الإظهار ، أو بالمعنى الاصطلاحى على بعد ، والشاعر يخفى نسبه ويمرّض فى الكلام ، واللحن ساكنة الحاء أو محركتها تحتمل معنى الخطأ أو التمويه ، وفى القرآن الكريم «ولتعرفنهم فى لحن القول» - راجع التفاسير، وليس من معناها الخطأ الإعرابى .

ثالثة الملاحظات تتعلق بالاشتقاق : المبالغة من البلاغة ، صحيح أن الجذر واحد، لكنما المعنى متدابر ، والمبالغة - عمومًا - من مقاصد المبدعين ومن وسائلهم يستوى فى ذلك العرب والعجم ، ومبالغة الشاعر المصور ليست مبالغة، والخطر أن الأستاذ شريف قفز إلى ظاهرة المبالغة التى ينماز بها العرب فى رأيه ، وأتى بنادرة تتعلق بأبى حية النميرى وسيفه الخشبى - كسيف العرب الآن !! - وكان يسميه لعاب المنية ، وماكان هذا السيف يحيك شيئًا ، فوجد المؤلف نهزة سانحة للسخرية من العرب ومبالغاتهم ولغتهم ، ولو أعاد كرة الطرف لوجد سيف دون كيخوتى أشد تثلمًا ، وأدعى إلى السخرية من لعاب المنية .

إن النوادر Anécdota فى كل اللغات ، وفى كلام أحمد رجب وريشة مصطفى حسين نوادر أبشع ، وأصحابها يعرفون إلى من توجه ، إنها كانت مسلسلات وأفلام القدماء الضاحكة .

ليت الثورة التى أثارها الأستاذ شريف تصلح حالنا القانط العاجز ، ولو كان سيبويه - المظلوم - هو حجر عثرة فى طريق نهضتنا لضحينا به ، شريطة أن يضمن لنا المؤلف الكريم الثائر حياة تليق بهذه الأمة ، وإن بيننا فى هذه القضية لخلافًا بعيدًا ، دون أن نهتم بالتخلف وحراسة الماضى ؛ لأننا لانجد البديل ، إلا إذا مسخت الفطرة العربية ، ودعك مما يصدرونه لنا تحت اسم التقدم والنهضة والقرية الكونية ، «إن هى إلا أسماء سميتموها» ، وللكلام بقية عن تيسير النحو لعل صاحبنا يرضى .

يحيا النحو الواضح، ويحيا سيبويه ٢-٢

نحمد للأستاذ شريف الشوباشى فى كتاب اتزانه ، وعدم دعوته لما دعا إليه بعضهم من العامية ، واطراح القواعد جملة ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، وكلها دعوات وجدت من يروج لها جهلاً وتنطعًا ، أو سوء طوية ، ولكنا إذا حمدنا هذا الاعتدال من المؤلف ، فإننا لانؤيده ثائرًا فى غير ثورة ، لأن أمورنا كلها بائرة ، وسائرة نحو الخذلان بخطى حثيثة ، ولاقيامة لهذه الأمة المترهلة إلا بأن تنشط فيها بواعث الحياة ، وأول هذه البواعث هو الإحساس بالخطر الداهم ، والشعور بالغيرة العاقلة على جوهر الأمة ولغتها .

ونحن نؤمن - بيقين - أن اللغات ترقى حين ترقى قواعدها ، ومن فضل الله على هذه الأمة أن وهبها رجالاً كانت اللغة لديهم بمثابة العقيدة ، فأخلصوا لها الإخلاص كله ، وأبدع فيها المبدعون - من خلال هذه القواعد وتسخيرها - أدبًا خالدًا ، وأدركوا أن طلاب العلم لهم مستوى حين الطلب ، وأن ثمة مستوى للراسخين، لايدابر المستوى الأول الذى يتطلع إلى درجة الرسوخ ويسعى إليها ، ولذا نجد مذكرات الطلاب فى علوم العربية ، يظنها بعض الخفاف من الدراسين مخطوطات يجب أن تحقق ، وإنْ هى إلا أوراق تحمل من القدم صفرته .

أخلص علماء العربية لقواعدها ، فذللوا عسيرها - إن كان فيها عسر - وسهلوا حزونها ، ولهم مقاصد تربوية قبل أن يدهمنا التربويون بكلام غريب ، يدلل الناشئة ، ولاينفخ فيها دواعى الجد والحياة ، هؤلاء العلماء الأجلاء رأوا أن يقدموا النحو سائغًا عذبًا ، شرع رفاعة الطهطاوى - وفى جهوده عامة لنا رأى لايتسع له المقام الآن - فى تبسيط النحو والوقوف على مسائله العامة ، والنحو - عمومًا - لايحتاج تيسيره إلا إلى صفحات قصار ، لكننا نجأر بالشكوى ، حيث لاتكلفنا شيئًا ، وجاء بعده حفنى بك ناصف ؛ فألَّف كتابًا جميلاً ، قررته نظارة المعارف على مدارسها ، وفيه جهد مشكور ، ومؤلفه شاعر بصير بالكلام .

بيد أن كتابًا صدر لعلى الجـارم بك ، ومصطفى أمين بك هو النحو الواضح ، فى مجلدين ، وصاحباه خَطَوَا خطوات فسيحات شَأَتْ من تقدمهما ، وهدت من أتى بعدهما ، وقد درس المؤلفان علوم التربية ، قبل أن تكون هدفًا فى حد ذاتها، فأفادا منها إفادات جليلة ، وأولهما شاعر كبير ، يذكر فى صدارة الشعر الحديث، فنضح هذا الذوق الشعـرى فى الشرح والأمثلة ، إلى جانب الدقـة القاعدية لدى مـصطفى بك ، وقـد رأيا - وهمـا من أساتذة اللـغة فى وزارة المعـارف تدريسًـا وتوجيهًـا ، وأستاذية الشاعـر فى دار العلوم العليا - نضر الله أيامهـا - أن يقدما البلاغة الواضحة إلى جانب النحو ، فـاكتملت حلقات السلسلة الذهبية ، والذين درسوا الكتابين فى المدارس الابتدائيـة والثانوية . هم الرعيل الكريم ، الذى حفظ بيضة اللغة والأدب والبلاغة العربية .

وكان الكتابان مـباركين ، وخاصة الأول ، لأننى أذكـر أننى رأيت الطبعة التى بعـد الستـين منذ عشـر سنوات ، وهو غيـر مقـرر إلا فى بعض البلدان العربـية والإسلاميـة ، وقد شرق الكتاب وغـرب ، وشهد للمؤلفين بـطول الباع . وقبل ذلك بالإخلاص الـكريم لهذه اللغـة ونحوها ، وصدرت مـنذ قليل جدًا «الطبـعة الشرعية» ؛ لأن بعض الطبـعات أو كثيرًا منها يبدو أنها كـانت لا تعترف للمؤلف بحقوق ، حتى جـاءت هذه الطبعة ، وقامت عليها الدار المصـرية السعودية بعناية نجل الشاعـر الكبيـر الدكتور أحـمد الجارم ، أسـتاذ الطب وعضـو مجـمع اللغة العربية .

وبعض المتسـرعين من أصـحاب القشـور ربما يظنون - وبعض الظن إثم - أن تسهـيل النحو أو تجـديده يكون باستبـدال الأمثلة ، وهو وهم سـاذج ، فطن إليه المؤلفان ، وذخيرتهما من اللغة والأدب شئ غريب - فجاءت الأمثلة على القواعد من نماذج الأدب العالى ، قديمًا وحديثًا ، ولعب الجارم بك دورًا عظيمًا فى نماذج الشعر التى جاءت تطبيقًا على القاعدة ، ويكاد المتلقى حين يخرج من قراءة النحو يخرج بحصـاد أدبى وفير يصقل ذوقه وحـسه الجمالى ، ومـاكان هذا بغائب عن ذهن المؤلفين .

يخدم الـنحو خدمـة جليلة باسـتنباط قـواعده من خـلال النصوص الجـيدة ،

ولكاتب هذه السطور تجربة تروى ، حين أسند إليه تدريس النحو - وليس مادة تخصصه - ففزع إلى ديوان المتنبى قراءة نحوية مع طلابه ، وكانت تجربة وددت لو كررتها .

ثم جاءت كتب أخرى فى تيسير النحو دون الإخلال بقواعده ، نذكر منها النحو الوظيفى للمرحوم عبدالعليم إبراهيم ، عميد تفتيش اللغة العربية فى الوزارة سابقًا ، وكتاب «النحو المصفى» للعالم الأديب الدكتور محمد عيد ، وتسرى هذه الكتب ونظائرها بين القراء وطلاب العربية وغيرها من رجال الصحافة والإعلام .

غير أن طبعة النحو الواضح الأخيرة حرَّفها بعض الناشرين ممن يركبون الموجات السياسية فأتوا ببعض الأمثلة عن مصر جمهورية ، والإقليم الشمالى ، وما أدرك المؤلفان هذا العهد حيث رحلا قبله ، وربما كان من الواجب تدارك هذا النفاق والجهل المتلبس بالنفاق ، ولعل هذا النحو الواضح دون خلل وإخلال يثلج صدر صاحبنا الشوباشى ، دون أن نطمع فى أن يهتف معنا دائمًا : عاش سيبويه ، لأن كتابه يُحيِّى سيبويه رغمًا عنه .

التدوير فى الشعر

من العبارات الشائعة : أن العروض علم نضج حتى احترق . وماينسب للجاحظ أن العروض علم غث مستبرد وهى كلمات قرت فى أذهان الناس وخطرها شديد إذ يصدق غير الدارسين عن هذا العلم ، ويجعل الدارسين يقفون جامدين عندما وصل إليهم . وكأن الأول ماترك للآخر شيئًا !!

إلا أن كتابًا جيدًا صدر أخيرًا للدكتور أحمد كشك عن بعض ظواهر هذا العلم، يجعل القارئ يؤمن بنقيض العبارات الشائعة . ويدرك أن لهذا العلم خصوصية لابد من تميز الباحث فيه بها . وهى الموهبة الفطرية للمح النغم قبل لمح القاعدة ، وهو مانعتقد أن أحمد كشك يحظى منه بقسط وفير . فهو رجل كان يعالج النظم قديمًا ، وتمرس معه بالدرس الجامعى المنظم ، فاستقام الذوق والدرس. ولعل الكتاب بعنوانه يشى بالمجالات التى طرقها مابين النحو أى التراكيب ، والخطأ . ومابين الدلالة التى ينطق بها النظام النحوى . ومايوشح ذلك كله من إيقاع هو حد الشعر . وربما كان من الواجب أن نعرف التدوير فى الشعر ، وهو بإيجاز شديد : اشتراك كلمة بين الشطر الأول والشطر الثانى فى بيت واحد . وقد حاول المؤلف فى يقظة أن يرى ظواهر تعدد إرهاصات للتدوير كالتضمين والبند ، مناقشا فى حجة واضحة ماورد لدى نازك الملائكة وعبدالكريم الدجيلى عن أولية البند واعتباره أساسًا للشعر الحر .

وهو حسب مافهمنا من كلامه ، لايكاد يؤمن بأن التفعيلة تمثل وحدة نغمية وهى أساس الشعر الحر ، وكلامه هذا صحيح لأن النغم لايكون إلا بتركيب التفاعيل . وهى نظام الشعر الموزون المقفى .

يقول : «فالإيقاع التفعيلى ينفى مطلب البحر والوزن» وكم وددت لو أفاض أحمد كشك فى شرح هذه القضية ؛ خاصة أنها مطروحة على الساحة النقدية ، وله خبرة عميقة بدراستها . مسألة الشعر العمودى وردت مرات متعددة فى

مواجهة الشعر الحر . ولعل المؤلف فى هذا الاستخدام يشايع مصطلحًا شائعًا ؛ وخاصة حين يناقش مسألة البند ، وهو اصطلاح فيه كثير من التجوز ، لأن الشعر العمودى لايعنى الشعر الخليلى ، والوزن والقافية ليسا من عمود الشعر ، كما قال المرزوقى فى مقدمة شرح الحماسة .

والكتاب لأهميته لايقف عنده الدارسون فحسب ، بل هو بما حواه من نماذج شعرية - منذ الجاهلية حتى الآن - يجعله قريبًا من القارئ المتطلع الذى يبذل جهدًا؛ ليدرك أن العروض نضج لدى المؤلف فصار سائغًا ، ولم تخترق إلا الدعاوى الظالمة ، التى يثيرها العجزة والمتبطلون.

وماهو بقول ناقد !!

أن يكون الدكتور ماهر شفيق فريد «ناقدا عربيا» لا يقل غرابة عن قولنا «قصيدة النثر» فالرجل متخصص فى أدب الإنجليز ويفترض أن يكون له رأى فى الأدب الذى نذر نفسه له، لكن الأمور الآن أن أمثال د. ماهر يتركون ما يمكن أن يفيدوا فيه، ويهرعون الى ما لا قِبَل لهم به ولا طاقة، ومن ثم تزول الغرابة اذا قال هؤلاء إن هناك شيئا يرضى به العقل يسمى «قصيدة النثر».

لا شيء أدعى إلى الاستخذاء من محاولة مسخ فننا الأول «الشعر» لا لشيء إلا لكى يكون مثل فن أجنبى، إذا صح فى لغته فلا يصح فى لغتنا، بل إن العقلاء منهم لا يرضى أن يمهر نثره - وهو فى قمة للشاعرية ـ بكلمة «شعر» ويقرأ المرء خوان رامون خمينيث فى «أنا وحمارى» على أنه نثر، وكذلك رائد الحداثة روبن داريو يسمى الأشياء باسمائها، وهب أن هؤلاء سموا نثرهم شعرا فهم أحرار فى لغتهم ، ونحن أحرار أيضًا أن نأخذ عنهم أو نهدر كلامهم إذا لم يتسق ومنطق الفن الشعرى فى لغة العرب، والا فأى استخذاء هذا .!!

الشباب التافه الذى يكتب ما يسمى «قصيدة النثر» ويرفضه د. ماهر، لماذا يرفضه ؟ لأن أصحابه شباب أو شابات ليس هذا بعلة، فالشباب سوف يكتهل أو يشيخ ويكون مثل أدونيس فيما بعد، ما الذى كتبه شيخهم الأكبر وشيعته سوى العجز الذميم، وهدر قواعد فنية لا لشيء إبداعى عظيم وكيف بقبول هذا الهذر الهزل : مكان ولادتى ١٩٣٠ الشمس قدم طفل ، عرفت أقل من امراة لأننى تزوجت بأكثر من امرأة، عرفت أقل من رجل، لأننى تزوجت بأكثر من رجل. . الجسد أطول طريق إلى الجسد، إلى أخر هذا اللغو الذى يعيى أمثال المعرى والمتنبى وشوقى وصلاح عبد الصبور وحجازى وغيرهم، وهو لا يعدو لعب الحواة والمهرجين الذين تشك فى قدراتهم العقلية.

دعك إذًا من العناصر الشعرية الباطنة والإيقاعات الداخلية التى يدعو اليها

د. ماهر ود. محمود الحسينى وغيرهما، فكيف يدرس الأساتذة لطلابهم مثل هذا الكلام ووصفه لهم ولا يستطيعون العـودة فيه إلى نظام أو قاعدة. ثم لماذا الإصرار على أن يكون الناس جميعًا شعراء ،أدونيس وشيعته كانوا يقولون كلاما لا بأس به أولا ثم انصرفوا إلى العبث ونعتقد أن الشـعر الحر كان إحدى الوسائل لهذا النبت الشيطانى «قصيدة النثر» وأصحابها يرون فى الشعر الحر تخلفا ورجعية !!

سوف نستـأذن الداعين الى هذا العبث أن نتـمسح مثلهم بالإيقاعـات الداخلية والعناصر الشعرية البـاطنة، أن ننشر مرة أخرى كلام الرافعى وحـسين عفيف وطه حسين والمنفلوطى والزيات على طريقة دواوين الشعر، ونلغى النثر من لغتنا إلا إذا كان إحصاء أو علومًـا، وربما يعاتبنا دعاته بأن نزج العلوم التطبيقـية لتوترها وتوتر أصحابها ضمن «قصيدة النثر» .

بل سوف نستأذن أكثر بأن نعيـد طباعة القرآن الكريم ـ والعياذ بالله ـ وأن ننشر دواوين منه «سـورة مـريم، طه، جـرء عم يـتسـاءلـون، الرحـمن» على طريقـة الأسطر!! ونعتقد أن الإيقاعات الداخلية بارزة بوضوح فى كل هذا !!

بل سوف أستأذن د. ماهر وأضم مقاله فى الأهرام الأدبى ٢/ ٥/ ٩٥ تحت دائرة «قصيدة النثـر» ففيه كل شرائط هذا الكلام الذى يدعوا إليه، خـاصة هذا الانفعال غير الموضوعى، وهو من عناصر الشاعرية ـ وأعده ـ ونحن من المحافظين الزائدين عن الحاجة، وحسـبه أن يظل وحده ففيه كل الكفـاية ـ أن نسمع كلامه فى الأدب العربى إذا سـمع الإنجليز آراءه فى أدبهم، وإذا أدرك موسيـقى الشعر العربـى كما يدركها المستشرقون، وإن كنا نخشى على أنفه أن يكون من الراغمين !!

اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم

خلاصة فكر أصيل متجدد ، وتجربة عميقة تحيط بالعربية أصولاً وفروعًا ، ترفده نظرة دءوب ، تستلهم التراث غائر الجذور ، وتستضئ بالوافد المعاصر دون أن تعشى به ، حيث تستعصم بفكر ناقد ، يرتكن إلى غيرة ونخوة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور كمال بشر العالم اللغوى الكبير ، وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ العربية بدار العلوم ، وله تاريخ حافل فى هذا الحقل المنذور له ، منذ بداياته الباكرة ، حفظًا للقرآن الكريم ، ودراسة فى الأزهر ثم دار العلوم، وحصولاً على الدكتوراة من جامعة لندن ، وقد استقام له نطق متفرد منذ ميعة صباه الأول ، وتبصراً بفروع العربية أصواتًا وصرفًا ونحواً ودلالة ، وأثمر ذلك كله ثمرات مباركة تأليفًا فى العربية وترجمة إليها من الإنجليزية ، وقبل ذلك وبعد ذلك غيرة كريمة على لغته ، حين يفتقدها بعض من درس دراسته ، وألف مثله ، وهو محاضر من الطراز الأول يروقك منه ذكاؤه ، وجميل عرضه وقوة عارضته ، ولغته المنخولة الموقعة وإن كانت نثراً .

جاء كتابه هذا خلاصة مركزة فى أوان النضج الشديد والتريث فى المعالجة ، وإن لم يخل من حماسة موضوعية نراها حقيقة بهذه الصفة ؛ لأنها حماسة الشيوخ الكبار لاتأنف من التجديد وفتح النوافذ ، ماكان هواؤها نقيًا ، بريئة من غرارة الشباب وإن كان فيها الشباب .

تكسر الكتاب على بابين كبيرين ينتظمان عدة فصول ، الباب الأول تحدث عن «الواقع المعاصر للغة العربية ، وموقف الناس من هذا الواقع» وقد عالجت فصوله الثلاثة ، الواقع المعاصر للعربية ، والمشكلة اللغوية بين الوهم وسوء الفهم ، واللغة بين الطبع والصنعة ، وتناول فى الباب الثانى «من مشكلات اللغة العربية» المشكلات القديمة عن تقعيد اللغة ومناهجه ونظام الكتابة العربية ، والمشكلات الحديثة ، عن النظرة الاجتماعية والنزعة إلى التغريب ، وسيطرة العاميات ، والعربية فى دور التعليم والعربية لغير العرب .

وعنوان الكتاب بداهة يشى بأزمة تتأشب بين الواهمين وسيئى الفهم ، وكلاهما لاحق له فى قول عن العربية ، لكن الواغلين عليها كثير ، يتداعون ببضاعة مزجاة، وهؤلاء خطرهم داهم ، حيث يملكون من وسائل التأثير مالايملكه أهل اللغة الذين هم أحق بالكلام ، لكن الدكتور بشر امتلك من الشجاعة مايواجه به تلك الجحافل التترية ، الداعيين إلى العاميات حينًا ، ولهم صوت زاعق جدًا هذه الأيام وإلى مستوى العربية المعاصرة حينًا آخر ، وتلك قولة حق يراد بها باطل ؛ لأن الحديث عن المستويات فيه تمزيق لوحدة اللغة وإن لبس طيلسان الموضوعية والبحث العلمى ، كما واجه المؤلف كليات التربية وتقتضى حملة خاصة - التى تدرس العربية قشورًا مخنوقة بمناهج التربية ، أما مدارس اللغات وأقسام اللغات الأجنبية بالكليات النظرية ، وإنشاء جامعات أجنبية ، فكلها تحاصر العربية وأهلها فى رأينا ، وتنزوى العربية تعتصم بصمودها .

وأوجه الاتفاق بين الأستاذ الكبير وبينى أكبر من أوجه الاختلاف ، حيث أرى عدم الأخذ بتعدد الأنظمة إلا فى مجال البحث العالى . . أما الدرس للطلاب فينبغى عدم الأخذ بالتعدد ، نظرًا لطبيعة العربية وتاريخها ومثَّل له الأستاذ بالأفعال الجوفاء (قال وباع) وللبحث فى قواميس اللغة ، كما ألمس حيرة فى تعبير الأستاذ عن «اللغة الفصحى أو الفصيحة» حيث يريد أن يترخص ، ونعتقد أن «الفصحى» أدق حيث تشى بالتميز وهو مطلوب وله أهله ، كما يمكن أن يكون أفعل التفضيل على غير بابه ، غير أنى أحمد للأستاذ بشر موقفه من العاميات ومن الرطانات الضاغطة جاهلة وسيئة النية ، وأحمد له لغته «الفصحى» لا «الفصيحة» فقط ، فى بيانها المشرق ولعله حين كان يكتبها إنما كان ينطقها مستمتعًا؛ لأنها بيان راسخ فى غير حاجة إلى طلاء ، ولو كان طلاء الزينة والرواء.

من حديث اللغة والشعر

يكثر اللغط كـما يكثر الغلط هذه الأيام حول اللغـة وتدنى مستواها ، وكيـفية العلاج والخروج من الأزمة ، وحول الشعر مستوى ومصطلحًا ، وجمهور الشعر، وكيفية اجتذابه مرة أخرى بعد إحجامه .

والحق أن استشعار الأزمة باب من أبواب عـلاجها إذا صحت العزائم وشحذت الهمم ، وقد ألف الناس جمعيات وعـقدوا ندوات ومؤتمرات ولجانًا تجتمع وتدرس وتقترح الحلول وتقدم التوصيـات ، غير أن الأمر لايخرج عن باب الكلام وتنفض الاجتماعات بسلام .

فى جانب اللغة ثمة أكثر من جمعيـة ، لاتفتقر إلى حسن النية والفأل الحسن ، وكل منهـا لايؤدى إلى الغاية المرجـوة وهى عزيزة عـسيرة الطريق ، بـعد أن طال الأمد بأبناء هذه الأمة آبقـين عن لغتهم وعن الاهتمام بهـا ، لائذين بلغات أخرى تتمثـل فى التعليم الأجنبى . وإن لبس مسوح العـربية أو المصرية - منذ البـواكير الأولى للناشئة ترتضع الإزراء بلغـتها وتلوى لسانها بلغة أخـرى ؛ لأنها فى رأيها لغة الوجاهة والشـارة الاجتماعيـة الملحوظة ، وتئول القضيـة إلى فكر آخر يربطه بالعربية شهادة الميلاد أو الاسم .

ومن عجب أن مصـر - وهى رائدة العروبة - كانت أيام الاحتلال تهتم بلـغتها كما تهـتم باللغات الأجنبية الأخـرى ، ولم تكن الأزمة مستحكمـة كما هى الآن وكأن مقـاومة المحتل كانت تبعث فى عروق أبنـائها النخوة أو «المصل» الذى يطارد «فيروس» العجمة الضاريـة ، وحين آل أمرها إليها ركن الناس وادعين آمنين ، مع أن الواجب أن تنهض أكثر وأن تتقدم لغتها كحال اللغات لدى الأمم الناهضة .

ذهبت إلى إسبانيـا عاثر الخطى فى الإسبانية وأردت شراء خبـز - لايبيع محله غير الخـبز - فنطقت ban بدلاً من pan الكلمة الصـحيحة وإذا بالبـائع يقول ليس عندى فاستخدمت لغة البكم «الإشارة» فنطقها صحيحة بطريقة أحسست منها أننى

أخطأت خطأ جسيما ومعه حق ويكرر الرجل الصواب ، ولم ينس أن يشيعنى بازدراء استحقه لم أفهمه ساعتها !!

هذا نمط نحن فى حاجة إلى مثله حتى من المتخصصين المتساهلين ، الذين لايرعون إلاّ ولا حرمة .

وحرمة اللغة من حرمة العرض . . نحن لانستخدم العربية استخدامًا صحيحًا وتقلص هذا الاستخدام حتى فى قاعات الدروس الجامعية التى تعلم العربية ، وغدونا نستمع إلى مايشيع من الفصحى والفصيحة تساهلا !!

الإعلانات التى تملأ وسائل الإعلام والنشرات التى تكتب بلغة أجنبية وأسماء المحال التجارية وغير التجارية وأحاديث المثقفين المطعمة بالكلمات الأعجمية ، وكأن العربية إثم أو عار أو عاجزة عن مطاوعة الألسنة .

حتى الأماكن التى تنتظر منها لغة سليمة بريئة فى نطقها وقواعدها من اللحن والخطأ أصبحت هى الأماكن التى تنتظر منها العجب فى الأخطاء قبل غيرها ، ولعل القارئ يلقى السمع إلى كثير من خطباء المساجد - وكنا نتعلم منهم العربية قبل دروس الدين والفقه - ليدرك أن مخارج الحروف أصابها الإعلال والإبدال ، حتى فى نطق القرآن الكريم والحديث الشريف ، وغاب عنها علم التجويد الذى كنا ندرسه فى مراحل الدراسة الأولى بالأزهر فالقاف كاف والذال زاى ، وبقية الحروف لاتعرف لها هوية . . ودعك من النحو واللغة فالأصوات هى البابة الأولى فى اللغة ، وعلى القارئ - غير مأمور - أن يذكر B و P وماشاكل ذلك أما الآيات القرآنية فلاتعرف النحو على الإطلاق على ألسنة الجمهرة منهم .

هناك حلقة مفقودة فى تعليم العربية ندور حولها ولانكاد نباشرها لمسًا تتمثل فى استشعار العيب والنقص ، حين تشيع هذه الظاهرة التى لن يجدى معها عقد ندوات وجمعيات ومؤتمرات وتوصيات . . ولابد هنا من جهة منفذة تملك الثواب والعقاب ، وتملك إيجاد هذا الإحساس ورعايته ، وربما كانت وسائل الإعلام كلها تملك العلاج النافع السريع ، حين تطبق هذا على العاملين بها ؛ لأنها تستولى على ألسنة الناس فى التو واللحظة إعلانًا وخبراً ومسلسلاً وأغنية وحديثًا ، وربما

غاب عن القائمين على تربية النشء طريقة تعليم النحو وقواعد البلاغة ، ولايتأتى ذلك إلا من خلال نصـوص أدبية جميلة تستنبط منها القاعدة والمثل ؛ لتأتى بعد ذلك مرحلة التوسع فى المبسوطات النحوية والبلاغية ، ولعل المرحلة التى كان يدرس فيها الطلاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة لعلى الجارم .. والمنتخب من أدب العرب هى المرحلة التى تعلم منها الناس كيف يعرفون النحو ، وكيف يتذوقون الشعر ويتدسسون فيما بعد إلى فهم لغتهم ، كما يجب .. يستوى فى ذلك الطلاب المتخرجون من أقسام اللغة العربية أو اللغات الأجنبية أو حتى أقسام الفلسفة والتاريخ والاجتماع وكان لنا منهم كتاب ومترجمون كبار مثلوا زمن النهضة فى القرن الماضى .

ومن اللغة إلى الشعر الذى هو «لغة شاعرة» .. كان لدى الناس خيط ذهبى يربطهم بماضيهم الشعرى الزاهر ، يتعلقون به وينسجون له امتدادًا يتطلع إلى التجديد والأفق الفسيح ، ويحس المتابع بأن هذا الذى يقرؤه نبت فى تربة الشعر الصحيح دون أن يحمل سبخ هذه التربة ؛ لأنه يتنفس فى هواء نقى بعيد عن الجذور الميتة «التقليد» أو التسلق الهلامى المبعد له عن أصالته ولون سحنته .. هكذا كانت النهضة فى مصر على يد البارودى وعلى «اليافى» ، الذى سبق البارودى - وهو من أصل دمياطى - فى شعر الشخصية وعلى يد شوقى والجارم وحافظ ومطران وإخوان هذا الطراز ، ثم امتدت النهضة واستحصدت لدى جماعة الديوان العقاد والمازنى وشكرى ونمت وتطورت عند جماعة أبوللو ، وإخوانهم من شعراء مابعد الديوان عبدالرحمن صدقى وأحمد مخيمر وأضرابهم .

كل هؤلاء مجددون ذلك التجديد ، الذى يتعلق بطبيعة الشعر العربى تجربةً وأداءً ، وامتد هذا التجديد لتستظل به المسرحية الشعرية والقصة الشعرية ، الخيط فيه ممتد وموصول ومشرئب للأفق الوسيع ؛ حيث اطلع بعضهم على شعر الأمم الأخرى ولم يذوبوا فيه ، بل أخذوا منه مايتفق وطبيعة لغتهم وشعرهم ، وتلك هى الفائدة المرتجاة .

ثم نجمت حركة الشعر الحر فسلكت طريقًا آخر نختلف حوله أو نتفق .. لكننا نتفق حول حقيقة واضحة هى تغيير الطبيعة ، كما نتفق أيضًا على أن بعض كبار

هذه الحركة نبتوا فى رحم الشعر العربى الأصيل سرى فى كيانهم ، ولايمكن للناقد فى هذه الحالة أن يسمهم بالعجز ، وإن كان كثيرون منهم رائدهم العجز ممن دخلوا الحركة دون ركيزة شعرية راسخة . . ومن هذا الكثير كبار ، يقرأ المرء كلامهم فى الشعر الموزون المقفى فلا يهتف به إلا هاتف الخذلان والعجز ، لكنهم أذاعوا هذا الكلام بما يملكون من وسائل البث والإعلان وحين رحلوا أو سكنوا سقطوا من ذاكرة الشعر والناس .

أساء هؤلاء العجزة إلى الحركة وهم كثيرون ، كما أساء النظامون إلى الشعر الموزون المقفى ، لكن القارئ سرعان مايلفظهم . . ومن ثم كان بلاؤهم أخف ، ولأن الباب إذا اتسع لايضيق عادة فقد خلف من بعد حركة الشعر الحر أو نسل منها إن شئت أرادوا أم لم يريدوا خلف أضاعوا الوزن أو أضاعهم ، لأنهم لايملكونه ، واتبعوا سبيل النثر ولماذا لايجربون وقد جرب قبيل قبلهم فرأوا فى السابقين من حركة الشعر الحر جاهليين وتقليديين ، وأن الوزن ليس جوهر الشعر، وحسب المرء أن يكتب خواطره فى كلام يدابر بعضه بعضًا يكتنفه الغموض، حيث لايعرفون الإبانة وهى قدرة، وتلعنه اللغة لركاكاته وتهافته . . يتصدرون المجالس والندوات ، وفى كثير منهم قحة وادعاء وفى بعضهم قدرة اجتماعية على جذب أشباه النقاد ، وهم بلاء فى كل زمن أشادوا بهم نفاقًا وارتزاقًا ؛ خاصة إذا كان هذا الدعى صاحب برنامج أو عمود صحفى باهت . . وفى هؤلاء الأشباه ظمأ إلى الشهرة ، وفى بعضهم خشية غريبة أن يهتم بالتخلف وعدم مسايرة «الجديد» يملأون الدنيا ضجيجًا بهؤلاء «الكتبة» وصدّق هؤلاء وأولئك أنفسهم حين خلت الساحة ، فغدوا «شعراء العصر ونقاده» وأحس أصحاب الشعر الحر بالخطر على الشعر واللغة وربما على مكانتهم وتاريخهم . . فحاربوا هذه الحركة الأخيرة، كما أحس النقاد منهم بهذا الواغل الجديد ، فألفوا الكتب فى محاربتهم، بعد الخراب والدمار الذى ألحقوه بالشعر - فن العربية الأول وسر أسرارها - وهم أول العارفين أن التسيب يستتبع تسيبًا ، وأن الاستسلام يؤدى إلى ماهو أخطر منه .

العلة فى رأينا تئول إلى غياب القاعدة أو «المصطلح» ما الشعر أولاً ! نحن مع

التجديد أولاً وأخيرًا ، ومع التجريب فى نظام القاعدة ، ونعتقد يقينًا أن الوزن الخليلى - تجربة ودراسة - يتسع لشاعر مجدد لديه مايقوله وفى ذرعه الإبانة عن نفسه يستوى فى ذلك شعر الغناء وشعر المسرح والقصة ، وأن النثر مكانه حظيرة النثر . . وربما يكون أفضل من الشعر إذا رزق الكاتب الموهوب وأن الشعراء من أبناء الأمم الأخرى ، خاصة الكبار ومنهم ، يرون نثرهم نثرًا وإن كان فى ذروة الشاعرية منهم خوان رامون خمينث «نوبل ١٩٥٦» وروبن داريو «شاعر نيكاراجوا الأكبر ورائد الحداثة» ، ولهم دواوين شعرية خالصة فى ذروة عالية من الشعر .

أما عندنا فذوو العاهات من أصحاب النثر يقحمون أنفسهم فى ديوان الشعر ، وربما لو خلصوا للنثر؛ لكان لهم مكانهم الذى يعتز به ذلك الفن الرفيع ومكَّن لهم أن دور النشر - حتى القومية منها - تنشر كلامهم على أنه شعر ، ويتقدمون به إلى جوائز الدولة غير أنهم يرتدون ، لكن الأمور إذا لم تؤخذ بجد . . فسوف يجدون فى المستقبل القريب من يمنحهم جوائز الشعر فى مؤسسات الدولة ، وقد تسرب إليها بالفعل بعض الأعضاء ، كما تسربوا إلى منتديات الأدب المصرية والعالمية باسم الشعراء ، ونعتقد أن المسألة فى حاجة إلى دراسة نفسية تفضح هذا النقص والتشوه ؛ لأنه لايتعلق بالكلام بل بشخصية كاتب الكلام .

إن حماسة التجديد تدفع ببعض الناس إلى الطرف المقابل ، وتركبهم مراكب يتريث دونها الحصفاء ويتقدم الزمن فتخف هذه الحماسة ، يعتريها شئ من الخشية على مستقبل اللغة والشعر ، وهى خشية محمودة ومشكورة . . ولكن الزمام قد أفلت كثيرًا ، ويحتاج إلى تضافر جهود كثيرة ربما كان «الكلام الموزون المقفى» صاحب الكلمة فيه ، إذا أردنا لهذا الزمام ألا يطيش ، وأن يظل فى أيدينا نعيد به الاتزان ونعيد القاعدة ونعيد وجوهنا ، قبل أن تطمسها الضغينة النكراء على لغتنا وعلى شعرنا وعلى هويتنا .

أخلاقيات العمل الإعلامى

موضـوع عسيـر ، لندرة المصادر العـربية من جهـة ، وللقضايا الـشائكة التى يعالجـها ؛ حيث يحـتم دراسة الوثائق والقـوانين ، والاستقـراء التاريخى ، لافى مجتمع واحد ، بل فى مجتمعين كبيرين كالمجتمع الأمريكى والمصرى ، واستئناسًا بالمجـتمـعات الغـربية الأخـرى ، توضيـحًا للظاهرة ، ومـقارنة بين فـهم النص وتطبيقه.

إلا أن هذا الموضوع مع عسره شديد الجـاذبية ؛ لأنه يقفك على ظواهر حيوية، خاصة حين تتناول الدراسة المجتمع الذى تـعايشه ، وتتحسس مشكلاته ، وتقارن فى الوقت ذاته بين مجتمعات أخرى ، لاتتفق فى التقاليد والعادات والقوانين .

ومـؤلف الكتاب الأسـتـاذ الدكتـور حـسن عمـاد مكاوى رجل تخـصص فى الدراسات الإعلامية ، ومتخذ لها الوسائل العلمية ولايطرق الموضوعات الشائعة ، بل إنه يعالج عـويص المسائل ، التى لاتنحصر فى حـقل تخصصه فـحسب ، بل يمد بصره إلى التاريخ والفلسفة والقانون ، مرتئيًا أن الدراسات الإعلامية لها صلة بهذه المجالات ، بل لاتقوم إلا بها ، وإن كان المظنون غير ذلك .

يتألف هذا الكتاب من أربعة أبواب ضخام ، كل باب يضم جملة من الفصول، تحتوى على معلومات وفيرة ، ترتكز على مصـادر أجنبية كثيرة ، فعالج فى الباب الأول تطور حرية التعبير والصحافـة ، وفيه فصلان عن الإطار التاريخى والفلسفى لحرية التعـبير ، وعن حرية الصحافـة فى المجتمعات المخـتلفة ، ويعرج على هذا المفهوم فـى المسيحية والإسـلام والمجتمعـات الغربية والعربيـة ، وتناول فى الباب الثانى حرية التعبير وحقوق المجتمع ، وفيه ثلاثة فصول : الرقابة الحكومية وقوانين التـحريض ، ورقـابة التنظيـمات الخـاصة لـوسائل الإعـلام ، ووسائل الإعـلام والحكومة : من يراقب من ؟ .

وفى الباب الثالث تحـدث عن حرية التعبيـر وحقوق الإعلامى وفيـه فصلان :

الحق فى حماية سرية المصادر الإعلامية ، والحق فى معرفة مايدور فى المنظمات الحكومية ، وفى الباب الرابع تناول حرية التعبير وحقوق المواطن وفيه خمسة فصول : الحق فى حماية الشرف والاعتبار من جريمة القذف ، والحق فى حماية الخصوصية ، والحق فى محاكمة عادلة ، والحق فى النشر ، والحق فى حماية الآداب العامة من الأعمال الفاحشة .

والحق أن هذه المباحث مسهبة ومتعمقة ، ولاتهم القارئ المتخصص فقط ، بل تمتد إلى اهتمامات القارئ غير المتخصص ؛ فهى تشبع رغبة الإعلامى ، والمؤرخ، ودارس الفلسفة والقانون ، وتهم رجل الأخلاق والضوابط العامة ، وقد أسعدت المؤلف مراجعه المتنوعة ، محسنًا استخدامها والإفادة منها ، ومناقشتها ، ومباحث القوانين فى تصورنا عسيرة ومملة ، إلا أن الدكتور عماد استطاع فى حذق أن يصوغها ، فى لغة محددة وعلمية لاتزيد فيها ولافضول .

ويحس القارئ خلال المقارنات التى يعقدها مدى حرصه على الموضوعية العلمية، وفى الوقت ذاته يحس هذا الفيض الودود ، وهو يعالج القضايا فى بلده مصر ، فتسرى بين سطوره تلك الأمنيات ، التى يلمحها القارئ لسد الثغرات التى يمكن أن تعترى اللوائح والقوانين أو تنفيذها أخلاقيًا . . . هنالك تحس أن الكاتب إنسان أولاً ، تؤرقه مشكلات وطنه ، وكأنه يقول لك إن بلدنا يستحق تلك الحرية فى التعبير وفى النشر ؛ لأن أخلاقياته وتقاليده وآدابه المرعية لها ذلك السلطان ، الذى يجعل العمل الإعلامى فى بلد مثل مصر أخلاقيًا فى المقام الأول .

وفى الكتاب طرائف كثيرة ، ومفارقات ترضى القارئ المتعجل والمتريث أيضًا ، غير أن هذا القارئ فى حاجة إلى سياحة فى تضاعيف هذا الكتاب ، الذى أضاف إلى المكتبة العربية مؤلفًا جديدًا فى حقل عسير ونادر .

شعر الحداثة فى مصر

هذا كتاب ضربت حوله أسوار من العزلة والاحتجاب ، وكأنما أريد له أن يظل فى الأقبية الرطبة ، يتهامس حوله الناس دون أن يعلو صوت بالحديث عنه ولولومًا واستهجانًا وهو ضرب من الكنود ، الذى لايليق بحركة النقد ، التى يجب أن ترى وتحلل وترفض وتقبل ويئول الحال إلى مؤامرة من الصمت ، تحجب الصوت الآخر ليموت «بالسكتة القلبية» .

لكن بصيصًا من الضوء تسرب فى تلك الحوالك إذ أقامت جماعة دار العلوم برئاسة د. الطاهر مكى بمناقشة نقدية لهذا الكتاب ، قام بها الأساتذة على عشرى وشفيع السيد وعبدالحميد شيحة ، ودار حولها حوار من جمهرة الحضور .

والدكتور كمال نشأت شاعر أولاً وناقد ثانيًا ، وشهدت بداياته جماعة أبوللو وخرج عليها وعلى القصيدة الموزونة المقفاة ، هو وبعض رفاق جيله ، مثل فوزى العنتيل ومحمد الفيتورى، وكتب شعرًا حرًا ثم احترف النقد وعمل بالجامعات العربية ولم يهجر الشعر ، فأصدر طائفة من الدواوين .

وقد درس فى كتابه ابتداءات الحداثة وانحرافاتها وأزمتها ، واستغرق ذلك كله أحد عشر فصلاً ، دار فيها الحديث عن شعر الحداثة فى مصر وعن معجم أودنيس. ومعجم شعراء الحداثة وعن تركيب الجملة لديه ولديهم وتناول ظاهرة الغموض والتصوف والصورة وقصيدة النثر والإيقاع وانتفاء الوجدان وشعر الحياة اليومية والنقد الحداثى . .

وهذه الظواهر احتشد لها المؤلف ، ورجع فيها إلى كم ضخم من الكتب والدوريات وصنف كل هذه الظواهر ورتبها موضوعيًا وقرن الأشباه والنظائر محللاً وناقدًا رابطًا بين هولاء الحداثيين وأدونيس وتقليدهم له .

وواضح أن الجهد المبذول يعيى فردًا واحدًا . . لكن المؤلف كان متعقبًا للظاهرة وواضح كذلك الإدانة لهذه الانحرافات .

وفى الحقيقة أنا أتفق مع المؤلف فى كثير مما ارتأه ، مدركًا معه مدى الخطر الذى يتهدد الشعر العربى الحقيقى ولغتنا الشريفة والأدب العربى فى مصر خاصة ، لكن اختلف معه أيضًا فى كثير آخر ، ولعل أهم مانختلف فيه أن هذه الحداثة نسلت من الشعر الحر حين ارتضى ألانحتكم فيه إلى قواعد ضابطة ، وهاجم دعاته منذ نصف قرن تقريبًا القصيدة الموزونة المقفاة ، ولها قواعدها الراسخة ودعك ممن ينتسبون إليها نسبًا غير شريف لأنهم أعداؤها قبل الحداثيين ، وأملى لهؤلاء الدعاة نقادهم والطرفان فى مأزق حقيقى الآن لأن أصحاب الحداثة أفلتوا من سلطتهم ، وكلما دخلت أمة لعنت أختها . . ويرى الحداثيون الآن أن أصحاب الشعر الحر جاهليون ، وتجاوزهم الزمن وهى التهم نفسها التى كان يوجهها أصحاب الشعر الحر إلى أصحاب الشعر الموزون المقفى «وكما تدين تدان» وغدا أصحاب الشعر الحر وكأنهم يدافعون عن وجودهم هم ، ولو لم تصبهم سهام الحداثة فربما لايعبأون ، ونقادهم الآن فى حيرة واصبة ، يوجهون ضرباتهم أيضًا إلى الحداثيين، وكانوا يسبحون بآلاء أصحاب الشعر الحر ويقولون دعوهم فترة من الزمن حتى تنضج تجربتهم وهاقد نضجت وولدت نسلاً غير شرعى ، لايعترف بها . . ومن هذا المنطق ذاته أقول دعوا الحداثيين أيضًا خمسين سنة أخرى ، حتى تنضج تجربتهم، حرية بحرية وهل حرام على بلابله الدوح ؟

دكتور كمال : أنت مع أصحابك أحدثتم خرقًا للقاعدة الذهبية ، فلا بأس من خرق آخر والبقية تأتى ولست أخفى «شماتتى» فيك وفى أصحابك ، لكنها شماتة متفائلة ، حيث تفضى الاستهانة إلى استهانة ، وحين يدرك الناس هذا يفقدون ثقتهم فيما هو شائع ومبذول ، ويبحثون عن الأصيل ولو كان متواريًا والساحة مليئة بالشعراء الأصلاء ، يشكون مما يشكو منه كتابك من أسوار العزلة ، ولعل التحية المقرونة بالشماتة دليل على أن المستقبل القريب «للشعر الشعر» .

هل الرواية ديوان العرب؟

الشعر العربى هو سر هذه اللغة ، وهو أحد الأدلة على إعجاز القرآن الكريم ، والنفاذ إلى مضايقه يعسر على كثير من أبناء هذا الجيل ، وإذا كان هو ديوان العرب وفنهم الأول . . فينبغى أن يظل كذلك حتى ولو حاصرته فنون أخرى أو شوهت معالمه فئة تتعاطاه دون فهم أو موهبة .

والفن الروائى والمسرحى فن مستزرع فى لغة العرب ، وإن حاولنا رؤية جذور لهما فى التراث القديم ، ومن ثم لن يكون لهما - فيما نرى - ماللشعر من جذور موغلة فى هذه اللغة ، إلا إذا استطاع كاتبهما أن تنهض لغته ، وأن تكون له لغة داخل اللغة العامة وبذلك يقترب من فن الشعر ، ونحن - عادة - نثنى على لغة القصة والمسرح النثرى حين تكون مكثفة ومتوترة وشاعرية فى المقام الأول لأنه ابن اللغة الشاعرة .

ولعل كاتبنا الكبير نجيب محفوظ قمة فى لغته لأنه استطاع باقتدار - أن يطوع الفصحى العالية لمقتضيات الفن القصصى وشرائطه ، ولم يتأت له ذلك إلا بالوقوف العميق على طرائق التعبير العربية فى نماذجها العليا ، كما تأتى لآخرين أمثال المازنى والعقاد والجارم ويحيى حقى ومحمد عبدالحليم عبدالله وآخرين لأن أغلب كتابنا فى القصة والمسرح وأغلب نقادهم كذلك لايقفون وقوفًا جيدًا عند تراثنا العربى ، كما يصنع الأجانب وحسبنا أن نذكر أنطونيو جالا ومسرحياته ورواياته؛ لنرى طرازًا من الفن الرفيع لغة وتقنية ، ربما يتساهل فيها بعض كتابنا فيقعون فى منتصف الطريق .

والدكتور على الراعى فى حواره المنشور بالأهرام الأدبى ٩٤/٩/٢٠ قال كلامًا غريبًا ، وإن كان لايستغرب منه ، فالرجل أنفق عمره فى نقد الرواية والمسرح وميل الإنسان لعمله شئ غريزى ، إلا إذا جار على فنون أخرى لمجرد هذا الميل لا لسبب موضوعى ، ومشكلة الدكتور على الراعى ومن يحذون حذوه أنهم متخصصون فى شيء واحد فقط ، مع أن الفن لايتجزأ وله وجهة نظر نحن

نختلف معها خلافًا جذريًا ؛ لأن التوجه مختلف . . نحن نعتقد بيقين أن الدكتور الراعى متواضع المعرفة بفن الشعر العربى ، ولذلك ساء ظنه بالشعر وبشعر العقاد خاصة وبمقولة العقاد عن فضل الشعر على القصة وبصرف النظر عن موقف العقاد . فإن كثافة الشعر عن القصة شىء لايمكن إنكاره ، وحسبنا أن نقول شعراً فى الغزل لا فى التصوف فقط كما رأى الدكتور الراعى، يقول الشريف الراضى :

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

ويقول العقاد - الذى لايعجب الدكتور الراعى :

لم أدر كيف يتاح لى نسيانها وخيالها فى ناظرىّ معلق
حتى نسيت فعدتُ أذكر أنها كانت هواى فلا أكاد أصدق

مثل هذا الشعر يحتاج إلى صفحات من الرواية لتقول ماقاله ، وبين يدى آلاف الأمثلة لمثل هذا الإيجاز المحكم ، ذى المضامين المتفجرة . . ثم إن الرواية - كما رأى العقاد - تروج بين طوائف غير طوائف الشعر الذى يحتاج قارئوه إلى استعداد خاص ، صحيح أن ثمة روايات جيدة ، ولكن جودتها لاقترابها من الشعر ، ويرى الدكتور الراعى أن الشعر لينقذ نفسه عليه أن يكون مسرحيًا ، وكان بودنا أن نرى هذا المخرج ، لولا أن الشعر سيظل غنائيًا ومسرحيًا فى كل لغات الأرض ، وثمة مسرح شعرى لايساوى الورق الذى كتب عليه .

وإذا رأينا الشعر فى أزمته الآن . . فلايكون البديل الرواية أو المسرح ، بل علينا البحث وعلاج الأزمة ، ولن يكون إلا بالتعليم الجيد ، والوقوف على التراث الحقيقى لهذه الأزمة ؛ لتعيش عصر الشعر فن العربية الأول ، وعلينا أن يظل فنها الأول ، غير أن الفساد قائم ، ومحاربة الشعر عنيفة ، وحسبنا ضياع مصطلحه الآن ، وبلبلة القارئ والناقد والمبدع . ولم يحدث هذا فى الرواية أو المسرح رغم التجريب ، ونعتقد أنها حرب مقصودة لأنها تطعن العربية فى الصميم ، والناقد الذى يتخصص فى النثر - متقوقعًا - ليس بالناقد المستقيم حكمه فى لغة العرب ، وكم كنا نود أن نسعد الدكتور الراعى إيمانًا بما يراه . . لكن ليس بأيدينا أن نزجى إليه مثل هذه السعادة فنحن نناقضة أشد المناقضة .

إنى أشم رائحة الفأر

ظنٌ يساورنى وأدافعه ، وكم أود أن يكون من بعض الظن ، لأنه يتعلق بلغة هذه الأمة ، وبشعرها الذى هو جوهر فنها ، وآية ذلك أنى أرى مايحاك ضد هذه اللغةوضد فنها الأول ، بيد أبنائها لا بيد عمرو ، فأشم رائحة الفأر كما يقال فى المثل .

جاءت حركة الشعر الحر لتنسف نظامًا راسخًا ، ربما كان من أدق الأنظمة ، واستبدلت به «نظامًا ناقصًا» إذا صحت تسميته بالنظام ، لأننا - فى الحقيقة - لانئول فيه إلى قاعدة تحتمل التصويب والتخطئة ، وساعد على رسوخ هذه الحركة عوامل أدبية وغير أدبية ، وقد ركب هذه الحركة شعراء لهم وزنهم فى الشكل الموزون المقفى ، فأعطوها بعض الشرعية ، وجعلوا لها بعض القبول لدى الناس ، لكن هذه الحركة أيضًا امتطاها العجزة والمقلدون ، ومن لايستطيعون قراءة الشعر سليمًا لا إبداعه ، فشاهت الحركة ، وهى التى قضت - عامدة أو غير عامدة - على جمهرة من شعراء الشكل الخليلى ، الذين استحر بهم القتل - واقعًا وفنًا - فلاذوا بأسوار العزلة ؛ حتى تنجلى الغاشية، وغدونا نرى شعراء هذه الحركة يقولون - فى الأغلب الأعم - كلامًا وسطًا ، متشابهًا ، لاينماز فيه قائل من قائل، وإن كانوا قد انتصروا إعلاميًا ، وغدت لهم الساحة شبه خالية ، إلا مايكون من قبيل ذر الرماد فى العيون ، فيكون فى المهارج العامة قليل من أصحاب الشكل الخليلى ، ونفر قليل جدًا فى لجان الشعر منهم ، ولايكاد يكون لهم صوت مسموع .

لكن يبدو أن الأمور تسير بسرعة غير معهودة ، إذ جاءت الساحة أمة أخرى ، ترى فى الشكل الحر رجعى إلى جرير والفرزدق ، وأن الأوان قد آن «لقصيدة النثر» التى تجرف القصيدة الحرة - وهى تستند إلى التفعيلة العروضية - ودعك إذن من القصيدة الموزونة المقفاة ، فتلك من البرابى القديمة ، التى تتكفل بها هيئة الآثار ! !

وعلى الرغم من أن هناك مغازلة من بعض رموز الشعر الحر لأصحاب قصيدة النثر ، محاولة لاحتوائهم ، إلا أن الزمام قد أفلت ، فلايعترف الأخيرون بأصحاب الشعر الحر ، ويرون فيهم قطعة متلكئة من الزمن الغابر ، وأنهم مجرد ضيوف على زمنهم ، وأن إبداعهم لحق بإبداع الجيل الماضى ، والحياة المتجددة لاتتسع لهم الآن ، فالزمن تجاوزهم تمامًا ، لا أقول ذلك رجمًا بالغيب بل هو كلام يتردد فى المحافل ، ويتولى كبره بعض المشرفين على أجهزة الثقافة ، فيقدمون هؤلاء «المجددين» ، على أنهم شعراء العصر ، بحسن نية أو بسوئها فالأمر سواء ، ويسحب البساط عمدًا من حركة الشعر الحر التى «تخلفت» !!

أيها السادة !! ، ليس الأمر هزلاً ، وليس الأمر أن أمة دخلت فلعنت أختها ، لأن هذه الموجات هينة فى حساب تاريخ الأمة ، بل إن الأمر أخطر بكثير ، وهو: اصطلاح بعض أفراد هذه الأمة - إن كانوا منها فعلاً - على قطع الأواصر بينها وبين تراثها ، وإذا نجحت هذه الحركة - لاكانت - فلا أكثر من جيلين ، ولايكون لنا شعر ولافن ولا لغة ، وأنا أرى أن هذه الأشياء يخطط لها بدقة ، وأن الدور الآن : موت الشعر الحر لحساب النثر - عفواً «قصيدة النثر» ووراء الأكمة ماوراءها، وقد جرى «تطبيع» الشعر والموزون المقفى لحساب الهزل ، الذى لم أراه إلا فى هذه الأمة ، التى تمكن «أصحاب العاهات» من تجديد لغتها وشعرها ،

أيها السادة : إننى أشم رائحة الفأر !!

الشعر ديوان العرب

الموازنة باطلة بين الشعر العـربى ، وبقية فنون القول المعروفـة ، حيث لاجامع بينهما سوى أنهما من فن القول ، ويفترقان فى الجوهر اختلافًا بينًا ، فوزن الكلام يخرجه عن طبيعته ، أو يوجد له طبيعة مغايرة ، مع توافر شروط الشعر الأخرى، هى مسكوت عنها ؛ لأنها معلومة من الفن بالضرورة ، ومن ثم تكون قيمة الشعر وإن كان من جنس الكلام «فـإن المسك بعض دم الغزال» ولست مـتعصـبًا إلا لأن الشعر يستحق مثل هذا التعصب الموضوعى ، وإلا كان «كله عند العرب صابون».

الشعر ديوان العرب ، كلمـة قالها ابن عباس ، وقالهـا تاريخ هذا الشعر ونقده على مر العصور ، وإذا كان العرب قديمًا يحتلفون بميلاد شاعر ،لأنه لسان القبيلة والمعبر عن مفاخرهـا ومآثرها ، والذائد عنها ضد أى واغل ، فإنه فى الوقت ذاته لسان نفسه ، وإن تخفى وراء ألسنة كثيرة ، وحسبه هذا تعبيراً عن تجاربه الذاتية ، التى ينشدها منه النقد المعاصر ، وقد اتسـعت أوزان الشعر أمام الشاعر ، واتخذها أبناء الأمم الأخرى نظامًا لهـم ، يبدعون فيه وبخـاصة الأدب الفارسى ، دون أن يشعروا بالضآلة ، وطالت فيه قصائدهم طولاً لانعهده فى شعرنا العربى .

وطبيعـة اللغة العربية . . وهى لغـة وزن واشتقاق ، هى التى جعـلت لشعرها ميـزة خاصة ، حتى جـعلته لغة داخل اللغـة ، وإذا كانت قد نشأت فنون قـولية أخرى فى هذا العـصر خاصـة ، فإنها تعلو بقـدر قربها من لغـة الشعر ، فيـقال شاعرية الرواية والقصة والمسرحية والمقال ، بل تعدت هذه الصفة فنون القول لتقول لوحة شاعريـة ، ومنظراً شاعريًا ، وسينما شاعـرية إلى آخر هذه النعوت . . ربما تتداخل الأجناس لكن يبقى الشعر قوام الأمر وملاكه؛ لأنه ينفخ الحياة فى أوصال الكلام والأشياء الهامدة ، وربما يستعـير الشعر تقنيات الفنون الأخرى ، لكن يظل الشعر : لغة مخالفة ووزنًا وإيقـاعًا ، وماذلك بالشئ الهين فى نعت الكلام . كما أن الغنائية نسيج مهم فى تكوين السليقـة العربية ، فلاتنسلخ عنها ، إلا إذا تبدلت

خلقًا جديدًا ، وقد استزرعنا فنونًا أخرى قولية ، وإن كانت لها بعض جذور عربية، لكننا «عربناها» فنمزجها بتلك الغنائية مسرحًا وسينما ، ومسلسلات . . مساوقة للذوق العربى ، الذى يطربه ويهز أعطافه كلمة موقعة ، يحفظها وينشدها، ويتطرب بها ، وماذلك إلا بفن الشعر .

لقد قال القدماء : إن الشعراء أمراء الكلام ، فهل نقيس عليهم لنقول : إن الشعر أمير فنون الكلام ، وإن كنت أكره الألقاب ، لكن هذا اللقب فى محله الضرورى هنا ، ربما كان الدافع إلى إزاحة الشعر عن عرشه مايعانيه الآن من خصاصة وفاقة ، ومايطل من وراء السطور عن رغبة فى مساوقة فنون الأمم الأخرى ، ولاشيء أدل على الاستخذاء ممن يريد أن يربط فننا الأول بفنون الأمم الأخرى ، وليس لها تاريخ شعرنا ولازهوه الحضارى ، ولادلالته على شرف هذه اللغة ، كما أن هذه الخصاصة تعترى كل الكائنات بما فيها الكائنات القولية ، ولعل من الصواب أن نعزو الخصاصة إلى أبناء الأمة قبل أن نعزوها إلى فن كامل قائم بذاته ، لأنهم أصل الداء ، حين رضوا أن يزيحوا الشعر عن مكانه ، وحين غم عليهم الأمر - جهلاً أو سوء نية - فأطلقوا اسم الشعر على ماليس بشعر ، لكنها أزمة هينة يصمد أمامها وأمام ماهو أعتى منها فن العربية الأول ، وخير لأبناء الأمة أن تزيح الغبار عن فنها ، وأن تخلع عنه ماليس بشريف النسب إليه ، ومن ثم تعتدل الموازين ، وتسمو الأذواق ، حيث لاسمو لها دون شعر ، وليكن الشعر طعامًا يوميًا فى رواياتنا ومسرحياتنا وقصصنا ، ومقالاتنا ، ومسلسلاتنا ، وأن نحميه من الواغلين عليه ؛ لأنه ديواننا قديمًا وحديثًا إذا كنا عربًا !!

رفقا بالمصطلح

يبدو أن مهنة الشعر شريفة ، فيتشبث بها من يحسنها ومن لايحسنها ، أو أنها «الحائط المايل» الذى يمتطيه كل طارق من السابلة ، كما هو الحال الآن ، فى غيبة النظام الذى يحمى حوزة المهنة ، ويذود عن شرفها ، كما هو الحال فى كل المهن الأخرى ، التى لها نظام وضوابط ، وحسبك أيها القارئ أن تتخيل طبيبًا يمارس مهنته بلا سابق معرفة ، أو مهندسًا فى مصنعه دون خبرة معترف بها ، لن يتأتى ذلك فى تلك المهن ، اللهم إلا مهنة الكتابة وخاصة الشعر الذى هو لب لباب اللغة وسرها ، فقد رقى المنابر غير أهلها ، فى الشعر الموزون المقفى وفى شعر التفعيلة ، وكلما دخلت أمة لعنت أختها ، وغدونا نرى من أصحاب التفعيلة من يبكون على غياب النظام فيما يسمى خطأ «قصيدة النثر» ، وأصحابها يرون سابقيهم مباشرة تقليديين !!

الحال لايسر بطبيعة الحال ، فإذا كان فى شعر التفعيلة شبهة نظام ؛ لأنه نظام ناقص ، فالقصيدة النثرية لايخصف عليها ذووها شيئًا من ورق التفعيلة مايوارى سوأتها ، وهكذا غدا الشعر نثرًا ، والنثر شعرًا، ولايثمر التسيب والتساهل إلا هذه الفوضى التى يدافع عنها البعض بحجة الحرية والإبداع ، وبعض آخر خشى على النظام ، ونحسب أن خشيته ذاتية فى المقام الأول ، لأننا عمومًا فقدنا الغيرة على تراثنا وعلى لغتنا ، وحسبنا أن معظم هؤلاء ليس فى ذرعهم إقامة الكلام لانحوًا ولاعروضًا ، ولا فى وسعهم قراءة قصيدة واحدة قراءة صحيحة ، بله النظم على غرارها ، لكن المجاملة و «الحسابات النفعية» أو «سياسة الفن» هى بواعث المواقف النقدية فى جملتها ، وأشهد أن الدكتور عبدالقادر القط كان يتحنث من نشر مثل هذا الكلام ، ويطلب منا الرد عليه ومناقشته ، بل وصل الأمر أن شابًا تقدم لمسابقة الشعر فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة ، ووزع نتاجه على ثلاثة أعضاء كنت أحدهم ، فمنحته «صفر» والآخران منحاه فوق

التسعين ، ورغب د. القط رئيس اللجنة أن يقرأ النتاج على اللجنة مجتمعة ، فإذا بها ترفض النتاج لأنه نثر ، وكان «الصفر» العزيز منحة هذا الشاب .

المسألة - بيقين - أن الزمام أفلت واستبد العجز وأن مصطلح الشعر وغيره غير واضح ، ولو شئنا لكان واضحًا ، لكن الهمم خامدة ، وحساب المصالح أقوى ، ولم نعد كسلفنا الكريم يرى الكلام : شعرًا ، وموشحًا ، وزجلاً ، ونثرًا ، ولكل نوع شرفه وقيمته ، بل غدا «كله عند العرب صابون» يتزحلق عليه الشعراء والنقاد، بأوزان وبلا أوزان .

أيها السادة لقد طاش الزمام ، ولن يمسك به مرة أخرى من كانوا وراء طيشه ، من النقاد والفنانين ، الذين هم لا إلى الشمال ولا إلى اليمين ، ولا الضالين ، أمين .

أنا ضد الشعر العمودى !!

وإنما أنا ضده لسببين : أولهما خطأ المصطلح الذى شاع هذه الأيام ، وتولى كبره جماعة منهم لويس عوض ، ومن يحطبون فى مثل حباله بوعى أو دون وعى، وربما يتمسح الناس بالخطأ الشائع فى مقابل الصواب المهجور ، والأمر هنا لايستقيم ؛ لأنهم يعنون به الشعر الموزون المقفى ، كما عرفناه سويًا مرنَّما منذ شدا به المهلهل ، وهذا خطأ صراح ؛ لأن الوزن والقافية ليسا من عمود الشعر . يقول المرزوقى - وهو مسبوق من نقاد قدامى ، كما تشى عبارته ، وكما تقول المصادر القديمة . وإن كانت لم تجمعها جمعة: «إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف . والمقاربة فى التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على متخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لامنافرة بينهما» .

والكلام كما هو واضح لايعنى مايعنيه المصطلح الشائع هذه الأيام ، ونرجو أن يكون واضحًا أن المتخير فى لذيذ الوزن ، وشدة اقتضاء اللفظ والمعنى للقافية ، إنما هى أمور داخلة فى صياغة الكلام . وليست شروطًا ؛ لأن الوزن والقافية من بداءة الشعر العربى فلاحاجة للنص عليهما ، وحين عبر القدامى عن أبى تمام وخروجه عن عمود الشعر ، لم يعنوا أنه نظم من شعر التفعيلة أو غيره ، بل كانوا يعنون شيئًا آخر هو الاستعمالات اللغوية التى لم تستعمل عند من يعتد بعربيتهم فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وخروج أبى تمام عن هذا الإلف الشائع فى استعاراته المجنحة .

ويمكننا أن نعد محمود حسن إسماعيل - فى مرحلته الأولى - خارجًا عن عمود الشعر باستعاراته المجنحة المعهودة فى شعره ، وهو لم يخرج آنذاك على الوزن والقافية ؛ ولذا نميل إلى نبذ هذا المصطلح الخطأ «الشعر العمودى» واستخدام الشعر الموزون المقفى فى مقابل شعر التفعيلة أو الشعر السايب .

أما السبب الثانى ، فعائد إلى ركوب العجزة المدخولين حرم الشعر المقدس ، وكل بضاعتهم منه «قدرة عروضية» تقف بالوصيد ، ولاتجتاز حرزه المنيع ، والشعر صعب لايسلم مقاليده إلا للمهرة الأنجاد ، وهم قلة ، خاصة فى هذا العصر الذى فشت فيه الخصاصة وضآلة المحصول ، والشعر الموزون المقفى يفضح عجز صاحبه، فيبدو البهر والإعياء ، ولايكتمل الشوط إلا بعكازات تتخم بنية العمل الفنى ، فيترهل بدل أن يستوى كائنًا سويًا حيًّا ، ويكون الأمر - والحالة هذه - التزام هذه الطائفة من النظامين بشكل الشعر ، وماهو به ، ويدافعون عن نظام هم أول الواغلين عليه ، وأشد هاتكى حرمته . هذا الصوت يعيث فى وجدان الأمة ويزوره ، ويعرض عليه بضاعة بغير ثمنها الصحيح ، أو يضع عليها «ماركة» خارجية وجوهر البضاعة زائف ، أو لاجوهر له ، سوى الأصداف الفارغة ، ويهاجمون شعر التفعيلة ، ومايسمى قصيدة النثر ، والقراء مخدوعون لأنهم يرون أشطارًا وقوافى ولايرون هنالك إلا أسطارا .

وفى رأينا أن هذا الصوت أشد فسادًا لذوق الأمة ، لأن الخداع فيه أقوى ، ولايتيسر كشفه إلا للقارئ الطبن الذكى ، بخلاف حاله مع شعر التفعيلة والنثر ونعتقد أن الهجمات التى يشنها أصحاب التفعيلة والنثر على مثل هذا النظم وأصحابه هجمات فى موضعها ، لولا أن شظاياها تلحق بالأصلاء من أصحاب الشعر الموزون المقفى ، إلا أنهم بنجوة من مثل هذه الهجمات ، إذ هم معتصمون بجوهر الكلام الصحيح ، نافون الخبث عن معدنه الأصيل وهؤلاء الأصلاء يرفضون تلك الطائفة من النظامين - ولن يخلو منهم زمن - وهم معروفون بسيماهم ، يرفضهم أصحاب الوزن والقافية ، وأصحاب التفعيلة والنثر على السواء . أما الشعر «الشعر» فسيظل غير سامع لهم ولا لأمثالهم ولايمجيب ، وأن «الشعر العمودى» مرفوض لذلك السبب البعيد ، وذلك السبب القريب .

مختارات البارودى

لعل المختارات من أقدم التصانيف التى عرفت فى لغة العرب ، وإن كانت أحدث صيحة الآن فى العربية وفى غيرها ، وربما كانت المعلقات والأصمعيات والمفضليات والحماسة ، وديوان الشعر العربى ، ومختارات الشعر والقصص والمسرح الإسبانى دليلاً على مانقول .

لكن أن تكون المختارات بحاسة رجل فى قامة البارودى ، فهو شئ يضاف إلى قيمة المختارات ، وإن كانت قيمة فى ذاتها ، لأن «اختيار المرء وافد عقله» كما يقولون :

قد عرفناك باختيارك ؛ إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

وقد وسد الأمر إلى أهله تحقيقًا وشرحًا ومراجعة ، وحسبنا أن يكون هذا الفريق تحت إشراف رجل صيرفى حاذق ، يعرف مضايق الكلام ، وتصريفه ، وذى خبرة عميقة بالتراث الشعرى ، يرفده إخلاص وإتقان ، فى زمن قل فيه الإخلاص والإتقان ، هو د. مصطفى هدارة ، لذلك جاء العمل نزيهًا مخلصًا متقنًا قراءة دقيقة للشعر ، وضبطًا له ، وتعريفًا بقائله ، ووقوفًا على اختلاف الروايات ، وشرحًا لغامضه ، وليس من المبالغة أن تقول : هذا هو ديوان الشعر العباسى ، فى مجمله ، للأديب والمتأدب .

فى مقدمة المختارات بيان شاف بقلم الدكتور هدارة ، لبيان طبيعتها ، واختيار البارودى لها ، وتصنيفها ، ومدى علاقتها بثقافته ، والملاحظات النقدية التى أوردها ، ولاتكفى مجرد الإشارة إليها ، بل لابد من العودة إليها :

حسبنا أن ندرك أننا أمام أربعين ألف بيت من الشعر تمثل عصور السلامة والصحة أو النهضة الشعرية ، ولاقوام للأديب والناقد بغير الوقوف عندها ، وهى تمثل أيضًا الشقافة أو المصادر التى كونت شاعرية البارودى ، وأنا موقن أنها من تقييدات البارودى منذ شدا بالشعر كما رأي د. هدارة ، لا أنها مما اختاره فى آخر

حياته ، ربما راجعها مراجعة نهائية ، ولعل قراءة ديوان البارودى تذكرنا بأطياف من هذه المختارات ، لكنها لاتعدو إلا أن تكون جزءًا من ذاكرة البارودى ، التى لاتقدح فى أصالته ولا فى ريادته للشعر الحديث ، وقد ألمح إلى هذه الأطياف محققا الديوان الشاعر على الجارم والأستاذ شفيق معروف ، حين يذكران المعارضات القديمة التى نحاها البارودى .

اختار البارودى لثلاثين شاعرًا ، أغلبهم ذؤابة الشعر العربى ، وكسر مختاراته على سبعة أبواب ، ربما كان باب المديح صاحب الحظ الأوفى كمًا ، لكن هذا المديح فى أغلبه صادق ، ويمثل ذاكرة الأمة ، ولاتثريب فيه على الشاعر ما كان صادقًا. ومصادر البارودى يدهش لها الباحث ، فهذا رجل من أرباب السيف والحكم ، يتوفر فى دأب - ربما لايصنعه المتخصصون الآن - على الدواوين المطبوعة والمخطوطة ، ومختارات الشعر القديم ، وكتب الأدب عمومًا ، وربما كان مايطبع منها فى حكم المخطوط ، ثم يتصرف الأديب الشاعر الناقد فى هذه المختارات فيعمل قلمه حذفًا ، وترتيبًا ، وإضافة ليخرج العمل متشحًا بروح البارودى ، ويعجب الباحث الآن لهذه القدرة الهائلة على العمل والتذوق والاختيار .

وحسبنا أن مختارات كهذه تصدرها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى بالتعاون مع الهيئة المصرية للكتاب مضبوطة ومشروحة ، وأن قارئًا ينتظرها ، يحفظها كما هو الحال فى الجيل الماضى ، ويتذوقها وتتسرب فى وعيه الأدبى واللغوى ، وأن اهتمامًا بالشعر نشرًا وتحقيقًا وقراءة ، نرجو أن يجد صداه المنتظر .

«عروة وعفراء» نص مسرحي لم ينشر

لانعرف شاعرًا فيمن عرفنا من الشعراء ، استوت بديهته وفكره كما عرفنا أحمد مخيمر حديثًا . وابن الرومى قديمًا ؛ فمعاناة التجربة وصياغتها تكادان تكونان مرحلة واحدة أو شيئًا واحدًا ، وهذه مسألة لاتتأتى إلا لجبابرة القرائح الذين لايمدون بالهم إلى الكلام حتى يعطو إليهم بأجياده ، فيستوى كائنًا حيًا سويًا ، تحل الكلمات فيه محلها المحتوم ، وربما غر ذلك خفاف الشعراء أو النقاد ، فيظنون الكلام سهلاً ، وهم واهمون ، لأن السهولة هنا لاتتبدى على الورق إلا بمرورها عبر الخاطر مرات ومرات .

وأحمد مخيمر من المغبونين حيًا وراحلاً ، حيث رزق الشاعر الشعر ، ولم يرزق سياسة الشعر ، وربما كانت هذه السياسة فى زمننا وزمن ابن الرومى أهم من صناعة الشعر ذاته .

لكن أمامى الآن مسرحية مخطوطة حتى الآن بخط يده ، تفضلت ابنته السيدة عزة مخيمر ، فأهدتنى صورة منها ، وكنت قد سمعتها كلها من الشاعر فى زوراته لدار العلوم ، كما سمعت منه شعرًا كثيرًا لم ير النور بعد ، ويمثل أكثر من ديوان .

هذه المسرحية «عروة وعفراء» على طريقة «مجنون ليلى» و«قيس ولبنى» ، فى الموضوع : الحب اليائس المحروم ، وهى تثبت كما أثبتت نظائرها لدى شوقى وعزيز أباظة أن الشعر الموزون المقفى صالح للمسرح صلاحيته للغنائية ، إذا أتيح الشاعر المتمكن ، وقد أتيح بالفعل لدى الثلاثة الفرسان ، واستطاع مخيمر بالفعل أن يكون الشاعر المسرحى ، الذى أحاط بموضوعه من التراث إحاطة جيدة ، كما أحاط بفن الدراما ، كما ينبغى ، ولذا نجا كما نجا أباظة إلى حد بعيد من الغنائية المسرفة أحيانًا لدى رائدها شوقى ، وإن كانت الغنائية عنده فى بعض المواطن ؛ مما يقتضيها الفن الدرامى .

تبدأ المسرحية بمولد عروة وعفراء فى ليلة واحدة ؛ ليتفق الأبوان على زواجهما

فى الليلة ذاتها ، حين يكبران ، ويعرف المحبان ذلك من خلال راع شيخ ضلت شياهه ، ويتعاهدان على حراسة هذا الحب ، ويشرع عروة فى الغزل الذى يشيع لدى القبيلة ، وهو لايدرى أن غزله يقف مانعًا على طريقة البدو آنذاك ، وبينما يكون عروة منتظرًا قدوم عفراء وهو فى قلقه واضطرابه تسمع أصوات الجن على قرع الطبول ، كما حدث لدى شوقى ، «نحن الجن إليك نحن وفيك تطن لنا أصداء» ويكون الجن هو شيطان الشعر لدى عروة ، وتلعب الغيرة دورًا مهمًا ، حين يتقدم عوف لخطبة عفراء وهو شيخ ثرى ، وتعجب أم عفراء بهذا الخاطب ، رافضة عروة الفقير ، وتقوم معركة بين عروة وعوف بالسيف ويحجز بين المتناجزين ، ويتقدم ابن العم خاطبًا عفراء ، فتظهر أمها الموافقة وإن كانت تطلب مهرًا ألفا من الإبل ، ويقبل عروة مستنجدًا بشعره راحلاً إلى البصرة ، ليعود بالمهر، وتعود الأحداث إلى عفراء وزينب ابنة عمها وهما يغنيان ، ويترقبهما عوف، ويظهر أمير الشام «هشام» وكان يعرفه عوف ، الذى يقوم بدور فى تقدم الأمير إلى عفراء خاطبًا ؛ نكاية فى عروة ، ويبدو أن هشام أحب عفراء على السماع ، وتظهر الأم حيلة ماكرة ويتم زواج الأمير بعفراء ، راحلة معه إلى الشام، وماهو إلا قليل حتى يقبل عروة بمهر عروسه ، ويسقط فى يد عمه . . لكن المرأة هى المرأة حين أوقعت فى روعه أن ابنته ماتت ، ويفزع عروة إلى قبرها المزيف ، وحين يكشف الزيف يذهب إلى الشام ، وتحدث مواجهة بين الثلاثة ، تسبقها معركة مع الحرس ، ويظن عروة أن عفراء أحبت غريمه الذى طلقها ؛ رعاية لحبها عروة وتقديرًا لشعره وتتشابك الأحداث ، ويظهر الجن مرة أخرى مساوقة للجن القابع فى خيالات عروة ، الذى يموت ، وتقف على قبره صاحبته، التى تقضى نحبها حبًا على قبره ، يموتان ليبقى الحب .

مسرحية مليئة بالأحداث المتشابكة ، والمواقف الدرامية المحبوكة ، وبالشخوص النامية ، فى قالب نثنى عليه حين نقول إنه كالنثر فى سلاسته وعذوبته ، وسهولة تأتيه ، بينما هو فى الذروة من الشعر .

تراث مخيمر من أغلى تراث هذه الأمة ، ولم يجد عناية حتى الآن ، فهل يتفضل د. سمير سرحان بإخراجه كاملاً ، وهل يتفضل المسرح القومى بإخراج هذه المسرحية لتنضم إلى تراثه الرائع .

الروح القدس

شاعر استوت بديهته وفكره ، فما يكاد يروم النظم إلا انثال الكلام عليه انثيالاً، ومارأيت رجلا الشعر عنده أقل أدواته كما رأيت أحمد مخيمر : بديهة مشتعلة وفكر متوهج ، وكأن الرجل استخلص شيطان الشعر لنفسه وتلبس به إهابًا وقوامًا، فلايكاد يفارقه حتى فى حياته اليومية العادية ، وهو أمر نادر بين الشعراء وعذاب شديد لصاحبه ؛ إذ يظل مشحوذ الطبع ، جائش النفس دائمًا ، وهكذا كان مخيمر فيما عاشرناه وقرأنا له .

قدرة فذة عاتية يسهل عليها الشعر وتصريف الكلام سهولة غريبة ، ويظنه من لايعرفه أنه لايكد خاطره ولايعيش المعاناة تجربة وأداء ، ولكنها السهولة التى تستعصى على كثير من المنقحين والمجودين ومع السهولة البادية ، إلا أن الفكر الدقيق والعميق يسرى فى ثنايا الكلام ، الذى يعيى كثيرين من الذين ديدنهم مراجعة كلامهم وتنقيحه بينما صاحبنا يدركه بمجرد أن يمد باله إليه .

أحمد مخيمر شاعر مغبون فى حياته وبعد موته ، وهو إلى حد ما مسئول عن شئ من هذا الغبن ، لكن الحياة الأدبية والنقدية كان عليها - ولايزال - أن تريق كثيراً من الضوء على حياة الظل التى رغب فيها الشاعر ، غير مبال بالأصداف من الشهرة الخاوية والأصداء الفارغة . . وطالما نعاها على الزاحفين إليها بغير موهبة صحيحة ، ونعتقد أن تاريخ الأدب حقيق أن يعاد فيه النظر حين يقدم لمخيمر زاوية رفيعة ومكانًا عليا فيه ؛ إذ تتغير فيه أحكام كثيرة حين يكتب مرة ثانية ، فى ضوء انصاف رجل مثل مخيمر ، وغيره من الشعراء الديوانيين الذين جددوا فى أصالة واقتدار ، وأطلوا بوجوههم غير هادمين نظامًا ، لم يثبت خلله وإخلاله ، كما هو الحال الشائع الآن .

«والروح القدس» لا أود تسميتها «ملحمة» بل هى قصيدة مطولة ، ربما تكون أطول قصيدة فى الشعر العربى الحديث ؛ إذ تبلغ خمسة آلاف ومائة وخمسين بيتًا، على بحر واحد هو الخفيف الذى ناسبت تفعيلاته هذا التراحب القصصى

والنغمى السارى فى القصيدة وهى متعددة القوافى ، كل خمسة أبيات بقافية وتشى القصيدة كاملة باستواء الفكر والبديهة ، دون قلق ولا استكراه ، وطوع الشاعر هذا الشكل الشعرى لأغراضه فى هذه القصيدة المطولة ، وأبان كيف تتسع هذه القواعد المجملة لتلك الحرية الرحبة . . بل إن الشاعر وهو صاحب ديوان ضخم من اللزوميات - التزم فى بعض خماسياته مالا يلزم - وليست هذه القصيدة مفردة عند مخيمر بل له من هذا الضرب «أشواق بوذا» ومسرحيته «عفراء» ؛ مما يشى بأن الشاعر أوركسترا «موسيقية» متعدد الأنغام والألحان .

سلكت هذه المطولة طريقة القص - ليس بالمعنى الحرفى - إذ تخيل أن مَلَكًا هبط إلى الأرض ، وجال فى أقطارها ووصف ما رأى ، وأبدى رأيه ودهشته وحارب فى صفوف المناضلين فى فلسطين ، وقابل الفدائيين وندد بالاستعمار والصهيونية ، وغنى للنضال الإنسانى ، والحياة الإنسانية ، ونعتقد يقينًا أن هذا الملك هو الشاعر الذى تنفس من رئتيه وأجرى على لسانه همومًا وطنية وإنسانية ، وكأنه يقول لنا إن الأرض السبخة فى حاجة إلى التطهير الروحى أو الشعرى .

وفى القصيدة هذا التلاحم العضوى بين فصولها أو ألحانها إن شئت ، وهى إن كانت قصصية ، وفيها بعض حوار إلا أن روح الشاعر الغنائية تطل بين سطورها مما يجعلنا نعتقد أن الشعر فن ذاتى ، ولو عبر الشاعر عن غير ذاته أو لبس إهابًا من شخوصه .

وفيها أيضًا - مع هذا الطول - النفس الشعرى المتزن الذى يرفده فكر ووجدان وخيال غير مهوم وتذكرنا بنفس ابن الرومى فى استقصاء المعانى ، وسهولة النظم وحسن تأتيه .

كما تذكرنا القصيدة بفكر العقاد الدقيق ، ورؤيته الرحبة فى قصيدته «ترجمة شيطان» . . لكن رغم هذا التذكر تبقى «للروح القدس» الروح المخيمرية ، التى لاتخطئها عين القارئ ، الذى يلمس الحنين يقطر طلا ويلمس الروح ، تهمس فى ضمير الندى ، ويلمس قبل ذلك وبعد ذلك أن هذا الشاعر يعود أقوى صوتًا ، مما كان فى حياته ، وأن الشعر الحقيقى الأصيل يلوذ منه بنغم يرد إليه «الروح القدس»، التى حاول الأدعياء والموصومون أن يسلبوها إياه بدعوى الحداثة والتجديد الشائه الموصوم .

مسافر بلا زاد

الشاعر الكبير عبدالعليم عيسى حجة على نهضة الشعر ، وعلى أن الشعر الموزون المقفى بخير ، ولايزال رغم دعاوى الخراصين ينهض برسالته المنذور لها ، منذ أن عرفت هذه الأمة الشعر ، ولأن عبدالعليم عيسى شاعر كبير ؛ فالوزن والقافية حجة له أيضًا ، تعين الشاعر على تجاربه وأدائها .

وهذا الديوان «مسافر بلازاد» حزين ومحزن ، أكثر من دواوينه السالفة ؛ حيث كان فيها جذلان بالحياة ، يعانقها ، ويتمرد عليها ، ويجاذبها العطف والودادة ، والغضب والسخط ، راغبًا فيها ، مقبلاً عليها ، لكنه فى هذا الديوان يبدو سأمان، يساوره القنوط ، وتلفه سحابة متشائمة ، ويحس إحساسًا عارمًا بزحف الزمن ، والزمن عنده قضية كبرى، بل هو قضية الديوان كله تقريبًا ، وسأمه وقنوطه يعديان قارئه فيتسرب إليه وشل أو فيض من تلك المشاعر ، والشاعر أفلح كل الفلاح فى أداء هذه الرسالة إلى قارئه ، فتعاطف معه، وشاركه أحزانه ولواعجه ، وماهذا بهين فى فلاح رسالة الشعر .

ولهذا الشعور القانط تفسير لدى ، معرفة بإبداع الشاعر السابق، فحياته يتغشاها غير قليل من خواء الوحشة ، والوحدة الخابية بعد رحيل رفاقه الذين كانوا يرطبون وحشته اليابسة ، ولذا تحدث إليهم فى ديوانه حديث اللهفة والأسى ، مرتئيًا أنه معهم - راحلاً - أطال الله بقاءه - يحس أنسًا ويبعث عهدًا دابرًا كان كل حياته .

ولعل مثل هذه التجارب تقتضى ضربًا من كلام ، استعلى فى الديوان عن دواوينه السابقة . . فإن الشاعر فى وهج هذا التأمل قد أراق على أدائه غير قليل من اليقظة الفكرية، التى هى قرين تلك السن ، حيث استحصدت أكثر - وكانت مستحصدة آنفًا كذلك - فغدت منطقة التأملات نسيجًا خاصًا فى هذا الديوان ؛ مما توحى به مراجعات الحياة والزمن ، ونظرات فى مصائر الذاهبين والباقين ، وحقيقة الموت والقبر ، وفداحة الحياة والتعلق بها ، وأفراح الصحبة وأتراحها . . كل هذا قد أفرغ تجاربه فى قالب متأمل ، ولايعنى ذلك برودة الذهن ، وجفاف

المنطق ، بل إنه استطاع أن يهدهد من تلك البرودة - رغم برودة الزمن لديه - وأن يوشحها بوشاح من الوجدان المتأمل ، تسرى فى أوصاله حرارة الإحساس والشعور .

وربما يتوهم القارئ أن صاحبنا عاف الحياة وملها ، بل إنه متشبث بحبالها ، يودها وإن كانت حزينة محزنة يغازلها وتغازله ، وإن كان عارفًا - الآن - كيف وأين يقف بغزله ، ولايتمادى فيه تماديه السابق ، وحسب هذا دليلاً على تعدد تجارب الشاعر ، وانعكاسها على صقال نفسه ، فلايخاتل شعوره ، بل يخلص فى التعبير عنه صادقًا ، وحبه أيضًا ،على أن لكل مرحلة من مراحل الحياة تجاريبها ، وطريقة التعبير عنها .

وهذا الشاعر الذى يأسى لوحدته ، ويفى لأصدقائه الراحلين ، تراه وقد انقلب متمردًا ، تتدفق فى أعراقه الفتوة والشباب ؛ فيجدد العهد بالجهاد لنصرة القدس، ويأسى للهوان العربى ، ويستصرخ الأمة للنجدة والنصرة ، وهى تجارب من صميم الشعر ، حين يتاح لها شاعر فى قامة عبدالعليم عيسى ، دون أن يتهم بالمناسبات ، وقد أصبحت الآن تهمة داحضة ، بعد أن غدت فى أفواه «الببغاوات» من النقاد وأشباههم ، إن تجارب شاعرنا هنا تجارب ذاتية جدًّا وإن لبست ثياب المناسبة ، بل إن تثريبًا يلحق الشاعر ، لو لم ينظم فى هذه الأغراض .

للشاعر عبدالعليم عيسى معجم خاص يتفرد به ، ونذكر هنا أنه نشر قصيدة فى الأهرام ، ونسى الطابع أن يمهرها باسمه ، لكن قراءه أدركوا أنها له ، ولم يخامرهم أدنى شك فى نسبتها إليه ، وتلك أية فى أصالة شاعر له مذاق خاص ، وله لغة خاصة ، ربما لايشاركه فى هذه الخصيصة إلا قليلون ، وقليل ماهم !! وربما كان أبرز خيط لغوى فى ذلك المعجم هو الاشتقاقات اللغوية ، التى لايقع عليها غيره تقريبًا ، وهو بصنيعه يحي موات هذه الصيغ ، ويبعثها خلقًا جديدًا .

الشاعر الكبير عبدالعليم عيسى لم يأخذ حقه فى حياتنا الأدبية ، وأشباه الشعراء يحتلون منابر ليسوا لها بأهل ، ربما يعود شئ من ذلك إلى عزلة الشاعر وإبائه - والشاعر الحق هكذا - لكن هذا ليس بعذر لحياة أدبية صحيحة ، تشح بالتقدير على الشعراء الكبار ، وتسخو به لكل عاطل مهذار ، تحية لصاحب «مسافر بلا زاد» الذى حملنا معه إلى سفر يحمل خير زاد .

فاروق شوشة وأعماله الشعرية

اثنا عشر ديوانًا فى مجلدين مجمل الأعمال الشعرية ، التى أصدرها الشاعر الكبير فاروق شوشة منذ مسيرته الشعرية الطويلة والعريضة ، ولاتزال تتواصل إبداعاته شاعرًا وكاتبًا ، حين تغيض منابع الإلهام لدى كثيرين من رصفائه ، وكأن الشاعرية لديه إهابه الموصول بأعراقه وأعصابه ، فلاتملك إلا أن تبين أماراتها فيما تخطه يراعته من شعر .

والشاعر - عندنا - من رادة حركة الشعر الحر ، وإن سلك نفسه فى الموجة الثانية منها ؛ لأنه مقدم متقدم فى الدعوة إليها إعلاميًّا ونقديًّا وإبداعيًّا ، ولاتذكر هذه الحركة إلا ذكر فاروق شوشة فى صدارتها بخطه هو ، دون أن تتداخل خطوط الآخرين به .

ونعتقد - بيقين - أننا نقرأ شعره فلايلتبس لدينا بشاعر آخر قديمًا وحديثًا ، نمهر باسمه وإن لم يكن مذكورًا ؛ لأنه مضمر فى طريقته تجارب وأداء ، وهذا الإضمار هو عين الذكر عندنا ، وكأين من شعراء تتصدر أسماؤهم دواوينهم - وبعضهم كبار دعاية - فنرد فى التو أشلاء تجاربهم وأدائهم إلى مصادرها .

فاروق شوشة قرأ التراث الشعرى قراءة جيدة ، وذاكرته لاقطة تحسن الحفظ ، وفتح نوافذه على طرائق التجديد عند رفاق معهده : محمود حسن إسماعيل ، وأحمد مخيمر وآخرين ، مع وقوفه على أصحاب الشعر الحر من أبناء جيله غير الدرعميين ، لكنا نرى أنه أقرب إلى أبناء معهده ، وأنه سليل مدرسة دار العلوم - كما سماها العقاد - التى يتربع على قمتها على بك الجارم ، ولاتزال تتحدر من تلك الأصلاب الكريمة ، التى لم تقرف بعاب العجمة أو الركاكة ، تلك المدرسة السلفية العصرية التى تولى اللغة اهتمامًا بالغًا ، وفق مناهجها الدراسية التراثية والمجددة فى الوقت ذاته ، يقف شعراؤها موقفًا متزنًا بين سطوة التقاليد الشعرية ودواعى التجديد ، وقد استوت خليقة الاتزان على أوفاها عند فاروق شوشة ؛ فهو يحافظ على الوزن الخليلى فى نماذج متعددة وافرة ، ويطمح إلى حركة الشعر

الحر ، فينجو من كثير من مزالقها فى الأوزان والقوافى ، وفى استغلاق الرموز ، بل تأتى رموزه موحية ، تتحدر من التراث العربى والإسلامى ، ومن ثم تجئ رسول استيحاء وبيان شفيف ، لارسول إغماض وإلغاز ، وبعضهم يركب رموزاً خارج السياق ، غربية وشرقية وهو لايحسن كتابة اسمه بالحروف اللاتينية ، اعتصم فاروق شوشة بخليقة (الاتزان) هذه ، فنجا حيث أقعى غيره ، كما وضحت هذه الخلة فى مزج الشعر الحر بمقطعات موزونة مقفاة ، وحين لاتجئ هذه المقطعات ، تنهض بكلامه - موسيقيًا - القوافى المتوالية فى ضبط وإتقان .

الشعر الموزون المقفى أو «الشعر» بلام العهد هو النموذج الأوفى ، الذى يستنهض كل قوى الشاعر الحق ، وتبين فيه جيدًا أمارات الخذلان لدى كل من يظن نفسه شاعراً ؛ فيضطر أن يقطع كلامه حسب التفعيلة ، وهى - وحدها - لاتؤدى نغمًا ، ترتضيه العربية (اللغة الشاعرة) ، وفاروق شوشة أحد فرسان هذا الشكل الحقيقى ، تنهض به أدواته الفارهة ، فيركب بحور الشعر الخليلية . وهو آمن من مغبة النكوص والخذلان ، ويحمد له قراؤه رحلته مع النغم فى إحكام وإصابة ، وربما كانت «الإصابة» هى الكلمة الدقيقة فى نعت كلامه ؛ فلاتلجئه ضرورات الوزن والقافية إلى غيرِ قصده ، بل إنه ليحسن الإصابة والاتزان بين ضرورات الفن وأفراحه ، بين الحرية والقاعدة ، ولذا نقرأ كلامه فى هذا الإطار فنسعد سعادتنا بفن تكاملت فيه كل خصائص الفن الجميل ، والتمثيل لهذه الظاهرة من نافلة القول ، وحسب القارئ أن يعود إلى نماذجه فى : «للعبير اختناق - رثاء العنتيل» وغير ذلك كثير ، بل إنه يركب القوافى العوصاء فتلين له ، وتسلس بين يديه ، ولذا فنحن نأسى كثيرًا أن ركب فاروق شوشة الشكل الحر . وفى هذا الشكل عيوب كثيرة فطرة - ولو أن شاعرنا ظل مع الوزن والقافية فى هاته الدواوين لكان حجة ضخمة على مزايا الشكل الأصيل ، ولعلنا لانكون مغالين حين نرى أن إبداعه هذا هو الذى سيبقى منه ، لأنه يمثل وجهًا نحن نحبه فى فاروق شوشة - نسأ الله فى أجله - لأن الشعر الحر وقع فى مأزق شديد الآن، ونسلت منه شكول ليس لها سند سوى دعوى أصحابها ، وظاهرهم نقاد «آخر الزمن» ، ومعذرة حين نسوق أسى فى مقام التقدير ؛ لأن فاروق شوشة أعز علينا وعلى الشعر الأصيل ؛ والفن الجميل .

طـــوق نجـــاة

محمد عنانى شاعر .

ننعته بهذه الصفة على كثرة مايتداولها الناس فى غير موضعها الصحيح ، فى زمن سطت فيه العجمة ، والرطانة ، والادعاء ، وتوارى - أوكاد - المصطلح الدقيق لهذه الصفة .

ملاك الأمر عند عنانى أنه شاعر ، حتى ولو لم ينظم ، حيث الشاعرية سارية فى تضاعيف كلامه ، وفى خلايا حياته ، فلايتفلت منها ، تغازله عرائس الشعر وشياطينه ، وتلك آية لانعرف آية أصدق منها ، فما بالنا إذا كان صاحبنا يبدع الشعر ، يركب بحوره ماشاء منها فلاتغلبه إلى غير مايؤم ، يصدق هذا فيما ينظمه بدءًا ، وفيما يترجمه إلى العربية من ثمرات القرائح فى الإنجليزية ، وتلك آية أخرى ؛ لأن المبدع بدءًا لديه من السعة والحرية ماتضيق عنده ضرورات الترجمة صياغة وفكرًا ، وهو يعيد لنا - بقلمه هو - آيات من سبقوه ممن كان الشعر بابتهم الأولى كالعقاد والمازنى خاصة ، ومن كان الخالف لهم على شاكلتهم فى هذه الخلة .

أخرج عنانى طائفة من الدواوين ، والمسرحيات والقصص والترجمة الذاتية ، وكلها بسبب وثيق من الشاعرية ، ولم لانضم إليها ترجماته ودراساته وفيها من الوهج ماينسب إلى عنانى وحده ؟ ، لكن ديوانًا صدر أخيرًا «طوق نجاة» يحوى قصة شعرية ، وتجارب أخرى ، استلهم الشاعر فى قصته دون خوان فى بعض مشاهده ، ليست ترجمة كترجماته الأخرى ومنها دون خوان نفسه ، ولكنها مدينة للأصل دين الموسر ، الذى ينفق من كيسه هو ، لادين المعسر ، وفرق هائل بين الاثنين . . إن هذه القصة باعثها هو هو بواعث الشعر عامة ؛ حيث لايأتى إلهامًا بالمعنى الساذج ؛ فالسماء لاتمطر شعرًا ، لكن القراءة عامة أو المطالعة إن شئت حيث هى أعم وأشمل تثير تجارب الشعر لدى الشاعر المشحوذ دائمًا ، وربما تجئ

القصيدة من بيت يقوله السالف وترداده يثير كثيرًا من التجارب الشعرية ، وهكذا كان موقف عنانى وموقف رصفائه من الشاعرين ، وهو نديد فى تجربته القصصية الشعرية للسالفين أمثال مطران ، وشكرى ، والعقاد والمازنى ، ومحمود عماد وبقية هذا الفريق . . الذين أبدعوا فى هذا النسق موازنين بين ضرورات الشعر وضرورات القص . ونستطيع أن نطلق على إبداعهم «القصة الشعرية أو الشعر القصصى» وتقديم النعت على المنعوت بيان للأهمية فى كليهما ، فلايجور طرف إلا على حساب طرف آخر ، غير أن حرف العطف «أو» يرأب هذا الصدع ، فلايجور أحدهما «مرج البحرين يلتقيان» .

جاءت صياغة عنانى لاتذكر مطلقًا بالترجمة وإن أوحت بها ، وهى صياغة لاتجافى البلاغة العربية فى أدق مظاهرها صوتًا ونحوًا وموسيقى وفكرًا وصورة ، ولنتأمل قوله المعجب - وكله معجب - :

كانت فتاة فى ربيع العمر مابين الطفولة والشباب

هيفاء ، عيناها بلون الليل جياش العباب

وعلى الجفون خمائل تزهو من الأهداب

ونجادها الوردى أطياف لألوان عذاب

مما يبث الشرق من نور بأطراف السحاب

هذا كلام لم ينبت فى غير العربية ، ولعل الفتاة بلون عينيها الليلى مما يرشح «عربية» العيون ، مبتعدًا بهما عن الزرقة أو الخضرة ، ولعلها فتاة عنانى نفسه ، وتتخلل القصة مشاهد طرب ، التزم فيها الشاعر الوزن والقافية على نمط الخليل . وهذا من توفيقات عنانى حيث الطرب والإيقاع ؛ مما يستلزم هذا الإطار ، وقد ركب الشاعر وزن الشعر الحر بتعدد تفعيلاته ، وأتى من الرخص مايسمح به الشعر الحر ، وإن كنا أقرب إلى التحنث ، فلانبيح ما أباح ، ونكفكف من طمع أصحاب الشعر الحر ، الذين لايكفيهم كل هذا الخروج حتى أباحوا من الزحاف ماتضيق عنه رحمة الوزن ، ولقد حاولنا أن نسيغ ما أساغوه فلم يفلحوا معنا لا لضيق حظائرنا ولا لجمود فينا ، بل لأن الذوق الموسيقى يجافى القواعد ؛ لا لشئ

إلا للخروج ، وتلك مسألة خلافية ، ربما كان الشاعر محمد عنانى لايد له فيها، ولدينا خروجات فى إطار الشعر الحر لاتطاق ، نرجئها إلى حديث خاص ؛ لأن المسألة خرجت من المباح إلى «الإباحية» إن صح النعت ، ولاتثريب على عنانى إلا أنه أرخى الحبل ، وهو من الفرسان الأنجاد الذين ركبوا القوافى العوص ، والبحور العوصاء .

قصائد أخرى فى الديوان ، كلها تجارب وجدانية تسمع فيها صوت الشاعر ؛ حين يهمس لنفسه أو حين يخاطب إخوانه (الإخوانيات) ، وهى باب رحب فى الشعر العربى والشعر المصرى خاصة ، وقديمًا قال عمرو بن مسعدة : «النفس بالصديق آنس منها بالعشيق وغزل المودة أرق من غزل الصبابة» ، والمصريون عامة يميلون إلى الصلات الدافئة حتى إن رجلاً كمطران حين أقام فى مصر لم ينج من هذه الصبغة فجاءت إخوانياته كثيرةً موائمةً لتجاربه ، وكانت تجارب عنانى من هذا الوادى رغم قلتها ، ومحمد عنانى - الإنسان - رجل مفتوح نوافذ النفس ، صادق المشاعر ، دمث الخلق ، لايتنفج ولايدعى ، ولذا كانت علاقته صافية ، وعشرته مأنوسة ، فكتب لماهر البطوطى ، وماهر شفيق فريد و «أبوهمّام» ، وجاءت قصيدته للأخير من بحر المنسرح ، فى صياغة رائقة ، وفى صدق سار فى تضاعيف الكلام ، وليس بيته الأخير فيها إلا نموذجًا من الرخصة ، التى ينهض بها أولو العزم من الشعراء ، فلاينكرونها ولاتنكرهم ، وله حجج سابقة لدى الكبار من الشعراء ، وهذا الباب مع نظائره فى الديوان يمثل «طوق نجاة» ، لمن أراد أن ينجو من وهدة النثرية المعيبة ، والكاتبين بأوزان ودون أوزان ، وله من تجاربه وصياغته مكان أصيل ، وأى مكان !!

طه حسين
ومجلة الكاتب المصرى

سِفْرٌ نفيس ، فى حقبة ناهضة ثقافيًا ، رغم سوانح الأفول السياسى التى كانت تلوح فى الأفق ، منذرة ومتوعدة ، يناهضها الناس ، متطلعين إلى بشائر التحول، وصامدين - بفضل النهضة الثقافية - وصمودهم لا يقل روعةً عن لحظات زهوهم، كانت لحظات نهضة صامدة تمثلها أوفى تمثيل كوكبة لامعة ، حماستها حكمة ، وحكمتها حماسة بعد نضج السن واستحصاد الملكات ، تحمل فى أصلابها عراقة التراث ونبالته ، وتشرئب إلى المدى اللاحب والأفق الرحب ، وكأنها رأت أن تعوض الانكسارات السياسية بكثير من الوهج المتزن المضئ . . ثلة كريمة على اختلاف منازعها ، وثقافاتها ، مرتئية أن الثقافة أصفى نورا ، وأهدى سبيلا ، حين تشتجر نزعات السياسة ، وأهواء الحزبية الضيقة ، تحمل اعتزازًاربما لم يتسن نظيره للأجيال التالية مجمعة على هدف كريم ، وطريق قاصد ، تمثلت فى أحمد لطفى السيد ، والعقاد وطه حسين ،والجارم والزيات والمازنى ، وشعراء أبوللو، وهيكل باشا ، وإخوان هذا الطراز .

وكان هؤلاء - على تفاوت - قد قرت لهم فكرة النهضة بعد شرة الشباب وحدته ، وإن لم تخل من النضال الذى لم تتخل عنه الأمة آنذاك ، وكان طه حسين - كما كان كثير من رصفائه - يشتعل حماسةً وتوقدًا، يناجز ويصارع ، واثقا شديد الثقة ، تتناشه السهام فتزيده جلدًا ، يوقف - من قبل - عن التدريس فى الجامعة فلا يهن ولا يستخذى ، وحين تقاعد سنة ١٩٤٤ بسبب مقاله «القلب المغلق»لا يهادن ؛ لأن طبيعته مجبولة على القلق وإثارته «على قلق كأن الريح تحتى» ، كما يقول صديقه أبو الطيب .

فى تلك الأثناء يصدر مجلة «الكاتب المصرى» بعد انتهاء الحرب ، منذ أكتوبر ١٩٤٥ حتى مايو ١٩٤٨ . ولهذا قصة تروى : (نعتمد فى هذه الرواية على

مقـدمة د. عبد العـزيز شرف لمجلدات المجلة الصادرة عن الهـيئة المصرية العـامة للكتاب) .

«فى سنة ١٩٤٥ تكـونت شـركـة الكاتـب المصـرى للطبع والـنشـر والأدوات الكتابية، وهى شركة مساهمة مصرية ، كان يمتلكها سبعة أشخاص من آل هرارى الذين كـانوا من الأسر اليـهودية فى مصـر ، ولم يأت اسم أحدهم فـى أى تجمع صهـيونى طوال وجودهم فى البـلاد ، وعهدت الشركـة إلى الدكتور طه حـسين الإشراف علـى نشاطهـا الثقافـى ، حين قررت إنشـاء دار للنشـر ومجلة شـهرية باسمها» (مقدمة د. شرف ص ٢٣) .

وفى مستـهل العدد الأول من المجلة «برنامج» يحدد خطتهـا ، والهدف منها ، وممهور بتوقيع «الكاتب المصرى» أو كما نقول الآن «المحرر» ، وواضح أنه بقلم طه حسين ، فيه سماته وأسـلوبه يقول فى بعضه : وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسمًا لها وشعاراً ، وهذه المجلة تستـمد برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ، ومن المهمـة التى نهضت بها مصر منذ شاركت فى الحضارة الإنسانية العامة .

ثم أخـذ البرنامج يرسم سـبق مصـر الثقـافى ، وهى من بلاد البحـر الأبيض المتوسط، ذات صلات وشيجة بأمم الحضـارة ، ونهضت بمهمة التوسط بين الشرق والغرب فى شئون الثـقافة والسياسة والاقتصـاد ، ومضى يرصد دورها القديم من أيام اليونان مستأنفة دورها مع دمشق وبغداد وقرطبة ، وتمضى الآن بارزة الدور مع بلاد الشرق كله ومع بلاد الغرب كله .

وملموح فى هـذه الكلمات تحديد مـوقع مصـر ؛ حيث هى من بلدان البـحر المتوسط كما حدده طه حسين فى «مستقـبل الثقافة» وإن كان هنا يذكر إسهامها مع دمشق وبغداد وقرطبة المسلمـة ، وهو رأى يتسم بكثير من الاتزان ، وتأخذ المجلة طابع طه حسين عامة من حيث الالتـزام بالشدة وأخذ النفس بالجد ، مطالبة القراء أن يلتزموا بما التـزمت به المجلة ، وتبرز «الديباجة» أيضـاً موقف المجلة من الحرية التى تنعتهـا بالواسعة الكاملة السمـحة ، فيما تنشـر وفيما تختـار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين .

وهذا الأخذ بالجد طبع غـالب على طه حسين ، إلا فيمـا حكاه عن نفسه وهو يكتب كـتابه عن «المتنبى» ولعله كـان يميل إلـى المزاح لا الجد الوعـر ، وإن كان المازنى قد شدد النكير عليه فى هذه الرسالة .

وارتأى البرنامج أيضًا أن من ثمار الحرية التى تلحد إليـها عدم انحيازها لشعب دون شعب وفريق من العرب دون فريق ، ولا تقيد نفسها إلا بحقوق مصر والأمم العربية فى الكرامة والعزة والحياة الصالحة .

وقد برت المجلة بعهدها ، فجاءت أبوابهـا وفقًا لخطتها التنويرية ، تذيع جواهر التراث ، وطمحت ببصـرها إلى الثقافة العالمية ، بل إنهـا قد اتفقت مع طائفة من كبـار الأدباء الأوربيين والأمريكيـين - كما جـاء فى صفحـتها الثـانية - على أن يوافوها بمقالات وقصص تكتب لها خاصة ؛ بـحيث تنشر لأول مرة باللغة العربية قبل نشرها بأية لغة أخرى ؛ فـيكون قراء هذه المجلة أسبق الناس إلى الوقوف على ثمرات عـقول هؤلاء الكتـاب . ترى كم مجلة صـنعت هذا الصنيع أو تصنع هذا الآن؟

ولعبت المجلة دورًا بارزًا فى تقديم طائفة من شباب الشـعراء والنقاد والمترجمين آنذاك ، غدا أكثرهم فيما بعد من شيوخ الجـيل ، وإن كان بعضهم قد غير وجهته التى استهـلها ، مثل عبد القـادر القط وسهير القلمـاوى ؛ حيث عرفهـما القارئ شـاعرين أولا ، وغـدوا ناقـدين ومـؤرخيـن للأدب ، ولم يقف دور المجلة لدى الشعر والنقد ، بل عالجت موضوعات الساعة كالقنبلة الذرية ، والشهريات الثقافية البارزة، وهى باب ثابت من أبواب المجلة، ولأن الدار التى تصدر عنها دار نشر. . فقد نشرت بعض كـتب التراث ، والكتب المترجمة كالبخلاء للجـاحظ ، والعقيدة والشريعة لجولد تسهير ، وطعام الآلهـة لويلز والمقامر لدستويفسكى والباب الضيق لأندريه جـيد ، وبعض الروايات لسـعـيد العـريان ، وبعض فصـول روايات طه حسين، واحتوت المجلة أسماء لامعـة أو لمعت فيما بعد ، مثل : على أدهم وعبد الرحمن صـدقى ، ومحمـد عبد الله عنان وسليـمان حزين وبشـر فارس ولويس عوض ويحيى حقى ومحمود عزمى ، وإبراهيم نجا وعلى النجدى ناصف وحسين فوزى وسلامة مـوسى ، ومحمد كامل حسين ، ووداد سكاكـينى ويحيى الخشاب

وشكرى عياد وآخرين كثيرين .

وقد أحسنت هيئة الكتاب المصرية صنعًا حين نشرت هذه المجلة وغيرها مجموعة فى مجلدات ، فقد بعد عهد الناس بها ، وآضت مثل المخطوطات التى يعسر الوصول إليها ، وإذا تيسر الحصول عليها فإنما تكون فى الأغلب الأعم ناقصة مبتورة أو عبثت بها الأرضة ، أو الرطوبة أو عبثت يد الباحثين غير المسئولين أدبيًا وأخلاقيًا ، حيث كانت هذه اليد تمتد بالبتر للمقالات أو المواد المطلوبة ، قبل زمن التصوير ، وربما بعده أيضًا ، وقد عانيت رهقًا شديدًا وأنا أعد بحثى عن المازنى الشاعر ، فكنت أقع على هذه الجرائم فى البلاغ والسياسة الأسبوعية والفجر الجديد وغيرها من الصحف والمجلات ، فإذا جاءت الهيئة لتنتشل البقية الباقية - وهى كثير - فإنما تسدى إلى هذا الجيل والتالى له يدًا بيضاء، حيث قارئ المجلد غير قارئ الدورية ، وهى أيضًا تقفنا على التاريخ المنسى لكثير من كتابنا ، الذين لم يسعفهم الزمن بجمع ما تناثر من تراثهم ، أو أغفلوه عمدًا فلم يجمعوه ، وأذكر هنا أن الصديق العالم الجليل الدكتور محمد أبو الأنوار قد جمع طائفة صالحة من مقالات سحب النسيان ذيوله عليها ، منسوخة بقلمه أو بأقلام النساخ قبل زمن التصوير . وهى كذلك - أى الهيئة - تدلنا قاصدة أو غير قاصدة على طريقة الكتابة آنذاك ، وعلى ذوق الكتاب وذوق الناس أيضًا الذين يوجه إليهم ما يكتب ، وعلى الرصانة الجادة التى يتناول بها الكتاب الفكرة والأداء، وكلها فيما نعتقد فى صالح ذلك الجيل ، الذى خلف من بعده خلف أضاع تراثًا كثيرًا ، وافتقد همة تمتع بها سلفه الكريم ، ويكفى أن نعلم أن طائفة من كتابنا آنذاك كانت كتبهم مقالات ذاعت فى المجلات وفى الإذاعة جمعوها ؛ حيث كان الجهد المبذول فيها كالجهد المبذول فى الكتب المبسوطة ، بيد أن الأغلبية لم تجمع هذا المنثور أو أغفلته كما قلنا آنفا ، ومن ثم يكون فضل نشر المجلدات كاملة .

لكن لغطًا أثير حول هذه المجلة ، وجهات تمويلها ، وقد رد عليه طه حسين فى أوانه ، وتتعلق القضية بتمويل آل هرارى لها وهم من اليهود المصريين ، وهى شبهة واردة ، حيث توقفت المجلة سنة ١٩٤٨ سنة الهزيمة العربية النكراء فى

فلسطين ، وجاء رد طه حسين ساخرًا جدًا حين ذكر أنه يخدم الصهيونية ؛ لأنه أحيا الأدب العربى القديم وأشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم ، وأرجع التهمة إلى المنافسة التجارية والضغينة السياسية والحسد البغيض ، وذكر أنه لم يقبل العمل إلا بعد أن استقصى وأحسن الاستقصاء ، وتبين أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد ، وتحدى أن يجد الناس فيها ما يخدم الصهيونية بل سيرون فيها خصومة عنيفة لها ، ودفاعًا عن العرب فى وطنهم فلسطين .

ويمكن ألا نعير طه حسين تصديقًا لمقولته ، لأنه يدافع عن نفسه ، لولا أنا لم نجد فى المجلة أى دليل لاتهام ، وقد دافع لويس عوض عن مقاصد طه حسين ، ولكنه تشكك فى نية أصحاب الدار بشكل غير مباشر (راجع ص ٦٢ من مقدمة د. شرف) .

ينبغى - فى رأينا التفرقة بين اليهودية والصهيونية ؛ حيث كان اليهود المصريون جزءًا من نسيج المجتمع المصرى المتسامح دائمًا وفقًا لطبيعته وتاريخه ، وكانوا يحظون بقدر هائل من الشهرة فى مجالات الاقتصاد والمال ، ومحلاتهم التجارية الكبرى لا تزال شاهد عيان على ذلك ولهم بلا ريب أثرهم فى النفاذ إلى الحياة السياسية ، شأن رجال المال دائما فى كل قطر وقبيل بصرف النظر عن الديانة ، وفى مجال الثقافة كان حاييم ناحوم عضوًا بارزًا فى أكبر مؤسسة علمية فى مصر (المجمع اللغوى) ، وحين مات رثاه العقاد العدو الأكبر للصهيونية فى العالم العربى كله ، ولو كانت هناك شبهة لأحجم العقاد حتى عن مجاملة يسيرة .

وليس من الضرورى أن يكون كتاب المجلة - مع افتراض صدق التهمة - عارفين ببواطن الأمور حيث كانوا فى ذروة الوطنية والعروبة ، ولا يمكن أن تحوم حولهم أى ريبة ، وكان المصريون حتى ذلك التاريخ ١٩٤٨ لايرون حرجًا فى التعامل مع اليهود المصريين ؛ حيث كانوا أبناء وطن واحد ، وللعقاد رحلة إلى فلسطين فى ١٩٤٥ ، وكتب عنها مقالات مسهبة جمعت فى كتابه «حياة قلم» الصادر بعد وفاته ، وإن كانت له رسالة عن «رجعة أبى العلاء» صدرت ١٩٣٩ ، ذكر فيها على لسان المعرى رفضه لزيارة أرض أجلى عنها العرب ، ونود أن نصل

من ذلك إلى أن الناس - وخاصة كبار الكتاب - كانوا يستشعرون الخطر الصهيونى قبل ١٩٤٨ ، وإن كانوا لسماحتهم يعاملون يهود مصر معاملة المواطنة .. كما نود أن نخلص من ذلك أن طه حسين ، وهو فى ذؤابة المثقفين المصريين كان يستشعر مثل هذا الخطر خلافًا لما كان يراه عبد المنعم شميس من أنه كتب منبهًا أستاذه طه حسين الى خطر المجلة وارتباطها باليهود ، وأورد الأستاذ سامح كريم فى مقاله بالأهرام فى ١٩٨٨/١٢/٩ دفاعًا جيدًا وموضوعيًّا عن طه حسين ، ونذكر هنا أن شميس أراد الدفاع عن أستاذه فاتهمه بالغفلة على حين كان طه واعيًا منذ الوهلة الأولى حين نشر فى مجلة الاثنين فى ٨/ ١٠/ ١٩٤٥ ، شهر صدور العدد الأول من المجلة دفاعًا عن نفسه وعن المجلة ، ومعه كل الحق ، وختم أعدادها بقوله : والآن وقد انتهى عمر هذه المجلة .. فإن أعدادها بين أيدى القراء فهم لا يرون فيها إلا دفاعاً عن مصر والعروبة .

كان طه حسين يدافع عن شبهات واتهامات تركن إلى سماع دون تحقق ، وهو ما يرفضه منهج طه حسين ويرفضه كل منهج قويم ، والمحك الذى لا يخطئ فى رأينا دراسة مادة المجلة ، وكلها تدفع تلك الظنة الباغية ، ولم يكن لليهود ما لهم الآن من شرة وطغيان ، ولم يكن هناك ما يدفع شاعرًا مثل ابن البواب الذى يرى أن الفلك قد تهود فى أيامه : أيام الدولة الفاطمية «تهودوا قد تهود الفلك» ، لأن لمصر عاصمًا لا يهوى بها ذلك المهوى الوخيم ، وإن كانت الثقة المفرطة سلاحًا ذا حدين كما يقولون .

ولعل الحوم حول الشبهات هو الذى أرث هذه التهمة ، لكن طه حسين - وهو غير ظنين عندنا - لا يمكن أن نتنزعه من فطرته التى ذرأه الله عليها ، فهو لاينكص حين لايكون هناك مفر من الإقدام ، وهو رجل حديد القلب ، جرئ اللسان ، عظيم التحدى فأقدم غير هياب ولا وجل ، ما دامت له رسالة تنويرية يؤمن بها ، ويقود إليها الناس ، وإذا استقام له هذا الهدف فلا تلبث له تجاه الظنون والتهم ، بل يدوسها دوسًا وصولاً إلى غايته ، ما تخلف وما نكص .

غير أننا نتساءل ؛ لماذا لم يستكتب طه حسين العقاد فى أى عدد من أعداد مجلته ، ورسالتهما مجددة ورائدة ، وهو يدرى أن العقاد لن يقبل الكتابة لديه

دون دعوة منه حارة وصادقة ، وهما صديقان لدودان - إن صح النعت - ولهما مجاملات شهدها التاريخ الأدبى ، مع أن بعض تلاميذه كانوا يكتبون بها مثل على أدهم وعبد الرحمن صدقى ، ومحمد غلاب - كان الأخير عدوه منذ مجلة النهضة الفكرية ١٩٣١ بعد خروج العقاد من السجن ، ثم فاء إليه ودودًا ومعجبًا به.

نود أن نستخلص من ذلك بعض الرؤى المحتملة : لعل العقاد لم يشأ أن تثور حوله شبهة ، مع أنه رثى حاييم ناحوم ، أو لعل طه دعاه للكتابة واعتذر العقاد ، أو لعل دعوة لم توجه إليه أصلاً ، غير أن العقاد لو قرت لديه عقيدة بأن المجلة متهمة لنصح - على الأقل - مريديه ألا يكتبوا درءًا لهذه الشبهة . . أما وأنه لم يصنع ، فإن موقف العقاد من أصدقائه الكاتبين فى المجلة يعد دفاعًا عن طه حسين وعن مجلته .

ولعلنا حين نستعرض بعض المجلات المشبوهة فى بعض البلدان ، وموقف بعض الجهات منها، مثل: مجلة «شعر» و«حوار» ، والمجلات الصفراء المعاصرة ، ومساعى الإبراشى باشا فى عالم الأدب . . لرأينا أننا نطلب من طه حسين أن يكون من الملائكة المقربين ، فى حين أن مناوئيه فى هذا من الشياطين الأرذلين حين يتكففون موائد اليهود الأمريكيين ، أو الأمريكيين الصهيونيين ، ولا الضالين آمين!!

الطاهر مكى : الرجل والجائزة

كنا نستمع إلى شيخنا العقاد ممازحًا صنوه الدكاترة زكى مبارك ، الذى كان يدل على العقاد بألقابه : «يامولانا أنت حصلت على شهادة من الأعاجم أنك تعرف العربية» وكنا نغرب فى الضحك والمقولة غير صادقة فيما يخص زكى مبارك . إلا أنه المزاح !!

لم نكن ندرى أن المقولة صادقة إلى أن صادفنا أساتذة كثيرين يعبرون البحر ، ويحرزون اللقب ، ولكنهم ليسوا بأفضل ممن أحرزوه هنا ، بل ربما لم يساووهم، بعض هؤلاء تمهر شهاداتهم بخاتم «لايحق لحامله العمل فى الجامعات الإسبانية» مثلا .

لكن الأمر على غير ذلك مع أستاذنا الدكتور الطاهر مكى ، الذى أبى إلا أن يحرز «دكتوراه الدولة» من جامعة مدريد المركزية ، وأن يكون تقديره «امتيازًا» ، وكأين من أساتذة حصلوا على هذا اللقب ، وقعدت بهم الهمم أن يكون لهذه الدرجة صدى علمى يدل على أن صاحبها عبر البحر وأفاد ، بيد أن الطاهر مكى رأى أن تلك الدرجة بداية ، وخشى من مقولة العقاد ، فتصدى فى همة صابرة لاتبحث عن الجزاء ، بل رأى أن الجزاء الحقيقى أن يعمل ، ويسعده أن يعمل الآخرون.

تخصص الرجل فى الدراسات الأندلسية ، وحقلها عسير وغامض ، وتوقف أغلب الناس عند الأسى العاطفى الذى يغمرنا حين نتناول الأندلس ، فإذا به - مع هذا الأسى العاطفى - يعرف الطريق جيدًا ، فتصدى للدراسات الأندلسية التى عاناها المستشرقون الإسبان والفرنسيون والألمان ، وترجمها من لغتها الأصلية أو من لغات وسيطة ، وهذه أول دلالة على أنه لم يقف عند مزحة العقاد الثقيلة .

والترجمات صعبة بالنسبة للمترجم المحترف ولقارئه أيضا ، لكن ترجمة مكى نفذت إلى لباب النص ، وتلبست روح المؤلف ؛ خاصة لمن ترجم لهم فهم أدباء

مبدعون فى لغتهم قبل أن يكونوا مستشرقين ، وأشهد أننى كنت أتوقف مراراً أمام النص الأصلى ، مقارنًا إياه بالترجمة فأرى عجبًا مذهلاً ، فلغة رجل مثل غومث، وفون شاك بترجمة باليرا صعبة جدًا، وإذا بى أجد ترجمة مكى تناصيها فى لغة عربية ، كأن العبارة الأجنبية لم تعرف غير العربية ولم تنبت إلا فيها . وبعض الأساتذة يقفون عند الترجمة ، إلا أن مكى بحواشيه القيمة يضيف إلى النص ويقوم الرأى ، ناقدًا ومعللاً ، ومضيفًا فى تواضع جم ، وإنصاف حصيف، والذين يقفون عند الترجمة بحواشيها كثيرون أيضًا ، لأنهم حين يكتبون مؤلفين لاتبدو آثار قراءاتهم فى لغة أجنبية ، إلا أن مكى - مؤلفًا ومترجمًا- استطاع أن يوازن بين هاتين الملكتين فى وفاق عجيب ، وكأنى به يؤكد أن الثقافة الإنسانية واحدة حين تمتزج فى عقل مثل عقله ، وفى وجدان مثل وجدانه ، وأؤكد الوجدان هنا ، لأن ترجماته الإبداعية شعراً ونثرًا إنما هى أدب من النمط العالى.

وإذا كانت المنظومة العلمية عند الطاهر مكى بهذا الطراز . . فإن هذه المنظومة مفرغة فى قالب إنسانى قليل النظير فى هذا الزمن ؛ لأن الطاهر مكى فارس من فرسان العصور القديمة يعيش بيننا زاهدًا فى المتاع الرخيص ، معانقاً للحياة وأشواقها العليا تطل عليه ويطل عليها عبر قصيدة جميلة محكمة ، أو دراسة أصيلة .أو عبر ود صاف منخول، ولذلك تجده دائمًا فى عزلة مأنوسة وفى أنس معتزل.

لقد كان حصوله على الجائزة تقديرًا لهذا الجهد الكبير ، وتتويجًا لرحلة علمية مضنية ، ورحلة إنسانية راقية ، وهذا التقدير قيمة تضاف إلى الجائزة حين تسعى إلى مكى ؛ لأنه لم يسع إليها ، وليس من ذوى المناصب الحكومية أو غير الحكومية حتى تسعى إليه لهذا السبب ، وهى شهادة على أن فى هذه الأمة بقايا خير ؛ لأنها تقدر نفسها حين تقدر رجلاً مثل الطاهر مكى ، الذى أثبت أن مقولة العقاد لا تصدق عليه ولا على قرنائه من العاملين المخلصين .

فى ميزان النقد
أحمد مستجير عالماً وأديباً

ملكة الشاعر قريب من ملكة العالم ، لا تدابر كل منهما الأخرى إلا لدى خفاف الشعراء وخفاف العلماء ، يجمعهما معا محاولة الكشف عن المجهول ، والتعبير عنه أو تفسيره ، ويتوسلان إليه بطاقة الخيال ، وإن تشعبت بهما المسالك فيما بعد .

وأحمد مستجير - عميد كلية الزراعة الأسبق ، وعضو مجمع اللغة العربية - نسيج وحده الآن ، التقت فيه الملكتان التقاء تكامل وامتزاج ، لا التقاء ، تنافر وتباين ، وأسعدت كل منهما صاحبتها ، حيث ينطلق لسان الشاعر حين يتخفى فى حجاب العالم ، وحين يضارع تخيل الشاعر تخيل العالم أو تفسح كل ملكة السبيل لأختها حين تضيق السبل أو تتسع ، ضيق منافذ أو اتساع تيه ، فتذكر إحداهما الأخرى وقد بدأ الرجل حياته شاعراً على عادة أبناء جيله ، يهيم عشقاً رومانسيًا ، يضبطه فيما بعد تخصصه العلمى ، ونضح هذا الهيام وذلك الضبط فيما خطته يراعته ، حين يتحدث عن ملامح من سيرة حياته ، وعشقه للطبيعة ، أو حين يفسر ظواهر الطبيعة والهندسة الوراثية ، مؤلفاً ومترجماً من الطراز الأول؛ حيث تسعفه ملكته اللغوية فينقل إلى العربية ثمرات العلوم الأجنبية ، فى استقامة بيان ونصاعة أسلوب ، وحيث لا تضيع قامته بين قامات الآخرين ، معلقاً وشارحاً ، وناقداً ، وتلك هى الفائدة المرتجاة من الترجمة ، حيث يلجها معتصما بيقينه فى علمه وفى لغته لا يتيه فى الزحام.

ولأحمد مستجير سلسلة رائقة من خمسة أجزاء ، عنوانها فى بحور العلم ، رابع هذه الأجزاء عنوانه الفرعى «قراءة فى كتابنا الوراثى» فيه مقدمة شائقة عن سيرة حياته، كتبها قلم شاعر ، وبداهة عالم ، وفيها مشاهد تسرى فيها أعراق الشعر وإن كتبت نثرًا، ويعالج المؤلف قضايا كثيرة شائكة لا تستعصى على غير المتخصصين ، ولا يتأبى عليها أهل الاختصاص ، يتحدث فيها عن الإجهاض وعلم الوراثة الحديث والاستنساخ وأصل الأنواع ، ويخشى الرجل أن تجور الهندسة الوراثية على الجانب الأخلاقى والإنسانى ، لكنه يستعلى على هذه الخشية

حين توجه المعارف الحديثة إلى سعادة الإنسان وهذا ما يحاوله المؤلف ، مقترحًا حلولاً كثيرة لمأساة الجنس البشرى ، جامعًا فى حديثه بين حماسة الشاعر ، وبداهة العالم، وخشوع المؤمن ، وزكانة المتدين.

وختم هذا الكتاب بحديث عن مشروع رياضى للعروض الخليلى ، وللمؤلف رسالة سابقة فى هذا المجال ، وحاول أن يبسط قواعد العروض وتفاعيله بمنطق الرياضة، غير أنه صعبها محاولاً الرد على الشذوذات التى تعترض مشروعه غير أن الشذوذات تبقى مطلة برأسها ، وهو لو استقام له هذا الاقتراح. . فلن يستقيم له تطبيقه على الشعر الحر ، وفيه خروجات غير محسوبة لأنها تسيبت فخرجت على النسق ، كما أن المؤلف ينسب بحرًا إلى شوقى ، تفعيلاته «مستفعلن فاعلن فاعلن» وأولى أن ينسبه إلى ابن الحناط الكفيف الأندلسى ، وقصيدته : أقصر عن لومى اللائم لما درى أننى هائم ، وقد كتبنا عن هذا البحر حين كتب منه عبده بدوى ونازك الملائكة ، وادعيا أنه من ابتداعهما ، وأخذ كلامنا بعض مدرسى العروض ، دون إشارة إلى من تحدث عنه .

وفى الكتاب حديث عن داروين ، وتحليل لكتابه ، ويختتم المؤلف هذا الحديث بترجمة مقطع من قصيدة توماس هاردى ، وقد سبق أن ترجمها العقاد ، ونحن نزعم أن ترجمة العقاد أشعر ، ولعل هذا الحكم لا يزعج الدكتور مستجير ، فربما كانت ترجمته أدق ، وكانت ترجمة العقاد وراء قصيدة لسيد قطب وحمزة شحاتة السعودى ، ولعل فى إيراد المقطعين دليلاً على ما نريد من شعرية الترجمة أو دقة الترجمة ، يقول مستجير:

«إذا ما بزغت الشمس فمضيت أرقب الغدير ، والحقل والقطعان والشجرة المهجورة بدت لى جميعًا وكأنها تحدق فى كمثل أطفال بمدرسة عوقبوا فجلسوا صامتين» ، ويقول العقاد : «إذا طلع الفجر ، ونظرت إلى الطبيعة المصبحة جدولا وحقلا وقطيعا وشجرا موحشا ، رأيت كأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة تشخص إليَّ» وكأنما قد طالت عليها ثقلة الأستاذ فى أساليبه فبردت حرارتها ، ورانت على وجوهها السآمة والضجر والإعياء» .

تحية لأحمد مستجير الذى أدب العلم وشعره ، وجعل من الشعر علم الدرس والنفس والضمير .

حول حقيقة التنوير

الساحة مكتظة الآن بالآراء المتصارعة حول حقيقة التنوير ، ولكل وجهة هو موليها ، حيث ثقافته ، ومطارح فكره ، ومنازع ميوله ، إلى درجة أن كثيرًا من المصطلحات المستخدمة لدى كل فريق مدخولة ، ودرج الناس على قبولها مسلمين بها ، ولو أنهم أمعنوا النظر قليلاً وتركوا الإلْفَ ، والكسل المطمئن لرأوها لا تثبت للتمحيص، من ذلك مثلاً خرافة «الأصالة والمعاصرة» التى شاعت ورأى فيها الناس خاتم سليمان الذى يفض الاشتباك ، ونحن نعتقد أن كلمة «الأصالة» وحدها تغنى عن الكلمة المعطوفة عليها ، لأن كل أصيل معاصر بالضرورة ، حتى لو كان من آلاف السنين فالأصالة "ORIGINALIDAD" تعنى الابتكار والابتداع، وتنفى المسخ والتقليد، فلا يكون المرء نسخة من غيره ، وإذا عبر فى هذه الحالة. . فإنما يعبر عن ذات الإنسان خاليًا من التشويه والتقليد ، وبالضرورة - والحال هذه- يكون معاصرًا ، وكأين من معاصرين لنا ليسوا بهذه الأصالة ، فكأنهم غير معاصرين ، لا نعرفهم إلا أجراماً تتحرك ، وليس لهم علقة بالإنسان المتسبين إليه.

ومع أن هذه المسألة شديدة الإبانة . . إلا أن الناس درجوا على «العطف» وهو- بداهة - يقتضى المغايرة مع المعطوف عليه !! .

هذا مثل مما يملأ الساحة ، ونحن موقنون أننا - وهو سبب أزمة كبيرة - لا نتحدث لغة مشتركة ولا شبيهة بها ، وأن المصطلح المجعول به للتقييد لا نكاد نعرفه .

ومما يخفى على كثير من الناس أيضًا مسألة التنوير ، مع كثرة اللاغطين بها ، ويبدو أننا لانزال ندور فى حقل التخمين والحيرة ، التى تلابس الأمم فى لحظات الانعطاف التاريخى ، ولواعج التردد والحيرة ، ونكاد نقول : الإحباط ، وهو حقيق بإطفاء جذوة التنوير التى نبحث عنها .

درج المؤرخون على جعل الحملة الفرنسية على مصر بداية النهضة والتنوير ، مرتئين أن نابليون اصطحب معه علماء قيدوا معارفهم فى «وصف مصر» وأدخل المطبعة ، ثم توالت الأحداث مع محمد على وخلفائه،فكانت البعثات إلى أوروبا، وجلب الأساتذة الأجانب للتدريس فى مصر .

هذا الرأى يحظى بقبول شديد لدى كثير من المؤرخين العرب ، وهو رأى له وجاهته؛ خاصة وأن الناس تذكر جهود رفاعة الطهطاوى فى الترجمة والتأليف وإنشاء المدارس والصحف ، وخلفاء رفاعة ممن تعلموا فى أوربا ، أو الآخذين بثقافتها وهم فى بلادهم ، ولهؤلاء صوت مسموع حتى الآن فى المدارس والجامعات ، والمنابر الإعلامية والثقافية ، وهم - فى أغلبهم - يستحقون الإشادة والتنوية إذا خلصت نياتهم ، ولم يكونوا أبواقًا للاستشراق والأعاجم وذيولاً لهم.

بيد أنه من الحتم أن نأخذ فى الاعتبار - إذا قبلنا هذا الرأى - أن الحملة الفرنسية اقتصر دورها على تنبيه أمة لديها استعداد هائل للتنبيه ، وفيها رجال أيقاظ ، فيهم غيرة وأنفة ؛ خاصة إذا علمنا أن ثورات قامت تناهض الحملة وتقتل قائداً منها ، وظلت فحسب ثلاث سنوات وهى ليست زمناً فى عمر الأمم ، فضلاً عن ذلك أن الأمة كانت قد بدأت تستعد للنهضة قبل قدوم الحملة .

وهذا بيانه وجهة النظر الأخرى ، التى رأت فى الحملة شرًا محضًا ، غزا دار الإسلام ليقتل فيها نهضة وليدة ، فالأعاجم كانوا يترددون على ديار الإسلام - وخاصة مصر - يتدسسون بين علمائها ليقفوا على ما عندهم ، ويكتبوا «تقارير» إلى قارتهم بما عليه حال تلك الديار ، يقول العلامة محمود شاكر «أبو فهر»! «هب من جوف الغفوة أشتات من رجال أيقظتهم هدة هذا التقوض ، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غفوتها ، رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم بلا تواطؤ بينهم ، كانوا رجالاً أيقاظا مفرقين فى جنبات أرض مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم لا يجمعهم إلا هذا الذى توجسوه فى قرارة أنفسهم مبهماً من خطر محدق أحسوا الخطر ، فرموا إصلاح الخلل الواقع فى حياة دار الإسلام : خلل «اللغة» وخلل «العقيدة» وخلل علوم «الدين» و«خلل علوم الحضارة» . . وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم ، وبهمة وجد أرادوا أن

يدخلوا الأمة فى «عصر النهضة» نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام ، من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم لك هنا مجرد ذكر باختصار :

(١) البغدادى : صاحب خزانة الأدب ١٦٢٠ - ١٦٨٣ فى مصر .

(٢) الجبرتى الكبير : ١٦٩٨ - ١٧٧٤ فى مصر .

(٣) ابن عبد الوهاب : ١٧٠٣ - ١٧٩٢ فى جزيرة العرب .

(٤) المرتضى الزبيدى : صاحب تاج العروس ١٧٣٢ - ١٧٩٠ فى الهند ومصر.

(٥) الشوكانى : ١٧٦٠ - ١٨٣٤ فى اليمن .

وهؤلاء - على تفاوت - هم كانوا رسل النهضة العربية والإسلامية ، كل فى مجاله فى علوم اللغة والفقه والعقيدة وعلوم الحضارة ؛ خاصة الجبرتى الكبير والد المؤرخ عبد الرحمن الذى يقول عن أبيه : «وحضر إليه طلاب من الإفرنج، وقرأوا عليه الهندسة ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك» .

ويرى أبو فهر - ومعه كثير من الحق - أن هؤلاء الطلاب كانوا هم المستشرقين الذين تجسسوا لحساب قادتهم على ديار الإسلام ، وحين رأوا هذه النهضة التى لابد أن تؤتى أكلها بعد حين أرادوا وأدها وإطفاءها . فكانت الحملة الفرنسية ، وما جرته من خراب وقتل لتلاميذ هؤلاء المشايخ الكبار ، وسرقة ما تحتويه خزائن القصور والمساجد والأضرحة من كتب نفيسة ، لا نزال نحن نطلبها من مظانها الأوربية ، ونهب هذه الكتب محاولة خبيثة لإيقاف الدم المتدفق فى عروق النهضة الوليدة ، إلا أن تكون «نهضة» على غرار نهضتهم هم ، وهنا لا خطر عليهم من الإسلام والعرب .

ورؤية أبى فهر مناقضة لكثير من المسلمات ، التى يدين بها الباحثون فى جملتهم والمعتدلون منهم يحاولون جعل الحملة الفرنسية مثيراً فقط ومنبهًا ، أما الغلاة - وهم الجمهرة - فلا يرون إلا الخير كله فى الحملة ، والاتصال بها والأخذ عنهم .

ونعتقد أن الحملة كانت «كالمصل» من جهة ، وخرابًا من جهة أخرى ، وأننا نميل إلى ترجيح كفة الأستاذ شاكر فى مشتجر هذه الآراء ، دون أن يعنى ذلك رفض ما عند الأوربيين .. بل لابد من فتح منافذ الثقافة دون تمييز ، والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، ولكن مع نخل وتمييز ، ودقة نظر ، وحصافة ورؤية ، فما هو عند الأوربيين ليس شراً محضا ، بل فيه خير كثير لمن يرى .

وربما كان هذا «الاعتدال» هو منهج الأستاذ الإمام محمد عبده ، الذى حارب الجمود والغلو فيه ، وأيد التجديد والاجتهاد فى الدين ، وعدم الوقوف على ما قاله السلف لمجرد أنه قديم ، والحق أن فكر الأستاذ الإمام فكر إسلامى صحيح ، لايلغى العقل ، ولا يشله بقيود السلف إلا إذا كانت صحيحة يتدفق منها الدم النقى ، وبذلك تختلط بالدماء المجددة .

ولعل فكر الأستاذ العقاد - وهو تلميذ للأستاذ الإمام - من أصوب الأفكار التى ينبغى أن تكون هاديًا للأمة ، وأن أفكاره فى العقيدة والتاريخ ، وتراجم الرجال ، واللغة ، والشعر ، والنقد - خاصة بعد انتهاء فورة الشباب وحماسته - هى قوام بين السلفية والتجديد ، وقد أعاد إلى هذه الأمة الثقة بتاريخها وأدبها ودينها ، مرتئياً أن دور المسلمين فى طور الصمود فى لحظات الانكسار ، لا يقل عن دورهم فى لحظات التحدى والجسارة والفتوحات العظيمة ، وهذا هو الذى وقى هذه الأمة من التلاشى والانحسار الشديد .

ثمة آخرون يسيرون فى هذا الدرب القاصد من جيل الإمام مثل البارودى ، ومن بعده رجال حملوا راية التنوير الحقيقى فى مجالات الشعروالنقد والتاريخ ، ومقارنة الأديان ، والسياسة والفقه ، وعلوم الحضارة وغير ذلك .

لكن فى كثير من الحالات ، والأمة تمر بأطوار مختلفة بين شد وجذب ، تبزغ دعوات كالفرعونية فى مصر ، وكتابة العربية بحروف لاتينية ، وإنكار الشعر

الجاهلى ، والتطاول على أعلام الإسلام ، ودعوات أخرى حديثة كالتطرف الدينى المغالى فيه كـرد فعل لتطرف آخر ، وقصيدة النثر وغـير ذلك من الدعاوى المنكرة التى يرفضها الاعتـدال ، والنظر الصحيح ، وأن صلاح الأمة لايكون إلا بما صلح به أولها استـقـامة فى غيـر عنف ، ولين فى غيـر ضعف ، إذا نقلنا العـبارة من السياسة إلى سياسة الأدب والفكر عموماً .

ونعتـقد أن مثل هذه الدعـوات تصدر أحيـانًا بباعث خـبيث ، وأحيـانًا بغفلة وكلاهما سـواء ، كما نعتقد أن مـواجهة التطرف الناشب فيم مصـر الآن مثلاً لا يكون بفكر مرفوض من «الاعتدال» كـأن «نواجه» هؤلاء بنشر سلسلة كتب التنوير كما يطلقون عليها ، وكثير منها غَثٌّ تجاوزه الزمن ، ويعبر بعضه عن نزعة متطرفة تميل إلى الغرب مثلا ميلاً شديدًا ، بل إن مواجهـته - وللمواجهة أساليب كثيرة - تكون بالفكر المعتدل ، الذى يقف على قـمته الأستاذ الإمام محمـد عبده والأستاذ العقاد ، والشيخ الغزالى ، والشيخ أبو زهرة ، وطه حسين فى إسلامياته ، ونقده الأدبى الخالى من الجمـوح ، والمازنى ، والزيات وإخوان هذا الطراز ، وأن نحيى فى الأمة ميولاً لا قـوام لها بغيره ، وهى الإفادة البصـيرة من التراث ، والوقوف على منافذ الفكر الأوربى بحصافة شديدة ، وعيون مفتوحة ، ونعتقد أن هذه الأمة فى أمس الحاجة إلى العناية بلغتها - وهى عرضـها - وإنها إذا عرفت لغتها وأدبها فطنت إلى جوهرها وإلى دينهـا وكتابها ، الكريم الذى هو قمـة الإعجاز فى هذه اللغة .

نعتـقد أن هذا هو التنوير الذى نسـعى إليه ، ونعـمل له ، وما عدا ذلك فـهو ضـلال فى الرؤية ، وزيغ فى الفكر وعـماية مـهلكة ، وعلينا أن نرى مـا يراد بنا ويخطط لنا بيدنا وبيد عمرو .

الجوائز الأدبية
التقدير همُّ الكاتب الأصيل

لعل أفضل جائزة يتلقاها الكاتب أن يكون مقروءًا ، وأن يؤثر فى أمته بوصول رسالته إليها ، وحسبه أن تصل إليها الجائزة من الدولة نائبة عن الأمة التى قدرته ، مقرونة هذه الجائزة بأوانها من التشجيع أو التقدير ، لا بعد فوات الأوان ، ويكون قد أحرزها من ليسوا نظراء الكاتب المجاز ؛ إذ تنعدم النصفة ، ويستوى من لايستحق بمن يستحق .

وشر ماقنصته راحتى قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

وأحيانًا تصل الجائزة بعد إبانها ، فتكون كطوق النجاة ، يرمى بعد بلوغ البر كما قال برنارد شو .

والجوائز خير لمن تصل إليه وللجهة المانحة أيضًا ؛ لأنها تدفع الكاتب فى طور التشجيع إلى الإتقان والحماسة وتدفعه فى طور التقدير إلى شىء - ولا نقول كل- من الرضا عن رحلته الطويلة ؛ خاصة فى النتاج الأدبى الذى يحتاج إلى مكث كثير لحصاد التقدير ، وليس كما هو الحال فى الفنون الأخرى سمعية وبصرية؛ إذ يصادف ذووها غالباً تقديراً وإعجابًا من المشاهدين أو السامعين ، كما أنها خير للجهة المانحة ، حيث هى دلالة على حسن الرأى ، وأن التقدير للآخرين النابهين من الأمة ، إنما هو فى جوهره تقدير لتلك الجهة ؛ إذ هى مشاركة فى بعض الفضل الذى تسديه ، والذى تضعه فى موضعه الصحيح .

وقد قيل كلام كثير من الجوائز محلية وعالمية ، وربما كان من أهم ما يقال إنها كثيراً ما تجتاز المستحقين إلى غيرهم ، أو على الأقل تهمل بعض المستحقين لحساب البعض الآخر ، وآية ذلك فى جائزة نوبل مثلا أنها تخطت أسماء كبيرة ، لأصحابها مكانة باذخة فى الأداب العالمية ، مثل توماس هاردى وأونامونو

ونظرائهمـا ، بيد أنها فى هذا التخطى تثبت أمرًاجليلاً ، هو أن الجوائز - مـهما عظمت - لا تضـيف إلى الكاتب مكانة لم يبلغهـا قبل الجـائزة ، وخاصـة جائزة القراء التى تبـقى بعد فوات هالة الحـفلات ، والبريق الإعـلامى ، وأنها لا تخلق أديبـاً إلا إذا كان مـؤهلاً بحكم ملـكاته لبلوغ هذا الأوج، ربما تحـجب عنه بعض الخمول - إعلاميًا - لكنه حجب مـوقوت ، بدليل أن كثيرين ممن أحرزوا نوبل - مثلاً - لا يـضارعون فى الشهـرة والذيوع بعض الأسماء التى لم تحرزها، ولـيسوا مثلهم أيضـاً فى المكانة الأدبية . . كل هذا له دلالة ، ودلالته القريبـة أن مثل هذه الجوائز ليست المحك الوحيد لقيمة الأديب أو المفكر ، وأن القيمة المستمدة منها ربما تنصل ألوانها بعـد حين ، ودلالته أيضًا أن اللجـان المانحة لا يصادفهـا التوفيق أو النصفة فى بعض الحالات ، وخير ما تصنعـه أنها تقدم غالباً الحسن ولاتضمن لك الأحسن ، وأنها لجان فى النهاية بشرية يعتريها ما يعترى البشر من نوازع وأميال ، وقد عـرفنا أدباء أحرزوا نـوبل بموازين غيـر موازين الاستـحقـاق المطلق ، وأنهم «متـوسطون» ، وأن كثيـرين من أدبائنا يفوقـونهم ، ونجيب محـفوظ - فى رأينا روائيًا- أفضل من كـثيرين استحقوها ، لكنـها التقسيمات الإقليـمية ، التى تدفع إقليمًا إلى دائرة الضوء ، وتحجب أقاليم أخرى !!

وثمة جـوائز أخرى ربما تضارع نوبل ، وهى جوائـز سخية بكل المقـاييس أدبيًا وماديًا، وبعضهـا - فى إسبانيا مثلا - يخول لحـائزها أن يتفرغ تمامًا للأدب ، وأن تدركه حـرفة الأدب بالمعنى الأوربى لهذه الكلمـة ؛ إذ هى عندنا قرين الخصـاصة والبؤس ، حسبنا أن رجلاً مثل أنطونيو جالا - وقد بلغ الستين هذا العام - يعيش من الجوائز ومن دخل كتـبه عيشة أهل الفن المرئى ، ويعيش فى قـصر اشتراه من المغنى العالمى : خوليـو إجلسياس ، وتطبع كتبـه مسرحاً ورواية ومقـالات وشعراً بالمليون ولا نقول بالآلاف .

دلالة مثل هذه الظاهرة أن التـقدير الأدبى مشفوع بـالتقدير المادى ، وأن الأدب وظيفة اجتـماعية ينبغى أن تذلل لذويهـا المستحقين ، أرقى المنازل الاجتـماعية فى الأمة ، ودلالتـها أيضًا أن القـراء - قبل الجائزة ، وهم كـثير فى الأمم الراقـية - يخولون لكتابهم مثل هذه المكانة الباذخة .

وما قلناه عن الجـوائز عمومًـا يصلح قوله عن الجوائز فى مـصر ، التى فطنت مبكراً - فى مـحيطهـا الإقليمى - إلى تقـدير أدبائها ومـفكريها ، فاسـتنت نظام الجوائـز قبل الثـورة وبعدها ، تمثل هذا «البـعد» فى جـوائز الدولة التـشجيعـية والتقـديرية ، منذ سنة ١٩٥٨ حتى الآن. . ولحسن الحظ أنه كـانت لاتزال تعيش بيننا قـمم شامـخة من الأدباء والمفكرين - أدباء النهـضة ومـفكريها الكبـار : طه حسين ، لطفى السيد ، العقاد ، الحكيم وإخوان هذا الطراز ، ومثل هؤلاء منحوا الجائزة كثيـرا من قدرها ، ولسنا بذلك نغمط الآخرين حقـوقهم ، وإننا من أنصار الماضى ولا نرى الحـاضر أو المسـتقـبل ، بل نعنى أن أمـثال هؤلاء ليـسوا مـحل حجاج، بل تكاد الآراء - مهمـا اشتطت - أن تتفق عليهم وعلى نظرائهم من أبناء الجيل الثانى ، حتى فى الجائزة التشجيعية - آنذاك - التى كانت تزهو بمستحقيها ، ولأنها كانت لاتزال قيمة أدبية ومادية .

لكن ثمة بعض الملاحظات التى لاتبطل قـيمة الجوائز ولا تدفعـنا إلى إلغائها ؛ لأنه شر بكل المقاييس ، بل تحفزنا إلى مزيد من الضبط والإتقان .

أولى هذه الملاحظات أن القـيمـة المادية غدت مضـحكة ، ولاتظنن أن التـقدير الأدبى وحـده حـسب الأديب ، فليس الأديب جـماداً ، بـل هو رجل مشـتـعل الخوالج ، يتـبوأ مكانة المرء الراقى فى الأسرة الاجـتماعيـة ، وبعض الجوائز التى يمنحها المجلس الأعلى للـثقافة الآن أربعة أضعـاف الجائزة التشجيعـية ، ولا تجد أحيـاناً من يتقدم إلـيها ، زهادة فى القـيمة المادية فى زمن سـطا فيه التـضخم ، وهبطت القيمة السـعرية للعملة ، وليس هذا وحده ، بل إن الجائزة التشجـيعية - وهذه هى الملاحظة الثانية - يتـقدم لها من تجاوزوا طور التشجـيع ، بعضهم خنق الستين بالفـعل ، فأى تشجيع تنتظره اللجنة المانحـة منه ، أو ينتظر هو من الجائزة الهزيلة هذه .

وثالثة هذه الملاحظات أن أعضاء المجلس المانحين للجائزة ليسوا جميعا من أهل الاختصاص ، فيما يتصل بالتقديرية ، فثمة موظفون وأعضاء من الخارج ، ولذلك يكتفى المرشحون عادة بترشيح مجالس الجامعة أو الهيئات التى رشحتهم ، ومعهم بعض الحق فى هذا .

رابعة الملاحظات أن الجـوائز الأدبية التـقديرية يخالطهـا شىء من عدم التـقدير

الحقيقى ؛ نظراً لاتساع حقل العلوم الاجتماعية مثلا كاللغة والفقه، والفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك ، وكله جائزة واحدة أو تتعدد أشخاصًا لا مجالات ، ومثل هذا ظالم لذوى هذا الاختصاص .

الخامسة أن جوائز الدراسة الأدبية غلبت بعض الشىء على الإبداع - فى التقديرية - ربما شحب الإبداع بعض الشىء ، غير أن ثمة مبدعين ، يجب ، أن يؤخذوا فى الاعتبار أو على الأقل يقرن الإبداع بالدرس ، وفى هذا الصدد يقال أيضاً إن بعض المبدعين ؛ خاصة فى الشعر قد أحرزوا الجائزة التقديرية وليسوا بمستحقيها بحال ، بل ليسوا يستحقون التشجيعية ، لكنه سوء التقدير .

سادسة الملاحظات أن هيئات ترى أن تمثل اللجان فى إحراز الجوائز ، وهذا مطلب أشكل بالسياسة لا بالأدب ، وهو أمر يجعل الجائزة تتجه إلى الهيئة لا إلى المستحق ، وثمة أسماء كبيرة - إعلاميًا أو وظيفيًا - وصلت إليها التقديرية ، والأمة واجمة إزاء هذا التقدير الذى أفرغ الجائزة من حقيقتها ، ولا نريد تسمية هذه الهيئة أو غيرها فهى معروفة بسيماها للمتتبع .

وداخل هذا الإطار تمنح الجائزة أحياناً لبعض رجال الدولة ، وثمة شبهة واضحة فى هذا التقدير ، بغض النظر عن أنهم يستحقونها أم لا ، ومن العجب أن تختلط الجوائز اختلاطاً فاحشاً ، حين يحرز أحدهم وهو وزير سابق - عليه رحمة الله - جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، وهو فقيه أولى به جائزة العلوم الاجتماعية ، إذا خولته معارفه فى هذا الصدد .

الملاحظة السابعة أن بعض الجوائز التشجيعية كالشعر ربما تخرج عن إطارها حين تتجه مثلاً - وهو أمر نراه قريبًا جدًا - إلى أصحاب قصيدة النثر ، وهو اتجاه سنراه فى السنوات القادمة ، حيث تنشر كتابات هؤلاء على أنها دواوين ممهورة بكلمة : شعر فلان ، متمسحين بانعدام الأجناس الأدبية ، وأن كل كلام هو إنتاج أدبى ، وبقياسهم يغدو الكلام وهو إنتاج والتبول - عفوًا - وهو إنتاج كذلك شيئًا واحدًا، كما ننتظر أيضًا أن تمنح هذه الجائزة للزجل ، ونحن نقترح للزجل جائزة خاصة باسمه بعيدة عن الشعر الفصيح ، لا تقليلاً من قيمة الزجل ، بل وضعًا للأشياء فى نصابها الصحيح ، وربما كان ما نقوله رجمًا بالغيب - وليته كذلك - وإن كان هذا «الليت» بعيدًا !!

تخطت هذه الجوائز بعض المستحقين وستظل كذلك ، ركوناً إلى الطبيعة الإنسانية ، وبعض هؤلاء خامرهم كثير من الأسى ، وهو عسير بالنسبة للأدباء والمفكرين - لكن عزاءهم - وهو عزيز غير مرتخص - أن شملهم القراء بمزيد من الاهتمام ، وأن كتبهم لاتزال طلبة القارئ المتلبث ، وأن التقدير شيء ، والشهرة شيء آخر، وأن التقدير يجب أن يكون هم الكاتب الأصيل ، وربما تحاول اللجان أن تعوض ما فاتها بعد الأوان ، فتمنح الجائزة لأسماء الراحلين ، وهو تقليد حسن لا بأس به. أسوة بما حدث فى مصر . . حاولت بعض الدول العربية أن تقدم جوائزها على مستوى قومى عربى ، فقامت جائزة الملك فيصل العالمية ، وجائزة العويس ، والبابطين ، ومحمد حسن فقى ، وهى تنحو فى مجملها نحو الجوائز المصرية ، وإن كانت قيمتها المادية جيدة ، وكان لأدباء مصر ومفكريها سهم راجح فى إحراز هذه الجوائز ، وهى - كما هو واضح - جوائز أهلية يقوم بها أهل اليسار ، والمقدرين للفكر نيابة عن الأمة العربية كلها ، ولا نقول نيابة عن الدول ؛ لأن بعض هذه الدول لها جوائزها المرصودة كذلك كجائزة التقدم العلمى، بالكويت ، وجائزة صدام وغيرهما من الجوائز .

وفضيلة هذه الجوائز أنها تمنح بعض الأمل ، فى تقدير الفكر والأدب ، وأنها تسد بعض النقص فى الجوائز الإقليمية أو الدولية ، وهو أمر يحمد بكل حال .

ربما نقترح - إذا جاز الاقتراح - أن تنهض مصر بدورها المنوط بها فى المنطقة ، فترفع قيمة جوائزها المادية أسوةً بما حدث فى السينما والمسرح ، وأن ترى أن الأدب أبو الفنون ، وأن الفكر أساس كل شيء حتى فى السينما ، التى يحصد ذووها التقدير من جمهرة المشاهدين ، وهو نوع من القصد الطبيعى ؛ لأن الأدب والفكر فى حاجة فى مكث، وليس بكثير أن نقدم لأديب ومفكر أفنيا حياتهما فى خدمة الأمة مائة ألف جنيه وأكثر جائزة تقديرية ، تزيد مع التضخم تباعًا ، وأن تصل الجائزة التشجيعية إلى عشرة آلاف على الأقل ، وتقوم جائزة وسطى تصل خمسين ألف ، يطلق عليها ما شئنا من الأسماء ، نأيًا عن مهزلة التشجيع بعد الستين ، وأن تظل الجائزة التقديرية أرفع الجوائز ، لا جائزة النيل أو غيرها من الجوائز ؛ لئلا نسيء إلى الماضى الجليل فى رموزه : طه حسين والعقاد والحكيم وإخوان هذا الطراز .

المصطلحات الأدبية الحديثة

هذا كتاب مفهوم !

والكتب النقدية المفهومة غدت ندرة نادرة لعجمة فى الفكر والأداء نظنها فى أصحابها ، الذين يخاطبوننا بلغتنا ، فلا نفهمهم ، ولا نخالهم فاهمين ما يكتبون!!

مؤلف هذا الكتاب د. محمد عنانى امتلك فكرته - بلاريب - فامتلك التعبير عنها بأيسر طريق ، وهو رجل غنى عن التعريف ، فاسمه يتردد بين الأوساط الأدبية والنقدية مبدعًا ومترجمًا ، ودارسًا ، منذ حين ، وكتاباته لها رصيد هائل من مسئولية الكلمة عنده ، وأمانته فى أدائها ، ومن الأمانة والمسئولية حسن «البيان» كما أن لها رصيدًا هائلاً أيضًا لدى المتلقين قراءً ونقادًا ، والرجل أقابله منذ أمد ، من خلال ما يكتب ، فيربو رصيد الاهتمام والإعجاب عندى ، وأقابله شخصيًا - على ندرة نادرة - فألمح من طبعه الدمث ، ورهافة حسه ، وحلو منطقه ، وغيرته على لسانه ما يضاعف هذا الرصيد .

والدكتور محمد عنانى بدع بين أساتذة اللغات الأجنبية عندنا ؛ لأنه أديب فى لغته أولا ، وعاشق لها ، ونعتقد أن إتقانه وعشقه للغته الأم وراء إتقانه اللغة الأجنبية ، وهذا معهود بين أساتذة اللغات فى كل الدنيا .

محمد عنانى فى كتابه المصطلحات الأدبية الحديثة كاتب مفهوم ، ودقيق وواقف على تراث أمته ، يستأنس به فى مشكلات المصطلح ، فيعينه هذا التراث ، فى تأصيله وحداثته ، والمؤلف يحاول فى خلال كتابه كله أن يتحدث لغة مشتركة ما أمكن ؛ لأن وحدة المصطلح ضرورية فى برج بابل ، الذى تتشاجر فيه المصطلحات تبعًا لثقافة الناقد أو المترجم وفى المؤلف شجاعة محمودة حين يعرض لبعض المصطلحات الذائعة كالإشكالية والتناص ، والخطاب ، والمقاربة وغيرها ليراها غير دقيقة ، ولم يشأ أن تجرفه الموجة وهو أستاذ الأدب الإنجليزى، بل

اعتصم ببيانه وبيان لغته ، ولم يخش الاتهام بالتخلف ، وفصول الكتاب خلاصة وافية للمصطلحات الأدبية الحديثة ، ودراسة دقيقة لها ، وإن كانت موجزة لكنها محكمة ، وتحظى بحواش شديدة الأهمية ، فيها النفحة الشخصية للمؤلف، وفيها الرأى الصائب حين تشتجر الآراء والمذاهب .

وفى الكتاب مجال لاختلاف الآراء وربما يكون الإشارة إليها من باب التقدير للكتاب وصاحبه فالشعر المرسل - فى رأينا - ليس الشعر الحر ، بمفهومه الحديث؛ لأن المرسل كل بيت بقافية ، ولم يكن مخترعه على أحمد باكثير فى ترجمته كما ذكر المؤلف ، بل إنه مسبوق بشكرى والمازنى وساهم معهما العقاد وإن كان لم ينشر منه شيئًا ، بل نفر منه فيما بعد ، ومسألة الوحدة العضوية مسبوق بها محمود أمين العالم من العقاد ، وابن طباطبا قديمًا ، وإن كانت دقة المؤلف - وهو شاعر - جعلته لا يؤمن بهذه العضوية فى الشعر الغنائى ، ونحن نشاركه عدم الإيمان بها - عضويًا - ونؤمن معه بنوع من الوحدة ربما تكون صفتها «الاحتمالية» لا الهندسية ولا العضوية ، أو هى «وحدة» شرحها شيخنا أبو فهر محمود شاكر فى كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» علىنحو جيد ، ومع هذا الاختلاف . . فهناك «اصطلاح» بينى وبين المؤلف وواشجة نسب حميمة من حب العربية و«بيانها» والغيرة عليها ، حقيق أن يمد جسور التواصل والتقدير ، وعنانى بكل هذا محمود وأثير .

مشكلة الأدباء الكبار

معظم الأدباء الكبار فى بلادنا مشكلة ضخمة ! وأكاد أقول الكبار فى أى مجال بصرف النظر عن التخصص ، فهم لا يسمحون لمن دونهم إلا بالتسبيح بآلائهم ، والتغنى بأمجادهم ، والذوبان فى أشخاصهم ، حتى ولو كان هذا الإطراء كذبًا ورياء ، بل يبلغ بهم الأمر أحيانًا إلى أنهم يصدقون هذا النفاق ناسين أو متناسين بواعثه وطبيعته ، لأنهم سوغوا لأنفسهم هذا .

ولعل الكبار معذورون فى تلك الخليقة ؛ فوهج الحياة يبرد فى أوصالهم ، فيستعيدون بالثناء المفرط والمجاملات الجوفاء شيئًا من حرارة ، والمؤسف أن الأجيال التالية لهم قلدوهم فى تلك الصفة المنكرة ، فلا ترضى إلا بالمدح المستفيض ، وغدت المسألة منظمة ومحسوبة ، وبقدر ماتبذل من لسانك - رياءً ومجاملةً - تجد الجزاء ، والجزاء كذلك محسوب بدقة : التمكين من نشر كلامك فى وسائل الإعلام ، وغاب لهذا النقد المنصف ، وبات الكلام وسطًا متشابهًا لا لون له ولا حياة !!

وكان المنطقى أن يكون سلوك الكبار على غير ما هو عليه الآن ؛ لأنهم - أو لأن كثيرين منهم - أدركوا طرفًا من حياة جيل الأساتذة الرواد ، وقد كانوا أساتذة وروادًا بحق فى أدبهم وسلوكهم ، جهروا بآرائهم حتى فى أصدقائهم ومكنوا - حتى لمخالفيهم فى الرأى النقدى والاتجاه السياسى - أن يذيعوا ما يرونه ، وغدا هذا الاختلاف هو الأساس الأول الذين ينطلقون منه ، قبل أن يكون الاتفاق هو المنطلق ، والمحصلة لكل هذا هو الازدهار الذى شهدته الحياة المصرية فى كل مرافق حياتها أدبًا ، وفكرًا ، ورجالاً .

لقد أتيح لى - وأنا أعد رسالتى للماجستير عن شعر المازنى - أن أعود إلى الدوريات القديمة ، وقد شهدت عجبًا ملأ نفسى إعجابًا بذلك الجيل الذى لن يتكرر ، وحزنًا على جيلنا وجيل كثير من أساتذتنا ، كان العقاد ينشر مقالات

نارية ضد خصومه من السياسيين والأدباء ، ويرد هؤلاء الساسة والأدباء بمقالات حامية الأوار ، تناولت شخص العقاد وعرضه وأدبه ، ولم يجزع العقاد ولم يمرض - كما يحدث الآن لبعض الأساتذة الكبار ولا داعى لذكر أسمائهم كيلا يمرضوا مرة أخرى - بل ظل ينافح عن مكانته ورأيه ، واستمر طول حياته غرضًا للسهام التى تنتاشه ولكنها تزيده قوة ، ونموذج آخر هو هيكل باشا ، الذى كان ينشر النقد ضده فى صحيفته «السياسة الأسبوعية - وكان يرأس تحريرها !!

أين هذا مما نحن فيه الآن !! ؟ لقد غلب الرأى الواحد الرأى المؤيد المقرظ دائمًا وفى إفراط ، وأصبح العرف السائد أن الكبار ذاتهم مصونة وكذلك من تلاهم بالتبعية ، وانتقلت هذه الآفة - للأسف الشديدة - إلى بعض أساتذة الجامعة الكبار ؛ إذ يربون تلاميذهم فى الدراسات العليا على تلك الخصلة النكراء ، فلا مخالفة فى الرأى بل التسليم المطلق والإعجاب الجم ، والثناء الهائل على الأستاذ، وإن كان الأستاذ يقول لطلابه لابأس من المخالفة ، فإنه يقول بلسانه ، والويل للطالب الذى لا يعرف مقتضى الحال، ويدرك أن مثل هذا الكلام يقال فقط للاستهلاك المحلى - كما يقولون - والحاصل هو تخريج نكرات ، وهذا - كما يخيل لى - هو المطلوب فى حقل الأدب والجامعة .

وينبغى ألا يجزع الأساتذة الكبار ؛ فهم محل إكبارنا ما سمحوا لنابأن نقول رأينا فيهم ، وأن يشجعونا على ذلك ، وليعملوا - وليس فى هذا نصيحة لهم بقدر ما هو رجاء إليهم - أنهم حصون باذخة ، تزيدها السهام المصوبة نحوها قوة ومتانة ، وأننا امتداد لهم إلا فى جزعهم من النقد ، ومرضهم منه ، وأن الحوار الحر الذى ساد الحياة منذ قرن يجب أن يعود ، وليعلم الجيل التالى لهم أن ما يبقى منهم إنما يبقى بالنقد ، وأن عليهم أن يعرضوا عن المدح الزائف ، وأن يأخذوا أسوتهم من جيل الرواد لا جيل الكبار الآن .

الكلمة الأخيرة
للتاريخ والنقد الصحيح

القطيعة مع التراث إلا فى أضيق الحدود ، لا وجود للبارودى أو شوقى أو العقاد أو جماعة أبوللو أو حركة الشعر الحر فى مصر والعراق !! فى مقابلها : أنا الشعر ، أنا الإضافة ، أنا الإبداع ، أنا جماعة شعر ، أنا أدونيس ، ولا شيء غيرى !! تلك هى جملة من الدعاوى التى يطلقها على أحمد سعيد أو «أدونيس»، وهى دعاوى غريبة ، وأغرب منها من يلتفت إليها ويصدقها ، لكننا فى زمن زاخر بالعجائب «حتى ليس فيه عجائب» على رأى أبى تمام ، وقد ظل الرجل حوالى نصف قرن يردد هذه المقولات التى سمعنا شبيها لها من غلاة المستشرقين ، الذين لا يرون سوى قيمة تاريخية لا فنية حتى فى الشعر الجاهلى ، ومثل هؤلاء لا خطر لحكمهم فى أدب ولا نقد ، لكن الخطر كامن فى أن رجلاً منا ينطق العربية ، ويردد مثل هذه المقولات ، ويجد الحفاوة فى مصر ، وقد نعت أهلها قديمًا زمن الوحدة مع سوريا بأنهم «غربان أفريقيا الجائعة» وإذا واجهنا كلامه نتهم بالعصبية والإقليمية الضيقة ، وهو «المحروس» من عين هذه العصبية والإقليمية !!

لا جديد فيما قاله الرجل فى معرض الكتاب ، فتلك شنشنة قديمة ، وكان المظنون أن تكفكف السن المستعلية من غرب دعاواه فيركن إلى شيء من المراجعة، لكنها «حالة نفسية» تعادى العربية وديوانها ، فتخلط أوراق القصيدة الموزونة والحرة وما يسمى قصيدة النثر ، وكله عند العرب «والفينيقيين» صابون ! .

وخطر هذه الدعوى أنها جمعت العجزة وذوى العاهات والمئوفين (أصحاب الآفة) الذين ليس فى ذرعهم إقامة الكلام وقدمتهم شعراء «المستقبل» ، وفى القريب سيكون القرآن «شعرًا» ربما لأن الوزن غير ضرورى !! .

وقد أحسن الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى فى رده على بعض ما قاله أدونيس فى الندوة وفى الأهرام ، وهو لا يدافع عن حركة الشعر الحر ، وإن بدا هذا لأول وهلة ، ولا عن الشعر المصرى قبل جيله ، بل إنه يدافع عن حركة التاريخ وحركة الإبداع ، دون عصبية عرقية تسد منافذ الفهم ، وقد شفى صدور قوم مؤمنين .

إن هذا «الجهاد» المخلص من أدونيس فى هدم التراث ، وهدم الرموز الكبرى فى مصر والعراق لن يكون باعثه الموضوعية ، ولا الرغبة فى نفى المحاكاة ، بل بواعثه فى نفس الرجل وهى ليست فى خدمة هذه الأمة ولا لغتها ولا شعرها بلاريب ، لكن هذا «الجهاد» كالمصل الذى يكشف عن مناعة جسم الأمة التى غالبت أمصالاً كثيرة فغلبتها ، وهى تلجأ فى لحظات صمودها إلى ما يريد أدونيس نفيه منها ، ولن تلجأ إلى أدونيس ولا إلى شيعته ؛ لأنهم خارج التاريخ وخارج الزمن والمستقبل منه بالذات . والكلمة الأخيرة للتاريخ والنقد الصحيح ، لا للتاريخ «الشعوبى» والنقد المثوف .

عُدنا وعاد المهرجان !!

عدنا ، والعود أحـمد ، ولعله يكون أحمد منه فى السنوات القـلائل الماضية ، وأن يستعيد المعـرض زهوه السابق إن لم يكن فى الطوق الزيادة عليه ، وإنى لأراه اليوم وقد اكتمل عقده الثالث ، وهو سن النضج والاستواء ، دون تجاعيد ، ودون ترهل ، نقـول ذلك دون مواربة ؛ لأن معـرض الكتاب أخـيرًا ينبغى إعـادة النظر فيه، دون أن نفتـئت على حق المشرف عليه الأخ العزيز الدكتور سمـير سرحان ؛ فالرجل يبذل أقـصى طاقاته ، ولانريد أن نوجه للمعرض نقـدًا قبل أن يبدأ ، بل نريد له إحسانًا كان قد بلغه قبل عشر سنوات مثلاً ، ونود الزيادة . حسن أن يظل المعرض يحمل اسمه «معرض الكتاب» وعليه يكون التركيز على الكتاب وما يتعلق به ، لا أن يفرغ المعـرض من محتواه ، وتزاحمـه فنون أخرى مكانها مـهرجانات أخرى هى به أشبـه ، ولم يبق إلا «السيرك» ليشترك فى مـعرض الكتاب ، ولعل أصحابه يطالبون بهذا الحق وفى هذا الإطـار «الكتاب» تنظم ندوات وأمسيات تدور حوله ، فيعـود للمعرض جلاله ووقاره المفتقـد فى السنوات الأخيرة ؛ لأن المتردد فقد حمـاسه حين وجد «الزفة» طاغيـة ، وتوارى الكتاب، وتنظيم الندوات ينبغى أن يخضع للجنة تتعـدد فيها الآراء لا أن تكون لجنة سئم الناس وجـوهها كل عام لأنها تعرف سلفًا ماذا ترى وماذا تقدم ، وكذلك المدعوون فيها ، وجوه مستهلكة، رأينا بأعيننا كيف ينصرف الناس عنهم ، علينا أن نبحث عن وجوه جديدة - وهى كثيرة ولا تعـرض نفسها فى سوق الإعلام - تقدم جديدًا ومـخالفًا ، وأن نقلل ما أمكن من الوزراء ، حيث نراهم كل يوم فى وسـائل الإعلام ، ومن يشابه الوزراء من رواد المجامع الإعلامية .

يجب أيضًـا ألا تتضـارب مواعـيـد الندوات ، وأن تمتد واحـدة على حسـاب الأخرى، وأن يختـار موعد حسن لأمسـيات الشعر التى خلت أخيـرًا من جلالها واحتـرامها وأصـبحت غاصـة بغيـر الشعراء لغـياب المصطلح الشـعرى وأن تخلو

الدعوات أيضًا من أسماء عربية تطرز بها بطاقات الدعوة ، دون أن تكلف نفسها عناء الاعتذار ، وهى فى أغلبها أسماء محترقة إلا لدى الشلل المتفعة منها . هل نطمح إلى أن يكون فى المعرض سلطة الضبط القضائى «لحرامية» الكتب ؛ وبخاصة كتب التراث ؛ حيث نجد بأعيننا كتبنا تسرق ، وهذا العمل ليس مسئولاً عنه هيئة الكتاب ، بل لابد من جهة معاونة لها هذه الصفة ، وهل نأمل فى أن ندخل المعرض بالسيارة ، حيث نشترى كتبنا فى «كراتين» يصعب حملها خارج المعرض ، وأن تتخذ فى ذلك إجراءات أمنية تكفل السلامة والأمان ، كما نود أن يفسح المعرض مكانًا لائقًا لأصحاب الكتب القديمة ، «سور الأزبكية» حيث نعثر فيه على كتب نادرة ، وبأسعار زهيدة مقارنة بالأسعار الفلكية فى سرايات العرض، وهذه الكتب القديمة ربما لا تطبع مرة أخرى فى غالب الأحيان ، وهل نطمع فى أن نرى الكتب الأجنبية خاصة من اللغات غير الذائعة معروضة ؛ لأن الكتاب الإسبانى مثلاً يكاد يكون مفتقدًا مقارنة بنظيره الإنجليزى والفرنسى . وأن تمثل دور العرض من الدول الإسلامية ، حيث يكثر بيننا الآن من يقرأون بالتركية والفارسية والسواحلية وغيرها . وأن نرى الكتاب المسموع والمرئى كما نرى فى بلاد أخرى هذه المطامح قريبة التناول والتحقيق ، إذا خلصت النيات وصحت العزائم ، وكان بجوار الدكتور سمير سرحان المستشارون الأمناء ، ونحن نود له التوفيق ، واطراد التقدم ، ونود أن نرى الجلال والتقدير ، الذى كان يغمرنا قبل عشر سنوات ، حين كنا نزور المعرض ، ونحرص على حضور ندواته ، وما ذلك بعزيز .

طلابنا و«صورة البطولة»

فى زمن التوسط والتشابه يروج الأوساط أنصاف الناس ، ويفتقد النموذج والمثال الأعلى ، وهذا أمارة عقم ومسخ للتفرد والفذاذة ، وكأنما أريد للناس فى مثل هذه الأزمنة الخابية أن تستوى لديهم الظلمة والنور ، وأن يدخلوا ماكينة «سك» العملة ليخرجوا مهازيل يرضون بما هو متاح دون أن تطمح أبصارهم لما هو أعلى ، وهذا لا يكون لأناس متمايزين !!

جاشت بنفسى هذه الخواطر ، وأنا أطالع كتاب «شوقى شاعر العصر الحديث» للدكتور شوقى ضيف ، المقرر على الثانوية العامة ، والكتاب جيد ومنهجه محكم، وعرضه شائق والنماذج الشعرية فيه ذات دلالة وموظفة فى محلها ، وأسلوب شوقى ضيف محكم وجزل ، لكن هل أحمد شوقى - ودعك من شاعريته - يصلح أن نرفعه نموذجًا إنسانيًا رفيع المستوى أمام الناشئة ؟

أعتقد أن الإجابة بالنفى ولا يطعن هذا الحكم فيه ولا فى الكتاب ومؤلفه ولا حتى فى شعر شوقى ، وفيه ذخيرة لغوية يفيد منها الطلاب ، اللهم إلا إذا كان المراد لطلابنا أن يكونوا متأثرين بشوقى فى مهادنته ، وانغماسه فى الواقع رديئا أو حسنًا ، وحسابه للمكاسب قبل الخسائر .

ليس شوقى بالنموذج البطولى ، الذى يأتسى به الشباب المرجو لأمته ، المطبوع على الصراحة والتضحية والأريحية ، الرافض للمذلة والاستكانة ، بل هو على النقيض من ذلك ، فهو الرجل المنعم الرافل فى متع القصور ، حتى حين نفى كان نفيه ناعمًا رقيقًا ، يصحب خمسًا من الخدم من جنسيات مختلفة ، ويصله راتب ضخم هو نموذج مناسب لعصر الانفتاح والتطبيع يطأطى رأسه للرياح ، ولا يواجهها حتى حينما اقترب من الشعب .

إن التاريخ يصنعه أفراد ممتازون من الشعب ، ولدينا نماذج رائعة صالحة أن يقتدى بها الشباب ، وأن تهز مشاعره إذا أردنا لها أن تهتز ، وأن تلهب حماسته

الوطنية التى تحلم بالعدالة ، وتنفر من الطغيان ونعتقد أن كتاب الدكتور ضيف عن «البارودى» أولى بأن يقــرر على شبابنا فى تــلك السن ومثله «صقــر قريش» لعلى أدهم ، والشاعر «الطموح» لعلى الجارم و«أحمد عرابى» للخفيف ، ومحمد عبده «والتفكيرفريضة إسلامية» للعقاد ، ومثــلها كثير تتقدم «أحمد شوقى» نموذج الرضا بالواقع ، والتطبع مــعه ونحن نريــد لشبــابنا من خلال هذه النمــاذج العليا الــبذل والوطنية والبطولة ، وقــبل ذلك كله «التنوير» بمعناه الحقــيقى ، إذا كنا نريد لوطننا التضحية والفداء لا الجبن والاستخذاء .

إصلاح المنطـق

فى مجلس علمى كـبير ، دخل دكتور مـتخصص فى «النحو» ، ومعـه شهادة يريد التصديق عليهـا ، وفيها هذه العبارة : «نشهـد - نحن الموقعان - . .» قرأها الأستاذ وتوقف قـبل أن يوقع ، راجياً أن يقرأها الدكتـور ، فقرأها غير مسـتغرب ولا مـتـوقف ، فـمـا كـان من الأسـتاذ إلا أن لـفت نظر الدكـتـور إلى أسلوب الاختصاص، وإلى صواب العبـارة «نحن الموقعين» ، وعلق الأستاذ : إنه كان يود عدم التصويب ، لترفض شهادة الدكتور ، ويمنع من الإعارة ، لولا خشية الأستاذ أن تظن الجهة المقدم إليها الشهادة أن المصدق عليها أيضا لا يعرف «النحو» !!

حادث كهـذا كان يستغرب من الناشـئة والشداة فى تعلم العربية قـديمًا ، قبل غاشـية الجهل بهـا ، والافتخـار بعدم معـرفتهـا ، تمسحًا بـالعجز الذمـيم وبعدم الاختصـاص ، وكأن النحو لا يعرفه إلا المتـخصصون فيـه ، ويرى المرء سيلاً من تلك الأخطاء التى شاعت على ألسنة الكتـاب والمتحدثين حتى خطبـاء المساجد من الأزهريين - سدنة النحو واللغة - ولم تقف أخطاء هذه الطائفة الأخيرة على اللغة وحدها ، بل نسـمع آيات القرآن الكريم ، ولـيس فيهـا من الضبط غـير الخطأ ، ويفزع المرء حين يسمع خطبـة الجمعة ، وكنا فى الصبا الأول نسمعـها ونتعلم منها الآداب العربية بجانب الآداب الدينية ، أين ولى ذلك الآن ؟

أصبـحت المعـاهد المتخـصصـة لا تشتـرط حفظ القـرآن الكريم أو تشـترط ، وتتساهل مع هذه الأعداد الكبيرة ، وأغلب الظن أن جانبًا كبيرًا من الأزهريين الآن لايحفظون القرآن ، ولا عـجب إذا رأينا بعد عقدين على أكثـر تقدير شيخ الأزهر والمفتى مثلا - وسـيكونان من الشباب الحالى - لا يحفظان القرآن ، ويفتـيان بغير علم فضلوا وأضلوا !!

حتى الشـعراء والأدباء الآن تسـتطيع أن ترى فى نسيـجهم اللغـوى من يحفظ القرآن ممن لم يحـفظه ، ونعتقد أن القـرآن هو باب العربية الأول ، حتى بالنـسبة

لغير المسلمين ، ومكرم عبيد باشا نموذج واضح لهذا .

نعتقد أننا بحاجة جادة إلى أن يعود الحفظ إلى سابق مجده فى هذه الأمة ، ولا ينفق المرء إلا مما ادخره ، يستوى فى ذلك حفظ القرآن ، والتراث الشعرى والنثرى، وأن نرفض تلك النظريات التربوية المفسدة للملكة اللغوية والسليقة العربية ، وأن تعود المختارات «كالمنتخب من أدب العرب» إلى المدارس كلها ، وربما نطمع فنحاول إنشاء شعبة للعربية كشعبة العلوم والرياضة فى المدارس الثانوية، وبهذا تستقيم الملكة العربية ، ونتعلم النحو من النصوص لا من كتب القواعد فحسب ، ولعلنا نعيد النظر فى كليات التربية التى تخرج تربويًا ، غير عالم بتخصصه فى كل الميادين ، لغة وغير لغة .

لكن قبل ذلك كله نملك النخوة والغيرة على لساننا ، بدلاً من الاستهانة والازدراء ، وتسويغ العجز ، ولنتأكد من أن الأمم الآخرى حتى العوام منهم يحرصون على لسانهم ، حتى مع الأجانب .. أذكر أننى لم أنطق "P" الباء الثقيلة أول عهدى فى مدريد فما كان من بائع الخبز (PAN) إلا أن لفت نظرى بقسوة إلى الصواب ، وأدركت أن الأمور لا تتجزأ ، وأن الغيرة لا تشترى ، وأن البيان بيان ، سبحانه «خلق الإنسان علمه البيان» .

الجامعة المصرية إلي أين؟

فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٢٤ من شعبان سنة ١٣٢٤ ، ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ اجتمع فى منزل «عزتلو سعد بك زغلول» طائفة من المكتتبين لإنشاء الجامعة المصرية ، يتقدمهم سعد زغلول وكيلاً للرئيس العام ، وقاسم أمين سكرتير اللجنة وعضوية تسعة آخرين ، وتأجل انتخاب الرئيس . وتبرع الناس ، وكان أقصى مبلغ دفعه حسن جمجوم ١٠٠٠ جنيه ، وأقل مبلغ دفعه عبدالعزيز فهمى عشرة جنيهات ، ووصلت جملة التبرعات ٤٤٨٥ جنيه ، وهرع الناس بالهبات لدرجة أن تلميذاً دفع عشرين مليمًا مصروفه فى أربعة أيام .

توالت الاجتماعات - وكانت لها قيمة - فى منازل سراة القوم ، وتدفقت الاكتتابات ، وتوالت الاجتماعات ، وكان من أبرزها ماتم فى سراى حسن زايد بك بالمنوفية ، وأسهبت المؤيد فى وصف هذا الاجتماع ، والوابورات التى ألقت مراسيها هناك ، ورأس الاجتماع **الأمير أحمد فؤاد** وألقى خطبة عامرة ، وتم وضع لائحة للجامعة الوليدة ، وكان من أبرز بنودها الإرساليات العلمية إلى أوروبا ، أو مايعرف بالبعثات الآن ، وفى ٢١ من ديسمبر ١٩٠٨ احتفل بافتتاح الجامعة المصرية رسميًا فى القاعة الكبرى بمجلس شورى القوانين بحضور الخديو عباس ، وانتظمت الدراسة فى دار «جناكليس» التى تشغلها الجامعة الأمريكية الآن، بعد أن تم وضع المناهج ، واختيار الأساتذة من المصريين والأجانب ، لتدريس العلوم والفنون والآداب ، والمعارف المصرية ، والحضارة .

وكان من أهم بنود الجامعة هو استقلالها ، وصرح **الأمير أحمد فؤاد** :

«إنى أعلن على رءوس الأشهاد مكرراً ماقلته سابقًا ومراراً من أن الجامعة المصرية ومجلس إدارتها ، وجمعيتها العمومية مستقلة تمام الاستقلال ، وليس لأى سلطة أو جهة من الحكومة أدنى تدخل فى أعمالها ، وإن كل القرارات التى قررتها اللجنة ، والتى ستقررها إنما أصدرتها وستصدرها بتمام الاستقلال بما يوحيه ضميرها وإخلاصها فى خدمة هذا الوطن العزيز وتفانيًا فى رفع شأنه ، وتكوين

رجاله ، الذين سيكونون أعظم ذخيرة له فى مستقبل الأيام». وجاءت بعض فقر هذا الاستشهاد بخط الأمير أحمد فؤاد نفسه فى محضر الجلسة.

تقلبت الأيام بهذه الجامعة فى مقارها ، حين عجزت أن تدفع إيجار «جناكليس» سنة ١٩١٣ ، حتى تبرعت الأميرة المحسنة فاطمة هانم إسماعيل بأرض المتحف الزراعى الآن ، وبالأرض التى تشغلها وزارة الأشغال حتى غدت فى محلها الحالى برعاية هذه السيدة الفضلى ، وكريم رعايتها المادية والأدبية .

يعجب قارئ هذا التاريخ القريب من ذلك الوعى الناهض فى هذه الأمة ، ولعل الخطوة الأولى هى أعسر الخطوات فى الطريق ؛ لأن السالك الأول يكتشف ويعتسف ، ويجئ اللاحق وقد مهدت السبل ، وبرزت المعالم ، يعجب القارئ لأن النهضة تلك ، أدرك أولئك الناس رسميين وعلماء أنها فى حاجة إلى الاتكاء على تراث الأمة ، وكان حفنى بك ناصف والشيخ المهدى والخضرى وغيرهم على رأس هذه القائمة ، وعلى العلوم الوافدة ممثلة فى أولئك العلماء القادمين من أوربا فى تخصصات متعددة ، وممثلة أيضًا فى أعضاء البعثات الذين قامت على كواهلهم أسس النهضة فآتت أكلها فى زمن قياسى . كل هذا كائن والاحتلال آخذ بالأكظام، وتدخلاته المعوقة تسد كل المنافذ ، لكن للنهضة رجالاً كانوا أولى بأس شديد ، وفهم رجيح ، كما آزر ذلك كله مكتبة عامرة ، بالعربية وبكثير من اللغات ، وكانت مساعى الأمير فؤاد إلى أوربا وجامعاتها تذلل كثيرًا من المصاعب فى إهداء المكتبات الأوربية ذخائر الكتب إلى مصر ، ولم تقتصر المكتبة على اقتناء الكتب ، بل شملت المعادن والعملات ، ويكتب الأمير قصة حصوله على تلك الهدايا ، كأنه متفرغ تمامًا لشئون الجامعة ولايشغله مايشغل نظراءه من شئون السياسة وغيرها ، مع أنه كان داهية شديد المراس .

وكانت التفاتة جيدة آنذاك أن يسمح للمرأة ، أو أن يفكر فى إنشاء قسم نسائى بالجامعة للدراسة ، وبدأ هذا القسم سنة ١٩١٠ كما يدخل فى نطاق هذه الالتفاتة أن يُبتعث أطفال إلى أوربا . وإن كان واحد منهم قد عاد حين خشى عليه أهله نسيان العربية .

سارت الجامعة تبث رسالتها باعتبارها من المنافع العامة ، تتلقى الاكتتابات

والوقـفيـات من كل طوائف القطر من الأسـرة العلوية وبخاصـة الأميـرة فاطمـة إسماعـيل التى فاقت الرجال ، وتبرعت بالأرض المقـام عليها الجامعـة وبحليها - وهى شديدة النفـاسة - للأبنية، واستـحقت أن تكون أم الجامـعة ، وتلك المراثى التى قيلت فـيها ، وإن كانت قـصيدة شـوقى بك فيها دون المسـتوى ، لكن هذه ملاحظة عارضة .

وارتأت لجنة الجامعة فـيما بعد أن تجعلها حكومية ، وسلم حـسين رشدى باشا محـضر التسليم لوزارة المعـارف فى ٩ ديسمبر ١٩٢٣ ، نـظرًا للقلاقل المادية إبان الحرب الأولى ، وماتبع ذلك ، ووضع الأمـير أحمد فؤاد حجـر الأساس للمبنى الحالى بالجيزة سنة ١٩٢٨ ، وضمت إليـها بعض المدارس العالية ، إلى أن دخلت دار العلوم العليا فـى حوزتها ١٩٤٦ ، بمبناها القـديم بالمنيرة ، حتى خـلا بالهدم وانتقل إلى حـرم الجامعة ، وظلت بعض كليـات الجامعة خارج الحـرم مثل الطب والهندسة والصيدلة ، وغزتـها مبان عشوائية الآن قضت على خضـرتها وحدائقها والبقية تأتى !!

كانت الجامعة فـتحًا مبينًا لا لمصر وحدها بل للشرق كـافة ، والأمم الإسلامية وبعض الأوربية التى تجئ إليها طالبة العلم ، أو يسعى إليها المبتعثون ليحصلوا على شهـاداتها العليا ، وقد لعـبت دورًا عظيمًا فى حـياة هذا المجتمع ، وكـان لها من استقـلالها وحريتها وحريـة أساتذتها مايخول لهـا هذه المكانة المرموقة ، ونظن أن رحلة الكلمـات والأفكار فى رءوس هؤلاء الطلاب - آنذاك - كانـت تحفر خـلايا جديدة ، وتزرع خـضرة وأمـلاً حين لم يكن من برامج الجـامعـة هدف إلا رسالة العلم والثـقافـة ، وقـد وعت ذلك منذ بداياتهـا فأدخلت نظـام الدراسات العليـا وحصل المشايخ : طه حسين وزكى مبـارك وغيرهما على الدكتوراة فى الآداب من الجامعة القديمـة ، وعلى القارئ - غير مأمور - أن يراجع قائمـة الأسماء الكبيرة فى الجـامعـة ليدرك ببـساطة : أى نمط مـن التعليم كـان ، وأى نمط من الطلاب والأسـاتذة كان !! كـانت الحـرية تنشر سلطانـها على الأذواق والأفكار ، وكـان الحاملون لها أحق بها وأهلها ، ماذا كان يصنع طه حسين ، والسنهورى ، وأحمد ضـيف وأحـمد أمين، وإبـراهيم مصطـفي، وأبوزهرة،وزكي نجـيب محـمـود، والمبدعون على الجارم وعبدالمطلب ، ونجيب محـفوظ ، ومحمد عبدالحليم عبدالله

وكثيرون غيرهم ، كانوا - بلاريب - يذكروننا بجو قرطبة العلمى ، والرحلة الدائبة بين المشرق والمغرب ، والحياة التى صارت إبداعًا محضًا ، والإبداع التى تجسد حياة ، هكذا كانت رسالة الجامعة !! .

كثرت الجامعات الآن ، لدرجة أن كليات أزهرية افتتحت فى القرى ، حسن كل هذا ، لكن !!

ماذا عن حال الجامعة الآن ؟

سؤال إجابته عسيرة ومؤسفة ؛ إذ فرغت الجامعة من رسالتها إلى حد بعيد ، حين غدا القائمون عليها أو أغلبهم من أهل الثقة لا الكفاءة ، وأصبحت الوظائف القيادية بالتعيين لمن يرضى عنهم ، وأغلبهم يريق ماء وجهه إذا كان هناك بقية من ماء - فى سبيل الحصول على المنصب ، ورحم الله أحمد أمين حين قال : إنه أصغر من أستاذ وأكبر من عميد ، وحين غدا البعض منهم ولاؤهم لمن عينهم ، ونسوا العلم تمامًا ، وأعضاء هيئة التدريس هم من طلبة المدارس - سابقًا - فى ظل نظام لايسمح بتميز الشخصية ولانماء الفكر ، إن هى إلا آلات تضغط على الزر فتتحرك حركة لاتنسب إلى الآدمية ، وفى ظل الترقيات الحالية بخمسة بحوث تصل كلها إلى مئة صفحة تقريبًا ، وإن صح هذا فى المعامل فلايجوز فى الدراسة النظرية أو العلوم الإنسانية ؛ وخاصة علوم العربية ، وبعد أن كان القارئ يتلهف على مايكتبه الأساتذة فإنهم قد خذلوه ، لأنهم لم يؤلفوا كتابًا ، وبعد الأستاذية يطلقون العلم طلاقًا بائنًا ، باحثين عن المناصب ، وغدت الجامعات الإقليمية فى أغلبها تضم رجالاً من تحت السلاح لم يكونوا من النابهين ، والانتداب من جامعات أخرى لايدع للأستاذ إلا حمل (شنطته) وتوزيع المذكرات التى تعدم بمجرد الامتحان ، يحدث هذا فى الجامعات العريقة أيضًا .

وانفتح باب غريب يسمى الدراسة باللغات الأجنبية والجامعات الأجنبية [كندية - إنجليزية - فرنسية] والبقية تأتى ، والجامعات الخاصة ومصروفاتها الباهظة ، وهؤلاء الطلاب - فى أغلبهم - مصريون اسمًا خارج الجنسية المصرية ، ويكرسون - أو من أراد لهم هذا - تلك الفجوة الطبقية فى ظل أكذوبة (التعليم المجانى) فى كل المراحل ، ولايعبأ أكثرهم بالعلم ، لأنهم ضامنون الوظيفة أو الاعتماد على «دادى» فى الأعمال الحرة أو غيرها !! .

يضاف إلى ذلك مذبحة الجامعات التى تولى كبرها مفيد شهاب وزير التعليم العالى السابق، وغدا لدينا الآن [أساتذة عاملون - متفرغون بعد الستين - متفرغون بعد السبعين - غير متفرغين بعد السبعين] أى تكييف قانونى ، يسمح بهذه المهزلة التى ماسمعنا بها فى آبائنا الأولين ، وكان كادر القضاء فى أوائل السبعينيات يطالب بمساواته بكادر الجامعة ، فإذا بنا الآن فى ذيل القائمة والبقية تأتى ، ماذا ينتظر أن يقدم أستاذ فى ظل هذا التناقض الصارخ ؟ فضلاً عن المكافأت الهزيلة التى تمنح لهم فى الإشراف على الرسائل ومناقشتها . . هل يتخيل القارئ أن مناقشة الماچستير ب٧٨ جنيه بعد عناء قراءتها وكتابة التقرير وجلسة المناقشة ، ومثلها مكافأت لجان فحص الإنتاج العلمى ؟ .

كان طلاب البعثة فى إسبانيا أيام د. أحمد هيكل يحصلون من مصر على مرتب ضعف مرتب رئيس القسم الإسبانى بالجامعة ، ماذا حدث لنا ؟ .

تأتى مسألة الدكتوراه من الخارج ، وهى مضحكة بكل المقاييس ، فى إسبانيا مثلاً : أعلى مؤهل تترجم «دكتوراه» وهى هناك توازى الليسانس أو دبلوم الدراسات العليا ، دكتوراه الجامعة وهى مثل الأولى ، دكتوراه الدولة وهى الشهادة المعتمدة للإسبان أنفسهم ، تقابلها دكتوراه تمنح للأجانب وتختم «لايحق لحاملها العمل فى الجامعات الإسبانية» وهى فى مصر تترجم بالدكتوراه وكفى ، وكله عند العرب دكتوراه لأنها أرخص من الصابون !! .

نظام الفصلين الدراسيين لايتيح للطالب مهلة كافية فى زمن قصير جداً ، تتخلله امتحانات وكنترولات على حساب العلم ، وإذا صح فى بعض المواد فلايجوز فى اللغة العربية وآدابها ، وإلا فكيف يدرس الطالب تاريخ الأدب فى الأندلس - ثمانية قرون - مثلاً فى ثلاثة أشهر على الأكثر .

أيها السادة : نحن فى حاجة إلى مواجهة أنفسنا فى وقت ، لايسمح للهزل أن يسيطر ، وفى زمن يتقدم الناس بسرعة الضوء ، والأمل معقود على الجامعة ومراكز البحث المنسية أو الناسية أن تعيد النظر فى موقفها ، وأن تعيد سيرتها الأولى الماجدة ، التى لم نحافظ عليها بل نبددها بيدنا ، وماذلك بعزيز .

ملحق للمقال

[صورة الوثيقة التاريخية التى وضعت بالحجر الأساسى لبناء دار الجامعة الأولى ببولاق الدكرور (مقر وزارة الزراعة الحالى) سنة ١٩١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكُنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله
والصّلاة والسّلام على نبيّه العربىّ الذى بعثه بالحكمة وفصل الخطاب

أمّا بعدُ فإن هذا اليوم المبارك يوم الاثنين الثالث من شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية (الموافق لليوم الثلاثين من شهر مارس سنة أربعة عشرة وتسعماية وألف ميلادية) سيكون له بفضل الله شأن كبير فى تاريخ النهضة الفكرية وارتقاء الحركة العلمية فى ربوع مصر وبين أهاليها

فلقد تفضّل صاحب الأريكة الخديوية عزيز مصر الأكرم سمو مولانا الخديو المعظم الحاج عبّاسُ حلّمى الثانى محيى العلوم والآداب العربية فتصدر بذاته الشريفة الحفلة التى أقامتها ربيبة المجد وربة الكرم الدرة العصماء صاحبة الأيادى البيضاء فاطمة الزهراء لوضع الحجر الأساسى لبناء الجامعة المصرية فى البقعة المباركة التى وهبتها لها من أراضيها الكائنة فى بولاق التكرور من أرباض القاهرة .

فكان فى حضوره السعيد طالعُ يُمن وإقبال وبشير نجاح وفلاح لاسيما وأن جنابه العالى تنازل ووضع بيده الكريمة الحجر الأول من بناء هٰذا المعهد الذى سيقوم على أساس متين ليكون موئلاً للعلم والعرفان ومنهلاً عذبًا يتزاحم عليه طلاب الفضل والكمال وذلك فى خلافة مولانا السّلطان الأعظم والخاقان الأفخم

أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين السّلطان ابن السّلطان السّلطان محمَّد رَشَاد الخامس أدام الله شوكته وأيد بالعز والنصر دولته .

وكأنّ العناية الربانيـة أبقت هذا الفخر مـحفوظا فى ضمـير الدهر إلى أن تأتى سَيّدة سـيدات العصر لتكّمل بفضلهـا العميم مابدأ به جدها الأعلى الحاج مـحَّمد عَلى الكبير ومـا أقامه والدها أبو الفدا اسماعـيل الذى رفع قواعد العلم فى وادى النيل .

فلقد أصغت إلى الكلمـة الطيبة التى ألقاها على مسـامعها الزكية فـخر الأطباء الدكتور ــ

محـمد علوى باشا واسـتمعت إلى قـوله الحسن فاغـدقت على الجامعـة فيض مكارمها التى شكرها النيل وسيتحدث بنعمتها أبناء النيل جيلاً بعد جيل ـــــــــــ

وكان فـيما وهبتـه لها من المواهب الجسـام هذه الأرض التى سيقوم عليـها هذا البناء لاستقرار الجامعة فيـه على الدوام ولاستمرارها على نشر المعارف العالية بين أفراد الأمة المصرية إلى أبد الآبدين .

فأحـيت الأميرة الأصـيلة النبيلة بهـذا الصنع المفيـد اسم أبيها الـكريم وقدمت لأمتّها الشاكرة معونة نافعة باقية وسطرت لنفـسها فى صحيفة حسناتها مثوبة خالدة إلى يوم القيامة .

وقد تمّ وضع الحـجر الأساسى فى الزاوية الشرقـية الشمـالية من هذا البناء فى السّاعة الخامسـة بعد ظهر هذا اليوم المبارك بمشهد حافل من أمـراء مصر ورجالاتها وأعيانها وذوى المقامات العالية فيها ــ

وقد تفضّل الجناب العـالى الخديوى الأفخم وصاحبة الدولة والعـصمة المحسنة العظيمة فتوّجـا هذا المحضر بتوقيعهما الكريم بخط يدهـما الشريفة ثم تلاهما فى التوقيع حضرات الأعضاء القـائمين بإدارة الجامعة المصريّة ، والله المسؤول فى تمام التوفيق وحسن الختام.

من إنشاء أحمد زكى باشا سكرتير مجلس النظار

طوفان الدكتوراه إلى أين ؟!!
المعضلة والعلاج

نكأ الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى - نسأ الله فى أجله - جرحًا ناغراً ، وذكرنى طعنًا كنت أتناساه ، ومن جرائه حرصت منذ حصولى على درجة الدكتوراة ألا أقرن اسمى بلقب هو فى ذاته جليل ، حيث يعنى فى الإسبانية أن صاحبه صار له مذهب أو طريقة ، وقلت ضمن ماقلت فى مستهل أحد كتبى : «لا يذكر المترجم اسمه مقرونًا باللقب العلمى الذى حازه ، لأنه يرى أن شيوع هذا اللقب فى الآونة الأخيرة أنقص من قدره ، وإن لم ينقص من قدر الملقبين به ، وخاصة من جيل أساتذتنا الذين حازوا اللقب فى زمان كان يعرف قيمة الأشياء ، والتى انماعت فى زماننا «ألقاب مملكة فى غير موضعها» ، إلى أن أقول : والأساتذة الإسبان لايعرفون هذا اللقب مكتفين بذكر «السيد» قبل الاسم ، وهى سنة حسنة لعل بيننا من يعتنقها ، فنعرف الحق بالرجال ، لا بألقاب الرجال ، ونشر الكتاب سبع طبعات مصدراً بهذه الكلمة التى لم تجد صدى إلا يسيرا !! .

ولعلِّى - وقد بدأ الأستاذ مقاله بطرفة عن شيخ معهد الزقازيق الذى مدحه شاعر من الطلاب فى عهد قرزمته ، وفى قصيدته بيت مكسور - أطرفه بما حدث لدكتور يدرس مادة النحو فى إحدى الكليات العريقة ، ودخل مكتب وكيل الكلية وكنت حاضراً ليوقع الوكيل على شهادة حسن سير وسلوك ، أولها : «نشهد نحن الموقعان . . .» ، فما كان من الوكيل إلا أن طلب من الدكتور أن يقرأ الشهادة ظانا أنه خطأ كتابى يستدركه صاحبنا ، وكانت الطامة أن قرأ الدكتور الكلام كما ورد مكتوبًا ، فأسقط فى يد الوكيل ، وأبلس ، ماذا يصنع ، وفى النهاية أفهمه الخطأ طالباً تصحيحه ، وخرج الدكتور «والباب يصفع قفاه» كما قال الرافعى فى حديث عن العقاد ، وشتان بين الموقفين ، لكن القافية تحكم ، وتحدث الوكيل حين سألته عن حيرته ، فقال : كنت سأوقع على هذا الخطأ لكى ترد الجهة التى يريد الدكتور

التعاقد معها معاراً هذا الطلب ، لكنه خشى - أى الوكيل - أن تظن تلك الجهة بالدكتور وبالوكيل الظنون ، وأن الكلية العريقة غير أمينة ، وهكذا كان ، وسافر صاحبنا ، ليعود أستاذاً مساعداً يشرف ويشارك فى مناقشة الرسائل .

فانظر الفرق بين زمنين !! زمن الطلاب وزمن الدكاترة !!

خلا هذا اللقب من مضمونه ، ليس فى كليات معينة ، بل عمت البلوى ، فتجد الدكتور الطبيب ، والدكتور المهندس على تلك الحال - إلا من رحم ربك ، وجأرت حناجر الأساتذة الكبار بالشكوى ، ولا من مجيب ، كما جأرت أيضاً بتقديم المقترحات الإصلاحية ، وعقدت الندوات والمؤتمرات ، لتوضع التوصيات فى الأدراج ، ولو كففنا عن عقد المؤتمرات وطلب الحلول بضع سنوات ، وبحثنا عن التوصيات القديمة لكان فيها علاج ناجح ، لكن هكذا يراد ، ونعوذ بالله من الخذلان ، كما كان يدعو شيخنا ابن حزم .

بيد أن الطامة الكبرى تتمثل فى تخصصات معينة هى جوهر هذه الأمة ، لأنها تمثل صميمها ، ولاينهض بها غير أبنائها البررة ، وهى الدراسات الإنسانية وخاصة اللغة ومايتعلق بفروعها ، حيث لايمكننا استيراد متخصصين ومبدعين فيها بخلاف التخصصات العلمية ، لأن العلم لا وطن له .

وفشت البلوى مع افتتاح الجامعات الإقليمية حيث تقوم على نمط من الدكاترة من «تحت السلاح» كما يقولون ، وفى ذرعهم القيام بتدريس كل الفروع بلامثنوية، واشتط ببعضهم الغلو فى إنشاء الدراسات العليا ، ينهض بها المدرسون الذين كانوا حتى الأمس فقط يدرسون فى المدارس الإعدادية ، وزهد أساتذة الجامعات الكبرى فى الانتداب إليها ، حيث ينظر إليهم على أنهم يأخذون لقمة العيش من تلك الأفواه الإقليمية ، ولأن الوقت غير متاح لهم أو لأكثرهم ، ولضآلة العائد المادى ، وصار فى ذرع الدكتور هنالك أن يدرس مادة كالأدب المقارن ، وهو لايعرف كتابة اسمه باللغة الأجنبية .

وقد بُليت أقسام العربية بضعفة الطلبة من الحاصلين على ٥٤٪ فى بعض السنوات ، وتخرج بعضهم معيداً ، وصار أستاذاً الآن ، ولم يدخل تخصصه

راضيًا ، بل قذف به مجموعه ، وإذا تقدم طلاب فائقون ، فإنما يذهبون إلى كليات التربية وهى مفتقرة بحسب منهجها إلى الكم والكيف المعرفى فى مواد التخصص ، حيث ينازعها المواد التربوية وطرق التدريس وعلم النفس ، وكلها علوم مفيدة لمن يملك مادة تخصصه أولاً كالعربية أو اللغات الأخرى ، وبقية التخصصات ، وإلا فما جدوى أن يعرف الطالب طرق التدريس والتربية ، ولايعرف جيدًا قواعد العربية وأدبها ونقدها ؟ ،

وهكذا الأمر فى كل التخصصات ، ومن هؤلاء يكون المعيدون الذين لايقيمون لغتهم ، وهم الأساتذة فيما بعد ، نعتقد أن هؤلاء الطلاب الفائقين كان يمكن تعليمهم جيدًا فى التخصص فى غير كليات التربية .

يضاف إلى ضعف تكوين الطالب الذى سوف يكون معيدًا ، ثم دكتوراً فيما بعد ، نظام الفصلين الدراسيين الذى إذا صح فى بعض المواد ، فلا صحة له فى علوم العربية والدراسات الإسلامية ، لأن الزمن فيها جزء من العملية التعليمية ، وإلا فماذا يصنع الطالب فى مناهج الأدب والنقد ، بقضاياها وعصورها المختلفة ، وإن وقتًا ينفقه الطالب فى تذوق النصوص وشئ عسيرة ، وبعض عصورها يبلغ ثمانية قرون ، لايمكن أن يضيع سدى فى خلال عام دراسى كامل ، لابضعة أشهر هى زمن الفصل الدراسى ، حيث يظل يديرها فى نفسه ، ويجيلها فى خاطره ثمانية أشهر فيحسن فهمها وتذوقها ، ويتمكن من خلالها من فهم كتاب الله وهو ذروة البلاغة والبيان .

ونعتقد أن نظام الفصلين لايحقق له هذه الغاية المرجوة ، كما نعتقد أو نظن على الأقل أنه نظام لايؤمن به غير واضعيه والقائمين على تنفيذه من أهل الإدارة، وربما يكون بعضهم أول ذاميه فى خلوته ، حين يثوب إلى فطرته ، ربما يحقق متابعة للطالب ، ولكننا نلاحقه بامتحانات متكررة فى وسط العام الجامعى وفى آخره ، وربما تتكرر هذه الامتحانات مرتين كل فصل للمتخلفين ، والأصليين ، ثم دور سبتمبر ، مع مايتبع ذلك من استعدادات للامتحانات والتصحيح ، ولهاث لاينتهى ، على حساب العملية التعليمية ، وهى الأصل الأول الذى لا أصل يسبقه فى كل الأمم الناهضة ، أو هكذا ينبغى على الأقل.

وإن طالبًا يتخرج فى ظل هذا النظام التعليمى ، مع الملخصات والدروس الخصوصية ، كيف يكون لنا منه باحث جيد فى المستقبل حين يعين معيدًا ثم دكتورًا ؟

ولايعنى ذلك أن نظام العام الدراسى الكامل لامثالب فيه ، لكنها فى تصورنا أقل ، ومعالجتها لاتكون بنظام الفصلين ، بل بصيغة تجمع بين المتابعة الفصلية والتحصيل الكامل خلال عام دراسى كامل .

ومن الهزل الذى لم نلتفت إليه أن هناك جامعات أجنبية لن أسميها الآن ، تمنح درجة تسمى «أعلى مؤهل» فى مدارس الفنون ، ويترجم المكتب الثقافى هذه الكلمة بلقب «دكتوراه» ، فى حين أنها توازى الليسانس أو دبلوم الدراسات العليا، وبعض هؤلاء الطالبين لها كانوا قد حصلوا على الماچستير فى مصر ، وهى درجة أعلى من تلك الدرجة «الخواجاتى» وفى اعتقادنا أن الفن لايحتاج إلى مثل هذه الدرجات فحسب الفنان فنه ، وهو أعلى من أى لقب ، لكن الرغبة فى الألقاب ، والدرجة المالية - وهى حق وظيفى - وراء هذا السعى المشكور ، وبعض هذه الجامعات تمنح درجة الدكتوراه وتسمى «دكتوراه الجامعة» ؛ تمييزًا لها عن «دكتوراه الدولة» ، التى تمنح لأبناء البلد المانح نفسه ، وتميز الجامعات الدرجة الأولى بخاتم يقول : «لايصرح لحاملها بالعمل فى الجامعات . . .» وتمنح للعرب ولأبناء أمريكا اللاتينية ، فى كثير من البلدان ، وبعضها تسمى «دكتوراه الدرجة الثالثة» وآخرون يترخصون فى كتابة الرسالة بلغة غير لغة البلد المانح ومنها العربية، مادام الفساد بعيدًا ، ويرحل عن بلادهم إلى بلادنا أو أشباهها .

وثمة دكتوراه أخرى هى «الفخرية» ، ويتمسك بعضهم بها ، ولاتخول له التلقيب بها ، لكنه الداء المطمئن ، والذى لايجد له شكيمًا ضابطًا .

هؤلاء الدكاترة ومن على شاكلتهم يترقون الآن فى ظل نظام غير دقيق ، وحسبك أن تعلم أن البحوث المقدمة فى حدود خمسة ، كل واحد منها فى حدود عشرين أو ثلاثين صفحة ، ومعروف معقولية هذا فى البحوث العلمية ، التى ربما لاتزيد عن صفحات قصار جدًا ، تحمل كشفًا أو نظرية جديدة تغير مسار العلم ربما ، لكن فى الدراسات اللغوية أو النقدية ، ماذا يكتشف الباحث فى بحث عن

مقدمة القصيدة عند البارودى مثلاً فى حدود تلك الصفحات ، بعد تمهيد عن حياة الشاعر وملابسات الإبداع ، وكلها كلام «بالت عليه الثعالب» ، إلا كلام من رحم ربك وهم أقل من القليل ، ثم يتقدم ببحـوث مثلها إلى الأستاذية ، ويرقى بعض مايسمى بالبحث المرجـعى فى مقال ، تستغرق وقتًا لايسمـح باكتشاف الباحث ، ويكتفى بالدرجة دون تقـرير علمى كما كان المنهج السـابق ، ربما تكون فيه بعض ثلوم ، لكن إلغاءه ووضع منهج مخالف له ، سيـجعل من الأساتذة جيلاً مقطوع الأنفاس ليس له كتـاب ، يبين فيه منهجه ودرسه ، ودعك مـن المباحث المسروقة وليس الأساتذة الفاحصون محيطين بكل شئ علمًا ، فضلاً عن خصاصة المكافآت الممنوحة للفـاحص ولعضوية اللـجنة ، واللجنة المناسبة تضم فى عـضويتهـا أناسًا لايعرفـهم حتى أهل الاختـصاص ، لأن العدالة رأت مـقياس الأقدمـية كافـيًا ، وأهملت العلم والفضل بجانب المقياس المتبع، وهو كـسيح بكل المعايير ، صحيح أن فى بعض اللجان أسـماء لامعة علمًـا وفضلاً، لكنها قليلة جـدًا ، ولاذكر هنا للمجـاملات الشخصـية والنحل المذهبية ، التى تقـدم وتؤخر كثيـرًا فى الضوابط والأحكام .

بعض هؤلاء الدكـاترة تأخـذهم العزة بالإثـم ، ويرون أن المكان لابد أن يخلو لهم بتنحى الأساتذة الكبـار ، ليحلوا محلهم ، وليـتهم يملأون المكان كمـا ملأه الأساتذة ، حيث الهزال والطوى ينشران سجفهما عليهم ، ولاشئ غير الادعاء ، سطوًا على جهود الأساتذة ، وتعجلاً دون ركيزة راسخة من العلم .

وبعض هذه اللجـان العلميـة تشكل من أساتذة القـسم نفسـه كما يـحدث فى الأزهر عند ترقية الأساتذة المساعدين ، ولست أدرى هل لاتزال هذه السنة متبعة أم لا ؟ وهنا تفرخ المجاملة الإفراخ الطبيعى ، ليت الأستاذ الدكتور البيومى أشار إلى هذه القضـية ، وإلى مايحـدث فى الأزهر خاصة ، وأمـانة الأستاذ ليـست محل حجاج .

أذكر أن طالبًا تقدم برسالة فى قسم الـنحو - مجاراة أذكرها لمدرس النحو الذى ذكره الدكتور البيومى - والطالب جدلاً ، يذكر المصطلحات دون فهم ، ويريد أن يكون مجددًا فما كان من شيخ جليـل عضو فى المناقشة ، إلا أن قال له : لاأفهم

ماتعنى ، وطلب من طالب الدكتوراه أن يشرح المراد ، فقال كلامًا لايحسن السكوت عليه - رعاية لمقام سادتنا النحاة نذكر بعض كلامهم - وهنا قال الشيخ لتلميذه المشاكس : أعرب البيت المذكور شاهدًا فى رسالتك ، وإذا بالطالب قد أجْبَلَ وأفْصَى ، ولم يحر جوابًا !!

تلك طائفة علا صوتها ، واشتد لجبها ، ووجدت من يصغو إليها - أى يميل - فعاثت فسادًا فى علم هو قوام العربية ، وقوام أى لغة أخرى ، وماكان أساتذة الإسبانية يترخصون معنا حتى فى نطق بعض الكلمات والأحرف العسيرة بالنسبة للأجانب بله النحو ، وما أشق أزمنة أفعاله !!

سيدى الأستاذ الجليل : نحن فى محنة ، ورحم الله أيامًا كان شيوخنا فى الأزهر فى القسم الابتدائى والثانوى أعلامًا فى المعرفة ربما أفضل من بعض دكاترة هذا الزمن الوبى ، فى النحو والفقه والتفسير والحديث والعروض والبلاغة ، ولست من الناعين اللائذين بالماضى ، بل إننى لمست هذا حتى مع طبقة المستشرقين الذين تلمذنا لهم ، وخلف من بعدهم خلف ضيع علمًا وفضلاً ، وإن كانوا أفضل من الخلف عندنا ، ولست - والله - أدخل الحزن على قلب الأستاذ، فما إلى هذا وكدى .

كيف يكون الإصلاح ؟

وإذا كان الشيخ قدم مقترحات للإصلاح ، فلن تكون فى يد من كانوا سبب الإفلات والضياع ، ترخصًا واستنامة ، إنما المسألة تقتضى بعثًا ونخوة قبل البرامج الدراسية ، وإحساسًا فرديًا يتنامى فيشكل اتجاهًا إصلاحيًا ، ولن تكون البرامج التربوية سوى معين ، إذ لابد من امتلاك الأداة والمحصول أولاً لأشكله حسبما أشاء ، ولأضرب مثلاً يسيرًا بمدرس النحو الذى لايعرف غير قشوره ، وهو ممتلئ العقل ببرامج التربية وطرق تدريسه ، فماذا يصنع أو يفيد ؟ . .

إن الألقاب الجامعية حصلها غير أهلها ، والسمكة تفسد من رأسها ، والمتخرجون نتاج طبيعى لهذا الرأس ، وقد سرى كثير من هذا الفساد فى السلم الوظيفى بالجامعات ، حين أبحنا للمدرس والأستاذ المساعد اللذين لم يرقيا إلى

درجة أستاذ ، وأدركتهما سن المعاش أن يظلا مدرسًا متفرغًا وأستاذًا مساعدًا متفرغًا أسوة «بالأساتذة الأساتذة» ، وكأننا نسوى بين العجز والقدرة والكسالى والمجتهدين ، وكله عند الجامعة صابون ، كان المفروض أن يحال هؤلاء للمعاش، حين رضوا بالدون ، لا أن يحرزوا «المكافأة» ، ولماذا يعنون أنفسهم بالبحث وسهر الليالى مادامت الوظيفة مضمونة ، والجائزة مدخرة لهم ؟ فى حين نكيل بمكيال آخر عند تأخر المعيد أو المدرس المساعد عن إحراز اللقب ، ونحولهما إلى عمل إدارى . كفى أيها السادة تدليلاً للعجز وارتكاس القدرة ، هلاَّ حولنا هؤلاء قبل المعاش إلى أعمال إدارية ، فإذا بلغوا السن القانونية خرجوا وشيعوا دون بكاء إلا من ثبت عجزه جسديًا عجزًا كليًا ، وأخشى من اللجان الطبية آنذاك ، ومن التقارير المزيفة .

وثمة نمط آخر من هذا العجز يتعلق بالأساتذة أنفسهم ، حين يركنون إلى عدم البحث والكتابة ، وكأنما الأستاذية آخر المطاف ، وحين يبحثون عن مناصب كما يبحث «عبده مشتاق» ومن على شاكلته وفقدنا الأسوة فى الأساتذة الكبار : على الجارم ، وعلى الجندى ، ومحيى الدين عبدالحميد ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى، كل هؤلاء غير دكاترة !! ، وشوقى ضيف ، وأحمد هيكل ، والطاهر مكى ، ورجب البيومى وإخوان هذا الطراز .

ثم تأتى الإعارات ، وأصحابها فى البداية طلاب رزق ومعذورون ، لكنها تتحول عند طائفة إلى احتراف ، وتحت مسميات كثيرة مثل مرافقة الزوجة - وكان الناس يخجلون منها بداية - ويستقيلون حين انقضاء «العدَّة» ، وحين تكون المسألة بهذه الصورة لاتَنتظر بحثًا ولاعلمًا ، مع وجود الكتب المقررة سلفًا ، وحين يعود البعض ينسى مابحثه قديمًا ، خاصة حين يكون مدرسًا لايزال ، وتطفح المرارة النفسية عاجزًا حتى عن القراءة ، لأنها عادة وضرورة حياة لمن تمرس بها وعاناها .

هذا هو الحال ، ولا أمل إلا ببعث جديد ، وإلا إذا تحولت السنن ، وتبدل الخلق جملة كما يقول ابن خلدون ، وهو أمر غير عزيز إذا صحت العزائم وصدقت النوايا ، وللأستاذ الجليل تحية الآمل ، لاتحية القانط المستخذى ، وشكر الغيور لاشكر المداهن .

شعراء العالم في ليما

عرفت بيرو قبل أن أذهب إليها ، عبر شاعرها الأكبر «ثير باييخو ١٨٩٣ - ١٩٣٨» ، ومن خلال دعوة كريمة تلقيتها من سفيرها الفنان المثقف «دون ألبرتو تامايو» فى القاهرة مع حشد من رجال الفكر والأدب ، وحين ذهبت إليها صدقت الرؤية السماع ؛ فالشعر زاد يومى ، والفن البسيط يلمحه الناظر فى حديث الناس، وفى انتظام البيوت ذات الطابق الواحد أو الاثنين ، كأنها الموشحات الأندلسية بأغصانها ، تنتهى كل مجموعة منها بخرجة "Jarcha" تمثلها حديقة منسقة ، ينتظرها السائر فى الشارع ، أو السائر فى تضاعيف الموشحة ، وإن خرجت أحيانًا على أعاريض العرب خروج الناطحات على النسق ، ولحسن الحظ فهو قليل .

الرحلة إليها تطول كرحلة البحث عن القصيدة يحمدها الراحل حين تبدأ وحين تنتهى ، مستشعراً متعة الحلول كمتعة الكلمة فى محلها من القافية ، هكذا كانت رحلتى إلى ليما العاصمة ، قصيرة الأمد ، عريضة المعانى .

وكانت خرجتى من المطار محمودة حين استقبلتنى سفيرتنا الفضلى فى ليما ، ومعها الوزير المفوض ، وحملتنى سيارة الجامعة إلى الفندق ، فعرفت للوهلة الأولى أن النظام عصب المهرجان وهكذا كان .

واحد وثلاثون شاعراً من عشرين دولة ، لكل واحد منهم مكانته المؤثلة فى عالم الكلمة ، كنت أعرف بعضهم من قبل رؤية كشاعر إسبانيا ، وقراءةً كأغلب شعراء أمريكا اللاتينية . ومن لم أعرف منهم خاصة من آسيا ، وفنلندا والدانمارك والولايات المتحدة بت أعرفه كأننا أصدقاء، وكأن جذوة الشعر المقدسة أذابت صقيع التخوم والحواجز .

ترتفع أعلام الدول المشاركة فى المهرجان فى ساحة جامعة ليما ، وهى جامعة خاصة - لعل جامعاتنا الخاصة تحذو حذوها - وتبدأ جلسات المهرجان بكلمة

افتتاح رئيسة الجامعة ، ولغتها صافية عذبة ، ويقع العبء الأكبر على الشاعر الناقد الدكتور خورخى كورنيخو ، أستاذ الأدب والنقد ، فى تنظيم المهرجان وتقديم الشعراء ، والحفاوة بهم كأن كل شاعر ضيفه الخاص لاضيف الجامعة ، وتبدأ الجلسات بعد الافتتاح ، خصص لكل شاعر نصف ساعة ، يقدم فيها كلمة عن شعره ، ويقدمه ناقد ، يلقى بعده الشاعر مجموعة من قصائده بالإسبانية فهى لغة المهرجان الرسمية ، ولأن الشعر إنسانى فى بواعثه وغاياته ، وهى التعبير عن الإنسان حيث كان ، كان تجاوب الجمهور بلاحدود ، فيخيل إليك أن هذا الجمهور لاهم له فى حياته سوى كان الشعر ، يطرب له ولو لم يعرف اللغة الأصلية التى ينشدها الشاعر ، وقد تحقق هذا مع كاتب السطور حين قدم كلمة عن الشعر العربى ، وقال - ضمن ماقال - إنه يحمل ستة عشر قرنًا أو يزيد من شعر أمته يقرأه القارئ المعاصر ، منذ بداياته فى حروفه هى هى دون حاجة إلى ترجمته إلى لغة معاصرة ، وأن شعره يحمل قسمات نفسه ولون عينيه ، وأنه يميل إلى الشعر المتأمل ، وقرأ مجموعة من قصائده بالعربية ثم بالإسبانية التى قام بها شاعر ناقد هو «ساندرو تشيرى» ، وطرب الناس طربًا ، واهتزوا فى أريحية ربما لم يجدها مع الجمهور العربى ، ومن حق القارئ هنا أن أنقل ماكتبته جريدة «الإكسبريسو» فى تعليقها : إن إنشاد الشاعر المصرى يقطر عسلاً ، والتفت الناس إلى القافية الموحدة . وكانوا ينتظرون دقة الرجل ، وحوصر الشاعر بإعجاب شديد حتى إن شاعرًا مكسيكيًا من تلاميذ أوكتابيو باث المباشرين ، حياه قائلاً : لقد أدمعت عينى، ولست أروى مثل هذه الطرف مما حدث - وهو كثير - إلا لكى أثبت يقينًا قديمًا أن الوزن والقافية من جوهر الشعر ، وقد لمحتهما فى إنشاد الشعراء وطربت بصفة خاصة للشاعر البرتغالى والبرازيلى والإيطالى فضلاً عن الإسبانى ، وأشفقت على من يمثلون مصر أحيانًا من كتاب النثر ، كيف يقابلهم الجمهور هنالك ، كما أثبت هذا المهرجان لدى يقينًا آخر ، هو أن الشعر «ديوان العرب والعجم» . وأن هذا الجمهور الذى اقتعد الأرض فى القاعة الكبرى حيث لم تكف المقاعد دليل على ضرورة الشعر فى الحياة المعاصرة ، وربما يتخلى الإنسان عن الآلة ولايتخلى عن الشعر حيث هو شعور .

ويقوم شاعر إنجليزى ينشد مراثى فى زوجته التى قبرها فى ليما ، فذكرنى بشعرائنا المصريين الراثين زوجاتهم عبدالرحمن صدقى وعزيز أباظة وطاهر أبوفاشا ورجب البيومى ، وأن ديوانًا خامسًا يضاف إلى هذه الدواوين ، وهو مجال مقارنة ممتعة .

وينشد ماركو مارتوس من ليما ، ويهدى قصائده إلى الشاعر المصرى العاشق الأندلسى ، حيث يتحدث عن ولادة وابن زيدون ، والمنصور ، وعبدالرحمن الناصر فى قصائد تحمل هذه العناوين ، وفيه ذلك العبق الأندلسى المتأثر بكلام الشعراء الأندلسيين المترجم إلى الإسبانية .

وكانت أحاديث المائدة فى الليل فصولاً ممتعة تتحدث عن نجيب محفوظ ونوبل، ولغته الدقيقة المصورة ، ووعيه العميق بالحياة المصرية اليومية ، وحسه الإنسانى العالى ، وقد أسهمت الترجمة الفرنسية أولاً ثم الإسبانية ثانيًا بمعرفة الناس بكاتبنا الكبير وكانت قامتى تطول وأن أصغى لهذا الحديث العظيم ، ويتردد الحديث عن ترجمات غرثيه غومث ، وأسين بلايثوس إلى الإسبانية وتأثير الشعر الأندلسى فى جيل ٢٧ الإسبانى .

ويزهد الجمهور فى سماع شعر قليل حافل بالأحاجى والألغاز ، ويصعد صاحبه إلى المنصة وينزل ، فلا يوليه أى اهتمام حتى من قبيل المجاملات ، ويسلقه الشعراء العقلاء بألسنة حداد فى ردهات القاعة والجامعة فى الأحاديث الجانبية ، ولايطرب الجمهور كذلك لما يسمى بقصيدة الجسد ، والكلام العارى ، ومثلته قصيدتان فقط ، ومثل هذا يحدث عندنا إلا مايكون من قبيل المراءاة .

وتختزن الذاكرة أشياء كثيرة عن عمق الملتقى الشعرى وتنظيمه وشعرائه الكبار ، وحفاوة شباب الجامعة بالشعر والدواوين التى يتهاداها الشعراء ، وأحمل منها كمية كبيرة ، أعالج بعضها فيما بعد .

من قبيل نكران الفضل عدم إزجاء التحية إلى السيدة هالة حسن إسماعيل سفيرة مصر هناك ، وإلى الأستاذ عبدالموجود الحبشى الوزير المفوض بالسفارة ، حيث يشرفان بلدهما فى مثل تلك المحافل عارفين الدور المنوط بهما وقد دعت

السفيرة بعض السفراء ورئيسة الجامعة ورئيس المهرجان ، وبعض رؤساء تحرير الصحف ، والإذاعة المرئية والمسموعة على شرف الشاعر المصرى فى دار السفارة ، وقد أدليت ببعض الحوارات الصحفية والإذاعية نشر بعضها وأذيع ، ولحقنى بعضها عن طريق سفير بيرو بالقاهرة بالإنترنت .

لقد عرفت بيرو على البعد كما عرفتها على القرب والمسافة بينهما إنشاد قصيدة رائعة تصل القريب بالقريب ولا أقول البعيد بالقريب ، وللجنة الشعر والمجلس الأعلى للثقافة فى مصر الشكر العميق لإتاحة الفرصة أن ينشد شعر عربى لأول مرة فى تلك الديار ، بين شعراء من أربع قارات .

ولعل العنوان وقد جاء موزونًا من بحر الخبب «شعراء العالم فى ليما» يؤكد مرة أخرى للعرب والعجم أن الوزن عفوى ، وأن الذى لاوزن له ، عليه أن يبحث عن مهنة أخرى يباشرها أو تباشره ، وأن يدع الوزن للوزانين ، وإلا كان من الضالين .

«شعراء العالم في ليما»

من حصاد المهرجان

الحفاوة بالشعر نشرًا ، وإنشادًا ، واستحسانًا شئ معجب فى ليما ، على نحو يذكرنا بما كان يحدث فى مصر أيام شوقى وحافظ والجارم ، فالصحف اليومية فيها مادة خصبة ، والمجلات المتخصصة التى تهتم بالشعر فقط ، وحضور الجمهور الذى يصافحك وجهه لايتخلف عن الجلسات ، وطربه وهو يهتز اهتزاز الكريم حالة الإنشاد ، دلائل واضحة على أن الشعر ديوان الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم .

تخرج جامعة ليما مجلة خاصة بالشعر ، لاعلى نمط الحوليات الجامعية عندنا ، بل كل همها الشعر قصائد ودراسات عنها ، وقصائد مترجمة من لغات شتى ، وزعت المجلة على المشاركين وتحمل اسم "Evohé" وتعنى الصياح أو الحداء بمعنى أدق ، وكأن العرب والعجم يشتركون فى الحداء والتغنى بالشعر ، وتقصر المجلة حدودها على الشعر فحسب ، وتطبع الجامعة مجلدًا فاخرًا هو حصاد ماقيل فى المهرجان مترجمًا إلى الإسبانية ويتضمن تعريفًا بالشاعر ويحمل عنوان «مهرجان شعراء العالم» يقدمه بكلمة موجزة رئيس المهرجان «خورخى كورنيخو» ، ليدع الصفحات للقصائد التى تجاوزت مئة وخمسين قصيدة ، وتمثل ديوانًا ضخمًا يجمع مابين الهند واليابان إلى البرتغال وبيرو وبينهما بلاد كثيرة شرقية وغربية .

استرعى انتباهى بشدة كثرة الشعراء من أساتذة الجامعات ، الذين أخلصوا للشعر والبحث معًا على غير المعهود عندنا ، فما إن يبدأ الشاعر فى بحثه الأكاديمى حتى ينسى عرائس الشعر ، إلا من رحم ربك ، وهم قليل جدًا عندنا. الجامعيون هنالك كثرة كاثرة من الشعراء ، تجاوزوا مرحلة الشباب وبعضهم شيَّخ وأدركته الكبرة ومازال يغنى ، وهم لايتخذون الشعر شارة ولباس زينة فى المهرجانات، ولكنك تحسبهم حين تسمعهم أو تقرأ لهم كأنهم لايعرفون غير الشعر .

ولديهم أيضًا مايشبه كراسات الشعر أو الرواية عندنا ، وكأنها كتاب غير

دورى، ينشر فيها الشباب - وهى لهم أصلاً - وكذلك الشيوخ ، وكأن هؤلاء يقولون بلسان المقال : لاتثريب على الشيوخ أن ينشروا مع الشباب ، وأن يشاطروهم همومهم الشبابية ، وهم جميعًا أسخياء بما لديهم من كتب ، يهدونها، ويطلبون منك الرأى أو النصيحة أو الترجمة إن كنت من غير لسانهم وتعرفه .

الإحساس بالنغم عال جدًا ، فالشعراء يغنون ولا أنسى هزة وجدانى بما سمعته من شاعر البرازيل وشاعر البرتغال وشاعر إيطاليا ، ومجموعة من شعراء أمريكا اللاتينية ، فبعضهم كان صناجة العجم كما هو الحال عندنا فى حافظ والجارم ، وكنت أنتظر القافية لدى شاعر البرتغال خاصة «بدرو تامن» وشاعر البرازيل «ليدو إيبو» ، وشاعر بيرو «أنطونيو ثيسنيروس» و «ماركو مارتوس» ولدى طائفة أخرى من الشعراء ، وكانت قوافى الشاعر المصرى موضع توقع لدى جمهرة من الشعراء، وكنت أشفق على الذين يمثلون مصر فى محافل دولية وهم ليسوا بشعراء لاوزنًا ولاقافية ، ولعلهم يدركون العوار الذى يبدونه فى تلك المحافل فيخصفون عليهم من ورق الوزن والقافية مايوارى هذه السوأة !!

لدى طائفة من الدواوين والدراسات النقدية عن الشعر ، وطائفة من القصص والروايات حملتها معى من بيرو ، عدا المجلات والصحف ، من العسير تناولها جميعًا فى هذا الإطار المحدود ، لكن بعضها حقيق بكلمة عابرة . أولها الأعمال الكاملة للشاعر :ثيسر تورو مونتالبو «فن الأحلام» وهو أقرب إلى الخيالات والأحلام ، وإن كان بعضه أقرب إلى أن يمسك به فلا يتفلت ، وفيه طائفة من القصائد يشترك فى كتابتها الرسم والدوائر ، والكلمات المفردة الحروف ، وبعض شعرائنا يكتبون بهذه الطريقة وإن كانت لاتروق لى ، ولا أرى فيها مايدعو إلى الشرود عن طريقة الكتابة ، لانفورًا من التجديد ، لكنه شيء لايقدم جديدًا ، وثمة كتاب جيد للشاعرة اليابانية «ساتوكو تامورا» عن سونيتات الموت لدى «غابرييلاميسترال» وطبع فى مدريد ، وكان رسالتها للدكتوراة فى جامعتها ، وملحق به طائفة من «مسودات» قصائد الشاعرة ، وتناولتها الباحثة بالدرس العميق ومدى التنقيح الذى أصاب الصورة النهائية ، وهو درس نفسى وفنى فى الوقت ذاته .

وثمة ديوان للشاعر «ألفونسو راموس ألبا» عن «درجات السلم» ، ويعنى به السلم الموسيقى ، وفيه تجديدات عروضية ، كما ألمح الشاعر إلى أنه جمع بين

أربعة أنماط عروضيــة قديمة منذ ملحمة السيد ومــابعدها ، يزاوج الشاعر بين هذه الأنماط دون خروج علـيها وكـأنه الوشاح الذى يجـمع بين البحـور فى لعب فنى جمـيل ، وفيه إلى جـانب هذا اللعب شعر حـقيقى ، وتتـأثر الكاتبة المكسـيكية «بيرونيكا مورجيا» بالتـراث العربى فى مجموعتها «أَوْلِيـا» ، فتورد حكايات عربية من بغداد ومن الكوفة ، وتذكـر أبيات المتنبى المشهورة «الخـيل والليل» من ترجمة غرثية غـومث الفرنسية لها ، ويجمع عـميد كلية الآداب الأسبق فى جـامعة سان ماركوس «واشنطن دلجادو» مخـتارات من شعره ، يختارها بنفسه ويقـدمها تقديمًا نقديًّا ، وهو من جيل الخـمسينيات ومازال يـغني الآن،ويستمتع بالحيـاة الحرة بعد قيود الوظيفة.

لكن الشاعر «ماركو مارتوس» الأستاذ بجامعــة ليما ومن جيل الستينيات ، يهتز أكثر لما هو شرقى ، فيفرد قـصائد لحافظ الشيرازى ، ويستلهم تاريخ بغداد ، وتاريخ الأندلس خـاصــة فى قـصائد عن سـجن ابن زيدون وحـبـه ولادة وعن المنصـور، وعبدالرحمن الناصـر وكيف أنه حكم خمسين عامًا ، وأيام سعـادته فقط أربعة عشر يومًا ، ويتحدث عن مدينة الزهراء ، واقفًا وقوف شعرائنا بالأطلال قائلاً :

«نور أندلسى يـسطع فـوق الزهراء ، أشـجـار البـرتقـــال والزيتـون ، البـرك والحمـامات، والقـاعات الذهبـية ، نساء ، نســاء قبل كل شئ ، عطـر نسائى ، طنافس ، حرير فى قـصر عبـدالرحمن الثالث ، من زمن سـحيق فى الأندلس ، بعيدًا عــن جبل قرطبة ، بعـيدًا عن المؤذن الذى يدعو الله الرحمن الرحـيم. إنها قصائد فـيها نفس أندلسي لابموضوعـاتها ، بل إنها متأثرة بالـشعر الأندلسى الذى ترجمه غومث إلى الإسـبانية فى العشرينيات وأثر تأثيرًا هائلاً فى الشـعر الإسبانى وفى أمريكا اللاتينية التى تدير بصرها دائمًا إلى إسـبانيا ، دوران أبصار الأندلسيين إلى المشارقة فى الزمن العربى .

لكن مـاركوس يصف المرأة فى بيـرو وصفًا حـسنًا ، يحسن أن نخـتم به هذه الكلمة ، ولتكن تحية المهرجان يقول : عطرك ، عطرك ، الذى يمتزج بالنور الذى يولد من الضباب ومن البحر فى بيرو ، عطرك ، وهيئتك وأنت ساكنة فى الجانب الأيمن من السـرير ، وبجوارك فنجـان القهوة ، يـطير إلىَّ عطرك ، وصـمتك ، وبسمتك وهى أجمل من الصباح» .

شعراء العالم في ماليزيا

نحسب أن أبانا الشيخ آدم حين هبط من الجنة اختار ماليزيا دار إقامة ، - إن كان له خيار - لئلا تكون الشقة نازحة بين ماكان فيه وما آل إليه ، فالخضرة والماء ووجه حوائه - هو - كلها تعزيه عزاءً حسنًا جميلاً ، وحين هبطت بنا الطائرة بعد ساعات طويلة ، تذكرت قول دعبل : «هبطت محلاً يقصر البرق دونه» ، وحين مضينا فى الشعاب والأودية بادرنى المتنبى «فصرت وقد حجبن الشمس عنى ، وجئن من الضياء بما كفانى» .

حمدنا الرحلة والمقام ، ومشاركة الشعر والمشاعر . وشكرنا المبادرة الطيبة من المسئول الثقافى فى سفارة مصر ، الأستاذ عطية أبوالنجا ، وجهًا متألقًا ومعروفًا فى الأوساط الثقافية الماليزية ، وذكرنى صنيعه بسفيرتنا فى «ليما» والقنصل العام هنالك ، وهكذا يسبق الدور الثقافى الذى لاوطن له أية أدوار أخرى .

نظم معهد اللغات الماليزى مهرجانه العاشر للشعر العالمى ، ولم تدع مصر من قبل ، وكان حظى أن أشارك بست قصائد ، ترجمت للماليزية ثم الإنجليزية ، ووزعت ترجمات القصائد على كل المشاركين تلقى القصائد فى لغتها الأصلية مشفوعة بالترجمة ، وتتوزع أماكن الإلقاء ، ثم تقام حلقات نقاش حول دور الشعر الآن فى عصر الأرقام . ويجمع الناس نظرًا وتطبيقًا حول ضرورة الشعر خاصة فى عصر يتحسس المرء أضالعه : هل مازال فيها نبض قلبه ، أم أنه حال وانتسخ ؟

أكثر من خمسة وستين شاعرًا يؤكدون هذه الحقيقة المؤكدة فى العروق والأعصاب قبل أن تكون أحرفًا ، لم يكن بين المدعوين شعراء من إسرائيل أو من أمريكا الشمالية ، وحمدنا هذا التوجه إن كان مقصودًا أو غير مقصود ؛ لأن الشعر لايعرف العنصرية ولا الغطرسة ، ولعل عنوان المهرجان كان واشيًا بهذا «الشعر والإنسانية» ، دعى اثنان من المغرب فحضر ناقد ، وعراقيان من المهاجر فى

الدانمرك وإنجلترا ، وأسفنا لعدم دعوة شعراء من العالم العربى ، ولعلهم دعوا ، ولم يتمكنوا ؛ لأن ذلك المعهد يقوم عليه نفر صابر محتسب يؤمن بواجبات الشعر ربما قبل الإداريات ، والسيدة نورازيان والأستاذ عبدالرحمن يوسف دليل واضح على ما نؤم .

التقينا بشاعر من بلنسية ، ولهذا الإقليم فى نفسى عبق خاص ، وبشاعر من بلجيكا ينظم بالإسبانية ، وبشاعرتين من المكسيك كانتا فاكهة المهرجان وريحانته ، إذ جمعتا بين الرقص وغناء الفلامنكو ، و «الكانتى خوندو» «الغناء العميق» ما ألهب المشاعر ، وهز الأعطاف قسرًا ورضى ، وإن أنس لا أنس «فلور» وهى تتمايل ، وينبت صوتها شجرًا فى العروق «غصون بان عليها - الدهر - فاكهة - وما الفواكه مما يحمل البان» ، وكانت تتلوى فى شجن كأنها تحرق الحمأ المسنون لتغدو فراشًا سماويّا !!

فى أمسية بجامعة العلوم والتكنولوجيا ، ألقى رئيس الجامعة كلمة ترحيب ، ثم غنى «وصلتين» بين ضيوفه وطلابه - أستغفر النظر - طالباته ، وهن بالزى الرسمى ، والفرقة الموسيقية تعزف ، غنى رئيس الجامعة فذكرنى برئيس جامعة مدريد بدرو مارتينث فى حفلات الجامعة ، ترى ما رأى رؤساء جامعاتنا ؟ .

فى صباح اليوم التالى للأمسية كنا فى ضيافة وزارة المالية ، وكلها أرقام وموازنات ، فإذا بالسيد الوزير يلقى قصيدة ، فيغلبه النشيج ، يرتفع بكاء ، فى رثاء أمه ، فنكأ فى النفس جراحًا قديمة جديدة ، وتذكرت شاعر الحمراء «بياسبيسا» يرثى صاحبته ، ويتذكر «مريمه» زوج أبى عبدالله الصغير ، راثيًا حزينًا.

واحتفل سفير شيلى فى داره بماليزيا بأول ترجمة ماليزية لبابلونيرودا ، ألقيت فيها قصائد لشاعر نوبل ولشعراء العالم ، وعلمنا أن السفير شاعر ، هل هناك عودة لأن يكون الشعر ديوان العرب والعجم لاديوان العرب فقط ؟ .

الحديث عن وقع قصائد الشاعر المصرى بين جمهور يعرف قليل منه العربية ، ربما يكون حديثًا ممجوجًا عن النفس ، لولا أنه يتعلق بطبيعة العربية الشاعرة ؛ إذ تلقى هذا الشاعر تحيات من الأعاجم تتصل بالصوت والإيقاع ، يساندها ترجمة

ماليـزية وإنجليزية ، فحمـدنا للعربية وشعـرها ماتلقياه من ثناء ، وتذكـرنا ؛ ماذا يصنع أصحاب النثر ، حيث يتوقع المتلقى الوزن والقافية ؟ ومما يستأهل النظر أيضًا هذا الكم الهائل من الغناء الذى يقطر به - أو يهمى - الشـعر الذى سمعناه هنديًا وصينيًـا ويابانيًا ، وتبادل الشاعـر والمغنى إهاب الآخر وتذكرنا حـبيب بن أوس : «ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجهل شجاها» .

إن الشعر - فى نجاره - يستخدم أهل ماليزيا هذه الكلمة للدلالة على الأصل - غناء ، ومحـاولة مسخـه وتشويهه - عندنا - مـحكوم عليها بالإخـفاق والموت ، «تغن فى كل شعر أنت قائله» على حد قول حسان ، ودعنا من «التهجيص» الذى يتمسح بإيقاعات العصر ، وإيقاعات «الخيبة» التى تلاحقنا فى كل المجالات !!

وقبل العـودة ، دعتنى الجـامعة الإسـلامية هناك لإلـقاء محـاضرة عن الأدب المقارن، وإلقاء مجموعة من القصائد ودار حوار فى قسم اللغة العربية بها . . كان حوارًا مثمرًا وطيبًا .

هل أتوقف محييًا وزير المالية الماليـزى ، الذى تلبث عندى مسلّمًا ومغتبطًا وهو يحيى الشعراء . حين عرف أننى قـادم من مصر ، لدرجة لفتت نظر المصورين فى أجهزة الإعلام ، ترى هل ندرك قـيمة بلدنا ، وندرك قيمة شـعرنا ؟ ، تحية لتلك الوجوه الإنسانية «تبدو الوجوه لعين عابرها وتغيب عنه كأنها رؤيا» .

خواطر شاعر بعد الجراحة

للمرة الرابعة وربما لاتكون الأخيرة أحمل على المحنة ، الطرقات الباردة - حتى فى أغسطس - والعينان متطلعتان إلى الأسقف لاترىان الرائح والغادى ، حتى بلغنا إلى «الأعراف» وهى ساحة تتوسط الصحو والغفوة ، أخشى أن تحملنى المحفة إلى غرفة أخرى ، أتسمع أصواتًا وضحكات بعد إجراء العملية السابقة على وقت خلته دهرًا ، وماهو إلا بعض ساعة تذكرت الضحكات والفكاهات ، التى يطلقها حفارو القبور فى مسرحية هاملت ، لا أرى غير عيون الأطباء والممرضات.

يطلب إلى الطبيب النطاسى أن ألقى بعض أبيات من الشعر ، ترهف الآذان ، ويسعفنى العقاد بشعره فى الحب متعلقًا بالأمل والحياة، تطل علىّ عينان كعينى ولادة بنت المستكفى الأندلسية أمد لهما قلبى قبل ذراعى للتخدير ، ويطفر ابن الرومى القائل فى «نزهة» صديقته : «نزهة عندى كاسمها نزهة» فأنشد الطبيبة ذات العينين الناشبتين وهجمها فى السجد قول ابن الرومى مغيِّرا «نزهة» ذاكرًا اسمها على الوزن نفسه ، شاعرًا بالغبطة أن يكون اسمها آخر مانطقته خارجًا من صحوى إلى مالست أدرى له اسمًا ، لأن حالة التخدير - وجربتها ثلاث مرات قبل - ليست نومًا ، فربما يكون فى النوم بعض الأحلام ربما تكون قريبًا من الموت ، ولأمر ما تذكرت بديع الزمان صاحب المقامات وقد دفن وفيه بقية روح ، وصحا فى قبره ولم يسعفه مسعف وتذكرت وصية نوبل : ألا يدفن حيًّا ولعل هناك حالات مماثلة لايذكرها ذاكر ، وحسب أصحابها ماهم فيه من إهالة التراب عليهم، كما أوصى عبدالرحمن شكرى : ألا يدفن فى قبر يغلق عليه باب بل يهال عليه الرماد ، حالة التخدير لانظير لها فى المسميات الإنسانية ، ولعلنى أرجو - وقد جربتها أربع مرات - ألا يحسب وقتها من الأجل المقدور لى ، بل من المدخرات التى أود التعويض عنها حين يحين الحين .

أصحو صحوًا غير كامل ، فإذا اسم الأستاذة المخدرة أول مايطفر على لسانى ، وكأننى لم أكن المريض منذ ساعات بل صحا الشاعر ، وجاءت الأستاذة أو جاءت

عيناها - على الأصح - فخلتنى غيره ، ياإلهى !! أى نغم تصبه هاتان العينان فى شرايين الشاعر ، وأية لذة صاحية أو غافية تنشرها فى خلايا ذلك البيان الوهنان ، فتثبت الأبيات الغزلية على طرف اللسان، المجنون والعقاد ومريض «نزهة» وكأن الآهات المنبعثة منى ومن المرضى المجاورين لى هى الألحان أو الموسيقى التصويرية للشعر الذى أنشده . . إن الحياة تنبت من الموت ، وأفراح الإنسان وأشواقه العليا تنفخ الجمال فى أوصال الغناء إذا كانت له أوصال ، وسرى فى خلدى أن الأستاذة لم تحقن ذراعى بالمخدر وأنها أدركت أن عينيها فعولان بالألباب والأجساد ماتفعل الخمر ، إذا كان من تخدره رجلاً مثلى يسرى قلبه فى شرايينه ، وأن عقار عينيها ينبغى أن يدخل دائرة المعارف الطبية ، وينسب إليها وإلى هذا الاكتشاف ، مضت الأستاذة وسألت عنها وأسأل - حتى الآن - ولم أرها ، ولم يدلنى أحد بل إن الجراح الكبير - وفيه قلب شاعر - لايعرف إلا اسمها الأول ، فهل يكون ذلك الذى رأيته من قبيل الوهم ؟ لا وبكل الألسنة أقول :

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

ما أزال على الأعراف حتى الآن . وسوف أطلب من ملك الموت أن يمهلنى الوقت المسلوب منى، ولن أهتف بما هتف به المعرى قديمًا :

ولو كان يبقى الحس فى شخص ميت

لآليت : أن الموت فى الفم أعذب

لا يا صديقى : فإن طعم الحياة والحب والأمل أعذب فى كل فم.

عامر العقاد الصديق الراحل

لغير هذا كنا نستعد !!

كنا نستعد معًا ، وفى النفس توثب ، وطموح لاحد لهما .

كنا نخطط معًا لمشروعات علمية كثيرة ، والنفس جميع ، والعيش غضى ، وأحلام الشباب تطير بنا كل مطار !!

كنا !!

وما أقسى زمن هذا «الفعل» الذى يشل العقول أن تفكر .

ويعتصر الأفئدة فلاتعرف إلا الوجوم والجمود ، ويحبس الدمع فى الأعين ، فلا هو يرقأ ، ولاهو هامر !!

هل أقول : كنا ؟

وهو مازال فى النفس شاخصًا أساجله العطف والودادة ، أشكو إليه ، ويشكو إلىَّ ، أفكر فى كثير من الأعمال المتعلقة بعمنا العقاد من خلاله هو ، وأشاوره ، ويشاورنى فى كثير من ذلك !! ؟ .

مازلت أزوره حيث «كان» فى داره ، انتظر قدومه «متخيلاً» بل «مؤكدًا» أنه لن يخلف وعده - وما أخلفه أبدًا - بالحضور بعد إنجاز شئ من أعماله فى القاهرة .

لكن مات عامر !!

كذب لأول مرة وعده الصادق ، والانتظار اليابس يسرى فى القلب لوعة ، وفى النفس يأسا وحسرة .

مات عامر !!

ولغير هذا كنا نستعد ، وفى اللحظات الأليمة القانطة ، وغاشية المرض اللعين تحدق به ، لانفتأ تساورنا استعدادات هائلة لإخراج كثير من أعمال العقاد .

صديقة أدبية ذكيـة اتصلت بى فور سماعها بهذا النبأ ، لـتقول لى : اليوم فقط مات العقادي الكبير !!

وما بالغت هذه الصديقة !!

فعـامر اسـتطاع طول حيـاته أن يوقظ السـادرين ، أن يثيـر الراكد فى أعـماق الجاحدين فى صمم البلادة والأنانيـة ، أولئك الذين يسؤوهم أن يذكر العقاد ، بل يحاولون طمس فضله ، وبخس حقه ، وكان عامر كالمطرقة ، وكالشعاع الذى ينبه الغافلين .

وعامـر أيضًا ، بين أبناء العـقاد ، يكاد يكون الوحـيد - ومعـذرة إذا حذفت «يكاد» هذه - منهم الذى ورث بعض أقبـاس من عمه العقـاد ، يعنيه - أولي من كل شيء - أن يحتـفظ بذكرى عمـه نظيفة شـريفة ، ذكراه رجـلاً ، وأديبًا ، فى حين يعنى كثيرين فتات من حطام الدنيا !!

ومايكلف الله نفسًا فوق ما تسع !!

وعامر - على قرابتـه من العقاد - كان فى وسعه دائمًا أن يحـتفظ بتوازنه تجاه عمـه إزاء المنكرين لفضله ، والشانئـين ، فما كـان - إلا فى النادر ، ومضطرًا - يتـولى الذياد عن العقـاد ، وحجـته ناهضـة ، بل كان يؤثر أن يتـولى ذلك عنه تلاميذ العقاد ، وماكان يضن علينا بالوثائق التى ينهض عليها دفاعنا للشانئين .

فتح بيته ، ومكتبته ، وقبلهما - قلبه - لاستقبال كل من يهتم بالعقاد ، بل إنه كثيـرًا ماكان يرحل بفكره إلى هؤلاء المهتـمين ، حتى خارج مـصر ، وكاتب هذه السطور أحد الذين كـان يتلقى منه مايتـصل بالعقاد - وهـو أى كاتب السطور فى إسبانيا طالب بعثة - سواء بالرسائل أو بالمحادثات الهاتفية ، وما أكثرها !!

عاشر عمه عشر سنوات تقريبًا ، كان بمثابة «أمينه» الخاص ، عرفه عن كثب ، وما كل من يتقرب من الأساتذة بمستطيع أن يقترب منهم فكرًا وشعورًا ، وبخاصة من رجل مثل العـقاد ، عاش حـياة العزوبة والوحـدة ، بيد أن عامـرًا استطاع أن يهدم أسوار العزلة الباردة ، وأن يجعل السنوات الأخيرة من حياة الأستاذ مأنوسة، تنحسر عنها - شيئًا ما - موجات الوحدة والانفراد .

والسنوات العشر هينة بحساب الأيام ، لكنها هائلة بحساب ما يكنز فيها من معاشرة العقاد ، والاقتراب منه ، وعامر ذو عدسة لاقطة ، وذو ذاكرة حديدية تختزن كل مايمر بها ، ولذلك كان أوفانا جميعًا معرفة بالعقاد ووقوفًا على دخلة نفسه ، يعينه على ذلك معرفة بطبيعة الأستاذ ، وفهم لأطواره ، ومناحى فكره ، وكان يسرد علينا - بعد وفاة الأستاذ - سيلاً من هاته الحوادث فلايخرم منها شيئًا، ولايتزيد ، - وآفة الرأى الهوى - الذى يملى للمزيد فيسد مواقع الثلمات التى تعبث بالذاكرة ، غير أن عامرًا كان بنجوة من هذا المنزلق الوعر ، وآية ذلك أن بعضنا كان شهودًا على مايقص ، فينعقد الإجماع على قوله .

لا أظن أن عامرًا أفضى بكل مايعرف عن عمه - وتقاليد حياتنا حاصرة وضائقة- ، لكن كثيرًا من الأسرار التى يعرفها كنا بحاجة إلى فض الختم عنها ، لنعرف ماينبغى معرفته عن رجل ملأ الدنيا وشغل الناس كالعقاد .

هناك بعض لحظات الضعف ، وتكتمل بها جوانب صورة العقاد الإنسان - لاهرقل الجبار الذى نعرفه - من الحتم أن الأستاذ عاشها ، طويت صفحتها بموته، وطواها عامر - بلا ريب - فى أحناء صدره حتى وارها التراب ، وصنع ذلك بعض خاصة العقاد كالمرحوم طاهر الجبلاوى - أمينه على أسرار قلبه - لم يكمل لنا جوانب صورة العاشق العقاد ، الذى ملأ الدنيا عشقًا وحبًا وغزلاً .

إلا أننى أوجه دعوة مخلصة وحارة إلى أستاذى وصديقى خليفة التونسى - نسأ الله فى أجله - وهو أمين أستاذه على أسراره البيتية - أن يميط اللثام - غير متحرج كشيوخنا المتحرجين - عن بعض مايعرف - وهو كثير - من حياة شيخنا العظيم .

وعامر «الأمين» ألفى نفسه مسئولاً عن كم هائل من تراث الأستاذ فتوفر عليه توفر الأديب ، أخرج عشرات الكتب التى لم تصدر فى حياة العقاد ، مابين منظوم ومنثور ، أخرج الديوان العاشر وقدم له بمقدمة أبان فيها عن مقدرة نقدية حصيفة ، وجمع بعض مقالات العقاد التى لم تنشر فأخرجها فى كتب ضخمة غير حائد عن تصنيفها وعنونتها عن طريقة الأستاذ ، شافعًا ذلك كله بمقدمات نقدية واعية .

إلا أن تراث الأستاذ كثير ، وكم راودنا الأمل - هو وأنا - فى جمع مقالاته السياسية - وهى من الأدب العالى على غير مايظن بعض الناس - ونشرها فى كتب تبلغ عشرة مجلدات على الأقل ، تقف من خلالها على تاريخ مصر السياسى حيًا شاخصًا بقلم شيخ عظيم كالعقاد ، وبالفعل كنا بدأنا فى جمع هذه المقالات - وهى تحت أيدينا - لإخراجها ، والقدر لم يمهل !!

كما طوقنى - وهو معى - بشرح وتقديم ، وضبط ديوان العقاد فى عشرة أجزاء ، مع صنع مختارات منه للقارئ غير المتريث ، وبدأت بالفعل هذه المهمة وهو على فراش المرض .

لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد

وكان المظنون فى رجل مثل عامر العقاد أن يقتصر جهده على كتب عمه ، لكنه لم يصنع ذلك ، بل امتد عمله الأدبى خارج هذا الإطار - فأخرج للناس ترجمة لأحمد أمين من أهم الكتب ، ومن أوائل ما صدر عن الأديب الراحل ، عرف به تعريف العالم الموضوعى متخذًا من طريقة عمه منهجًا فى كتابة السير والتراجم ، فلم يبعد ، وأصاب المرمى .

كما كتب عن الشاعر الراحل صالح جودت كتابًا ، وضعه فيه «فى الميزان» ، مؤتسيًا بعمه أيضًا ، ولست أعرف بواعث تأليف هذا الكتاب ، وما سألت عامرًا عنها ، ومع أننى لا أوافق على كل ماجاء فيه من أحكام نقدية ، إلا أننى لا أرى حرجا من اصطناع هذه الوسيلة الحادة الجارحة - أحيانًا - فى النقد الأدبى ، إذ هى قمينة بشحذ النفوس والهمم الراكدة الخاوية ، مفضلاً إياها - على قساوتها - على طريقة التظرف والترقق المتخنث ، والمجاملات الحقيرة الشائعة كثيرًا فى حقل الأدب والنقد ، وهي سبب جفاف حياتنا الأدبية وفسولتها ، نحن الآن فى أشد الحاجة إلى النقد اللاذع الجارح لنميز الخبيث من الطيب ، وما أكثر الخبيث !!

وليس معنى هذا أننى أنكر مايسمى الموضوعية والاعتدال ؛ إلا لأنهما ارتبطا فى حياتنا ولدى طائفة من ببغاوات النقد بالتظرف الرخيص والمنفعة المحسوبة فى سوق النخاسة الأدبية ، وخير لنا ألف مرة أن نكون «رجالاً» من أن نكون مخنثين

مرتكسى الطبائع ممسوخى الأذواق ، وكتاب عـامر عن صالح بهذا المقياس ، يبقى له فضل التنبيه والإثارة الواعية ، وماذلك بيسير !!

لكن لعامر كـتابًا نشره منجمًا فى صـحف السعودية ومصر يدور حـول شعراء المملكة وأدبائها ، وعن المتنبى ، لم يجمع حتى الآن فى كتـاب ، وأعتقد أن كتابه هذا خير كتبه ؛ لأنه ألفه أوان النضج والاستواء - من أواخر ما كتب - ولـم يفقد وهج الشباب ، فيه نظرات نقدية حصيفـة ، ولو خرج فسيرى القارئ عامرًا الناقد المتذوق ، والقارئ اللبيب ، والكاتب المتمكن .

فى آخر احتفال بذكرى العقـاد فى أسوان ، كنا فى القطار مجموعة من الأدباء والصحـفيين ، يتحـدث عامر عن ذكرياتـه مع العقاد ونوادر الأستـاذ المضحكة ، وننشد الشـعر فى العقـاد وفى شتى الموضوعـات ، إلى أن اجتمـعنا فى الحفل ، فتقـدم عامر يلقى قصيدة مـن نظمه عن العقاد ، لم يحدثنا بشـأنها لا فى القاهرة ولا فى القطار ، ولا فى أسـوان ، قـصـيدة جـيـدة النظم والسـبك ، من بحـر الخفيف، ألقاها إلقاءً جيدًا ، وطوى الورقة فى جيبه ، وماكنت أعرف ، ولا أحد غيرى من مخالطى عامر يعرف عنه قـرض الشعر ، أكانت هذه القصيدة - ياعامر - أنشودة وداعك تلقـيهـا بنفسك ونحن لاندرى ، وهل كنت تدرى وحـدك أنها معزوفة الختام ، أم أنك كنت مثلنا ليس لخـيول رجائنا فى الحياة لجام ، نرخى لها العنان ، فتنجد بنا وتتـهـم ، على إيقاع قصيدتك ، الأسـوان ، والشمس غاربة ، والنيل «طالت مرامى نبعه فسلاها» ، «وأنت بيننا غير مسلو» .

ويحك أيها الموت ، لقد طويت صفحة عـامر الفانية ، وماطويت ذكره وفضله الباقيين ، فهو باق كأغلى ماتضن به النفوس والضمائر فى مكنونها ، وإن كان قد مضى كـما يمـضى الناس أجمـعين ، رحـمة الله عليك فى الـباقين الذاهـبين ، ورحمة الله لنا محزونين ، مودعين !!

مـــا أســـرع الأيـــام فـــى طينـــا   تمضـــى علينـــا ، ثـــم تمضـــى بنـــا

ورحل عُقاب العربية !!

بقية المتقدمين من السلف العظيم ، جبابرة اللغة والفكر ، والرأى ، والغيرة النبيلة ، لاتتكرر له نظائر فى الجيل ، ننعاه اليوم إلى هذه الأمة الصامدة فى زعازع الهوية والبقاء ، إلى عالم الكلمة الحرة الجريئة ، عالم الأريحية والفداء ، بقية مما ترك صادق الرافعى والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مسحة واحدة .

إنه محمود محمد شاكر (أبوفهر) وكفي !!

وحسب هذه الأمة أن تذكر اسمه مجردًا من أى لقب أو منصب ، فهو أكبر منهما فتذكر التضحية فى سبيل الرأى والإيمان به ، مجردة من المآرب والمنفعة،وهل ثمة أكثر ممن يؤمن برأى فيدع الجامعة - وهى غاية الأمنيات آنذاك - ليذود عن هذا الرأى - عملاً لاقولاً فقط - طوال حياته ؟

حياة طويلة عريضة ، ولكنها أعظم أثرًا أن تحسب بالأيام والسنين ؛ حيث تمتد هذه الحياة فى أعراق هذه الأمة ، وفى صميم وجودها ، ولعلها تفطن الآن أكثر حين ترى مانبهها إليه أبوفهر بمقرعته الغليظة منذ العقد الثالث من هذا القرن ، وتراه رأى العين الآن !!

عرفته من أكثر من ربع قرن شخصًا ، وعرفته قبل هذا التاريخ قارئًا له مقالاته فى الرسالة تهاجم لويس عوض ، فلما رأيته صدق السماع الرؤية ، رجل فى أواخر العقد السادس ، ولكنه يتفجر حيوية وشبابًا ، أسبقنا إلى كتاب ، يستوثق من خبر أو شاهد ، فيصدق الكتاب مايروى ولكنها الدقة الشاكرية ، التى لم يتخل عنها وشواغل المرض تنتهبه .

وربما خطر لبعض الناس أن الرجل حبيس داره وكتبه وهو وهم ، لأن داره جامعة حج إليها مريدوه وهم كُثُر ، فوحدته مأنوسة ، وهو أيضًا يسع قلبه وعقله العالم كله ، يعشق الفن ويطرب له ، ولقد سعدت بصحبته فى إسبانيا منذ

عشرين سنة ، وتجـولنا فى الأندلس الإسلامية حـتى فى القرى ، وكنا نذهب كل مسـاء لمشاهدة الغناء والرقص الشـعبى (الفلامنكو) وهذا الرجـل الوقور يستـميله الطرب ، فيهتز اهتزاز الكريم ، ويستعيد ، ونعود معًا فى الربع الأخير من الليل، فنقرأ صفحات من الحماسة كنت أناوشه بشقاوة الشباب ، فيفسح من صدره مرات ويضيق بمجادلتى مرة ، ويسمعنى ما أحب من لذعاته فلا أسكت .

فى عيد ميلاده التـسعين (بالحساب الهجرى) أنشدت قصـيدة فى المناسبة ، كان الداء قد تمكن منه ، ولم يتمكن من عقله المتوهج ، ونظرات العُقاب النافذة ، وإن عاق الريش أن ينهض ، كـانت - وما أقسى كـانت - صورة العُقـاب الذى يهرم ولايستكين ، هى الصورة التى رأيتها منذ عـرفته ، لم تغيرها الأيام ، وهى صورة العقـاب الذى يحرس العربية بوجـوده ، لأن الأمان الذى يبثه جـدير أن يغنم ثقة النفس وأملها فى المستقبل . لقد كنا نذهب إليه والإحباط آخذ بالأنفاس ، فإذا بنا نعود وعقولنا ومشاعرنا تطاول السماء .

شيخى العظيم :

ستظل غـيرتك على الأمة ولسانهـا تغنم معارك ، وتثيـر معارك ؛ لأنهـا غيرة الضـمير الحى ، والـعقل الحر ، لايـفارقك الولاء والعـداء ، والوفاء والجـفاء ، وسيفـيك الغد حقك ، إن قصر يومك وأمـسك ، رحمة الله عليك من راحل ، لايرحل عنا حبه وذكراه ، ورحمة الله لنا من آسفين ، ذاكرين ومحزونين .

محمود الطناحي إنسانًا

وهل يستطيع مثل محمود الطناحي إلا أن يكون إنسانًا ؟ لقد استغرقته الإنسانية، فلم يفلت من نياطها على المستوى الشخصي والعلمي ، وكأين من علماء أو أساتذة يدابر علمهم إنسانيتهم ، فيكونون نكالاً على أنفسهم وعلى العلم.

وإذا حددنا العلم هنا بالدراسات الإنسانية ، ومنها علوم العربية والإسلام ، فإن الطناحي في قنة باذخة من الإنسانية ومن هذا العلم أيضًا ، ومع أن المفروض أو المتوقع أن تكسو هذه الدراسة صاحبها شية خاصة من الإنسانية ، فإن القاعدة تتخلف أحيانًا كثيرة على مارأيناه من مشاهد الحياة ووقائع العشرة ، بيد أن محمود هنا تدسست إليه هذه المعارف ، فشاطرت فطرته التي ذرأه الله عليها .

ولد الطناحي في قرية «كفر طبلوها» مركز تلا من أعمال المنوفية ، وثمة مثل يتداوله أهل هذه المنطقة عامة يقول : «إذا ضاع في الدنيا حفظ القرآن فلا يضيع في كفر طبلوها وزُرقان» ، وبينهما وبين قريتنا «طوخ دلكة» قِدَى رمح ، وليس لقريتنا مثل هذه الشهرة في هذه الخصلة الكريمة ، ويذكر المرء طائفة من علماء الأزهر خاصة من هاتين القريتين .

ولمن حفظ القرآن كالطناحي ، ودرس علوم العربية والإسلام سمت خاص ؛ إذا أثرت فيهم هذه الدراسة وقد أثرت بالفعل في فقيدنا العزيز ، ليس على المستوى العلمي ، وهو في ذؤابته ، بل في تصرفاته ، وخصاله الشريفة من النبل والأريحية وسعة الأفق ، وبعض أهل الأزهر أو التربية الدينية لهم سمة خاصة ، كالطائفة الاجتماعية بين طوائف المجتمع ، وفي كثير منهم عزلة وربما غربة عمن يعاشرهم من أهل التعليم المدني ، ربما تدفعهم إلى شئ من الانغلاق ، حاشا من كان على شاكلة محمود ؛ إذ أتيح له أن يتفتح منذ الصباح الباكر على القاهرة ، وأن يندمج في مجتمع دار العلوم ، وهو وسط بين تعليم الأزهر ، والتعليم

المدنى، وهكذا كانت ثقافة الطناحى ، والحقيقة أن التراث الحقيقى كما فقهه صاحبنا لايدع للانغلاق سبيلاً ؛ لأنه يقرأ هذا التراث ، وفيه إحاطة واسعة بالشمائل الإنسانية السوية التى لاتغفل ولاتغلق نوافذ الحياة ، ويمكن أن يكون ما أطلق عليه الفقهاء قديمًا «الإحماض» وسيلة إلى هذه البابة الرحبة ، إذ لم يتحنث تحنث الفقهاء من رواية الشعر وتصويره لكل الجوانب الإنسانية حتى الجانب الماجن منها ، وقد راض الفقهاء هذه البابة وأبدعوا فيها شعرًا نفيسًا .

أما القشور التى تدرس من هذا التراث . . فهى مدعاة إلى هذا التحرج الذى نلمسه فى المسطحين من المنتسبين إلى هذا التراث ، وماكان فيه من عيب ، إلا فى أنفسهم .

كانت إحاطة محمود بالتراث الحقيقى ، حيث العربية كتاب واحد ، إحاطة مذهلة ، لاتوازيها غير إنسانيته الرحبة والمذهلة فى الوقت ذاته ، لم تصبه آفات المهنة بما تصيب نظراءه ، وإن كان قليل النظير ، من أدواء الحسد والتنافر ، وتدبير الدسائس ؛ إذ كان الرجل بعيدًا عن هذا كله ، غير أنه ليس بعد الغفلة ، بل بعد الفطنة واللقانة التى تثير فى نفسه الأسى والإشفاق ، وربما بسمة السخرية ممن يتذاكون عليه وعلى نظرائه ، تجرد الرجل من آفات المهنة ، حيث تجاوزها برحابة أفقه ، حين تحتجن رصفاءه قيودها وآصارها الثقيلة كان يشعر بالزهو - وهو المتواضع - أو الباخع نفسه أحيانًا - أن تجرد للعلم والنظر والمذاكرة كما كان ينعتها .

عرفته منذ سنوات طويلة خلت ، فما جربت عليه كذبًا قط ، وإن كان الكذب الأبيض ، رجل شديد الصدق مع نفسه ومع الناس ، بل ومع الأشياء ، شديد الإلف ، ولعل ألفته مع المخطوط منذ بداياته الأولى ، جره دائمًا إلى ماتعارف عليه الناس «بالأصول» ؛ فالأصل عنده بالمعنى الاجتماعى والعلمى له مكانة ملحوظة وخطيرة فى تعامله مع الناس والأشياء ، وصدقه - فطرة - صاحبت صدقه مع المخطوط وتحقيقه ، فالتقى صدقان موهوب ومكسوب ، وهو باحث دائمًا عن اللباب فى مسلكه الحياتى والعلمى ، فلاتخدعه البهرجة فى المشاعر ولا فى الكتب ولا فى مؤلفيها ، يحتشد للقائك احتشاده للكلمة المقروءة والمسموعة ،

وله بصر يعرف الخبء وإن كان يخيل إليك أنه لاينظر ، لأن البداهة عنده قويت، فتعمل عملها كأنها لاتعمل .

ومن يوم أن التقينا لم نفترق مشاعر وفكرًا ، وإن كانت أسفاره وأسفارى حجبت لقاءنا أشباحًا وظلت أفكارنا ومشاعرنا فى عناق أبدى ، وكأنها الآصرة السماوية التى توشج بيننا ، حتى وإن اختلفنا قليلاً .

والطناحى من ذلك النفر النادر ، الذى يعض عليه صديقه بالنواجذ ، إذ كان هو مع أصدقائه كذلك ، وهو منى بمنزلة الأخ الأكبر ، لكننا نشعر أن مودتنا محت أقياد السن ، وزاد من هذه الآصرة السماوية ولاؤنا لعقاب العربية أبوفهر محمود محمد شاكر - برد الله مضجعه - وما يمثله من غيرة على اللسان العربى، وعلى كل تراث هذه الأمة ، وكنا نحس أن كلينا يكتب للآخر ، أو يفكر فيه حين الكتابة ، ونختار لذلك بعض الغريب ، أو هو يختارنا لأننا نحس أننا نكتب كتابة مخالفة ، ولذلك حين ينشر أحدنا شيئًا ، نتهافت معلقين ، ويطرب كل منا حين تقع القُذَّة على القذة ، وندرك فى التو أن الرسالة وصلت ، وأن العربية تختال حين تجد من ينفث فى هوامدها حرارة الحياة ، وكان محمود يزيد عنى فى انهمال العبرة ؛ حين يستمع إلى شعرى وإن كان الموضوع غير حزين ، لأنه يتطرب إلى صورة دقيقة ، أو جملة محكمة ، وما استطاع أن ينوب عنى فى إنشاد قصيدتى عن شيخنا أبوفهر فى تأبين جامعة الأزهر له ، حين حالت حوائل أن أشارك بشخصى ، وليس فيما أرويه شبهة بأو ، إذ كانت عبرته قبل كل شئ على ضياع «البيان» فى جيلنا ، وكيف نطمس روعة العربية بدعاوى النزوات الطائشة ، ولمحمود قُدرة فذة على تمييز الكلام والبصر به ، ومن ثم كان حزنه وأساه .

ومحمود من ذلك النفر القليل الذى نحب العربية فى مقاله وكتابه ، لأنه ينطق نطقًا مكتملاً ، ويكتب كتابته هو ، وإن كان فيها أثارة من كلام قديم ، لأن هذه الأثارة ملكنا نحن ، وننفق من رصيدها ، ولانطمس هويتنا ، ومن ذلك النفر شاكروالجارم والعقاد والمازنى فى كتاباتهما الباكرة . ولم يكن منه أبدًا مصطفى صادق الرافعى ، وهنا كنا نختلف اختلاف الرأى لنتفق فى شعور ، وكنت أرى الرافعى فى غير موضعه الذى يحله فيه شاكر ، والطناحى .

وكان فى محمود عيب ظاهر وإن حاول ستره ، وهو فرط ثقته بالناس ، وحمله لهم على محمل الخير دائمًا ، وربما أشاركه فى هذا العيب ، وإن كنت أخادع نفسى فأنفيه عنى «ولايخدع المرء سوى نفسه» ، وحين كان يجد أن ثقته فى غير موضعها ، يأسى قليلاً ، لئلا يفقد هذه الثقة ، وأن الأمر عنده على بابه ، وأن انعدام الثقة لديه أنكى من عواقب الثقة المخدوعة ، وصبر محمود وصابر على كثير من هذه المواقف ، وترك حقه الشخصى يتحيفه جور رصفائه ، وليس لهم نقاء سريرته ، بل فيهم لؤم النحائز ، وارتكاسة الخيم الذميم ، وركن إلى «بيانه»المشرق ، يضئ له وللناس ، وأبى بأوه أن يسوقه سوقًا إلى مالايود ، وكان فى ذرعه أن يرد الصاع صاعين كما يقولون ، لكن كان حسبه أن يقول «لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها» ، وهم ليسوا فيها ولن يكونوا أبدًا ، ومثل محمود منها فى الصميم وإن كان بعيدًا ، إنهم يرونه بعيدًا ، ونراه قريبًا ، وإن موقفه وموقف قرنائه معه لتصحيح لمقاييس أخلت بها تقاليد النذالة ، وهى غير عسية بالمناجزة ، يشيع فيها الصغار ، ومن هنا كان بأو محمود وصرامته .

ولقد اجتمعت للطناحى خليقتان تبدوان فى الظاهر متباينتين : خليقة الجد الصراح ، وخليقة المرح الصراح كذلك ، واحتفظ صاحبهما بمواطنهما إلا حين تغلبه القافية والقافية تحكم ، وقد مكنت الخليقتان له قبولاً لدى الناس ، فلا يكرهه إلا لئيم الخيم نزر المحامد : الفئة الباغية ، التى لاترى الضوء ولايروق لها أن تراه ، وكان هو الرابح على المدى البعيد ، وكانوا هم الأخسرين أعمالاً على المدى القريب والبعيد ، حين ألصقوا به تهمًا لاهو منها ، ولاهى منه ، وكان مبلغ قولهم إنه سلفى يعنون بها ولاءه للجماعات الإسلامية ، التهمة الشائعة هذه الأيام، والحق أن الرجل ومن والاه ، ليس لهم ولاء لهذه الجماعات ، ولاحتى الشيخ العظيم أبوفهر ، بل إنهم أقرب إلى مناجزة هذه الجماعات ، أكثر من المتاجرين بمناجزتها ؛ لأننا نناجزها آبيين إلى المنطق والفكرة السوية ، على حين تكون النفعية رائد الفريق المتاجر .

ومرح الطناحى هو المرح الموقع ، الذى يفطن إلى منافذ الفكاهة ، حين تفضح خلل القياس ، دون أن يشوبها مايشوب الفكهين من خفة ونزق ، لايعرفان

مواطن الجد والقداسة ، ولعل فطرة ابن البلد هى التى تنضح فى أفاكيه الطناحى، فترقرق أنداء العزاء فى براثن الهجير الذى يشوى الوجوه والكبود ، وكانت تسعده قريحته فى إطلاق النكتة النافذة ، وكانت بديهته معوانًا لهذه القريحة ، بعيدًا عن الاشتقاقات اللغوية ، والشقاشق اللفظية لأنها قريبة وسطحية ، وإن كانت تجئ أحيانًا نافذة نفاذ الأفكوهة العميقة ، ولانريد أن نفزع إلى سرد طائفة من نوادره ، التى تتأبى على الحصر بغير عسر ، يقلد أحيانًا صوتًا وحركة وهيئة بعض المتنطعين من المشايخ أصحاب اللازمة فى الحديث والهيئة ، ويزيد محمود المسألة «حبتين» لزوم القافية ، فيخيل إليك أنك تسمع وترى هذه الشخصية ، ولولا أنك فى محضر محمود لفركت عينيك وأذنيك ، حسبانًا أنك فى غير حضرته ، لتمام المطابقة ، ونحن نعتقد أن هذا التقليد - بجانب الفكاهة النافذة فيه - فهم دقيق لهذه الشخصية أو تيك ، وأن المسألة خرجت من الفكاهة السريعة إلى الفطنة والتحليل العميق وأن النقد يستوفى حظه حين تستوفى الأفكوهة حظها أيضًا .

وتغلبه مصطلحات المهنة ، فيورد طائفة من نوادرها المحفوظة ، يذكر أن طلاب معهد القراءات خرجوا يهتفون للنحاس باشا ، فتغلبهم طبيعة «الإمالة» فإذا بهم يطبقونها فى مثل هذه المناسبة ، وهل هناك مناسبة أعظم لإبلاغ إمالتهم المميزة مثل هذه ؟ يقولون : قراء ورش يؤيدون «أبا درش» وهى كنية لمن يسمى «مصطفى» ، وتحكم القافية فتزيد النبرة حين يهتفون : «يحيى النحيس بيشا» يريدون يحيى النحاس باشا ، وتنال قافيته صحابه الأدنين ، يقف أبوهمام ينشد قصيدته فى ذكرى التوحيدى ، فيقدمها قائلاً : «من أبو همام إلى أبوحيان» فما يكون من الطناحى إلا أن يقول : من أبو همام إلى أبو حيان ياقلبى لاتحزن» .

وطبيعة محمود المتسامحة الودود فى غير الحق والعلم هى التى تملى هذه المواقف الآن ونظائرها كثير ، وهى التى تقطر طلا على الأكباد الوارية ، فتأبى أن تكون المناسبة حزنًا محضًا ، أو لعلها طريقة طناحية فى الشعور بالحزن حين يتسرب إليه وشل من المرح ، ولعلنا نردد ما ارتجله العقاد يوم نعى حافظ بك إبراهيم :

«أبكـــاء وحـــافظ فـــى مكـــان   تـــلك إحـــدى طـــوارق الحـــدثـــان
كنت أنسًا فكيـف أصبحـــت ياحـــا   فـــظ تدمـــى لذكـــرك العينـــان»

ووضع «محمود» موضع «حافظ» لا يأباه مهيع العروض ولامهيع محمود ، مع قليل من الزحاف المحمود . وصـفحة محمود الطناحى صفحـة باقية ، كلما قلب المرء صفحة من صـفحات الطروس أو صفحات النفـوس ، وإننا لرابحون لأنفسنا على سنة الوفاء ، حين نفى لك .

وإنا إلى الله راجعون لقد غـال الردى سيرة من السير ، وإنها لسـيرة إنسانية ، تملى نفسها بميزانها المحقق ، لابميزان «اذكروا محاسن موتاكم» لايقول فيها الصديق ما يأباه المحقق ، أما أبو همام فيردد ماكنت تردد .

«مافى الصحاب أخو وجد نطارحه   حديث نجد ولاصـــب نجـاريه»

«سلام على إبراهيم»

بقيــة المتقدمين مــن جماعة أبوللو ، ووارث المدرســة المصرية من شعــراء الرقة العاطفيــة ، الذين تحدروا من أصلاب البهاء زهيــر ، وإسماعيل صبــرى ، ويمتد نسبهم إلى العباس بن الأحنف وإخوان هذا الطراز . .

إنه الشاعر إبراهيم عيسى ، الذى رحل أخيرًا ، وفى نفوس محبيه أسف لاذع ، ومحبى شــعره وطريقته حزن على صــوت أصيل يتوارى والساحة غــاصة بأوشاب الكلام المهزول ، والسوق نافقة مظهرًا ، شديدة الكساد مخبرًا .

جاء الشاعر إلى الدنيا سنة ١٩٢٧ ، وهى فتــرة الإرهاصات الشعرية ، شهدت فورة هائلــة لدواوين الشعراء من جــماعــة أبوللو أبو شادى ، وصــالح جودت ، وناجى وأقرانهــم ، وكان لايزال يتردد صــدى «الديوان فى الأدب والنقد» للعــقاد والمازنى ، ومبايعة شوقى بإمارة الشعر ، ورحيل إسماعيل صبرى ١٩٢٣ ، والحياة السيــاسية والاجتــماعية آخــذة بالخناق ، عاش الشاعــر فى تلك البيئة ، فــتركت أخاديدها فى قسمــات نفسه ، وتخرج فى كلية التجارة كشــأن قرينه صالح جودت فلم تلهه التجارة عن تجارة الشعــر ، ولبى إبراهيم عيسى عرائس الإلهام ، قبل أن يلبى عرائس الأرقــام ، إذا كان لها عرائس ، محــتشدًا لما نذر نفســه له حتى آخر لحظات حياته .

ولم يكن من الممكن للشاعر أن يــخرج عن إهابه فغدا صوتًا مغــردًا فى حديقة أبوللو ، ولانقول فى غابها ، حــيث لاصبر له ولا لهم على مطاولة لواعج الغابة ووحشتــها ، وحسبــه وحسبهم أن يغنــى فى حديقة مأنوســة آهلة يطرب للتنسيق والرقة ، وتتعلق خواطــره بجمال فاتنة الحديقة ، يأنس إليهــا وتأنس إليه ، ويجد فى لواذها مايهدهد مشاعر شاعر «أبوللونى» .

وإبراهيم عيسى من الشــعراء المطبوعين على التأنق مظهرًا وشــعرًا ، وربما يخيل [illegible] ثه أنه يســتفرغ جهده فى الأناقة التى تشــغله عن العمق ، ولكنه لايلبث

أن يدرك أن الأناقة تتعمق ، حيث تشرئب إلى سبحات الروح فى معراجها الأسمى ، وحين يطل على هوة أحزانه ، أو يتطلع إلى شرفات أفراحه فيعرف أن العمق الأنيق فى محله المحتوم .

إبراهيم عيسى مغبون ، وربما كان مسئولاً عن بعض هذا ، حيث حجب شعره فلم يجمعه فى دواوين ، وإن كان قد التفت أخيراً فجمع بعضه فى ثلاثة دواوين، وبقى عنده رصيد هائل يحتاج إلى جمعه ، خدمة للشعر وتاريخ الأدب ، لكنه غير مسئول عن بعض آخر ، حيث شهدت حياته حركة الشعر الحر ، فاستعصم بيقينه فى الشكل الموزون المقفى ، وأبدع فيه غير عابئ بصرخات التفعيلة ، ومايسمى بقصيدة النثر .

وينبغى ألايغيب عن البال أن آخرين زلزلتهم هذه الحركة وتوابعها ، وخشوا الاتهام بالتخلف ، فتابعوها ، خاصفين على مايكتبون من ورق التفعيلة أو النثر مايوارى سوأة الوزن !! وغدا أكثرهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء !!

كما ينبغى أن ندرك أن القصيدة الموزونة المقفاة المعاصرة ليست قصيدة واحدة ، وهؤلاء النظامون أخطر على «الشعر» من التفعيلة ، والنثر ، ولم يكن إبراهيم عيسى من هؤلاء .

«سلام علـى إبراهيم» حين نعود إلى تراثه الشعرى ، فيحيى الثقة بالكلام الموزون المقفى ، وحين نستحضر شخصه - وهو حاضر - فنعود بذخيرة من الإنسانية العذبة ، والرقة التى تنعقد جمالاً ومودة .

د.محمد عيد وداعاً !!

بقية المتقدمين من شيوخ اللغة والنحو والأدب ، يتحدر من تلك الأصلاب الكريمة ، التى وقفت على ذخائر تراثها فقهًا ودُعيًا ، حتى غدا هذا التراث ساريًا فى خلاياه دون شطط ودون ذوبان ، بل إنه فقه هذا المذخور الكريم ، مع حفاظه على نفحة شخصية ، سرت فى كل ماكتبه من كتب ومقالات .

كان المأمول أن يُنْسَأَ لَهُ فى أجله ، لكنه غُوضِرَ دون أن يفيد منه أبناء هذا الجيل، أكبر إفادة ، وإن كان قد أخذ نصيبه منه أكثر من ثلاثين سنة يدرّس ويوجه طلابه فى الدراسات العليا ، ويؤلف وكأنه كان يحس أن الرحلة - وإن طالت - قصيرة، فملأ حياته علمًا باقيًا لهذا الجيل الذى يضن بما خلفه له الأستاذ .

وكأين من علماء راسخين لايسعدهم خلق كريم ، وسلوك قويم ، لكن الراحل الكريم كان نمطًا فريدًا فى سلوكه المهذب الراقى ، طيبة قلب ، وسماحة نفس ، وكان باطنه خيرًا من ظاهره ، وكأنه كان يخشى أن يعلن دائمًا عن هذا الباطن الوثير ، فيتهم بالضعف واللين ، غير أنه كان يخفى وراء هذا الظاهر الخشن أحيانًا - فى الحق - مهادًا من العطف والودادة ، يبذلهما لمن يستحق أن يعرف هذا الباطن ، وأن يقدره حق قدره ، كان يظلمه ظاهره ، وماكنت أحسبها تلك الخلة إلا مرارة الجد الصارم والزهادة فيما سوى العلم والتوحد معه ، والرجل لايتفلت من نياطهما ـ حتى مع نفسه ـ وكانت تلك المرارة والجد يذوقها قبل غيره ، وحسبه هذا صدقًا مع النفس .

ولد محمد عيد فى كفر حجازى من أعمال المنوفية ١٩٣٢وتلقى دروسه بعد حفظه القرآن الكريم فى الأزهر ، والتحق بدار العلوم ، وتخرج فيها سنة ١٩٥٨ ، وحتى رحيله كان لايكف عن طلب المعرفة والدرس ، ينفق الليالى ذوات العدد فى المفاتشة والمراجعة ، وهو وإن تخصص فى اللغة والنحو ، فقد توسل إليهما بالأدب ذوقًا ودرسًا كان حجة فى الشعر حفظًا وتأويلاً ، أو رواية ودراية ،

ونحسب أنه لايوجد نحوى على شئ إلا وهو ضـارب بسهم فى الشعر والأدب ، تشهـد بذلك كتبه فى النحـو ، والدرس اللغوى الحديث ، وقد درس ابـن مضاء القرطبى لكنه لم يسر معه إلى نهاية الشوط ، بل استطاع محمد عيد أن يوازن بين الشطط والجمود ، فأحسن الاعتدال والاتزان ، وكان كتابه «النحو المصفى» كاسمه نمطًا من التأليف فى النحـو المتأدب ، مفيـدًا من شيوخ النحو فى العـصر الحديث كالشـاعر اللغوى على بك الجارم ، وعـباس حسن ، تلك الإفـادة التى تحسن أن تهتدى وتقتدى ، وسوف يظل كتابه مع الجارم وعباس حسن معلمًا بارزًا .

أما الصـديق محمد عـيد فكان الود منخولاً ، والنقـاء موصولاً ، عرفـته أول عهدى بدار العلوم ، فكأنى أعرفه من آن بعيـد ، خلطنى بنفسه وخلطته بنفسى ، وشقيت بمن يجـافيه ، وكنت أرى صفاءه وشموخ همـته حيث لايرون ، والرجل بطيبته لم يتصور أن فى الدنيا لؤمًا ، أو كان يتصوره ويود أن يغيره ، ولايتغير هو حيث يكون اللؤم شرفًا ، وعانى كما يعانى الشرفاء فى كل الأزمنة الكابية ، ودفع الضريبة من نفسه ، راضيًا مرضيًا .

أيها الصـديق الحبيب أبا خـالد : سلام عليك ، لقد عـانيت ، فلتهنأ الآن مع الأصفياء الأوداء ، وسلام علينا بعدك حيث يعز العزاء !!

«جرانخا الشنتمرى» المستشرق الإسبانى الراحل

من طليعة شيوخ الاستشراق فى إسبانيا ، ومن أكثرهم عكوفًا على ثقافتنا العربية الأندلسية ، تاريخًا وحضارة ، وفكرًا وأدبًا ، ومن أشدهم إخلاصًا لهذه الثقافة ، وإنصافًا لتاريخها وأهلها ، انتهت إليه رئاسة الدراسات الأندلسية بعد رحيل عواهلها الكبار : أسين بالاثيوس ، وانخل جونثالث بالنثيا ، وخوليان ريبيرا، وغريثيه غومث ، والأستاذ فرناندو دى لاجرانخا الشنتمرى . كما أحب أن ألقبه بلقبه الثانى Santa maria ، وهو تلقيب صادف أهله ، لأنه يذكر بالأعلم الشنتمرى فى تقصيه وإحاطته ، ورغبة فى ربط الخالف بالسالف . تخرج الراحل العزيز فى جامعة مدريد سنة ١٩٥٢ ، وابتعث إلى القاهرة كحال أستاذه غومث من قبله ، حيث تتلمذ على يد طه حسين وأحمد زكى باشا ، وحين عاد عمل أستاذًا للعربية وآدبها فى كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد ، وعين عضواً فى مدرسة الدراسات العربية ، ورئيسًا لتحرير مجلة الأندلس ، بعد اعتزال غومث العمل الرسمى ، وواصلت المجلة رسالتها فى عهد جرانخا أحسن مايكون التواصل والأداء ، حتى احتجبت مؤخراً عن الظهور ، على الرغم من أنها من أرقى المجلات المتخصصة على المستوى العالمى .

وللمستشرقين الإسبان وغيرهم ولع بدراسات قديمة يقفون جهدهم عليها ، وربما لايعيرها العرب كبير اهتمام ، مثل الزراعة ، والمطبخ ، حيث كانت رسالة جرانخا للدكتوراة عن المطبخ المغربى فى العصر الوسيط ، وتعد مصدراً مهمًا لهذا الفرع من الدراسة ، حيث لاتقف لدى المصطلحات المطبخية ، بل تتعداها إلى دراسة الحياة الاجتماعية لأهل المغرب ، وحضارتهم فى أبسط صورها وأعمقها فى الوقت ذاته .

ووقف الأستاذ جرانخا حياته على الأندلس ، وكأنه الراهب فى الدير ، ويمتلك من أدوات البحث والنظر مايعز على نظرائه ، فهو عميق المعرفة بالعربية،

واسع الإدراك لتاريخ الأندلس ، ولديه إنصاف وموضوعية ، عصمته من شرك التسمم الفكرى الذى يلابس بعض بنى جلدته ، ، كما أن مكتبته الخاصة من أندر ما رأينا من مكتبات فى بيوت الأساتذة ، وله فهرسته الخاصة به ، كان بإيجاز يحيا حياة عالم متجرد للبحث ، يلابس حياة الناس بقدر ، ومن ثم كان نتاجه غزيراً ، وكون جيلاً من تلاميذه الإسبان والعرب ، يحملون له أطيب الود والامتنان .

أخرج الرجل تحقيقًا علميًا دقيقًا لكتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب للقشتالى ، وألف مجموعة من الكتب فى صدارتها مقامات ورسائل أندلسية (ترجمناه إلى العربية) وهو أول كتاب عن المقامات فى الأندلس ، ووجد صداه لدى راشيل أريى المستشرقة الفرنسية ، ورجع فيه مؤلفه إلى مخطوطات لم تكن قد نشرت بعد ، وهو عارف مجيد بالمخطوطات الأندلسية ، وبخطوطها العسيرة ، وولج حقل الأدب المقارن ليثبت - بحق - تأثير العرب فى الأدب الإسبانى فى العصر الوسيط وحتى الحديث ، وترجمنا هذه الدراسات إلى العربية ، وعسير أن يستشهد مؤرخو الأدب الإسبانى بالتأثير العربى ، إلا فيما لايجدون له أصلاً ولو شاردًا فى آداب الأمم القديمة ، لكن جرانخا كان يرد بأمانة على هؤلاء الكتاب موضحًا الأثر العربى ، ويتقصاه فى مظانه المشرقية والأندلسية ، فى إحاطة مذهلة ، ولايعرف الشوق إلا من يكابده ، فربما يقرأ المرء نادرة فى الأدب العربى وينسى مصدرها حين يجدها تكاد تكون مترجمة بالحرف إلى الإسبانية ، غير أن جرانخا كان يهتدى إليها حيث فهرسته الدقيقة والمستوعبة ، وحافظته اللاقطة .

ومعلوم أن الاستشراق الإسبانى - فى مجمله - يكتب ومايتفق مع التيار السائد فى بلده ، مثل كل استشراق آخر ، ومن ثم تكون شهادة رجل مثل جرانخا للثقافة العربية لها وزنها العظيم .

ومعلوم كذلك أن المستشرقين الإسبان لايحظون بالشهرة حظوة النقاد والمبدعين الإسبان ، حيث يعيش أصحابنا فى منطقة الظل تقريبًا ، ومن يتجاوزها فإنما يتجاوزها بغير الاستشراق ، وعلى حساب العلم والتجرد له فى كثير من الأحيان، ولذا كنا نلحظ مرارة رجل مثل غومث ، مع أنه حقق شهرة عريضة فى العمل

والعلم ، لكنه كان يعتقد أنه كان يمكنه المزيد منها لو لم يكن مستشرقًا ، وكان صاحبنا جرانخا فيه هذه المرارة المالحة التى تقطر أسى من الزيف الساطى والركاكة الشائعة ، رغم أنه حقق أيضًا فى مجاله مايعجز عنه أترابه ، وكان الرجل يجد سلواه وعزاءه فى البحث ، وفى الركون إلى صاحب يفضى إليه بمكنونه ، وكان كاتب هذه السطور صاحبه فى سنوات طويلة ، وكان يلمس صدقه ، ونفاره من الكذب والتوسط .

ولا أنسى ترجماته للشعر العربى القديم ، وحساسيته للكلمة ، وتواضعه الجم حين يعود إلى أهل هذا الشعر ، سائلاً ومناقشًا ولا أنسى أيضًا نطقه للإسبانية كأنه من أهل التجويد فيها .

كانت جلساتنا مع الأستاذ الياس تيريس - المستشرق الكبير وحافظ تراث الفلامنكو الأصيل والأستاذ جرانخا زادًا ثريًا من المعرفة والفن والود الرحب ، دون مأرب أو منفعة ، غير مآرب المثل العليا ، والأريحية النبيلة ، وقد صوحت برحيلهما دوحة باسقة من العلم والفضل ، لاندرى متى يعود لها صحب وأهل .

شوقى فى الأندلس

الشاعر أدق أعصاب الأمة نسجًا، وأسرعها للمس تنبهًا، وهو يلتقط ـ أو يكاد ـ خفايا الضمائر والهواجس، وعينه عدسة لاقطة تنعكس فى صقالها ما يراه ببصيرته قبل بصره.

والرحلة إلى بلد كالأندلس، يمثل فيه التاريخ ـ تاريخنا حيّا، تتقراه بلمس، قبل أن تطالعه فى الطرس، شواهده حاضرة فى معارف الناس وسحنتهم، تتخلل وعيك أردت أو لم ترد، فى الطبيعة، والآثار، ولون بشرة الناس، وأعرافهم الاجتماعية والحياتية، مثل هذه الرحلة تهز أوتار الشاعر اليقظ.

واذا كانت الرحلة إلى الأندلس غير اختيارية، بل دفع إليها تجربة كتجربة المنفى، كان ذلك أدعى إلى أن تشحذ حس البليد الغافى، فما بالك بشاعر مصقول الإحساس والتجربة

مستطار إذا البواخر رنت　　　أول الليل، أو عوت بعد جرس

لذا كان المتلقى طامحًا، وشديد الطموح فى أن يجد أثر هذه الرحلة الأندلسية، أو المنفى إلى أحشاء التاريخ قويًا وبارزًا.

فهل صنعت هذه التجربة صنيعها الذى نتوقعه من شاعر مثل أحمد شوقى ؟

نفى شوقى إلى الأندلس، بعد أن شبت الحرب العالمية الأولى، وكلفته السلطة العسكرية فى سنة ١٩١٥ أن يغادر مصر، لما كان بينه وبين الخديوى السابق عباس الثانى من صلات وثيقة، قابل الشاعر هذا النفى بارتياح، وصار الأصدقاء يخشون لقاءه، وقد سجل شوقى هذا المعنى فى قوله :

شكرت الفلك يوم حويت رحلى　　　فيا لمفارق شكر الغرابا

فأنت أرحتنى من كل أنف　　　كأنف الميت فى النزع انتصابا

ومنظر كل خوان يرانى　　　بوجه كالبغى رمى النقابا

اتصل شوقى بالأندلس منذ أن ركب الباخرة الإسبانية من السويس واصطحب معه أسرته المكونة من عشرة أشخاص، وهو عدد ضخم بالتأكيد عوقه من الاتصال الحميم بالإسبان، إذ نقل مصر معه، وظهر تأثير هذا فى شعره وحياته.

كان بالسفينة شحنة كبيرة من الثيران، وإسبانيا تحب مصارعتها حبًا جمًا، ولعلها ورثت هذه الهواية القاسية من أيام العرب فى غرناطة بنى نصر، وهى رواية لا تجد أدلة تاريخية تؤازرها، لكن عاصفة هوجاء هبت فما كان من قائد السفينة إلا أن ألقى جميع الثيران، رغم توسلات شوقى، كانت الثيران تحاول العوم، فإذا كلت أسلمت نفسها للقضاء، وهى تصيح صياحًا مؤلمًا.. منظر فظيع، يتكرر نظيره كل يوم فى حلبات المصارعة والإسبان فى غاية من الحماسة والابتهاج، وأذكر أن أستاذنا أبا فهر محمود محمد شاكر ــ وهو فى رحلته إلى الأندلس ــ لم يقبل أن يرى هذه المصارعة، وشاطره كاتب هذه السطور، فما طاوعته نفسه أن يذهب إلى الحلبة، ولا أن يشاهد مصارعة كاملة فى الشاشة الصغيرة !!

وصل شوقى إلى برشلونة، وهى من أجمل المدن الإسبانية وكانت أجمل من مدريد آنذاك، كالإسكندرية فى الأيام الخوالى، وأقام هو وقبيلته «أسرته ومربية تركية، وخادمان، وطاه» فى أحد الفنادق عدة أسابيع، واستطاع صديقى وأستاذى الدكتور الطاهر مكى أن يعرف هذا الفندق، وأن يذهب إليه، محاولاً أن يرى اسم شوقى فى سجلاته القديمة، ولم تجد محاولاته شيئًا.

لكن الشاعر ما عتم أن بحث عن منزل استأجره، نظرًا لتكاليف الإقامة الفندقية، وتأخر النقود أحيانا بسبب الحرب، وكان يصله كل شهر مبلغ ٢٠٠ جنيه مصرى، وهو مبلغ ضخم جدا بكل المقاييس، وكان المنزل الذى يسكنه كبيرًا، وبه حديقة، وكنيسة صغيرة، وهو على شرف من الأرض يطل على البحر المتوسط، أتاح لشوقى أن يرى منظر السفن رائحة غادية «كلما ثرن شاعهن بنقس».

عاش شوقى فى الأندلس يتنفس هواء مصريًا، أو عربيًا، لم يباشر الحياة الإسبانية إلا من الخارج، وأغلب صحبه هنالك مصريون، أو أجانب، حاول تعلم الإسبانية، لكن ظلت معرفته بها سطحية، ونطقه لها مضحكًا حسب ما يرويه ابنه حسين، وبرشلونه ليس فيها شىء من آثار العهد الإسلامى، لأن العرب لم يطل

مكثهم فيها، حاشا وقائع كان يقوم بها المنصور ابن عامر، لكن شوقى رأى فيها من المناظر الساحرة ما ينطق غير اللسن، ومازالت برشلونه، ومنطقة قطلوينه بوجه عام من أجمل بلاد اللّه : البحر، والمطر، والبرد، والخضرة الدائمة والجبال الباذخة، وقد اختارها شوقى مقرًا للمنفى، وحسب رجل منفى أن يختار منفاه، أى تدليل هذا !!

لم ينغص على شوقى حياته الإسبانية إلا فراقه لأمه المريضة، وكانت فى حلوان:

كنز بحلوان عند اللّه نطلبه	**خير الودائع من خير المؤدينا**
لو غاب عزيز عنه غيبتنا	**لم يأته الشوق إلا من نواحينا**
إذا حملنا لمصر أوله شجنا	**لم ندر أى هوى الأمين شاجينا**

عقدت الهدنة فى سنة ١٩١٨، ولم يسمح للشاعر بالعودة إلى مصر إلا فى أواخر ١٩١٩. واستطاع شوقى أن يتجول فى إسبانيا كما يشاء بعد انتظام الموارد المالية فزار جزر البليار، ومدريد والأسكوريال، وزار مدن الأندلس فى الجنوب، وأهمها قرطبة وغرناطه وأشبيليه، وكانت له وقفات فنية وتاريخية فى هذه المدن بصورة خاصة، وإن كانت دقيقة وفقة برانية لا جوانية.

يقول شوقى عن رحلته إلى فرنسا لطلب العلم «ثم وصلت إلى باريس، وفيها وجدت نور السبيل من أول يوم».

هذه العبارة توضح إلى حد بعيد تعامل شوقى مع الرحلة ومع الحياة بصفة عامة؛ إذ كيف يستطيع أن يرى نور السبيل من أول يوم وطئت قدماه باريس، إلا إذا بهرته الأضواء الحسية التى تخطف النظر من أول لحظة.

وموقفه من باريس هو موقفه من الأندلس مع بعض الفوارق اليسيرة، لأنه ذهب إلى الأندلس وفى جعبته كثير من ثقافته ومعارفه عن الأندلس وشعره، إنه شاعر ناضج الشاعرية، ممتلىء النفس بابن زيدون، والبحترى، وغيرهما، فلا عجب إذا وجد أمامه «نمطًا جاهزًا» لينسج على منواله، وليعيش فى التاريخ أكثر مما يعيش فى الواقع.

ولعل المسئول عن هذه الرؤية هو الترف المصقول الذى عاشه شوقى فى مصر وفى المنفى، وللنفى مرارة مالحة تجد طعمها فى شعر الشعراء المنفيين الملتاعين، أما نفى شوقى فكان رحلة أقصته فترة عن جوه، وعن معارفه، وعن المعجبين به من رواد المجامع وأحلاس الزحام، لم تكن لنفيه تلك اللوعة الحارقة التى يجدها المرء مع شاعر إسبانى كبير، كان يملأ الدنيا أيام وجود شوقى فى الأندلس هو ميجيل دى أونامونو، الذى نفته السلطات الإسبانية لموقفه الحر البطولى، وتجد ثمرات هذا النفى فى دواوين كاملة تقيد هذه التجربة يومًا يوما، وقد هرب إلى باريس من منفاه لكن هذا الهرب قد أوهن جلده بعد الستين، سأله بلاسكو إبانييت الكاتب البلنسى المشهور : ما الذى يمكن أن يشتاق إليه المرء وهو فى باريس ؟ فأجابه أونامونو مهتاجًا طين الوطن !! لكن هذا المنفى، وتلك العذابات التى تركت أخاديد فى نفسه لم تجعله يكل أو يستسلم، بل ظل محاربًا فى ضراوة إلى آخر لحظات حياته، يثير القلق، ويهز راكد النفوس بهراوته الغليظة، وكذلك الشاعر رفاييل ألبرتى، وميجيل إناندث لهما تجربة عميقة فى المنفى وفى السجن.

لكن هؤلاء الشعراء من معدن آخر غير معدن شوقى، ومن الغبن للشاعر المصرى أن نطالبه بأن يكون على غير ما أشرج عليه من الوداعه المطمئنة، والترف المصقول، إن هذا الطراز من الشعراء الإسبان قريب الشبه بطراز العقاد وطه حسين وإخوان هذا الطراز المناجز المتحدى.

كتب شوقى شعرًا عن الأندلس ككل شعره معارضًا سينية البحترى، ومتتبعا خطاه وإن كان البحترى ــ وهو عربى ــ وقف على إيون كسرى، وشوقى ــ وهو العربى المسلم ــ وقف على أطلال الأندلس العربية المسلمة، ومع هذا كان شوقى متعثرًا بجانب البحترى، حتى فى المعانى التى حاول أن يجىء بمثلها.

وعلى الجمعة الجلالة، والنا   صر نور الخميس تحت الدرفس

ويقول البحترى فى نفس المعنى :

والمنايا موائل، وأنو شروان   يزجى الصفوف تحت الدرفس

ومعنى البحتـرى يتمشى مع سياقه بخـلاف شوقى، وعارض نونية ابن زيدون، وهو شاعر قريب الشبه بشوقى فى شخصـه، وفى فصاحته، ولذلك كان قريبًا منه فى المعنى والصياغة.

وعارض موشحة، ابن سهل الإسرائيلى، وهى معـارضة من شعراء كثيرين قبل شوقى، أهمهم ابن الخطيب، يقول شوقى :

من لنضـــــو يتنزى ألمـــا　　　برح الشوق به فى الغلس

وكتب أرجوزته المطولة «دول العرب وعظماء الإسلام»، وفيها استعراض طويل للتاريخ العربى، وتاريخ الأندلس الـعربية، وإن كنت أرى فيها نظمًـا ليس فيه من الشـعر إلا الوزن والقـافـية، وهى من نوع النـظم التعليـمى الذى كـتب منه أبان عبدالحميد اللاحقى، وابن مالك، وآخرون كثيرون فى نظم العلوم.

رجع شوقى إلى مصر سنة ١٩١٩ بعد خمس سنوات تقـريبًا فى إسبانيا، كانت كفيلة أن يكون تأثيرها أكبر فى شاعر له مكانة شوقى، لكنه كان غير مفتوح نوافذ النفس لمثل هذا التـأثر الذى يمكن أن تمنحـه بلد مثل إسـبانيـا، وأن تمنحه تجـربة النفى، لكن المنفى كمـا قلنا آنفا لم يكن سوى رحلة متـرفة لشاعر الأميـر، وأمير الشعراء .!!

لم أقصـد بطبيعة الحـال أن أكتب تحليلاً مـسهبًـا عن شوقى فى الأندلس، بل قصدت أن أسـجل بعض انطباعات أوحتـها إلىَّ قراءة شوقى فى أندلـسياته، وأن أشرك قراء «القاهرة» الغراء معى فى مـوضوع له صلة بالأندلس «الفردوس المفقود» الذى أحمله بين جـوانحى، قبل أن أذهب إليـه دارسًا مدة سـبع سنوات ونصف، كنت أتذكـر فيـها شـوقى وشعـره، ولعل لهذا حـديثًا آخـر هو حديث الـدراسة والمقارنة.

الصاهل والشاحج وكلام فى الوزن

نمط من كلام أبى العلاء، غفل عنه جمهرة الناس، ولوفاءوا إليه ـ خاصة الآن ـ لعصمهم من أضاليل الفوضى، التى تتغشاهم فى قضايا الأوزان والعروض عامة.
وكلام أبى العلاء أيضًا ضرب من أدب الجدال والمناظرة وهو رجل قوى العارضة أَلْحَنُ بحجته من كثيرين يطحنون قرونا، لأنه لا يذكر هذا الضرب إلا وذكر أبو العلاء فى الصدارة، يأخذ الصاهل بضبُع الشاحج، يلبسه قميص الكتاف، وإن تمارى.

الصاهل هو الفرس، والشاحج فى أضبط الأقوال هو البغل، يدعى خئولة ـ وهى واردة صحيحة ـ لكنها مثل خئولة «تغلب» التى ارتأى الشاعر أن الزنج أكرم منها، يقص المعرى حوارًا فكريًا ولغويًا لا يحسنه غيره، لسعة محصوله، وثقوب جنانه.

ونود هنا ـ فى وجازة ـ أن نعرض طرائف الشاحج فى ادعائه القدرة على النظم، حيث هو أسرع ألى الحفظ من المرسل، ويستظهر أبو العلاء أن بناء البيت لا يتحقق إلا بالوزن، وأن التفعيلة ـ مفردة ـ لا تؤدى هذا الوزن، وإن أدت إيقاعًا، مفرقًا تفرقة حاسمة بين الإيقاع الذى يتحقق بالأصوات على نسق ما، حتى من الطيور ـ الغراب والعصفور ـ ومن الحيوان، وبين الوزن المتحقق بالقول الإنسانى فى النظم، على نمط بيت الشَّعْر ـ السكنى ـ وأعمدته التى تساوق أبنية الأوزان الشعرية

والحسن يظهر فى شيئين رونقه   بيت من الشعر أو بيت من الشَّعَر

ويرى المعرى على لسان الصاهل موضحًا غرارة الشاحج وغروره، أن صوت الأخير حمحمة وشحيج وكلاهما لا مسلك له فى الموزونات، لأن الكلمة إذا اجتمع فيها ساكنان يتوسطانها لم يمكن أن تنظم فى حشو البيت العربى إلا فى

موضـوع واحد وهو شاذ مـرفوض، ويمضى أبو العـلاء ــ فى حسم ــ فيـقول : وكذلك أكثر أصوات الحيوان لا تعتدل، ولا يمكن دخولها فى المنظوم، لأنها تقطع الأجراس أو تمد فـيكون كالذى جمع بين سـاكنين أو أكثر، ألا ترى أن العصـفور أقصر أصواته إذا حكى حرف متحـرك بعده ساكن، والغراب إذا حكوا صوته قالوا غاقْ، وهو متحـرك بعده ساكنان أو ساكنان بين متحركين بكسـر القاف، كما يرى ــ وهو البصير فى أزمنة عمـياء ــ أن أعمدة البيوت مساوقة لأبيـات الشعر فأولها الطويل ــ تتتـابع إلى المنهوك والأرجاز، وربما نتفق معـه فى هذا أو تختلف، لكن الخلاف عسير لأن «الخيل» ربط بين البيوت والأبيات.

فيـما يتعلق بالأرجاز، جـعل لأصحابها جنة مـتواضعة حـيث قصروا فقـصر معهم، لكنهم كانوا ضابطين للمصطلح (الرجز والقريض)،وفى الرجز واشجة بينه وبين النثـر، ولذا صلح لنظم العلـوم، وهى قدرة وفـذاذة فى النظام العـروضى العربى، لا ينبغى التهوين من شأنها.

كما أن الحركة يعقبهـا سكون عند الشاحج والغراب والعصفور، تشى بأننا أمام وزن يكاد يكون غير إنسانى هو «الخبب» أو «الأميبا» الذى يتغشى زماننا فى الشعر الحر هو والرجز، ولا يكاد يخرج عنهمـا إلا فى الندرة، ولذا يستأهل هذا الضرب من الكلام اسمًا آخر غير الشعر.

وغير بعيـد، بل قريب جدًا كلام المعرى عن الإيقاع، ودعـوى الشاحج إحسانه له، عن كـلام أهل زمننا عن الكلام «المسكون بالإيقـاع» فيـما يسـمى ــ غلطًا ــ «قصيدة النثـر»، وهى دعوى مثل دعوى الشاحج ــ البغل ــ خـئولة فى الصاهلة، وإن كان المعـرى يجعل كلامـهم يخر على القواعـد، إذا كان هذا كلامًـا وكان له قواعد أصلاً !!

ولا يتردد أبو العـلاء من بسط المسائل، كـأنه كان يدرى أنه يخـاطب القرون، وخاصة أهل زماننا، فيذكر ساخرًا. ضاحكًا من تزاحم الأضداد : الشعر ــ النثرــ الوزن ــ الإيقاع، الشعر العمودى !! الشعر الحر !! . حيث يرى أن للشعر شرائط تدركها الغريزة، فما وافقها فهو شعر، وما دابرها فكلام آبق عن الغريزة، فليبحث له عن اسم آخر، وهل أفاد الإبل والخيل أن تصحب الشعراء الفرسان، تهتز للوزن

ـ وهو إيقاع وزيادة، والزيادة حتم واجب معلومة من الفن الشعرى بالضرورة ـ ومع ذلك لم يعرف لها نظم، لأنها لم تخلق له، ترى هل تتخلى ألسنة النثر «المسكون بالإيقاع» أو بالعفاريت عن دعاواها العريضة ؟ وأن يعتصم أهل الشعر الحر بقواعد الوزن ـ لا التفعيلة ـ أو يبحثوا لهم عن اسم آخر؛ لأنهم الفاتحون باب الإيقاع المضروب، وسلام للشاحج من أهل زماننا المعطوب.